مكتبة

سامي هرمز سيرين صوالحة

أخي وأرضي

حكاية من فلسطين

ترجمة
إيمان أسعد

مراجعة وتدقيق
شهد دعباس

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

أخي وأرضي

حكاية من فلسطين

الكاتب: **سامي هرمز وسيرين صوالحة**

عنوان الكتاب: **أخي وأرضي: حكاية من فلسطين**

ترجمة: **إيمان أسعد**

مراجعة وتدقيق: **شهد دعباس**

العنوان باللغة الأصلية: My Brother, My Land: A Story Form Palestine

الكاتب: Sami Hermez with Sireen Sawalha

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-808-79-7

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2025

1000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

My Brother My Land: A Story from Palestine by Sami Hermez with Sireen Sawalha published in English by Stanford University Press. Copyright © 2024 by the Board of Trustees of the Leland Stanford Jr. University. All rights received. This translation is published by arrangement with Stanford University Press, www.sup.org

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com

takweenkw

takween_publishing

TakweenPH

www.takweenkw.com

سامي هرمز سيرين صوالحة

مكتبة
t.me/soramnqraa

أخي وأرضي

حكاية من فلسطين

ترجمة: **إيمان أسعد**

مراجعة وتدقيق: **شهد دعباس**

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

المحتويات

كلمة المترجمة 11

مقدمة المؤلفيْن 21

توطئة 29

الجزء الأول: إمّي رح تِلَد 41

الجزء الثاني: مشان الله ما تنسيني 137

الجزء الثالث: وعدًا وعهدًا 265

الجزء الرابع: امْسِك فيَّ 409

العودة 445

شكر وامتنان 459

إلى ديالا وعليا وسمير

وإلى

باسل وزيد وسلمى

«الحب دافعنا لا الكراهية... ولهذا سننتصر».

فدائي فلسطيني من الوثائقي

«خارج الإطار: ثورة حتى النصر»

كلمة المترجمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

أكتب لك اللحظة من على طاولة في الزاوية اليمنى من مقهى «فن وشاي» في عمّان، في جبل اللويبدة. على هذه الطاولة بدأت لقاءاتي بسيرين صوالحة لأجل العمل على ترجمة الكتاب من خلال تسجيل سرديتها على جهاز التسجيل.

لقاؤنا الأول في عمّان كان في العشرين من تموز 2024، أي قبل أحد عشر شهرًا.

خلال الأسابيع الثلاثة التي قضيناها معًا، ظلت هذه الزاوية زاويتنا، وبات من عادة سيرين التقاط صورة لنا بعدما ننتهي من عملنا لليوم. بعدها، ختمنا هذا العمل بجلسة قراءة، في فن وشاي، دعت فيه سيرين معارفها وأصدقاءها في عمّان لمشاركتها فرحة إصدار الكتاب باللغة الإنجليزية. المقهى، على خلاف طبيعته الصباحية الهادئة، ازدحم بالناس. الكل جالس على الطاولات، شبابًا وكبارًا وكبار سن، ينصت مذهولًا إلى حكاية سيرين عن أخيها وأرضها وحكايتها عن فلسطين، بلهجتها الفلسطينية المميزة.

هذه الذكرى لم تفارقني.

في الواقع، هذه الذكرى، وذكرى كل اللقاءات التي جمعتنا، ظلت تلاحقني طيلة عملي على ترجمة الكتاب.

ثمة شيء يجب أن تعرفه عن سيرين، وأظنك ستعرفه من لقائك الأول بها، مثلما عرفته أنا وسامي هرمز. ستأسرك سيرين من اللحظة الأولى، بطاقتها المتوهجة وألوان ملابسها المبهجة وجمالها الطبيعي الفاتن وروحها الحلوة.

كذلك، هي حكَّاءة مذهلة.

غير أنَّ الحكايا ليست مجرد حكايا، هي سردية الذاكرة الحيَّة الصامدة في وجه الامّحاء، سرديَّة تبحث عمَّن ينقذها من الضياع للأبد. أنت على طاولة المقهى، لكنك اللحظة معها في دار صوالحة في كفر راعي، أو في الأرض بين أشجار الجرانق والزيتون، أو في شقة بروكلين أو بيت برينستون، أو في زيارة إلى أخيها الأسير في سجن عسقلان. وفي كل تلك الأماكن، سيساورك الشعور أنَّ الذكرى التي تسردها عليك لا يزيد عمرها عن ساعات؛ الغصَّة في صوتها كأنها الجرح للتو فُتِق.

وأعرف يقينًا أنّي ما كنت لأتّخذ قرار ترجمة سردية سيرين في الكتاب باللهجة الفلسطينية لو أنّي لم ألتقِ بها يومًا.

ثمة أشكال سردية مختلفة كان لهذا الكتاب السيريّ أن ينتهجها، ولي أن أقول إنَّ الشكل الذي اختاره سامي هرمز قد جسَّد الغاية من هذا الكتاب على أفضل وجه. ينتهج الكتاب أسلوب دمج صوتين سرديَّين

دون الفصل بينهما؛ في الصفحة الواحدة قد تتنقل ما بين صوت سامي وصوت سيرين. والتناسب ما بين الحيِّزيْن على الورقة لا يمشي على وتيرة واحدة. في فصول قد تجد صوت سيرين يأخذ الحيز الأكبر، وفي فصول يأخذ صوت سامي الحيز الأكبر، لكن ما إن تبلغ نهاية الكتاب ستجد أنَّ التناغم ما بين الصوتين قد تحقَّق بمنتهى الدقّة.

صوت سامي هو صوت الباحث الأكاديمي الموثِّق، والشاهد الصديق، صوتٌ متّزن يعبِّر عن فكره وانطباعاته ومشاعره بلغةٍ أدبية جَزْلة. صوت سيرين هو صوت الذاكرة، صوت البيت والأرض، صوت الصدمة وما بعدها، الصدمة الشخصية وصدمة الأجيال الفلسطينية الجماعية التي ورثها الأبناء عن آبائهم وأمهاتهم، والأبناء أورثوها الأحفاد؛ صوتٌ موجوع، عاطفيّ، جارف، لا يبحث عن قناعٍ أدبي استعاريّ يستتر خلفه لكي يسبغ المعنى على ما عاشه، ولا يحتاج إلى البحث عن دليلٍ على وحشية الاحتلال وبشاعته.

هذا التمايز ما بين الصوتين كان لا بدَّ من «استرداده» في الترجمة إلى العربية.

في الكتاب الأصلي، باللغة الإنجليزية، يميّز الكتاب ما بين الصوتين من خلال تغيير نوع الخط، فهل ستفي الترجمة العربية بدورها إن اكتفت بهذا التمييز؟

يقينًا لا.

لكن هذا اليقين لم أصل إليه من بداية عملي في ترجمة الكتاب، بل وصلت إليه بعد 300 صفحة، تحديدًا لدى ترجمتي السطر الأخير.

لم يكن كافيًا تطعيم سردية سيرين بكلمة فلسطينية هنا وهناك من باب الإيهام، وإيعاز القارئ العربي إلى أن يُعمِل مخيلته ويتصوَّر سيرين تتكلم بلهجتها الفلسطينية. كان لا بدَّ من نزع قناع الفصحى وما تسبغه من جماليات أدبية، وإعطاء سيرين تمامًا ما أرادته من هذا الكتاب قبل ما يزيد عن عشرين عامًا: أن يسمع الناس صوتها.

لذا، أعدت العمل على ترجمة سرديتها من جديد.

بعدها، شاركت الناشر والصديق العزيز محمد العتابي هذا القرار، والحمدلله لم تتحقق أسوأ مخاوفي. رحَّب العتّابي بهذا التوجُّه، لكن حرص على مشاركتي قلقه: أولًا، قد نواجه الاستهجان للكتابة باللغة العامية (حتى إن كانت كتابة جزئية). وثانيًا، لا بد من مراجعة اللهجة. بطبيعة الحال، شاركته أنا أيضًا قلقه الثاني لأني لا أتقن اللهجة الفلسطينية، واعتمدت على كتابتها بالمزج ما بين اللهجة الفلسطينية التي أعرفها من ذاكرتي مع صديقات المدرسة ومعلماتنا الفاضلات في الكويت وما بين الاستماع إلى تسجيلاتي مع سيرين. وللعلم، التسجيلات غطَّت فقط الجزء الأول من الكتاب، إذ لم أرغب بمعرفة الحكاية كلها قبل الترجمة.

هنا كبر فريق العمل على ترجمة الكتاب بانضمام المترجمة الفلسطينية شهد دعباس. كنت دومًا أسمع عن امتعاض المترجمين من دخول مترجم آخر على الخط في مرحلة المراجعة؛ لكن دعني أقل لك، شهد دعباس أسهمت مساهمة قيِّمة للغاية في إيصال العمل إلى صورته المثلى، لا سيّما في تصحيح سرديَّة سيرين وإضافة الهوامش المساعدة للقارئ. وإلى جانب تمتّعها بشخصية رائعة واحترافٍ عالٍ، فهي تمتلك علمًا

لغويًّا مذهلًا، كرَّست -ولا تزال- علمها وجهدها في توثيق اللهجات الفلسطينية. في أثناء مرحلة المراجعة، جمعتنا نقاشات مثرية في مجموعة الواتساب ما بيننا نحن الثلاثة (أنا وشهد ومحمد العتابي)، وهذا النقاش المثري والممتع امتد إلى جلسات المراجعة على زوم مع سيرين وشهد. بعدها انضمَّ سامي من خلال مجموعة واتساب مشتركة بيني وبين سيرين، وأرفق ملاحظاته القيّمة على المسوَّدة وناقشناها.

إلى جانب العمل على تدقيق اللهجة الفلسطينية، برز في مرحلة المراجعة تحدٍّ آخر: بعد قراءة سيرين المسوّدة العربية، ومشاركتها إياها مع أفراد من عائلتها، تبيَّن وجود تفاصيل صغيرة محدودة (لا أثر لها في سير القصة) مختلفة في ذاكرة العائلة عمَّا هو مكتوب في النص الإنجليزي. هذه التفاصيل صححناها في الترجمة العربية وسيجري تعديلها في الطبعة الإنجليزية القادمة. كذلك أعدنا صياغة عدد محدود من الجمل، لا يزيد عن ثلاثة أو أربعة، بما يتناسب مع حساسية الحديث عن العائلة ولا تغيّر شيئًا في مسار القصة وأحداثها.

في النهاية، هذه الترجمة بالذات ما كانت لتتحقق، على هذا المدى من الوقت والجهد، لولا والدتي العزيزة التي ما فتئت تطلب مني كل يوم، على مدار العام، ألَّا أخذل سيرين، وأن أحرص تمام الحرص على ترجمة حكاياتها.

إيمان أسعد

طاولة فن وشاي/ عمَّان

10 حزيران 2025

أكثر الأسئلة التي تتبادر إلى أذهان المتحدثين باللغة العربية أو متعلميها هو: هل انبثقت اللهجات العربية من اللغة العربية الفصحى، أم أن ثمّة تفسيرًا آخر لنشأتها؟

لقد تواترت الآراء العلمية في هذا السياق، إلا أنني أميل إلى تبنّي رأي البروفيسور الكبير كلايف هولز، أحد الآباء المؤسسين لعلم لهجات العربية، وصاحب إسهامات مرموقة في هذا المجال، الذي يرى أن اللهجات لم تتفرع من الفصحى، بل وُجدَت بالتزامن معها. ويُعزى شيوع الاعتقاد بأن اللهجات العربية انبثقت من الفصحى إلى الارتباط العاطفي والروحي الذي يكنُّه الناطقون بالعربية للقرآن الكريم، وما أرساه ورسَّخه هذا الارتباط من تصوُّر يعتبر أن ما سوى الفصحى ليسَ إلا انحرافًا عنها أو تشويهًا لها. ويمتلك البروفيسور هولز، كما غيره من العلماء، عددًا من الحجج العلمية الدامغة التي لا يتسع المقام هنا لعرضها. غير أن من أبرز الإشكالات التي يثيرها، ويؤيده فيها كثير من الباحثين، غياب النصوص المدونة باللهجات العامية في المراحل المبكرة، مما أسهم في تكريس هذا الفهم الخاطئ عن العلاقة بين الفصحى واللهجات.

ولعل هذا الغياب بعينه يُعَدُّ من أكبر التحديات التي يواجهها المعجميون والباحثون في اللغويات الحاسوبية، ممن يطمحون ويسعون جاهدين إلى توثيق أكبر عدد ممكن من اللهجات العربية وحفظها من الضياع والاندثار.

حين تفضَّل الأستاذ محمد العتابي، مشكورًا، بإسناد تحرير وتدقيق ترجمة هذا الكتاب لي، ولا سيّما الطريقة التي كُتبت بها سردية سيرين، انتابني شعور مركَّب تمتزج فيه رهبة المسؤولية بعظمة القيمة المعرفية والثقافية لهذا العمل، وذلك لأسباب عدَّة. أولًا، لأن الرواية تجسِّد الواقع الفلسطيني المؤلم في كل بقاع الشتات، وتكشف حجم المعاناة التي يكابدها الفلسطيني تحت براثن الاحتلال على مختلف الأصعدة. إنّ سرد سيرين لقصّتها، ليس سوى تجلٍّ شخصيٍّ لوجع عائلة فلسطينية ممتدة، بدأ مع النكبة، وما زال مستمرًّا حتى اليوم. وثانيًا، من منظور لغوي، وبوصفي باحثةً مهتمةً بدراسة اللهجات وتوثيقها، ومن خلال عملي على قاموس «مكنونة» المحوسب لتوثيق اللهجات الفلسطينية، وهو مشروع استغرق أكثر من ثمانية أعوام من الجهد المضني تحت إشراف البروفيسور نزار حبش، أجد في ترجمة هذا العمل تجسيدًا حيًّا للإرث الثقافي واللغوي والهوية الفلسطينية.

فهذا بالضبط ما قصده علماء اللغة حين شددوا على أهمية وجود نصوص مكتوبة (مُدوَّنة) باللهجات المحكية، لتخلَّد في ذاكرة ووعي الأجيال القادمة، وتحفظ القصة التي روتها سيرين، واللهجة التي تنطق بها والتي عانت هي الأخرى ما عانته من هذا الشتات الذي لا ينفك

إلا أن يمزق هوية الفلسطيني ويسحقها. ولا يفوتني هنا أن أنوِّه بالجهد العظيم الذي بذلته المترجمة الأستاذة إيمان أسعد، وبما أثمر عنه هذا العمل من نتاج علميٍّ غني، إلى جانب احترامي العميق لدار «تكوين» التي احتضنت هذا المشروع وأخرجته بهذه الحلة البديعة.

غير أن ثمّة نقاطًا لغوية لا بد من توضيحها. خلافًا لما هو متَّبع لدى كثير من اللغويين الحاسوبيين كالبروفيسور نزار حبش، والبروفيسورة منى دياب، والبروفيسور أوين رامبو، الذين طوروا نظام الكتابة الموحدة للهجات العربية المعروف بـ(CODA: Conventional Orthography for Dialectal Arabic)، والذي يهدف إلى توحيد الكتابة باللهجات لتقريبها من الفصحى، وتفريق الكلمات بعضها عن بعض بناءً على تمثيلها الصوتي (سواء عبر نظام IPA أو CAPHI)، فقد ارتأينا في هذا العمل عدم الالتزام الصارم بنظام «كودا»، وفضَّلنا كتابة الكلمات كما تنطقها سيرين، مثل: «تلاتة» بدل «ثلاثة»، و«كتير» بدل «كثير»، و«مزبوط» بدل «مضبوط»، مع إضافة هوامش توضح الكلمات والعبارات الشائعة في شمال الضفة الغربية. وقد جاء هذا الخيار انطلاقًا من رغبتنا في نقل صوت سيرين كما هو، ولتيسير القراءة على غير المتخصصين في علم الأصوات أو علم اللغويات.

ولعل من أبرز ما يميز سردية سيرين هو ما تحمله من بصمة صوتية وهوية لغوية هجينة، تجسِّد حال فلسطينية اضطُرَّت للعيش في المنفى بفعل الاحتلال والظروف القاهرة. ولهذا، امتزجت لهجتها المحكية بلهجات عربية أخرى في محيطها الجديد. وهذا ما يعرف في علم اللغة

بظاهرتي: «الاختلاف» (Divergence) عن لهجة العائلة والبيئة الأصلية، و«التقارب» (Convergence) مع لهجات الجماعات الجديدة التي تفاعلت معها. وهذا التغيُّر غير الواعي في اللغة ليس سوى إحدى نتائج الاحتلال الذي لم يكتفِ بسرقة الأرض، بل سعى أيضًا إلى طمس الهوية حتى في لغتها.

ولذلك، حرصنا من خلال هذا العمل على الحفاظ على السرد كما هو، بصوت سيرين، وبما تحمله من لهجة تمثِّل هويتها المهجَّرة، وتشكِّل برأيي شاهدًا لغويًّا على جريمة الاحتلال في تآكله المستمر للهوية الفلسطينية، حتى في تفاصيلها اللغوية.

شهد دعباس

طولكرم، فلسطين

13 أيار 2025

مقدمة المؤلفيْن

هذه قصةٌ حقيقية. كنت شابًّا يافعًا وطالبًا مشدود الأعصاب في جامعة برينستون حين بدأتُ العمل عليها، حين التقيتُ سيرين للمرة الأولى وبدأتْ تسرد عليَّ القصص. وعلى مرّ الطريق إلى كتابتها تشتَّت انتباهي: أنهيتُ رسالة الدكتوراة، وألَّفتُ كتابًا آخر مختلفًا، وأسستُ عائلة. مع ذلك، ورغم أنَّ زمن إنجازي هذا المشروع طال للغاية، وتضاءل الوقت الذي بوسعي منحه إياه، إلا أنَّ عزيمتي على إنهائه لم تهن للحظة.

على مر السنين، واصلت سيرين سرد قصص من فلسطين. في البداية كانت مدفوعةً برغبتها إلى إظهار مدى التشابك بين عائلتها والانتفاضة الثانية، ومدى تأثرها بالأحداث السياسية في تلك الفترة حيث التقينا للمرة الأولى. لكني دومًا استشعرتُ توترًا بين هذا الدافع وبين رغبتها في سرد قصة حياتها هي، قصة عائلتها، قصة انضمام أخيها إلى المقاومة ودوره فيها، وكيف هي حقيقة الأوضاع في فلسطين. هذا التوتر حاولتُ الحفاظ عليه لدى كتابتي هذه القصة.

محاولة الوصل بين قصص عديدة حدثت على مر عقود لكي أكتب سرديةً واحدة متماسكة، ما كانت أبدًا بالأمر الهيِّن عليَّ. فقد أثقل كاهلي هوسي غير الصحي بدقة المعلومات وصحّتها، كما أثقلني حرصي الشديد على أن السردية التي أجمعها هي بالفعل السردية التي تريد سيرين أن ترويها للعالم.

لكن سيرين هوَّنت عليَّ هذه العملية. قصصها وكلماتها وعزيمتها الراسخة، شغفها في سرد حكاية فلسطين من خلال المحن التي مرَّت بها عائلتها، أمدَّتني بالإلهام لمواصلة الكتابة. وبينما تروي عليَّ سيرين القصص، فيما المسجِّل الرقمي يلتقط صوتينا، وجدتُ مشاعري تتشابك مع حياة سيرين، ماضيها يُنسَج في حاضري كلما قضيت معها وقتًا أطول - أسجِّل أحاديثنا، ألتقي عائلتها وأصدقاءها، نلتقي كي نحتسي فنجان قهوة في مدن عديدة، وأشاهد أطفالها يكبرون أمام عينيَّ.

ليس بوسعي إحصاء عدد المرات التي التقينا فيها، واللقاءات الاجتماعية والعائلية التي تشاركناها على مر السنين، ومئات المكالمات الهاتفية بيننا. القصة التي اجتمعت أجزاؤها خلال هذه العملية هي عن حياة عائلة سيرين مثلما رأتها بعينيها، وأحيانًا بكلماتها هي، لكن على الأغلب بكلماتي أنا. ما ستقرؤه في هذا الكتاب راجعته سيرين ونال موافقتها على مراحل عدّة في هذه العملية، من المسوّدات الأولى إلى التدقيق النهائي. كلماتها، كما هي ظاهرة هنا، مخلصة لكلماتها المنطوقة قدر المستطاع، إذ أخذتُ هامشًا من الحرية في الترجمة والتحرير لأجل الحفاظ على مقروئية النص. منحتني سيرين الإذن بالسرد من منطلق

ذكرياتها على أمل جذب القارئ للاستغراق في تجربة عائلتها من جهة، ومنحه سردية صحيحة تحافظ على صوتها في سردها المحكيّ. ولكي أحافظ على صوت سيرين، فقد ميَّزتُ بين صوتها وصوت السارد بتنسيق خط مختلف[1].

أتاح لي السرد الكتابة بتخمينٍ مدروس عن أحداث لم يشهدها أحدٌ منا، وبذا لم نعرف تمامًا كيف وقعت - تحديدًا الأحداث ذات العلاقة بتجارب السجن والعمليات السرية واللحظات المحاطة بالكتمان. وفي كل تلك الحالات، جاء التخمين مدروسًا ومدعومًا بالبحث، مع إبقاء أعيننا دومًا على تحرّي الدقة والحقيقة. لكل تلك الأسباب، قررنا أنا وسيرين توقيع الكتاب باسمينا. كما سترى بنفسك، سترافقني أنت في هذا الكتاب بينما أنتقي الأحداث وأعيد خلقها وسردها ضمن القصة الأكبر لفلسطين، كل ذلك مع سيرين.

على مدار عملي على جمع قصة سيرين، فيما المسوّدات ما تنفك تتناقل بيننا جيئةً وذهابًا لأتأكد من إخلاص سرديتي لقصَّتها، وفي لقاءاتنا العابرة للاطمئنان على بعضنا والتواجد في رفقة الآخر، تشكَّلت بيننا صداقة، نمت بعدها إلى علاقة أخوّة. «أنت زي ابني»، ستقول لي في عدة مناسبات، وسأزورها أنا كما لو أني أزور أختي الكبيرة. وفيما تطوَّرت علاقتنا، تحوَّل هذا الكتاب إلى أكثر من مجرد تعاون، أصبح حياةً منسوجة بعضها ببعض - قصة جمعيَّة قلبها الاستعمار الاستيطاني رأسًا

---

(1) في الترجمة العربية بين يديك، يتحقق التمييز بين صوت السارد وصوت سيرين بكتابة الصوت السارد بالعربية الفصحى وكتابة صوت سيرين باللهجة الفلسطينية.

على عقب بتمزيق مجتمعاتنا ورسم الخطوط الكبرى لبدايات قصصنا ونهاياتها.

في عملية النسج هذه، حيث رحنا نضفر الحكايا بعضها ببعض، تكمن عدة طبقات من الحب، أو لربما الحب هو الذي أتاح هذا النسج - حبّي لسيرين وعائلتها وفلسطين، حبي للعالم المحيط بي، للبشرية التي بوسعها اعتناق الحياة بكل أشكالها. عدا أني، كلما حاولت الكتابة من مبعث الحب، أجدني مثقلًا بأخلاقيات البحث، كما لو أنَّ أحدهم يثبّت عنقي على الأرض بجزمته. كيف للمرء في هذه الحالة أن يكتب؟ كيف نوفي الحبَّ حقَّه؟

الحب، ومليون تشكيك.

فنحن العرب والفلسطينيون نعيش ضمن تاريخٍ يشكّك في سرديتنا، وإذا لم ننتبه، فمن شأن هذا التشكيك أن يكسرنا. هذا التشكيك يشيِّئك، ويُخضِع تفكيرك وأولوياتك. استغرقني التغلب عليه زمنًا طويلًا، أعوامًا من الكتابة والمراجعة لكي أصدَّ هذا التفكير وأثره عني لدى كتابة هذه القصة - لكيلا أسمح لهذا التشكيك، قدر استطاعتي، بالسيطرة على كتابتي.

وقد ساعدني الجانب البحثي في تحقيق ذلك. إذ قضيت أعوامًا من البحث تضمَّن محاورات عدة مع أغلب الأفراد الأحياء في عائلة سيرين، والتقيت أصدقاءها وجيرانها وأفرادًا آخرين من أهل قريتها، ودوَّنت ملاحظاتي في أثناء زياراتي لفلسطين، إضافةً إلى البحث في الأرشيف لدى مركز الدراسات الفلسطينية في بيروت. تعتمد هذه القصة أيضًا

على مصادر أساسية وثانوية متنوعة ما بين نصوص وفيديو. وقد أضفت ملحقًا للقارئ الذي يود فهم المصادر التي أتت منها بعض التفاصيل والاقتباسات، ولكي يستزيد بالقراءة إن كان لديه شك في دقة المعلومة التي أوردتها أو في الحقيقة ككل. بالطبع، في مواضيع الحياة والموت، في مواضيع الاستعمار الاستيطاني والاحتلال، فالحقيقة ذيلٌ نلاحقه للأبد؛ وهذا، تحديدًا، نيّةُ المستعمِر. وها التشكيك يطلّ عليَّ برأسه القبيح مرةً أخرى!

ملاحظتان أخيرتان. الأولى تتعلَّق بالأسماء العربية للقرى والأماكن على سائر النص؛ هذه التسميات العربية تذكيرٌ ضروري بتاريخ تلك الأماكن في وجه المحو المتعمَّد لفلسطين. أما الملاحظة الثانية فتتعلَّق بانشغالي الشديد بكيفية التعامل مع أسماء الشخوص، إذ لا سبيل إلى فصل أناسٍ محددين عن حياة سيرين وإبقاء أسمائهم مجهولة. لذا بقيت معظم الأسماء على حقيقتها، ولم أبدّل سوى أسماء الفلسطينيين المشكوك في عمالتهم لإسرائيل وتعاونهم مع جيشها. فهذا الكتاب ليس محاكمة علنية ولا حكمًا نافذًا، ولا نملك دليلًا قاطعًا قد يصمد في أي محكمة يدين أولاء الناس بالعمالة. وأنا في هذا الكتاب لا أفضح أحدًا ولا أحكم عليه بناءً على القيل والقال.

سامي هرمز

نوفمبر 2022

مضت سبع عشرة سنة منذ بدأنا هذا المشروع، أنا وسامي. مرَّت عليّ أوقات ظننت أنَّ هذا الكتاب لن يرى النور أبدًا، وراودني فيها الإحساس أنَّ هذه القصة الفلسطينية ستضيع كما ضاعت فلسطين. أوقاتٌ ظننت فيها أنَّ احتمال سماع أحدهم صوتي، صوت فلسطين، أشبه بالعدم. والآن، فيما الكتابُ يطبَع استعدادًا لنشره، بات بوسعي التقاط أنفاسي.

حين ولدتني أمي أسمتني سيرين، وظنَّ أبي أنَّ اسمي سيجلب الحظ والرخاء للعائلة، حتى أنه أسمى مطبعةً أسَّسها باسمي، ولم تدم هذه المطبعة وقتًا طويلًا. قد تسأل نفسك وأنت تقرأ هذا الكتاب «وأين هذا الحظ والرخاء، وأين الحياة الطيبة؟» لكن بالفعل، إذا ما قورنت حياتي بحياة أشقائي وشقيقاتي، فقد حظيتُ بالحياة الطيبة. مقارنةً بما مر به أخي، عشت حياةً جيدة. مقارنةً بالعديد من الأخوات والأمهات والبنات الفلسطينيات، أنا امرأة محظوظة. لذا، من باب الامتنان والواجب، أردت كتابة قصة عائلتي وشعبي حفاظًا على ذكرى الذين فارقونا، ولأجل الباقين هنا، والآتين من بعدنا.

كانت سبع عشرة سنة صعبة، قاسية، أتاني الكتاب في أواخرها يهوِّن عليّ ما مررت به. ففي تلك الأعوام، في المدرسة حيث أدرِّس، اتهمني طالبٌ بأني إرهابية، وبعد معركةٍ مع الإدارة جرَّدتني من كرامتي، سرَّحوني من وظيفتي. قاضيتُ إدارة المدرسة، لكني خسرت القضية بسبب التمثيل القانوني الضعيف في أثناء المحاكمة، وفقدتُ الأمل. بعدها بعامين شُخِّصت بمرحلة متأخرة من سرطان الثدي، وفقدت

قواي وإرادتي. هذا الكتاب كان الشيء الوحيد الذي أبقاني حيّة، إذ لم أكف عن حلمي بأن يأتي اليوم ويقرؤه الناس. غرزت أظافري في هذا الحلم وتشبثت به بكل قواي، أدفع سامي بإلحاح إلى إنهاء المشروع. وفيما كنت أجلس في غرفة العلاج الإشعاعي، غير واثقة من مستقبلي، كان الخاطر الوحيد الذي يشغلني أنّي بحاجة إلى هذا الكتاب أن يرى النور اليوم قبل الغد!

إيماني أنَّ الكتاب سيحقق لي العدالة التي أرتجيها منحني القوة على المواصلة.

آمل أنَّ بقراءتك هذا الكتاب ستجد فيه دعوةً إلى التعلُّم أكثر، للدخول في حديث معي، معنا، أن تسمع قصصنا. صحيح هذه قصة شخصية، لكنها أيضًا قصة فلسطينية، قصة شعبي والمعاناة التي نحتملها. وثمة قصص فلسطينية عديدة غيرها، أوضح وأشدُّ تعقيدًا، وإذا جمعتها كلها في فصول، كل القصص المكتوبة وغير المكتوبة، ستجد بين يديك قصة فلسطين.

وهذا الكتاب هو فصل عائلتي.

سيرين صوالحة

نوفمبر 2022

شجرة عائلة صوالحة (أبو شقارة)

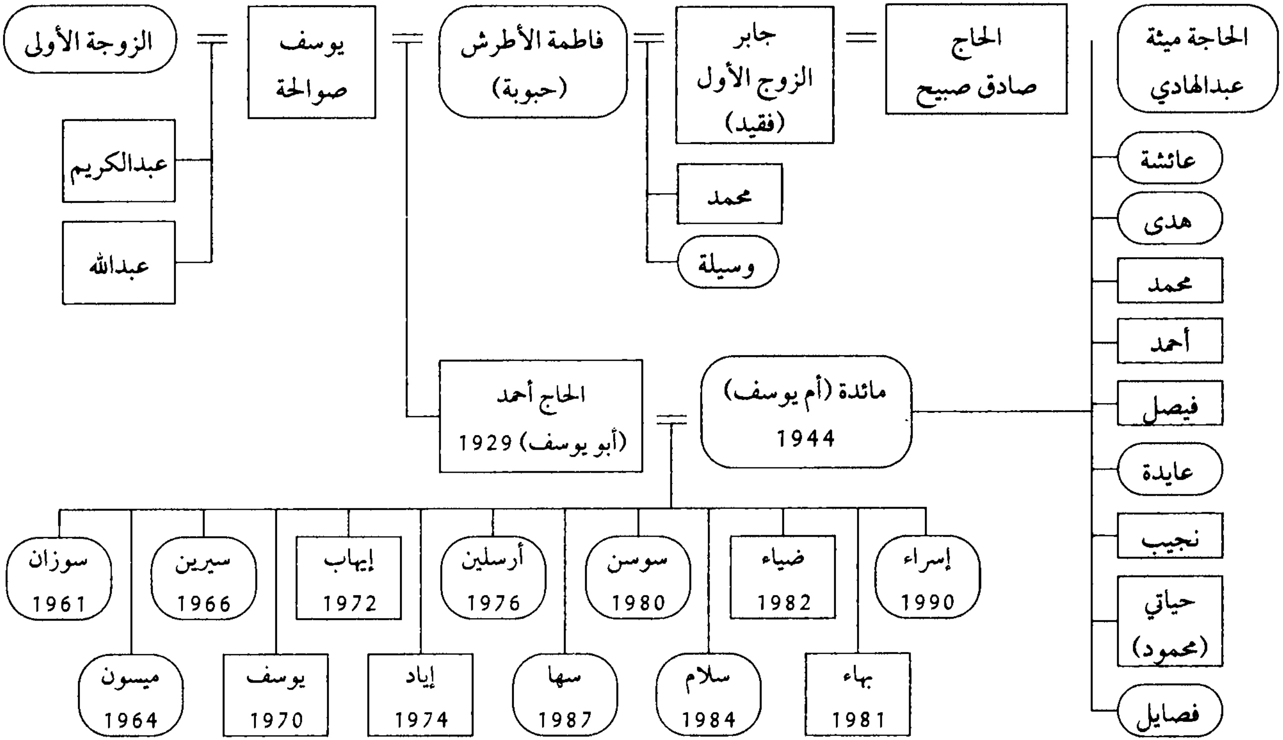

توطئة

غرفة الزوار، سجن عسقلان، عام 1999

العودة إلى السجن استهلكت كل ما لدى أم يوسف من طاقة، وكانت ستخلد بعدها إلى الفراش طيلة النهار. لكن كان لا بد لها أن تعود إلى السجن، مثلما لا ينفكُّ القمر يعود بدرًا، لكي ترى ابنها إياد. ففي غيابه يضيق صدرها، تختنق بأنفاسها.

«يمَّه يا حبيبي، كيفك؟» سألته بلهفة.

«أنا منيح يمَّه، الله يسهّلها علينا»، أجابها إياد، وقد أشرق وجهه ابتهاجًا بمجيئها. سكن للحظة وراح يتلفَّت، ثم سأل أمه «ووين الحاج؟».

«أبوك كان تعبان هاليومين، وافتكر إنه ما رح يخلونا ندخل ونشوفك». قابل إياد كلمات أمه بقنوط طفيف، فأبوه يعاني من السكري لأكثر من عشر سنوات؛ أخفض حاجبيه وأومأ لها.

أمعنت سيرين النظر مليًّا إلى أخيها الأصغر وهو يتبادل الحديث مع أمهما، يجول ببصره في أرجاء الغرفة كما لو أنه لا يزال يتوقع رؤية أبيهما

ينبثق من الظلال. هزَّ كتفيه العريضتين لدى سماعه الخبر عن أبيه، وفي عينيه رأت عينيها - ترابية مع مزيجٍ من الأخضر والبنيّ، بريق لمعتهما يتجلَّى مع لحيته القصيرة الداكنة.

حتى بعد كل هالسنين اللي مَرّت على أخوي في السجن، ما قدرتش أتخَيَّله مع المقاومة، وما قدرتش أستوعب إنه أسير.

عادت بذاكرتها إلى آخر مرة اجتمعت به حرًّا طليقًا قبل مغادرتها فلسطين إلى الولايات المتحدة. هما أخٌ وأخته، صحيح، لكن ما كانا سيختلفان عن أي غريبين يمضيان في دربين منفصلين في حياتيهما، غريبين ترك كلٌّ واحدٍ منهما في الآخر أثرًا غائرًا لا يُمحَى.

سيرين تواجدت في سنوات إياد الأولى، وقضت ساعات عديدة تروي له الحكايا وتصحبه في مغامرات خيالية. لكن في تلك اللحظة كان قد مضى عقدٌ ونصف على وجودهما معًا آخر مرة تحت سقفٍ واحد. عقدٌ ونصف منذ افترق دربهما.

في قصة وحدة بتذكرها وما بتروح أبدًا عن بالي، قصة الشاطر حسن، الشاطر الشجاع الذكي حسن. بهالقصة، حسن بيحب بنت الملك، ست الحسن والجمال، وكنت كل مرة أغير شوي بتفاصيلها وأَمَطْمِط فيها ليلتين عشان يضل متعلق بالحكاية[1]. بتذكّر هيك كنت أحكيها عليه:

---

(1) مَطْمَط: ماطَل، أو أطال في إنجاز أمر ما مع أو دون مبرّر، أو أرجأ الأمر مرارًا وتكرارًا.

كان يا ما كان، في قديم الزمان، هالولد الشاطر حسن بده يتجوز ست الحسن والجمال. أبوها الملك وافق، بس شَرَط عليه يجيب الألماسة المسروقة من راس الجبل، وحتى يوصل راس الجبل كان لازم يقطع سبع تلال محمية بسبع ضباع، كل تلة كان يحرسها ضبع. وهيك، لما وصل الشاطر حسن التلة الأولى قال للضبع «السلام عليكم» والضبع رد عليه «لولا سلامك سبق كلامك لخلي الجبال السود تسمع قرش عظامك تتتتتتتت» (هون حبيبي إياد كان يخاف ويتخبى تحت الحرّام)[1]. الشاطر حسن، لأنه ذكي، عرف إنه إذا ضله يكرر ويعيد ويزيد بالسلام مع بقية الضباع، وعمل شي منيح مع كل واحد فيهم، بدهم يخلّوه يمر، وضل يعمل هيك لحد ما وصل راس الجبل وجاب الألماسة لست الحسن والجمال وتجوزها، وعاش بسعادة معها بثبات ونبات.

«اشتقت لقصصك سيرين»، استقبلها إياد بحماس، وسيرين ابتسمت، كما لو أنَّ الاثنين عادا إلى طفولتهما. أراد سماع أحوالها وما الذي يجري في حياتها، لكن جدران السجن لم تلهمها الخوض في هذا الحديث. رمقت أمها بنظرة سريعة، هي تعرف أنها حنونة خلف مظهرها القاسي، غير أنَّ علاقتهما دومًا كانت صعبة ومتقلبة، وبالتأكيد لم ترغب في مناقشة مشاكلها في أميركا بوجودها، وعلى الأرجح إياد ما كان ليفهم ما تمر به، وسيأخذ صف والدتهما ضدها في كل الأحوال. لذا قررت الاحتفاظ بالتفاصيل لنفسها وتكتفي بالعموميات.

---

(1) «حْرَام»، مرادف للبطّانية. ففي تلك الأيام لم تكن كلمة «لِحْاف» شائعة وذلك لارتباطها عادةً بالأسرَّة، وهو ما لم يملكه الناس حينذاك، حيث كانوا يفترشون الأرض وينامون على الفرشات.

في ذاك النهار، جلست الأم والأخت ما يزيد عن ساعة مع إياد، وجهه مشرق يشع بالحياة، والمرأتان تبتسمان طيلة الوقت. ضحكوا معًا، واستعاد إياد معهما شبابه وحيويته. لكن مرَّت لحظات تفادى فيها الثلاثة النظر إلى الآخر، لحظات ساد فيها التململ، التحديق إلى اليدين، تكرار الأسئلة عن صحة إياد وإن كان يتناول ما يكفي من طعام. تمرُّ كلما استشعروا وخز جلوسهم في هذا المكان وتذكروا الجدران المحيطة بهم؛ جدرانٌ ضمن جدران الاحتلال التي تأطَّرت بها حياة كلٍّ واحدٍ منهم.

قبل مغادرة سيرين وأمها، التمس إياد العون من أخته. «سيرين ضروري تطلعيني من هون، أنت عندك معارف كتير بأميركا بيقدروا يساعدوك، مشان الله سيرين ما تنسيني».

برينستون، نيوجيرسي، 2005

سيرين واقفة في مطبخها، قبالتي. الساعة الآن التاسعة صباحًا يوم الاثنين، وأطفالها الثلاثة في المدرسة. أراها ترقب بصبر إبريق الشاي المبقَّع يغلي، وما إن يصفِّر تطفئ الغاز، تضيف كيسيْ شاي مع نصف كمشة من الميرمية المجففة، تحدق في المدى بينها بخار الشاي يتصاعد. بعدها بلحظة تلتفت إليّ، أرى لمعةً في عينيها الخضراوين البنيتين، وفي وجنتيها تنطوي غمازاتها العميقة مثل أمواجٍ تحمَّست لمداعبة الشاطئ.

شامِم هالريحة؟ هَايْ ريحة كُفُرْ راعي!

عبق الميرمية الحلو يفوح في أرجاء المطبخ، لكنني لا أعرف قريتها، لذا بالتأكيد لا أستطيع التوكيد على شمِّ رائحتها، فأبتسم.

كفر راعي لسيرين أكثر من مجرد أرض، أكثر من مجرد قرية، أكثر من مجرد ناسها وعاداتها؛ كفر راعي حياتها، حياتها في فلسطين. وللحظة، تشعر أنها هناك في وطنها - في بيتها حيث شجرة الياسمين تتدلى دومًا على بوابة البيت الحديدية الخضراء. هي الوطن في مستقبلٍ معلَّق.

تضع الإبريق على صينية خشبية وتحملها إلى غرفة المعيشة، تجلس، تصب لنا كأسي شاي، وتنظر خارجًا إلى الثلج المفروش على حديقتها الممتدة نحو المرج الشاسع، حيث الأحصنة تعدو في المدى. جامعة برينستون تبعد ثلاثة أميال فحسب، على الجانب الآخر من بحيرة كارنيغي. كان شتاء شباط قارسًا ذاك العام، والصقيع لا يرحم.

أجلس إلى جانب سيرين، تفصلنا طاولة جانبية صغيرة، أمسِّد لحيتي الخفيفة التي لم أحلقها منذ ثلاثة أيام، وبينما ترفع كأس الشاي إلى شفتيها، أتأمل يديها المعرَّقتين النحيفتين، واللتين لا تزالان رقيقتين. هي تحرص دومًا على قصّ أظافرها لكي يسهل عليها ممارسة الفلاحة في حديقتها. هذه المرة صبغت أظافرها بلونٍ برتقالي يميل للاحمرار، لونٌ فاتنٌ على لون بشرتها الزيتوني.

ثمة مكتبٌ خلفي عليه حاسوب مكتبي وأكوامٌ من الأوراق، حيث تتراكم واجبات أطفالها المدرسية بين الفواتير غير المدفوعة. على الأرض، عصيّ ألعاب فيديو لاسلكية وألعاب منتشرة أمام التلفاز - مهما اجتهدت في الترتيب ستظل فوضى البيت الحيّ تسود الغرفة.

كانت قد وضعت على الطاولة الجانبية صينية تحمل رغيف خبز وثلاثة صحون صغيرة، صحن زعتر وصحن زيت زيتون -الزعتر

والزيت أحضرهما والدها في زيارته الأخيرة من فلسطين- وصحن لبنة صنعتها بنفسها في البيت. غمست كسرة خبز في اللبنة، لكنها أخبرتني أنَّها ستكتفي بهذه اللقمة، فهذا الإفطار أعدته لي، أما هي فقد تناولت إفطارها قبل مجيئي.

بدأنا ندردش حول لقاءاتنا السابقة، وعن معارفنا المشتركين في جامعة برينستون.

كنا قد التقينا مرتين فقط، المرة الأولى من خلال صديقتها المقربة ريما، التي عرَّفتني إلى سيرين قبل أشهر قليلة، ما بين موت ياسر عرفات وانتخاب محمود عباس - أو بالأحرى اعتلاء محمود عباس رئاسة السلطة الفلسطينية. صحيح ياسر عرفات قدَّم الكثير للقضية الفلسطينية، لكن لعلَّه دمرها ودفنها ولم ينقصه سوى إعلان استسلام شعبه صراحةً. خلَّف وراءه يده اليمنى محمود عباس، شخصية أقرب إلى الأضحوكة، وتركه يرث السلطة فورًا وفي الحال. مهما كان عرفات عظيمًا -وأترك الحكم هنا للآخرين- فهو بالتأكيد يفتقر إلى نباهة الحكم على الشخصية. على أي حال، تلك الأحداث ما عادت تعني لي الكثير وأنا أكتب هذه القصة، وعليّ أن أبحث في مدوناتي لكي أستعيد ذكرى الصدفة التي جمعتنا أول مرة. كل ما أتذكره من ذاك اليوم التقائي بريما - وسيرين.

كنت قد التقيت ريما قبل لقائي سيرين بأشهر، في أثناء عملي على مشروع إثنوغرافي ضمن مادة دراسات عليا في جامعة برينستون[1].

---

(1) الإثنوغرافيا: علم أو منهج يُعنى بدراسة الشعوب والثقافات، ويستخدم بشكل واسع في الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية.

وبصفتي عضوًا جديدًا في لجنة فلسطين في برينستون، كنت آمل في أن يساعد هذا البحث على بناء مجتمع من العلاقات الفلسطينية. ريما التي كانت تعمل سمسارة عقارية حينذاك، شجعتني على الالتقاء بصديقتها.

هكذا التقينا أنا وسيرين أول مرة في مقهى (سمول وورلد كوفي). كان المكان صاخبًا ومزدحمًا بالناس التي تحاول إحضار قهوتها والعثور على طاولة. وما إن رأيت سيرين تقبل عليّ بُهرتُ بإطلالتها الشبابية وثيابها العصريّة: كانت ترتدي فستانًا أحمر أسفل سترةٍ سوداء، وجوارب نايلون سوداء وجزمة سوداء. شعرها البنيّ تتخلله خصل شقراء، مموَّجٌ مع فرقٍ بسيط جهة اليسار، ولم يكن شعرها طويلًا حينها، بل يصل حدَّ عنقها. عنقها مزدانٌ بقلادة من الخرز الملوَّن، زينت رسغيها بأساور فضية مع قليل من الأحجار الكريمة -الياقوت الأحمر والأزرق والزمرد- وارتدت خواتم فضية بأحجار كريمة ذات ألوان مماثلة تضيء البريق في عينيها.

حملنا كوبي القهوة وجلسنا أنا وإياها في الزاوية البعيدة. كانت مفعمة بالحيوية، كتفاها للخلف وذقنها مرتفع لدى حديثها، تبتسم وتتحدث بإيماءات يديها بقدر شفتيها. ورغم حيويتها هذه، لم يستغرق الأمر منها طويلًا قبل مشاركتها إياي بأنها مرهقة ومنهكة، كان بوسعي سماع الحزن والقلق في صوتها لدى حديثها عن عائلتها في فلسطين. شاركتني لمحات من قصتها، عن بيتها وطفولتها ومراهقتها في كفر راعي، وعن أخيها إياد ومغامراته في مقاومة الإسرائيليين.

على أكثر من صعيد، هذا اللقاء ما كان سيختلف عن اللقاءات التي ستجمعنا لاحقًا على مر السنين. فسيرين دومًا ستندفع في سرد قصتها ما إن نجلس- تسرد قصة عائلتها وحياتها في القرية، لكن في الأغلب تسرد عليّ قصة إياد. سيرين تنتهز كل فرصة متاحة لكي تروي قصصها، حتى في لقاءاتنا العادية خارج نطاق مهمة هذا الكتاب، ودومًا يُمتعني الإصغاء إليها. كانت تسرد عليّ القصص وتعيد سردها كما لو أنها لن تحظى بعدها بفرصة أخرى؛ كانت بأمس الحاجة إلى شخص يساعدها على استيعاب أحداث تلك القصص. بدت خائفة من أنها لو امتنعت مرة واحدة عن سرد قصة، فتلك القصة ستضيع في ذاكرتها للأبد. وما كانت ستحصر سردها على أذنيّ، بل ستسخِّر فرصة وجودنا مع أصدقاء مشتركين وتعيد سرد القصص عليهم.

اللقاء التالي الذي جمعنا كنا في جمعٍ لدى بيت ريما وزوجها الذي كان طبيبًا ناجحًا. ريما وزوجها فلسطينيان لاجئان هاجر كلٌّ منهما إلى الولايات المتحدة مع والديه قبل عقود. وفي تلك الأمسية الثلجية الباردة في كانون الأول، كنت قد وصلت البيت برفقة طالبين آخرين، متأخرًا أربعين دقيقة عن الموعد، واستقبلني الحضور بعتابٍ مازح عن تكريسي الصورة النمطية عن «توقيت العرب». سيرين كانت قد سبقتني إلى البيت.

على مائدة العشاء، سرعان ما انحرف الحديث إلى فلسطين، وأسرتنا سيرين بحكاياها التي تسردها بإنجليزيتها المطعَّمة باللهجة الفلسطينية والمبهَّرة بكلمات عربية. كلنا جلسنا نصغي إليها باهتمام بالغ يشوبه

الضيق وهي تسرد علينا شذرات من حياتها الصعبة في فلسطين. ما انفكَّت تحرك ذراعيها في الحيِّز حولها كما قائد الأوركسترا، تقود كلماتها عبر طبقات صوتها، بالطبقة العالية تتحدث عن المقاومة وبالطبقة المنخفضة تحكي لنا عن الفقد، فتبعث إلى الحياة صور الصمود والحزن. مع ذلك، ضحكةٌ منها كفيلة بأن تخفف جديَّة الحديث، مما أبقى الليلة منعشة ومفعمة بالحياة.

اليوم، في لقائنا الثالث، أتيت إلى بيتها لكي أبدأ مهمة جمع قصتها على نحوٍ جديّ. ما عدت مدفوعًا ببحثي الجامعي، بل بحافزٍ أعمق - أريد أن أحارب الإمبراطورية، أطرد أذرعتها (وجندها) من الأرض التي أدعوها وطني، أسير على درب تشي غيفارا، أجد سبيلًا أربط به عمل حياتي بالنضال لتحرير فلسطين. أعرف أنها أفكارٌ رومانسية عن النضال ضد الظلم، أجل أعرف! لكن لا مقاومة بدون رومانسية.

تذهلني قصة سيرين عن أخيها الأصغر إياد: انخراطه في صفوف المقاومة ضد قوات الاحتلال الصهيوني، سنواته في السجن وصموده تحت التعذيب، وانضمامه إلى الجهاد الإسلامي. لكني مع الوقت سأكتشف أنَّ قصة سيرين بأسرها تستحق السرد، وبالفعل، هذه القصة الأكبر، لا قصة إياد وحده، هي التي سأعيد سردها على هذه الصفحات.

هذه المرة سيرين كانت ترتدي فستانًا أسود، إذ كانت في حداد على وفاة والدها. والدها الذي غاب عن معظم أيام حياتها لكن ظلَّ السند الذي تجد فيه الطمأنينة، حجر الأساس الذي يثبِّتها في هذا العالم المنقلب رأسًا على عقب. والدها الذي كان يُفتَرض أن يظل على قيد الحياة.

أعزّيها، وأبدو للحظة مرتبكًا. لهذا بالتحديد أجَّلت لقاءنا أسابيع، إذ لا أعرف كيف أواصل التصرف باعتيادية في وجود أحدٍ يعيش فقدًا موجعًا.

واصلنا أنا وسيرين دردشتنا. المسجل الصوتي لا يزال مطفأً؛ كنت أماطل - أظنني لا شعوريًّا قلقت من التزام تلقّي قصة حياة أحدهم. لذا، جلست أصغي إليها وهي تشتكي من آلام ظهرها وركبتيها، بينما أواصل أنا احتساء الشاي وغمس الخبز في اللبنة. شاركتني مدى الإرهاق الذي تشعر به الآن، حتى في ساعات الصباح الأولى. إذ قضت ساعات قبل لقائنا تعد الغداء لزوجها والإفطار لأطفالها قبل إيصالهم إلى المدرسة. ومتى عادوا ستحضِّر لهم الغداء وتذهب بابنيها على عجل إلى تمارين كرة القدم ودروس الرقص وأي أنشطة أخرى قد سجَّلوا فيها. هذه الساعات المحدودة صباحًا، بينما ابنتها الصغرى لا تزال في الحضانة، وحدها تمدها بالهدوء والسكينة. غير أنها لا تقوى على الفراغ ما لم يكن بين يديها ما يُشغِلها. في الصيف، إن لم يكن ثمة ما يشغلها في البيت، تقضي صباحاتها في الزراعة. لهذا السبب لا تطيق سيرين شهور الشتاء، وفي شهوره الباردة الطويلة تقدِّر زيارات الصباح من أصدقائها وزياراتها إليهم.

أخيرًا نكفُّ عن الدردشة، وأفسِّر لحظة الصمت هذه بأنها إشارةٌ للبدء. ما عاد بوسعي تأجيل المحتوم لحظةً واحدة. أدير المسجِّل وأطلب منها البدء في سرد قصتها:

طيّب، أول شي، اسمي سيرين أحمد يوسف صوالحة، هيك مكتوب اسمي على الهوية اللي طلّعتها من سلطة جيش الاحتلال. بس اسمي على الجواز الأردني سيرين أحمد يوسف عبدالله.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الجزء الأول

إمّي رح تِلَد

1

1966-1967

انولدت في 27 حزيران 1966، سنة تقريبًا قبل حرب الـ67، في كفر راعي، قرية صغيرة في قضا جنين وبعيدة عن مدينة جنين من الجنوب تقريبًا 25 كيلو، يعني على شمال الضفة الغربية. يوم 27 حزيران هو التاريخ الرسمي اللي سجله سِيدي في شهادة ميلادي[1]، بس إمي عندها سجلاتها العائلية اللي محتفظة فيهم جوّه خزانة مسكَّرة، وعلى باب الخزانة من جوّه، إمي حفرت تاريخ ميلاد كل واحد فينا والساعة اللي انولد فيها. وعلى هديك السجلات المحفورة مكتوب إنه عيد ميلادي 22 حزيران.

في أيّار 1967، اصطحبت مايدة ابنتها سيرين وأختيها إلى الأردن للبقاء قريبًا من أبيهن الحاج أحمد، والذي كان يعمل حينها في أبوظبي[2]. في تلك الأيام، لم تكن مايدة ترتدي الحجاب. شعرها بني غامق،

---

(1) سِيدي: تعني في اللهجة الفلسطينية «جَدّي» و«سِتي» تعني «جدّتي» وهي طريقة محبّبة للإشارة إلى الجدّ والجدّة.

(2) الاسم بالفصحى «مائدة» تيمُّنًا بالسورة القرآنية.

واعتادت تسريحه بضمٍّ خصل شعرها العلوية للخلف، وترك الخصل السفلية تنسدل إلى كتفيها. كانت ترتدي لدى وصولها عمّان بلوزةً صفراء فاتحة مع تنورة صفراء اللون لكن بدرجة مختلفة، التنورة تنسدل إلى أسفل ركبتيها، مع حذاء بكعبٍ خفيض لم تشعر معه بالراحة لدى مشيها. كانت في الثالثة والعشرين، ورغم نعومة بشرتها إلا أنَّ ملامحها الجادة دومًا أعطت انطباعًا بأنها أكبر عمرًا، ولعلَّها أيضًا أظهرت المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقها بكونها أمًّا لثلاثة أطفال. زوجها كان رجلًا في أواخر الثلاثين، دومًا يرتدي قمصان مفصَّلة بألوان فاتحة مع بناطيل سوداء أو بنية. يداه اختبرتا العمل القاسي، والتجاعيد المبكرة على وجهه تبوح بالفقد الذي عاشه.

كان من السهل السفر إلى عمَّان في الأعوام ما قبل حرب الـ67. فعائلة سيرين كانت تحمل الجواز الأردني، ولم يكن ثمة حاجز حدودي رسمي بين ضفتيّ نهر الأردن. ما إن وصلت مايدة إلى عمَّان استأجرت شقة بثمانية دنانير أردنية، بينما بدأ الحاج أحمد في أبوظبي يعمل على استصدار إقامة لعائلته كي تلحق به هناك.

بَيْدَ أنَّ معاملة استصدار الإقامة أخذت وقتًا أطول من المعتاد.

ظلَّت مايدة وعائلتها في عمَّان بانتظار الأوراق الرسمية إلى أن حلَّ يوم الخامس من حزيران 1967، حين شنَّت القوات الصهيونية هجومًا على مصر، وأشعلت حرب الستة أيام التي ضمَّت جيوش سوريا والأردن والعراق. ادَّعت الحكومة الصهيونية أنها شنَّت حربًا

استباقية ضرورية لأنَّ الجيش المصري كان يخطط لمسحها عن الخريطة. لكن الدليل على ادعائها واهن، ولم تُظهِر تحركات الجيش المصري في سيناء أي دلالة على أنَّ الرئيس المصري جمال عبدالناصر كان يعدُّ لهجومٍ كاسح.

الجيوش العربية هُزمَت، وبالنتيجة خسرت الضفة الغربية وقطاع غزة وهضبة الجولان السورية وسيناء المصرية. وهكذا، تمكنت القوات الصهيونية من احتلال سائر فلسطين.

هزيمة أربعة جيوش عربية صرعت قلب الهوية العربية، وحطمت وعد قيام أمةٍ عربية واحدة. لدى البعض، مهَّدت هذه النقطة إلى دخول عصرٍ جديد من الثورة الشعبية، حيث بدأت الناس تفقد الأمل في قدرة الدول العربية على تحرير فلسطين، وقررت أخذ زمام التحرير بيديها. هذه اللحظة كرَّست أيضًا عصرًا جديدًا من التهكُّم المتشائم حول مستقبل «الوطن العربي» - وهذا التهكُّم سيتكرَّس مع كل هزيمة في سلسلة الهزائم المتعاقبة التي مُنِي بها العرب في محاولة تحرير الأرض التي أُحتلَّت في عام 1948.

الفقد.. هذا الفقد المشوب بالخداع، تتضاعف فاجعته مع الإدراك بأنَّ العالم لن يعود كما كان.

إلى أي مدى شعر الناس بالتيه يومها وهم يقطعون شوارع بيروت ودمشق والقاهرة - وشوارع القدس التي باتت اللحظة محتلَّة؟ إلى أي عمقٍ بلغت شهية الناس في البيوت والأحياء لازدراد الأخبار من محطات الإذاعة المجاورة؟ من بعد تلك الصدمة، سيتطلب الأمر استيعاب كل

الأحداث التي ستقع في العقود اللاحقة -كل الهزائم المتواصلة وبوادر الخضوع- لكي يحتدَّ هذا الفقد. وستظل النكسة هي النقطة التي يعود إليها الكثير من العرب ممن شكّلتهم هذه اللحظة، ينقّبون في أطلال الفقد والخسارة.

في أول ليلة من أيام الحرب الستة، تقلَّبت مايدة على فراشها طيلة الليل. كانت تعرف أنَّ خطبًا ما سيقع؛ إذ نادرًا ما تتصف مايدة بالتفاؤل، ولا تخشى الثبات بعناد على موقفها أمام الأغلبية. لهذا لم تجرفها نشوة النصر العربي القريب التي اكتسحت الشوارع والأخبار، وأخذت ليلتها تتفكَّر بكل الاحتمالات. ففي قرارة نفسها لا ترى أنَّ الحكومات العربية تحمل مفتاح تحرير فلسطين، مهما كرَّرت هذا الخطاب الشعبوي في ساعات يقظتها. وحدهم الفلسطينيون من يحملون مفتاحه، وهم من عليهم أخذ زمام الحرب.

تاقت مايدة إلى بيتها في كفر راعي، إلى الأرض التي اشتراها الحاج أحمد الممتدة على ثلاث مئة دونم، الغنية بأشجار المشمش والزيتون والخوخ والكرز ومختلف الفواكه الأخرى. نهضت فزعة من هواجسها وجلست في فراشها تخشى فقدان كل شيء، فالصهاينة سيصادرون أرضها إن لم تكن هناك لإثبات ملكيتها.

هكذا، في صباح اليوم التالي، عقدت مايدة عزمها؛ ستعود مع أطفالها إلى فلسطين. ساقاها القصيرتان النحيفتان تيبَّستا، بدا وكأنَّ جسدها يصرخ «خليك هون يا مجنونة!» فالجري اتجاه الحرب مفزع.

لكن خسارة بيتها وأرضها فزعٌ أشد.

مايدة كانت شابة يافعة والقرار ليس بالسهل أبدًا، لكنها تعرف كيف تتخذ قرارًا وتثبت عليه. كانت أيضًا امرأة تتحلّى بالشجاعة، صفةٌ ستمررها إلى عدد من أطفالها. لذا، حين عقدت عزمها، صمَّمت على السير تجاه النار، ولا أحد، حتى زوجها، سيسعه الوقوف في طريقها. ما كانت ستطيق أن يسلبها الصهاينة حياتها في فلسطين، ويسلبونها المغزى من وجودها بإجبارها على البقاء في المنفى. تقارير الحرب على الأخبار لم تفت البتة في عضدها.

إمي قررت تحملنا إحنا التلاتة على فلسطين. أختي الكبيرة سوزان انولدت بسنة 1961، وميسون انولدت بسنة 1964، فكانوا يقدروا يمشوا، بس أنا كنت لسّاتني صغيرة، وحملتني إمي في حضنها طول الطريق لكفر راعي. ما جابت شي معها. أخدنا سيارة من جبل الحسين بعمَّان ونزلنا ع قرية في الغور. وهناك، أعطت إمي مَصَارِي لحدا عشان يقطع معنا الشرِيعَة ويساعدها مع خواتي[1]. إمي تعمَّدت تاخدنا بالليل حتى لا يشوفنا حدا من الجنود. وهيك قطعنا الشريعة مشي من غير باص ولا سيارة ولا حتى عرباية. إمي كانت حاملتني بحضنها واخواتي بيمشوا جنبنا. كانت مصممة تضلها متمسكة بأرضها وما تخلّيهاش تضيع منها.

فقد شهدت مايدة التطهير العرقي في فلسطين الذي بدأ عام 1947 واستمر في 1948، وأدَّى إلى تهجير 750 ألف فلسطيني. ورغم كونها

---

(1) مَصَارِي: نقود.

من التسميات الأخرى لنهر الأردن في اللغة العربية «نهر الشريعة» في إشارة إلى موضع السقاية، ويُعرف كذلك أحيانًا بـ«الشريعة الكبيرة».

طفلة حينذاك، نحو الرابعة من عمرها، فقد تشكَّلت في وعيها صدمة استماع والديها إلى خبر تصويت الأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين في تشرين الثاني 1947. وخلَّفت قصص مجازر التطهير العرقي التي ارتكبتها عصابات الهاغانا الصهيونية بعد القرار بشهر ندوبًا عميقة في ذاكرتها. سمعت أخبار مجازر لفتا وتهجير أهلها، ومجازر سعسع وأبو شوشا ودير ياسين، سمعتها كلها خلال الأشهر السابقة لإعلان (دولة إسرائيل) الساعة 11:59 ليلًا، في الرابع عشر من أيّار عام 1948، ما إن غادر البريطانيون فلسطين رسميًّا.

وفي الأشهر اللاحقة لإعلان دولة الاحتلال، شاهدت مايدة بعينيها القوات الأردنية والعراقية تحاول الدفاع عن الفلسطينيين في وجه التهجير. الجيوش السورية واللبنانية والمصرية قاتلت أيضًا في هذه الحرب، لكن الدول العربية حينذاك كانت حديثة النشأة، جنودها بالكاد مؤهلون للقتال وأضعف عدةً وعددًا بكثير حتى إن اجتمعت بعضها ببعض، دول عاجزة أصلًا عن إدارة القتال على جبهةٍ موحدة. ناهيك عن أنَّ الملك عبدالله، ملك الأردن حينذاك، عقد اتفاقًا مع الصهاينة يضمن بمقتضاه ألا يطلق رصاصة في الأراضي التي حددتها الأمم المتحدة لتكون الدولة اليهودية ضمن خطة التقسيم. ومقابل هذا الضمان، يحظى الملك بالسيطرة على القدس الشرقية والضفة الغربية. لهذا السبب لم يقاتل جيشه بكامل قدرته وعتاده، ولم تتقدم قواته نحو القدس الغربية كما أمل الفلسطينيون هناك وتوقعوا.

مع كانون الثاني 1949، أُجبِرت الحكومات العربية على إعلان

إيقاف إطلاق النار وتوقيع اتفاقيات هدنة مع حكومة الاحتلال الجديدة. ونشأ عن هذه الهدنة تعيين حدٍّ فاصل بات يُعرَف بالخط الأخضر – الخط الذي يفصل قطاع غزة والضفة الغربية (بما فيها القدس) عن باقي فلسطين. وغدا الخط الأخضر الحدود غير الثابتة للدولة الحديثة، إذ ما انفكَّت تتوسع وتضمُّ أراضي أكثر وأكثر من التي وعدت بها الأمم المتحدة ضمن خطة التقسيم. وبات الفلسطينيون يسمون ما خلف الخط الأخضر بـ«الداخل» أو «فلسطين 48».

مايدة كانت مجرد طفلة حينذاك، لكنها تتذكَّر كل ما حدث بوضوح. يشقُّ عليها أن تنسى العام الذي بدأت معه كارثة النكبة التي حلَّت عليها وعلى شعبها، حين تعرَّض ما يزيد على أربع مئة قرية وبلدة للتطهير العرقي في أقل من عام لإفساح حيِّز لإقامة الدولة الصهيونية. هذه النكبة مسَّتها شخصيًّا بعدما أُقصيَت من زيارة القرى والمدن التي اعتادت زيارتها، حين حُرِمت من زيارة البحر الأبيض المتوسط طيلة شبابها. الآن، بعد تسعة عشر عامًا، فيما تقف عند المنعطف المؤدي إلى كارثة تهجيرٍ ثانية ستحلُّ على شعبها، وبعدما باتت تعرف بقصص زحف الناس مشيًا إلى الأردن ولبنان وسوريا ومصر، ما كانت أبدًا لتقبل بأن تصبح مجرد رقمٍ إحصائي.

يصعب للغاية تتبُّع آثار الشتات الفلسطيني، حتى ضمن الشتات الداخلي داخل فلسطين المحتلة، إذ تختلف ظروف النازحين. البعض استقرَّ في مخيمات اللاجئين على امتداد الخط الأخضر، في ما بات يُعرَف بالضفة الغربية تحت الإدارة الأردنية وقطاع غزة تحت الإدارة المصرية –

تسعة عشر مخيمًا أقيم في الضفة الغربية وقطاع غزة بعد العام 1948. أما النازحون ممن لهم أقارب أو موارد مالية كافية، فقد آثروا الإقامة في قرى الضفة الغربية أو قطاع غزة على الإقامة في المخيمات. والبعض لا يزال باقيًا حتى اليوم خلف الخط الأخضر، في فلسطين 48.

عرض الصهاينة الاعتراف بالمهجَّرين داخليًّا في فلسطين 48 مقابل تخليهم عن المطالبة بقراهم الأصلية. أغلب هؤلاء المهجرين ساقهم الصهاينة إلى قرى فلسطينية مجاورة لم تتعرَّض للتهجير القسري، واحتموا هناك بأقارب أو إخوة لهم في الدين. وفي مرات نادرة، سمح الصهاينة لعوائل المهجرين بإقامة قرى جديدة متاخمة لأراضيهم الأصلية، لكن مُنِعوا منعًا باتًّا من العودة إليها. وفي حالات معدودة، سمح الصهاينة لعوائل فلسطينية بالعودة إلى بلداتهم الأصلية مثل حيفا، لكن مُنِعوا من العودة إلى بيوتهم أو أراضيهم هناك. وفي الأعوام الثمانية عشر الأولى، عاش كل فلسطيني داخل الدولة الجديدة تحت حكمٍ عسكري، على النقيض من الإسرائيليين اليهود الذين تمتعوا بكافة حقوق ومزايا المواطن. مع ذلك، فضَّلت مايدة المخاطرة والحياة تحت حكم الاحتلال العسكري على التعايش مع فاجعة النزوح التي لا تنتهي. يكفيها معرفتها بقصة زوجها، الحاج أحمد، الذي عجز عن العودة إلى بيت عائلته قرب الناصرة. كذلك هي شهدت بعينيها حياة بعض اللاجئين في مساكنهم المؤقتة في المخيمات خارج مدينة جنين القديمة، وسمعت كيف تدمَّر المخيم الأول في جنين إثر عاصفة ثلجية، ورأت أحوال اللاجئين بعدما سكنوا المخيم

الجديد الذي أُقيمَ على أطراف المدينة في 1953. كانت موقنة تمام اليقين أنها لن تطيق حياة اللجوء.

واحنا نقطع الشريعة، وقعت كندرة سوزان وصارت تعيِّط[1]. خفنا يسمعوها الجنود الصهاينة ويطخونا، لكن مش هاد اللي كانت خايفة منه إمي، إمي كانت خايفة إنه الجنود يشوفونا ويجبرونا نرجع. ع طول إمي حطَّت إيدها على تِمِ سوزان وكتمت صوتها، وكملنا مشي من غير ما حدا يسمعنا أو يشوفنا، لكن قبل ما نكمل مشي وقفنا ندوِّر على كندرة سوزان.

إمي قالت لي إنه على طول الطريق ما كانش عندنا إشي ناكله غير خبز ومية بندورة، وكل ما جعنا تطعمينا منهم. أختي سوزان لهالقيت بتحب تاكل خبز ومية بندورة[2].

أكتر إشي بتذكَّره من كلام إمي منظر الناس وهي عم تمشي عكسنا وكيف كانوا بيصرخوا علينا إنه ما نكمِّل بالطريق. كنا رايحين على الحرب في الضفة الغربية في الوقت اللي كتير ناس عم تشرد منها[3]، وجوهم شاحبة وعيونهم بالأرض. تخيلتهم مخبِّين كرامتهم وعزة

---

(1) كُنْدَرَة: تعني حذاء، وجمعها «كَنادِر». وأصل الكلمة تُكْتَب «قُندَرة» بحرف القاف، إلا أن القاف تتعرض في بعض اللهجات، مثل الفلسطينية، لظاهرة صوتية تُعرف بـ«إبدال القاف كافًا» (Qaf assimilation)، فتنطق الكلمة كأنها تبدأ بالكاف.

(2) لهالقيت: إلى الآن، والقاف هنا تُلفَظ كافًا.

(3) شرد: من الأفعال المرادفة والمستخدمة بكثرة في اللهجة الفلسطينية بمعنى «هَرَب»، ويُستخدَم عادة للإشارة إلى الهروب الناتج عن شعور بالخوف أو القلق الذي يسيطر على الشخص، مما يدفعه للهروب بشكل مفاجئ.

نفسهم في البُقَج اللي حاملينها على ضهورهم[1]. منهم اللي هرب لأنه خايف على حياته وحياة عيلته، ومنهم اللي تهجَّر من القرى القريبة على حدود الخط الأخضر. ناس كتير راحوا ع الأردن وتركوا كل شي وراهم، ما بيحملوا إشي معهم من فلسطين إلا الأكم غرض اللي قدروا يوخدوه معهم.

هو ذا الخيار المستحيل: إما تبقى وتواجه المصير المجهول للحرب، أو تفر للأمان غير واثق من عودتك.

ما إن قطعت مايدة وبناتها النهر إلى فلسطين كانت الهزيمة قد عمَّت المكان؛ الجثث ملقاة على الطرق، العِداد العسكري مرمي ومهجور على جانب الطريق. الجنود العراقيون والأردنيون، الذين دخلوا الحرب دون عتادٍ عسكري وتدريب كافٍ، وجوههم المغبرَّة المشوَّشة تنطق الهزيمةَ الفادحة.

نجحت مايدة بالوصول مع بناتها إلى الضفة المقابلة من نهر الأردن، وهناك التجأن إلى مسجدٍ خاوٍ. بعدها عثرت مايدة على سيارة تنقلهن إلى نابلس، ومن نابلس وصلت بعائلتها إلى قريتها. الرحلة بأسرها استغرقتها ثمانية عشر ساعة.

(1) بُقْجِة: كيس قماشي كبير يُستخدَم عادةً لحمل الأغراض أو الملابس الشخصية، مثل الشنطة، عندما يكون الشخص مسافرًا أو عند الانتقال من مكان لآخر. يُعتبر هذا المصطلح شائعًا في أغلب مناطق فلسطين، وجمعها «بُقَج»، ويُنطَق حرف القاف كافًا. وتُعَد «البقجة» رمزًا من رموز أهوال النكبة والنزوح الفلسطيني.

لما وصلنا البلد لقيناها فاضية، وبعدين عرفنا إنه الناس متخبية في بستان التين[1]، خايفين من الصهاينة يقصفوا بيوتهم بالطيارات. ضلت الناس متخبية هناك لوقت ما خلصت الحرب، وبعدها رجعوا.

مع نهاية الحرب، هجَّرت القوات الصهيونية خُمْس سكان فلسطين في الضفة الغربية. ولكي تضمن ألا يعود الفلسطينيون، أصدرت سلطة الاحتلال أول قرارٍ لها، بعد يوم من عودة مايدة، تعدُّ فيه أي محاولة عودة جريمة تسلُّل. هذا القرار هو الأول مما يزيد على مئتي قرار عسكري مشابه ما بين الأعوام 1967 و1970، وهذه القرارات لم تمنع الفلسطيني من العودة فحسب، بل جرَّدته من بيته ومن كامل ممتلكاته. هذه القرارات لا تزال تتجدَّد، ومعها يتجدَّد التهجير الفلسطيني.

رغم هذه العوائق، عادت مايدة بأطفالها لكي تربيهم في فلسطين. غير أنَّ لدى سرد مايدة أحداث رحلة العودة، يبرز اختلافٌ في التفاصيل ما بين ذاكرتها وذاكرة سيرين. في قصة مايدة، الحاج أحمد عاد معهم، وقضى عدة أسابيع في كفر راعي قبل أن يغادرها إلى أبوظبي للعمل. ظلَّ موجودًا في كفر راعي بما يكفي لكي يُسجَّل في التعداد السكاني

(1) في اللهجة الفلسطينية، توجد تسميات متعدّدة للأراضي الزراعية، تختلف بحسب نوع المحصول المزروع فيها. فعلى سبيل المثال، تُعرف البيّارة بأنها بستان يُزرَع فيه الحمضيات مثل البرتقال واليوسفي والليمون، وغالبًا ما تكون قريبة من بئر ماء. أما الكَرْم، وجمعه كروم، فهو مزرعة واسعة تُخصَّص عادة لزراعة العنب، وإن كان يُطلق في بعض قرى فلسطين أيضًا على أراضٍ تُزرَع بشجر التين أو الزيتون، إلا أن ذلك يُعدّ نادرًا. وتُسمّى الأرض التي تُزرَع بالبصل والثوم مِقْثاة، وجمعها مقاثي. وأما البستان أو الأرض، فيُطلقان على الأرض الزراعية التي تُزرَع فيها أنواع متعدّدة من المحاصيل الزراعية.

الإسرائيلي، لكن اضطر إلى المغادرة قبل تطبيق نظام الهوية الجديد تحت الاحتلال. الأختان الكبيرتان لا تشاركان أمهما هذه السردية، ومثل سيرين، لا تتذكران وجود والدهما في قصة العودة، ولا أنه حملهما على طول الطريق بالتناوب مع أمهما. في ذاكرة البنات، كان والدهن أصلًا في أبوظبي، حيث سيقضي معظم سني طفولتهن بعيدًا عنهن.

لو إنه رجع معنا ما كانش ضل غايب سنين عنّا، وما كانش احتاج إمي تطلب لم شمل. وكيف عملوا الصهاينة الإحصاء على طول بعد الحرب بأسابيع؟ البلد كانت بعدها فوضى.

سواء عاد معهن حينها أم لا، في الحالتين المحصلة لن تتغير. تظلُّ العاطفة الحقيقية في السرديتين، ويبقى الواقع المادي المتأتي عن غياب الأب عامين عن عائلته قسرًا لأنه لا يملك تصريحًا للدخول إلى قريته في الضفة الغربية، أساسًا مشتركًا ثابتًا بين ذكريات مايدة وبناتها. في هذين العامين، حاولت مايدة استخراج لمّ شملٍ لزوجها، بينما تبني بيت العائلة وتربي ثلاث بنات، وكل هذه المسؤولية حملتها على عاتقها وحدها معظم الوقت، مع دعمٍ محدود من والديها.

وحده الفلسطيني وذريته الذي تسجَّل في الإحصاء الإسرائيلي حينذاك تعدُّه سلطة الاحتلال مقيمًا شرعيًّا في قطاع غزة والضفة الغربية. هذه الوثيقة الإحصائية جرَّدت تسعين ألفًا من فلسطينيي الضفة الغربية من حق العودة، ثلثهم من أهل القدس. وهكذا، اختفى تسعون ألفًا من السجلات.

رجعنا ع دارنا، ووقتها ما كانش عندنا غير غرفتين وبيت الخارج

برّه[1]، ما كانش عندنا حَمّام عادي جوّاة الدار. تعبت إمي عهالدار وضلّتها أربعين سنة تزبِّط فيها وتكبِّر فيها وتبني أُوَض أكتر كلما كبرت عيلتنا[2].

دار صوالحة، الآوي على رأس التلة بين أربعة بيوت أخرى، سيغدو محور حياة العائلة. جدرانه في الشتاء ستهدهد الأطفال وهم محتشدون حول فرن الفحم؛ بوابته الخضراء الحديدية الكبيرة، التي لم تنفصل يومًا عن شجرة الياسمين المعلَّقة عليها، دومًا رحَّبت بسيرين لدى عودتها من المدرسة. وفي الربيع، تنتعش الحاكورة بالأزهار وضحكات الأطفال[3]. كان بيتًا شُيِّد على أساسٍ قوي، ومن رحمه سيولد مقاومٌ لا يهاب.

تستحضر سيرين بحنان ذكريات عائلتها في البيت، وطاقة والديها وإخوتها التي احتواها البيت. تستحضر سطوع الجدران الداخلية الملساء البيضاء، المزدانة بألوان الباستيل الأحمر والأصفر والأخضر.

من بَرّه بيتنا كانت ألوانه فاتحة، بتشوف من بعيد الأخضر الغامق والشبابيك بحوافها الحُمر. وكانت عادة إمي إنها تدهن الحيطان من جوه وبره بين كل فترة وفترة. ما كانش عندنا إشي في هالدنيا غير هالبيت، وإمي عملت كل إشي لحتى يضل بيتنا حيّ، كانت دايًما تزبطه

---

(1) بَيْت الخَارِج: اسمٌ مركّب في اللهجة الفلسطينية، يُطلق على الحمّام الخارجي، لا سيما في القرى والمناطق الريفية. كان يُبنى عادةً في فناء المنزل أو على أطرافه، بعيدًا عن الغرف السكنية. وله مرادفات في اللهجة الفلسطينية مثل «بَيْت الخَلا»، ويُعرف في بعض مناطق الخليل باسم «بيت المَي».

(2) أوضَة: غُرْفَة، وجمعها «أُوَض».

(3) حَاكُورَة: هي قطعة أرض صغيرة بجانب أو خلف البيت، تُزرع بالخضار، أو تُستخدم كحديقة منزلية. وجمعها «حَوَاكِير».

وتصلحه بعد كل مرة الجنود الصهاينة يقتحموه. بعد خمس وتلاتين سنة من رجعتنا، إمي دهنت حيطان الصالون، وما كانتش تعرف إنها آخر مرة رح تدهن فيها حيطان الدار قبل ما توقع المصيبة على روسنا كلنا.

2
1969

مرَّ عامان منذ شقَّت مايدة وبناتها الثلاث الطريق من الأردن إلى بيتهن. مرَّ عامان منذ رأت سيرين والدها آخر مرة - والدها الذي كان أشبه بالقمر المتواري خلف السحب، أشبه بالصديق الخيالي، الغياب العظيم الحاضر في حياتها.

كان عمري تلات سنين لما أخيرًا قدر أبوي يرجع ع فلسطين بتصريح لمّ الشمل. وقتها كان لسّه مسموح تطلّع التصريح إذا إلك مَرَة وِوْلاد عايشين في الضفة الغربية. بتذكَّر هديك السنة أبوي ما قعدش عندنا كتير، لا سنتها ولا في سنوات طفولتي كلها. كان ينزل عندنا كل صيف، يقضي أول كم أسبوع بين القهوة والشاي في بيوت العيلة وأهل القرية اللي كانوا يرحبوا فيه. بعدها بشهر أو شهرين كان يرجع على أبوظبي. أول ما راح هناك اشتغل معلّم سباكة مع مجموعة صغيرة من العمّال، وبعدها فتح محل أدوات كهربائية. بتذكَّر وقت يطلع من الدار ليسافر كنت أشوف الحزن بوجهه، بس عمره ما قال شي.

وُلِد الحاج أحمد في 1929، ما بين أواخر الثورة العربية ضد الانتداب البريطاني وصعود النوايا الصهيونية بالسيطرة على حكم فلسطين. وُلِد في شمال فلسطين، قرب مدينة الناصرة، في قرية «طيبة الزعبية»، أو طيبة كما يسميها الناس.

سيدي يوسف، أبو أبوي، تجوز مرتين. مرته الأولى من بيت الزعبي، أكبر عيلة في طيبة، وجاب منها ولدين، عبدالكريم وعبدالله. بعدها مرضت وصارت نص مشلولة، فشجعوه عيلته يتجوز مَرَة تانية، وهاي المَرَة كانت من كفر راعي. جوزها مات وهي بعدها صغيرة كتير، وتَرَكْلها ابنه محمد وبنته وسيلة. رجعت تجوزت من سيدي وصارت ستّي. هي اسمها فاطمة، لكن عمرنا ما عرفنا اسمها واحنا صغار، لأنه تعودنا نناديها حبّوبة.

توفي والد الحاج أحمد في أواخر الأربعينيات، وكان الحاج أحمد يبلغ حينذاك السادسة عشرة من العمر، ووفاة والده كانت أول إشارة إلى قسوة الحياة التي تنتظره. لكن لم يدع موت والده يكسر قلبه، وظلَّ حنونًا مع والدته، وحنونًا بعد سنوات مع زوجته وأطفاله. فَقْد والده في سنٍّ يافعة جعلته يعتمد على أخويه من أبيه لكي يكونا سنده في هذه الحياة.

بعد وفاة والده بفترة قصيرة، عادت أمه إلى كفر راعي لكي تكون قرب عائلتها وقريبة من الأراضي التي اشتراها لها زوجها هناك. الرحلة من طيبة إلى كفر راعي وقتها كانت تستغرق ساعة. الحاج أحمد انتقل معها، بيد أنه قضى أغلب وقته في حيفا والناصرة عاملًا مُياومًا مع أخويه.

بعدها، في عام 1948، حين تقسَّمت قرى فلسطين وبلداتها،

وتقطَّعت الأواصر بينها تحت حكم الدولة الصهيونية الجديدة، وجد الحاج أحمد نفسه لاجئًا. حُرِم من عمله في البلدات التي أصبحت جزءًا من دولة الاحتلال، وانقطع عن قرية والده طيبة وأخويه الذين بقيا فيها. وهكذا، أُجبِر الحاج أحمد على اعتبار كفر راعي الواقعة تحت سلطة الإدارة الأردنية وطنه الدائم. مكتبة سُر مَن قرأ

كان ثاني فَقْدٍ يُفجِعه، وكأنما الأقدار تُراكِم مآسيها تحت قدميه، وهذا الركام من المآسي سيظل يتصاعد إلى أن يخنق قلبه مع دنوِّه من مغيب حياته.

الألم المبرح من خسارة أهله وناسه رقَّق قلبه، وقوَّى أواصره بطيبة. وهذا الألم تحديدًا، الذي عاشه الحاج أحمد طيلة سنوات، كان الدافع وراء قرار مايدة العودة إلى الضفة الغربية في 1967. عشرون عامًا مرَّت دون أن يرى فيها الحاج أحمد أخويه، عشرون عامًا لم يرَ فيها قريته. ورغم أنَّ له جذورًا من جهة والدته في كفر راعي، وقرابة دم، فإنه لم يشعر ولو لساعة أنها وطنه. دومًا اِنْتَاب سيرين الشعور بأنَّ والدها ما انفكَّ يحاول الهرب طيلة حياته من كفر راعي.

في حين لم يعد الحاج أحمد خلال هذين العقدين إلى طيبة، إلا أنَّ بعض الفلسطينيين حاولوا التسلل إلى قراهم عبر الخط الأخضر، وقتلت قوات الاحتلال الكثير منهم. في بداية السبعينيات، بعد احتلال الكيان الصهيوني الضفة الغربية وإزالة العوائق أمام عبور الخط الأخضر، تسنَّت للحاج أحمد أخيرًا فرصة العودة، لكنه عاد إليها فقط ليوم، وفي هذه الرحلة اصطحب سيرين معه.

كان محظوظًا أنَّ قريته نجت من التطهير العرقي، نجت من المحو، ولم تكن ضمن القرى الأربع مئة المهجَّرة. وكان محظوظًا أنَّ بيته لم يتعرَّض للهدم ولا استوطنه صهاينة. مع ذلك، في ذاك اليوم الذي زار فيه قريته شعر بحرقة في قلبه، سار فيها كما الغريب على أرضه، عاجزًا تمامًا عن المشي بحرية بين عائلته. لدى وصولهما بيته، رأت سيرين والدها ينحدر نحو الصمت. تذكرت كتفيه المتهدلتين ورأسه المتدلي، وللحظة شعرت كما لو أنَّ جبلًا انهار أمام عينيها.

يوم الزيارة هذا، الذي كان ينبغي أن يكون يوم العودة الدائمة، ظلَّ يطارد أفكار الحاج أحمد كل السنين التي تلته. ولن ينفك يستحضر ذكرى ذاك اليوم، خصوصًا متى تجادل مع إياد بشأن انضمامه إلى المقاومة، أو كل مرة تنشأ مستوطنة صهيونية جديدة على أرض فلسطينية مسروقة، أو حين علم بقبض جيش الاحتلال على ابنه إياد.

هجرة الحاج أحمد إلى الخليج جاءت قرابة العام 1953. حينذاك كانت الثروة النفطية قد ازدهرت التو، ومنحت دول الخليج العربية ثراءً غير مسبوق. شعوب تلك الدول رأت في الفلسطينيين طبقةً متعلمة ماهرة، وتسنى للفلسطيني هناك العمل في مختلف المهن مثل مجالات الهندسة والتعليم، والتي كانت دول الخليج في أمس الحاجة إليها لكي تلبي احتياجات التنمية والتطوير. كذلك، في تلك الفترة، كان يُنظَر إلى الفلسطيني على أنه لاجئ وليس ثوريًا، وأغدقت عليه الشعوب العربية دفقًا هائلًا من مشاعر التضامن والتعاطف؛ هذا قبل أن تنظر

الطبقة الحاكمة العربية لاحقًا إلى روح الثورة الفلسطينية على أنها تهديدٌ يقوِّضها، وتبدأ تتعامل مع الفلسطيني بعين الشك. هكذا، غادر الحاج أحمد فلسطين إلى الخليج مدفوعًا بوعد تحقيق حياة من الرخاء لن يستطيع تحقيقها وهو في كفر راعي.

إلا أنَّ احتياجًا آخر إلى الهروب من مصيرٍ محتوم حفَّزه أيضًا على مغادرة فلسطين. في أوائل الخمسينيات، بينما دولة الاحتلال كانت لا تزال ترسِّخ نظامها المؤسسي وتواصل هجماتها على الفلسطينيين في غزة والضفة الغربية والقدس الشرقية، وبينما الفلسطينيون يواصلون محاولات التسلل عبر الخط الحدودي الجديد وشن هجمات مقاومة على أهداف إسرائيلية في نضالهم للعودة، وجد الحاج أحمد نفسه متورطًا في معركة شخصية. فقد اتخذت أمه قرار تزويجه بشقيقة زوجة أخيه (ابنها من زوجها الأول)، ورغم تكرار الحاج أحمد اعتراضه على القرار، فإنه لم يكن ندًّا لأمه القوية. في نهاية المطاف وافق على الخطبة، وبعدها بفترة قصيرة غادر إلى الكويت في محاولةٍ أخيرة للفرار من الزواج.

كانت رحلةً طويلة وشاقة. بدأت بذهابه إلى عمَّان عبر سكة حديد الحجاز، ومن عمَّان دفع إلى مهرّبين للتسلل به إلى الكويت عبر شمال سوريا ومنها إلى البصرة، حيث نقلوه بعدة شاحنات وصهاريج. وما إن وصل البصرة، قطع الطريق إلى الكويت مشيًا على الصحراء التي فني عليها الكثير من الفلسطينيين.

عمل في الكويت ثلاث سنوات، وأخيرًا في عام 1956، عاد إلى فلسطين ما إن علم أنَّه لن يواجه مصير الزواج بعدما فكَّت خطيبته

الخطبة وتزوجت برجلٍ آخر. أمه حبّوبة كانت قد اشتاقت إليه، لكن مشاعر الخزي وخيبة الأمل من انهيار فرصة زواج ابنها غلبتها، لذا لم يمكث طويلًا لديها. وفي المرة التالية التي غادر فيها فلسطين إلى الكويت لم يلجأ إلى المهربين، بل شد الرحال في رحلة قانونية حاملًا معه التأشيرة. سافر أولًا إلى الكويت، ومن بعدها إلى البحرين، وعمل سباكًا في كلتا الدولتين.

مايدة هي التي شاركتنا تفاصيل خطبة الحاج أحمد الفاشلة وبداياته المهنية، وسيرين كانت تصغي بانتباه شديد، مأسورة بقصة أمها كما لو أنها تسمعها للمرة الأولى. عيناها اتسعتا، وراحت تحث أمها على مشاركة تفاصيل أكثر - مايدة دومًا تحتاج إلى الإلحاح لكي تقتنع بالعودة إلى الماضي والحديث عنه. وسيرين بدت مستميتة لمعرفة حياة أبيها في شبابه.

يوم التقت مايدة بالحاج أحمد، كانت تسير في طريقها إلى موقع بناء مسجد القرية لكي تعطي الزكاة، وهناك لمحها. شعرها البني الداكن كان مربوطًا في ذيل فرس مع خصلٍ من غرَّتها تنسدل على جبينها، بشرتها الناعمة كما الأطفال تلمع تحت الشمس. ورغم يفاعتها في سن الرابعة عشر (فهي من مواليد 1944)، ورغم كونها أصغر من الحاج أحمد بأربعة عشر عامًا، اتَّسم وجهها بملامح الجدية والنضج. رآها فتاةً جميلة، لكن مشيتها الواثقة كانت تنضح قوةً وعزيمة، وهذا ما جذبه إليها. مايدة لمحته أيضًا، رأته شابًّا مشدود الكتفين، يمشي متبخترًا وسيجارته متدلية من بين أصابعه. كان مهندمًا يومها، يرتدي بدلته

البنية الداكنة مع قميصٍ أبيض أزراره العلوية مفتوحة. كان شابًّا طويلًا ضخمًا، شعره أشقر عسليّ وعيناه زرقاوان جليديتان وشاربه كثيف، رأت فيه شابًّا وسيمًا.

لم يمضِ على هذا اللقاء فترة قصيرة إلا وتقدَّم الحاج أحمد إلى والد مايدة طالبًا الزواج بابنته، ووالدها رفض. فقد فضَّل والدا مايدة أن يتزوَّج أختها الأكبر بدلًا منها إن كان راغبًا في مصاهرة العائلة، كذلك لم يقتنع والد مايدة بأصول الحاج أحمد المتواضعة، إذ تنتمي مايدة إلى إحدى أثرى العوائل في كفر راعي. والدها هو المختار، وأمها تنحدر من عائلة عبدالهادي المعروفة. بيد أنَّ الحاج أحمد أصرَّ على رغبته في الزواج بمايدة، ومع شيء من الإلحاح، والأمل بقدرة الشاب على الإنفاق على عائلته الجديدة وتوفير حياة مرفهة لها من عمله في الخليج، اقتنع والد مايدة بالقبول. خطبتهما امتدت فترةً طويلة بسبب سفر الحاج أحمد، وأخيرًا تزوجا في عام 1960، حين بلغت مايدة سن السادسة عشرة.

عاد الحاج أحمد من البحرين محمَّلًا بالمال والأفكار الجديدة، وأقام مراسم عرسٍ مختلفة عن السائد. دعا أهل القرية إلى حضور العرس ببطاقات دعوة، المرة الأولى التي توجَّه فيها دعوات رسمية لحضور الأعراس، وأنفق ببذخ على الحفل. دفع مهرًا يفوق بثلاثة أضعاف المهر المتوقع، وبنفسه زيَّن مايدة بالحليِّ والذهب كاسرًا بذلك التقليد بألا يرى العريس عروسه إلا بعد نهاية العرس. كانا أول زوجين من كفر راعي يقضيان شهر عسل في مدينة كبيرة، في رام الله. بهجته كانت عارمة، فمايدة منحت معنًى لحياته في الخليج، وأعادت وصله بفلسطين.

بعد العرس، سافر الحاج أحمد إلى جدة للعمل في مدبغة صهره، حيث تُدبَغ جلود الحيوانات وتُجهَّز للشحن. لكن بعد مضي أقل من عام، إثر حادث متعلّق بإرسال شحنة جلود معيوبة إلى إيطاليا، غادر الحاج أحمد المدبغة بعدما شعر أنَّ اللوم وقع عليه بدل أن يقع على المخطئ الحقيقي.

أخو إمي التاني، خالو أحمد الله يرحمه، كان وقتها عايش كمان في جدة، وضل عايش فيها لآخر أيامه. كان يعطي دروس خصوصية في الرياضيات لأولاد الملك، ويشتغل محاسب عند واحد من الأمراء. قدر خالو أحمد يحوِّش مصاري من شغله وفتح مطبعة في جدة سمّاها مطبعة الشرق الأوسط[1]. فلما ترك أبوي المدبغة راح عند خالو أحمد ومسك إدارة المطبعة.

في هديك الأيام كل تعاملات البيع والشرا بتصير بالمصاري، وخبّرنا أبوي إنه كل مسا بعد ما يخلص الشغل، يحمل شنطة مليانة مصاري ويروح فيها ع البنك. المطبعة وقتها كانت تحقق أرباح كويسة من طباعة الكتب ودعوات الأعراس. بس في يوم إجى خالو أحمد وقال له الحسابات مش زابطة، وأبوي كان زَلَمِة عنده عزة نفس وما قبل هالكلام، فترك المطبعة وقرر يرجع ع فلسطين، بس ناس هناك نصحوه يجرّب أبو ظبي. وقتها قليل عندنا اللي سمع بأبوظبي أو كان يعرفها،

---

(1) حوّش: يعني جمع، سواء كان مالًا أو أشياء أخرى. وللطرافة، يُستخدم الفعل «حوّش» بشكل مجازي وتهكمي أحيانًا للإشارة إلى حمل المرأة في بعض قرى طولكرم. فيُقال مثلًا: «مرة أحمد حوّشَت؟»، وهو تعبير يعني «هل هي حُبْلَى؟»

وبعضهم فكروا اسمها «أبوضبع». وهيك قرر أبوي يركب الباخرة ويروح على أبوظبي.

في تلك الأيام، بداية الستينيات، افتقرت منطقة الربع الخالي إلى وجود شبكة طرق سريعة تربط بين أبوظبي وجدة، لذا كان معتادًا حينها لدى العمّال التنقُّل بين المدينتين عبر السفن. كانت ستمر سنوات قبل أن تنال أبوظبي حظَّها من الثروة النفطية، لكن الناس في المنطقة توقعوا أن تغدو أبوظبي أرضًا جديدة للفرص.

أبوي أول واحد من قريتنا بيروح على أبوظبي، بيقولوا إنه هوّ اللي عمل شبكة الصرف الصحي في قصر الشيخ خربوط، حاكم أبوظبي وقتها. وهيك، من بعده، كتير ناس راحوا على أبوظبي، كتير منهم من كفر راعي. سبعة من قرايبي عايشين هناك، وعمتي وسيلة عاشت وماتت واندفنت هناك.

في أبوظبي، التي كانت لا تزال حينها تحت الانتداب البريطاني، عاش الحاج أحمد في بيت من طابق واحد سقفه من زنك. ورغم فضائل حياة العزوبية، فقد كانت حياةً خاوية، مثقلة بالوحدة والتوق إلى عائلته ووطنه.

أبوي وإمي كتير كانوا يبعتوا رسايل لبعض، وأبوي يستنّاهم على نار. إمي تكتب له قديش هي مشتاقيتله وتتمنى يكونوا مع بعض، وبقَلْب الرسالة تحطُّله صورنا اللي كنّا نتصورها باستوديو التصوير بجنين. على ضهر صورتها مع سوزان كتبت له «السيجارة اللي جنب إيدي يا ليت أنا أعطيك إياها».

في بيته في أبوظبي، كان الحاج أحمد يطهو وجباته على بابور الغاز ويغسل ملابسه بماء البحر؛ المياه الصالحة للشرب حينها كانت تُشحَن من عُمان. اعتاد قضاء أغلب نهاره ما بين العمل والبيت، وفي المساء يجتمع برجال فلسطينيين آخرين على شرب الشاي. ذهابه إلى صلاة الجمعة وحضور الخطبة كان ذروة أحداث الأسبوع، ليس فحسب بصفتها واجبًا دينيًّا، بل بصفتها مناسبة اجتماعية.

هكذا سارت حياته على مر السنين، عدا فصول الصيف التي كان يقضيها في فلسطين. وفي تلك السنين، سيفوته حضور ولادة أغلب أطفاله، وسيكون آخر من يعلم بموت عزيز في القرية. ظلَّت حياته تسير على هذا المنوال إلى أن جاء العام 1988، حين أجبره مرض السكري على العودة النهائية.

لما إجى أبوي عندنا بصيف 1969، كنت صغيرة كتير وما بتذكَّر وجوده معنا. خبروني إنه قعدت اتطَّلَّع عليه وأبتسم. كنت عارفه إنه أبوي لأنه إمي ضلت دايًما تفرجينا صوره وتحكي عنه، وكانت تقرأ لنا من رسايله الكلام اللي يحكيه عنا. دفشتني إمي حتى أحضنه، وأخيرًا حضنته لأنه كان حامل لي هدية معه. قضيت هديك الأيام وأنا بحوم حواليه، وهالشي عجبه. كنت أصغر بناته وقتها، وبعمر فش شي تعمله البنت ممكن يشوفوه الكبار غلط ويعاقبوها عليه. لهيك قضّى أبوي هديك الصيفية يدللني، بس الوقت اللي جمعنا كان قصير، ومثل ما ظهر فجأة في حياتنا، بسرعة غاب عنها.

3

1970

كانت حياة عائلة صوالحة حياةً روتينية قبل مجيء الأبناء الذين سيكبرون ويلتحقون بالمقاومة، فيرفعون رأس العائلة، ويجرُّونها في الوقت ذاته إلى سلسلة من المآسي.

كل يوم، تستيقظ مايدة باكرًا في غرفة لا أثاث فيها سوى فرشات على الأرض وخزانة ملابس بيج أُهدِيَت لها في زفافها. خلف باب من الأبواب، نقشت مايدة أسماء بناتها الثلاث وتواريخ ميلادهن. بيتها ليس سوى كتلة أسمنتية عديمة الشكل، والطابق الثاني لم يكن قد اكتمل بناؤه بعد لدى ولادة سيرين. وهكذا، عاشت العائلة في غرفتي التسوية، مع درجٍ يفصل بينهما.

إمي ما انتقلت على دارنا إلا بعد ما ولدت أختي التانية ميسون في 1964 . بأوّل زواجها، عاشت إمي بدار عيلة أبوي. عيلة أبوي كانوا من الحارة الشمالية، وعيلة إمي من الحارة الجنوبية، بينهم يا دوب خطوتين. بعد ما تجوزوا إمي وأبوي، إمي راحت تسكن ببيت حماها لأنه هيك التقاليد عندنا. لكن بسرعة صارت مشاكل بينها وبينهم لأنها ما جابت

ولد، وصاروا ينادوها إم البنات. بمرة من المرات، وإمي تسحب ميّ من البير، سمعت ستّي حبوبة ومرت عمي بيتوشوشوا إنهن بدهن يدفشنها بالبير حتى يقدر أبوي يتجوز مَرَة تانية[1]. أبوي وقتها كان بأبوظبي، فراحت إمي وخبّرت أبوها. ولما سمع سيدي أصرّ إنه يشتريلها قطعة أرض من صهره حتى تبني إمي دارها عليها. بالأول إمي ما رضيت. طول عمرها إمي كانت تعمل حساب للتقاليد، وبما أنها تجوزت رجّال من حارة تانية فما بتقدر تنقل منها.

بالأخير خالي أقنع إمي وصار عندها قطعة الأرض، 200 متر مربع تقريبًا، وسيدي عطاها مصاري حتى تبني الدّار.

بتذكّر أوقات كتير كنت أشوف إمي قاعدة الصبح، حاطة رجل على رجل، منزلة راسها وتتطلع ع كاسة الشاي نص المليانة، ويا الله ريحة الميرمية ما أزكاها. كنت بسمعها تتنهد وتقول «يا بيِّ يا بن حبوبة! رحت وغلَّبتني!» كانت عادتها تنادي هيك على أبوي الغايب اللي راح يشتغل في أبوظبي وتركها لحالها تربي ولاده.

تخَيَّل إمي بعمر الخمسة وعشرين، كانت وحدها تحرث الأرض وتبني البيت وتطعمي بناتها التلاتة، وإخواتها الأربعة تركوا فلسطين وراحوا ع فرنسا وإسبانيا والسعودية، بس واحد من خوالي ضل مع سيدي بالقرية. وسيدي أصر إنه إمي تعيش حياتها معتمدة على حالها مو عليه، وإنه أبوي اللي يصرف علينا.

---

(1) يِتْوَشْوَش: يَتَهَامَس.

مايدة وجدت كرامتها في أرضها، حتى إن عنى ذلك تولّي رعايتها دون مساعدة من أي أحد، حتى إن عنى رؤيتها الصهاينة يستولون على الأراضي غربًا، في الجفتلك وفصايل والعوجا وغيرها، وإدراكها أنَّ استعمار الأرض ومصادرتها موتٌ بطيء سيلحق في نهاية المطاف بها، وعن قريب. غير أنَّ هذه هي حياتها الآن، هي من قررت العودة والبقاء. تقبَّلت مايدة هذا المصير وعاشت معه، كما نفعل نحن، مع شيء من المرارة والشكوى.

على رأس التل، خمسة بيوت فحسب تحاوط بيت مايدة وبناتها. وفي الحارة، مقابل الحوش، ديك أم فريد يصيح فجرًا في الظلمة، كل يوم، موقظًا سيرين.

لما تدخل الدّار، بتلاقي أوضة على يمينك، هَيْ الأوضة كنّا ننام فيها إحنا البنات، وضلينا ننام فيها حتى بعد ما كبرنا. بعد ما كانت إمي تصحّينا الصبح، كانت تحط فرشاتنا فوق بعض وتسفِّط حراماتنا وتشيل الحصيرة عن الأرض[1]، وهَيْ الحصيرة إمي كانت تفرشها بالليل عشان لا نبرد من الاسمنت المسقِّع تحتنا[2]. كانت تلمّ كل إشي

(1) سَفّط: يعني طوى الشيء ورتّبه بوضع الأشياء فوق بعضها. يُستخدم هذا الفعل في اللهجة الفلسطينية للإشارة إلى تنظيم الأغراض بشكل مرتب، مثل: «سفّط الغسيل» أي طوى الثياب بعد أن نشفت ووضعها فوق بعضها بشكل منظم، أو «سفّط الحرامات» أي طوى البطانيات ورتّبها فوق بعضها.

(2) مْسَقِّع: تعني بارد في اللهجة الفلسطينية، وتُستخدم لوصف الطقس أو الأشياء الباردة، أو حتى ذو الشخصية الباردة والنكت السخيفة. فعندما يُقال «سقّعت الدنيا» يُقصد بها أن الجو أصبح باردًا. أما الاسم منها فهو «سَقْعة»، وهي مأخوذة من كلمة «صقيع» في اللغة العربية الفصحى، وتدل على شدة البرودة.

بصُرَّة وتحطها في الزاوية، وهيك الأوضة تصير فاضية تمامًا. الأوضة التانية، على شمالك، كانت غرفة نوم إمي وأبوي. بالنهار، كنّا نرتب عليها المخدات والفرشات ونعمل زي قعدة عربية، وهناك كنا ناكل ونقضي يومنا. بعدها، لما صار عندنا كهربا، حطينا فيها تلفزيون. بين الأوضتين كان في درج، وبيت الدرج صار بيت المونة اللي نخزن فيه الأكل ومونة الشتا[1].

وقتها ما كانش عندنا مطبخ، كان عندنا بس بآبور تحت الدرج وكنا قليل ما نستخدمه[2]، إمي كانت تطبخ دايمًا في فرن الطابون بره. وكمان ما كانش عندنا حمّام، كان عندنا بيت الخارج، حفرة في الأرض وحواليها تلات جدران اسمنت وتغطيه ستارة، ويا بّييه قديش كنا نخاف نطلع ع

---

(1) تُسمّى غرفة المؤن في لهجات القرى الفلسطينية بـ«تَقْعِيدِة» أو «بيت المونة»، وهي المكان المخصص لتخزين المواد الغذائية بكميات كبيرة. ومن المهم التفريق بين مكان تخزين الطعام مثل «بيت المونة»، وبين مكان حفظ الطعام اليومي من الحشرات، خاصة النمل، والذي يُعرف بـ«النمليّة». والنملية هي خزانة خشبية تتكوّن عادةً من ثلاثة رفوف، وتُوضع في المطبخ لحفظ الطعام المطبوخ أو الجاهز للأكل. سُمّيت بهذا الاسم لأن الناس يعتقدون أنها تساعد في حماية الطعام من النمل والحشرات الأخرى، بفضل تصميمها المغلق وشبكاتها المعدنية التي تسمح بالتهوية وتمنع دخول الحشرات.

(2) في الثقافة الفلسطينية، كما هو الحال في سائر الدول العربية قديمًا، كان يُطهى الطعام باستخدام أحد هذه المواقد التقليدية: البابّور، البريموس، والطبّاخ. تختلف هذه الأدوات في نوع الوقود الذي تستخدمه وطريقة تشغيلها. البابور هو موقد تقليدي يعمل بالكاز أو الكيروسين، ويحتاج إلى ضغط يدوي وتسخين مسبق ليبدأ في العمل. يُعرف البابور بصوته العالي ولهيبه القوي، ويُعدّ من الأجهزة الأساسية في كثير من المنازل في تلك الفترة. أما البريموس، فهو نسخة أصغر وأكثر قابلية للحمل من البابور، يُستخدم بشكل رئيسي في الرحلات والمناطق الريفية، ويعمل أيضًا بالكاز أو الكيروسين، ويحتاج إلى تسخين مسبق. بالمقابل، فإن الطبّاخ يعمل بالغاز.

الحمام في الليل، فإمي حطت نونيّة عندنا في الأوضة بدل الحمام، والصبح نرمي اللي فيها بَرّه.

كانت إمي تسخِّن الميّ وتحمِّمنا بزاوية الأوضة اللي ننام فيها[1]، بعدها تصفِّي مية الحَمام في الحاكورة وهالميّ تسقي أشجار الرمان والليمون واللوز اللي زرعتهم فيها.

ضل بيتنا على هالحال خمس سنين، إمي تبني فيه شوي شوي. وأخيرًا كَمَّلت الطابق الثاني بمساعدة أهل البلد، لكن حط في بالك هي بنفسها كانت تحضِّر جبلة الاسمنت.

تخطيط الطابق التاني بيشبه الأول - أوضتين يفصل بينهم ممر، ووحدة من هالأوضتين صارت غرفة نوم إمي وأبوي. وركَّبت إمي حمّام افرنجي في البيت، بس قفلت عليه. قالت إنه لما نسحب السيفون كنّا بنكبّ ميّ كتير، فخلتنا نكمل ع بيت الخارج بره، وضلت تحمّمنا بالأوضة.

⋙⋘

لم يكن لدى مايدة وقت في الصباح لسيرين وأختيها. ما إن يستيقظن، تكون مايدة قد ربطت منديلها على شعرها بعقدة خفيفة دون أن تشده، ارتدت شروالها الواسع وقميصها الطويل الذي يصل تحت الركبتين وجزمتها لكي تحمي نفسها من الطين والأشواك والغبار في أثناء عملها على الأرض. في دقائق معدودة من استيقاظ الجميع، وقبل

---

(1) حَمّم: قام بتنظيف شخص بالماء، سواء للاستحمام اليومي أو بعد اتساخه.

أن تشد مايدة رحالها إلى الأرض، تتمهَّل في الحوش للاعتناء بشتلات الطماطم والفلفل والنعناع التي زرعتها في الحوض الأسمنتي على حدود أرض البيت.

في النصف الأول من عام 1970، تتحرَّك مايدة متثاقلة وببطء نحو أرضها، حاملًا بطفلها الرابع، عقلها سارح فيما سيجري عليها إن أنجبت ابنةً رابعة.

خطواتها البطيئة منحتها الوقت الكافي للتدبُّر في التغيرات التي تجري حولها منذ عادت قبل ثلاث سنوات. فقد طوَّر الصهاينة خطةً للاستيطان والتوسُّع في الأرض المحتلة حديثًا، بعدما راكموا نصف قرن من الخبرة في التوسُّع ما قبل عام 1948؛ يستولون على الأرض ببطء، أعينهم على المدى الطويل، والوقت لصالحهم.

بعد حرب 1967 بأسابيع، كتب وزير الزراعة حينذاك، إيغال ألون، خطةً ستحمل لاحقًا اسم «مشروع ألون» وتقوم على مبدأ السيطرة على أكبر مساحة ممكنة من الأراضي مع تقليص الوجود السكاني الفلسطيني إلى حده الأدنى. مايدة لم تعرف بالخطة، لكنها سمعت ببناء المستوطنات الذي شرع فيه الصهاينة فورًا بعد الحرب، ومصادرة الأراضي الفلسطينية قسرًا في قطاع غزة والضفة الغربية، خصوصًا حول القدس. الاحتلال العسكري ما كان ليصمد دون مشروع المستوطنات، والمستوطنات ما كانت لتقوم لولا القوة العسكرية. حيثما توجد مستوطنة، لا بد من وجودٍ عسكري يرافقها لحمايتها. وفي حين لم تصادق حكومة الكيان الصهيوني على خطة ألون رسميًّا، فقد بدأت تطبيق سياستها في العقد

الأول من الاحتلال. وقبل نهاية العام 1967، أقام الكيان الصهيوني المستوطنة اليهودية الأولى في الضفة الغربية «كفار عتصيون»، تلتها مستوطنة «كريات أربع» في بداية السبعينيات.

في تلك الأعوام الأولى، سمعت مايدة أيضًا بتصاعد هجمات المقاومة ضد الاحتلال. فقد بدأت هجمات مسلحة في الضفة الغربية وقطاع غزة تستهدف قواعد جيش الاحتلال ومكاتبه الإدارية وعرباته العسكرية بالمتفجرات والقنابل اليدوية وعمليات التخريب. وفي غزة انبثقت حركة مقاومة جريئة شديدة البأس، مسلَّحة بالعتاد الذي تركته القوات المصرية خلفها في أثناء حرب الـ67. وإلى جانب المقاومة الداخلية، وجَّهت منظمة التحرير الفلسطينية، التي تأسست في القمة العربية في القاهرة عام 1964، ضربات عدة ضد جيش الاحتلال من مقر عملياتها في الأردن. مايدة تابعت كل هذه الأخبار عن قرب وباحترام عميق للمقاومين الفلسطينيين الذين يضحون بحياتهم. فهي تدرك أنَّ التحرير لن يتحقق إلا بالتضحية، وأحيانًا يراودها الخاطر بما كانت ستفعل دعمًا لهم لولا انشغالها بحملها وأرضها والاعتناء بأسرتها.

مع نهاية صيف 1970، شعر الملك حسين بالتهديد من وجود منظمة التحرير الفلسطينية على أراضيه، فشنَّ هجومًا كاسحًا على القوات الفلسطينية في المملكة. مايدة ارتعدت على وقع الخبر، واحترق قلبها. فجيش الملك حسين اقتحم مخيمات اللاجئين الفلسطينيين من نكبة 1948 ونكسة 1967، واقتلع الجناح العسكري للمنظمة بعدما قتل الآلاف.

في خضم تصاعد عمليات المقاومة، وفي يومٍ ربيعي بارد في كفر راعي عام 1970، تصاعد نواحٌ حاد وزعيقٌ صارخ من بيتٍ في الحارة الشمالية: مايدة تضع مولودها. سوزان وميسون هرعتا لطلب المساعدة، إحداهما ركضت إلى بيت إم علي الداية والأخرى إلى جدَّتهما الحجَّة ميثة. كلتاهما تزعقان على طول الطريق، «إمي رح تِلَد، إمي رح تِلَد». ما كان بوسع الطفلتين الصغيرتين سوزان وميسون فعل أي شيء آخر أكثر من هذا الصراخ لمساعدة والدتهما، فأرسلت الحجَّة ميثة الطفلتين مع أختهما سيرين إلى بيت جدهما على وقع صراخ أمهما طلبًا للعون من الله، وأمام محاولات إم علي الفاشلة في تهدئة أعصابها وهي تحاول إرشادها إلى الدفع كل بضع دقائق. ظلَّت مايدة تصرخ «يا بيِّيه... والله ما بعيدها... والله ما بعيدها».

بعد كل هذا الصراخ عمَّت الزغاريد القرية وكسرت رتابة يومها: مايدة ما عادت إم البنات.

وُلِد يوسف، والآن الكل سينادي على مايدة أم يوسف. لم تنقطع زغاريد البهجة عن بيوت الجيران، فابن العائلة الأكبر، بهجة العائلة وفخرها، ها قد وصل بالسلامة.

ما كان بوسع حماة أم يوسف إخفاء بهجتها، وزَّعت الحلوى على أرجاء بيوت القرية ورحَّبت بالكل لزيارة حفيدها. أهل القرية لبّوا النداء وتوالوا على زيارة البيت، البعض منهم أحضر نقودًا ودسَّها في لفَّة الرضيع، وآخرون أهدوا ملابس، وآخرون أهدوا قلائد الخرزة الزرقاء لكي تحميه من العين. وحرصت الحجة ميثة أن تشرب ابنتها من «شوربة

الولادة»، وهي شوربة دجاج مع أرز وبقدونس معروفة بأنها تمد جسد الأم بالقوة بعد إنهاك الولادة. كما أعدَّت لابنتها صحنًا من المكسرات بالقرفة، يُعتَقد أنه يساعد الرحم على التشافي.

الحاج أحمد، الذي بات يحمل كنية «أبو يوسف» بعد ولادة ابنه، لم يكن موجودًا في ذاك اليوم السعيد، ولا كان متوقعًا حضوره. فهو سيغدو دومًا، في لحظات عائلية كثيرة كهذه، غائبًا في أبوظبي. لم يسمع بولادة ابنه إلا بعد أيام عبر رسالة تلغرام. وحين عاد أخيرًا من أبوظبي ذبح خروفين للقرية، وأحضر معه أثوابًا مخملية لكبار نساء العائلة.

4

1972

أم يوسف كانت في البيت ترضع ابنها الثاني إيهاب، وأبو يوسف كان معها في عودته الصيفية إلى فلسطين. كان قد عاد للتو من مشيه الصباحي بعد شرائه الجريدة، وما أن وصل رماها أرضًا عند زوجته، وسرعان ما لمحت العنوان:

انفجار في بيروت

اغتيال غسان كنفاني وابنة أخته ذات السبعة عشر عامًا

تنهَّدت أم يوسف تنهيدة طويلة؛ فزوجها التقى كنفاني في الكويت. وها زوجها الآن جالسٌ في الجهة المقابلة من الغرفة، يحتسي الشاي أمامها بصمت، يحدِّق إلى الأرض بعينين منكسرتين. إذ رغم الروح الثورية الفلسطينية التي عمَّت تلك الفترة، أثقلت الضربات القاسية خلال السنتين الماضيتين كاهل أم يوسف وأضعفت قوى الجميع. ففي أغسطس عام 1970، شنَّت قوات الاحتلال هجومًا شرسًا على غزة بهدف «تهدئة الأوضاع فيها»، ومع حلول ديسمبر عام 1971، كانت قوات الاحتلال قد أوقعت 742 فدائيًّا فلسطينيًّا ما بين قتيلٍ وأسير.

ووصل إلى مسامع أم يوسف الخبر بأنَّ كل من يُطعِم أو يأوي فدائيًّا، كل من رأى فدائيًّا أو سمع به، سيلقي الجيش القبض عليه. العديد من الفلسطينيين ممن انتهى بهم الحال إلى السجن لم يكونوا مهيَّئين للتعامل مع التحقيقات وتحمُّل التعذيب، وهكذا استغل الاحتلال عددًا منهم في تأسيس شبكة من المخبرين لصالح الجيش - لتصبح عمليات القبض هذه ضمن أدوات الاحتلال الكثيرة في تجنيد العملاء.

الأخبار التي وصلتها عن الأحداث في الأردن لم تكن مشجعة هي الأخرى. فمع حلول ربيع 1971، حوصر المتبقي من الفدائيين من منظمة التحرير الفلسطينية في أحراش جرش وعجلون، حيث واصلت القوات الأردنية عملياتها القتالية لاستئصال آخر معاقل المنظمة في الأردن. وبلغت الشدة والضراوة بهذه المعركة حدًّا دفع الفدائيين إلى اختيار الاستسلام لقوات الاحتلال في الجهة المقابلة من نهر الأردن عوض مواجهة الإبادة على يد جيش الملك. حينذاك، لا أحد من عائلة صوالحة كان منخرطًا في العمل الفدائي، مع ذلك صَعُب على أم يوسف صمُّ أذنيها عن هذه الأخبار وإقصائها من حياتها اليومية حتى إن أرادت. وزاد وجود زوجها معها صعوبة محاولتها، إذ ما فتأ يتابع الأخبار ويؤيد فدائيي منظمة التحرير الفلسطينية بحميَّة، وبقلبٍ معلَّق بأمل رؤية فلسطين تتحرَّر عن قريب.

كانت سيرين طفلة صغيرة حينذاك ولا تتذكَّر اغتيال كنفاني وبقية تلك الأحداث. تتذكَّر فحسب رمي الحجارة بين وقتٍ وآخر في قريتها الهادئة، وما سمعته من أمها وأختيها الكبيرتين ومن الجيران.

سمعت كتير عن أحداث الأردن من جارتنا أم فريد. في السبعينات ابنها بشير انضم للفدائيين حتى يحارب الاحتلال ومن يومها ما رجع. كل أكمَّن شهر، كانت أم فريد تجمّعلها شوية مصاري وتنزل فيهم ع الأردن تدوِّر عليه. عمرها ما صدقت إنه مات وهو بيقاتل، مع إنه كل نسوان الحارة صاروا ينادوا عليها أم الشهيد.

بذلت أم يوسف أقصى جهدها لكي تنأى بنفسها وعائلتها عن الانخراط في السياسة، وصبَّت كامل تركيزها في إدارة شؤون العائلة التي تركها أبو يوسف بغيابه في عهدتها. وما إن يبلغ أحد أطفالها سن الخامسة، فورًا تضع على عاتقه مسؤولية المشاركة في أشغال البيت والأرض. طبعًا هذا النظام لم تطبقه مايدة على ابنها يوسف المثير للمشاكل وفقًا لشقيقاته، ومع ذلك، ما كانت لتتقبل أي انتقادٍ يطاله قائلةً «ابني ما بيغلط».

لكل ابنة في البيت مهامها المنزلية المسؤولة عنها، وكل ابنة ظلَّت تؤديها إلى يوم زواجها وانتقالها من بيت والديها. سوزان كانت المسؤولة عن تنظيف البيت ومسح الغبار، وميسون عن الجلي، والجلي وقتها تطلَّب الخروج من البيت واستخدام طشتين مليئين بالماء، أحدهما للأطباق النظيفة والآخر للأطباق المتسخة. وما إن بلغت سيرين الخامسة، تولت مسؤولية غسل الملابس.

يا بّييه قديش كانت شغلة مرهقة. كنت أحمل طشتين حديد من تحت الدرج، واطلع فيهم ع الحاكورة ورا البيت، وهناك أعبي كل طشت فيهم للنص بمَيْ من بير الجنينة، وأقعدلك ساعة وأنا مْقَرْمِزة[1]، أَفْرُك

---

(1) مْقَرْمِز: اسم فاعل من الفعل «قَرْمَز»، ويعني جلس بوضعية القرفصاء، أي عندما يثني الشخص ركبتيه ويجلس دون أن يمد ساقيه، بحيث يكون قريبًا من الأرض.

هالأواعي بصابونة زيت الزيتون اللي عملتها ستّي الحجّة ميثة[1]*. عزاي الوحيد وقتها ريحة الياسمين اللي كانت تعبّي الحاكورة، لهلا بتذكرها وعمري ما رح أنساها. بعدها بشطف الأواعي في الطشت التاني، وبعد ما أخلص بنشرهم ع حبل الغسيل. وبعد ما أخلّص الغسيل بساعد أختي ميسون بتنشيف الصحون. ووقت ما بتنشف الأواعي بكويهم بمكواية مسطَّحة إمي كانت بتسخِّنها ع بابور الكاز.*

يا ويلنا إذا وحدة فينا ما مشيتش زي ما بدها إمي، عطول كانت تسلخنا كف أو تضربنا بالمقشَّة أو أي إشي تلاقيه بوجهها عشان «تربينا». بتذكّر في يوم إمي كانت طالعة بره وحبّينا أنا وخواتي نفاجئها وننضف لها البيت كله، ونليِّفلها حتى الحيطان[2]*. بس وحدة منهم وهي بتمد إيدها من فوق السلم وقَّعت الكاز بالغلط وانكب على أكياس السكر والطحين، ووقعنا كلنا بمصيبة! وبدل ما نشوف الابتسامة على وجه إمي زي ما تخيلنا قبل ما ننضف البيت، هرتنا ضرب بعصاية الرمَّان! بعدها حاولت إمي تصفّي السكّر من الكاز بإنها تنشفه تحت الشمس، بس فش فايدة، ضلينا لشهور ندوق طعم الكاز في الشاي اللي كنا نشربه.*

لا يسعني تصوُّر أي متعة في تلقِّي طفلة صغيرة ضربًا مبرحًا على هذا النحو، لكن سيرين وهي تستذكر هذه الحادثة انفجرت ضاحكة.

---

(1) فَرَك: دعك الشيء بقوة باستخدام اليد أو فرشاة أو قطعة قماش بهدف تنظيفه.

(2) لَيّف: في اللهجة الفلسطينية يعني «نظّف بالدّعك»، ويُستخدم هذا الفعل عند الحديث عن تنظيف الأواني أو الأسطح باستخدام ليفة أو إسفنجة. فيُقال مثلاً: «ليّف الصحون» أي قام بفركها جيدًا لتنظيفها.

في ذاك العام، تحوَّل بيتٌ مهجور من طابقين في كفر راعي إلى روضة أطفال. فبعد حرب الـ67 انتشرت البيوت المهجورة في أرجاء الضفة الغربية، والعائلة المالكة لهذا البيت انقطعت أواصرها به نهائيًّا.

لما صار عمري ست سنين، العيلة اللي كانت بتملك البيت المهجور حكوا مع قرايبين إلهم في البلد، وطلبوا منهم يؤجروا البيت حتى يصير روضة. بتذكّر منيح إني كنت البنت الوحيدة بين الولاد. حط في بالك إنه إحنا مش عايشين في رام الله أو القدس أو حتى جنين، إحنا عايشين في كفر راعي، ووقتها قليل اللي كانوا بيبعتوا بناتهم على مدارس، خصوصي ع الروضة. أكيد هلّا الوضع عادي، لكن وقتها ما في عاقل بيبعت بنته ع الروضة، بس إمي كانت محتاجة تركز بشغل البيت، وأنا كنت بعمل مشاكل بالدار، فساعتين بالروضة كانوا يريحوها مني.

قضيت وقت حلو بالروضة ولعبنا وعطونا أنشطة كتير. بتذكّر إني وقفت مرة ع المسرح وغنيت نشيدة «يا بائع التفاح يا منعش الأرواح»... آخ، مش قادرة أتذكر بقية النشيدة، رح أتذكرها، استنى بس، كلماتها معلقة بذاكرتي!

سيرين كانت محاطة بالأولاد في الروضة، لكن مع انتقالها إلى مدرسة البنات الابتدائية، لم تسمح لها أمها بالاختلاط بهم خشية تناقل جيرانها الكلام عن ابنتها وتشويه سمعة العائلة. هكذا، رغم قضاء حياتهم في قرية صغيرة، نادرًا ما تقاطع دربها بدروب أيٍّ من أصدقائها.

بجوز نسيت أبيات النشيدة، بس بنساش وجوه الولاد اللي كانوا معي في الروضة. لحد هاللحظة بشوف الضحكة على وجوه هالولاد

وشيطنتهم بأحلامي، ولهلّا ببكي عليهم. بتذكَّر كيف كنا كلنا نلعب ببراءة مع بعض واحنا صغار، جوَّه الروضة وبرَّه في الحارات، قبل ما تمنعني إمي من الحكي مع أي ولد.

كان في ولد معنا في الروضة مريض بالقلب، ولأنه الأضعف بيننا كنا نتمسخر عليه. كنا وقحين ولؤما معه، والولاد اللي من عمري كان يعملوا فيه مقالب. بتذكَّر كنا نروح ع الروضة ومعنا سندويشات، بس هو كان فقير كتير وما كان بيجيب معه أكل ع المدرسة، فأوقات كان يطلب ياكل معنا. مرة أخذوا بواقي الخبز ونقعوه بالمي، وجبروه ياكلها كلها.

هالولد مات بسبب مرضه بعمر العشرين. ولما إمي رنَّت عليّ بالأردن وقت كنت أدرس بالجامعة هناك حتى تبلغني خبر وفاته، ما بتتخيّل قديش حزنت عليه، وحسيت بالذنب على كل اللي عملناه معه، مع إنه مر وقت طويل.

هالولاد صاروا رجال هلّا، وما بصدق عيني لما بشوفهم. الواحد فيهم صار عنده كرش وشعره شيّب، وبعضهم صلَّع. كتير منهم انسجنوا وقضوا سنين بالسجن، وهلّا صار عندهم أولاد، وبعضهم جوَّز ولاده.. يا الله وين راحت كل هالسنين؟ وين راحوا الولاد اللي كنت ألعب معهم؟

آ تذكرت النشيدة!

يا بائع التفاح، يا منعش الأرواح

تعال في الصباح، يا بائع التفاح

وأطرِب الآذان، بصوتك الرنّان

بعد دخول سيرين الروضة بعام أغلقت أبوابها، وإلى اليوم لم تعرف سيرين السبب. ومنذ ذاك لا يزال البيت قائمًا، مهجورًا، ولا يزال مصير أصحابه الموت في المنفى.

مع دخول البنات المدرسة وتقدمهن في العمر، ازدادت مسؤولياتهن المنزلية. توجَّب عليهن أولًا إلباس أشقائهن الأصغر. وإن كانت أمهن تعمل في الأرض، فواجبهن إعداد الفطور وتوضيب فرش النوم. أما الأولاد الذين ازداد عددهم فلم يتحمَّلوا أي مسؤولية تُذكَر، وبات على البنات الآن مسؤولية تنظيف الأوساخ التي يخلفها أشقاؤهن. وبعدما ينتهين من واجب العناية بأشقائهن الذكور، بعدها فقط، يتسنى لهن ارتداء الزي المدرسي وإعداد حقائبهن ووجبتهن المدرسية.

في العادة، كانوا بنات الحارة يمروا علينا حتى نمشي سوا ع المدرسة، وأوقات كتير يستنونا عشر دقايق في آخر النَّزلة، بس بعدها يمشوا من غيرنا حتى لا يتأخروا[1].

بالأيام اللي كنا نتأخر فيها ع المدرسة، كانوا معلماتنا يخلّونا نصفّ ع الحيط ويطعمونا قتلة. مرة ميسون وسوزان رجعوا ع البيت وما كملوا الطريق عشان ما كانش بدهن ينضربن مرة تانية. قالولي احكي للمعلمات إنه مرضنا. يومها ما قدرتش أرجع معهن، وكملت طريقي لحالي لأنه كان عندي امتحان.

(1) النزلة: الطريق المنحدر.

إمي كانت بتضربنا بعصاية الرمّان، ويا بيّيه قديش كانت هالعصاية قاسية وبتوجّع. كانت بتضربنا على أصغر غلطة، وأثر الضَّرب يعلِّم علينا لأيام، ولما تضربنا كفّ على وجهنا كانت تعلِّم أصابعها علينا لأسابيع. أنا وخواتي عمرنا ما حفظنا سر لبعض، لأنه أول ما يبدا الضرب، على طول الوحدة فينا تفتن ع التانية.

مرة وأنا عمري سبع سنين رحت ع الدكّانة، صاحبه شاب وعمه متجوز خالتي، يعني من قرايبنا. سألني يومها عن اسم أختي سوزان، ولما رجعت ع البيت خبَّرتها إنه سأل عن اسمها، وهي على طول راحت وخبَّرت إمي، وما تتخيَّل الضرب اللي أكلته يومها. إمي خافت هالشاب يكتب رسايل حب وغرام لأختي ويفضحنا بالقرية ويخلي سيرتنا على كل لسان. إمي كانت تخاف من هالقصص ودايمًا تردد علينا المثل «إذا ضحكت البنت وبان نابها، الحقها ولا تهابها».

يعني إذا البنت ابتسمت بوجه شاب معناها اسْتَحْلتُه[1]. لهيك منعتنا نهائي نضحك بصوت عالي، ومنعتنا من القهقهة، هالضحكة اللي بتطلع من قلبك وبتخليك تدمِّع ووجهك يكرمش. وهلا، بعد ما أنا كبرت، صارت إمي دايمًا تشكي إنه ما عم تشوفني مبسوطة، تقول عني إني كئيبة، وكم مرة سألت زوجي إذا بشرب أو بوخد حبوب اكتئاب. الظاهر نسيت قديش كنا نمزح ونضحك زمان، وقديش أكلنا ضرب منها لهالسبب. لهيك، من بعد ما حرَّمت علينا الضحكة، بطّلت أضحك قدامها.

---

(1) استحلى: أعجب بشيء أو شخص، ومال إليه، وأصبح يود التقرب منه أو الاستمرار في التفاعل معه.

5

1974

في 12 شباط، بعد سنتين من وقت ما إمي ولدت ابنها التاني إيهاب، ولدت ابنها التالت: إياد؛ يا الله قديش الجيران انبسطوا النا يومها. وبهيك اندفنت سيرة «إم البنات» نهائيًّا وما عاد حدا يحكي فيها.

بتذكّر كيف الكل بعيلتي كان مبسوط، وحسينا إنه ربنا مبارك فينا. وبتذكّر كمان إنه صار حكي كتير على اسم المولود، بالضبط زي ما صار مع إيهاب. وحدة اقترحت إنه نسميه إياد، بس إمي عارضت الاسم وقالت «بلكي كبر وصار زي إياد إسماعيل»، ووحدة من الجارات قاطعتها وقالت «لا، بكبر ويصير زي إياد زكي». وقتها كان إياد زكي الأول ع صفه، أمّا إياد إسماعيل فكان يشتغل بمصنع في فلسطين 1948 وطعن صاحب المصنع وقتله لأنه سبّ عليه وذلّه، وحكموا عليه مؤبد. بعدين فهمت ليش إمي كانت قلقانة من هالاسم.

ما بتذكّر وجه إياد لّما انولد، كل اللي بتذكره الصدمة والألم اللي عشتهم يوم ولادته.

يومها وقعت ببِير، وبعرفش كيف ربنا نجاني من هالوقعة. لما حملوني

من البير كنت مغيبة والدم مغطيني، انكسر سن من أسناني وانجرحت شفتي. اللي بتذكره إنه لما صحيت جنب إمي لقيت إياد معنا.

بس خليني أحكيلك شغلة، هالوقعة انكتبت لي قبلها بشهور، وقت دغّمت[1] وجابوا التمرجي عشان يغزني إبرة. إمي ويوسف وإيهاب كانوا بالدّار لما إجى التمرجي أبو سامي. قعد جنبي على الفرشة وحط إيده على جبيني، كانت حرارتي كتير مرتفعة.

طلَّع أبو سامي السرنجة ودخّلها بقنِّينة، بعدين سحبها، كبس عليها، ونقَّطت ع الشراشف. أنا شفت هالمنظر انجنّيت، وبلشت أصرخ وأقاوم حتى أهرب.

«اثبتي حبيبتي، اثبتي» ضل أبو سامي يحكي حتى يهدّيني.

إمي ثبتتني عشان يقدر أبو سامي يغزني الإبرة بفخدي، وأنا هَسْتَرت. حبيبي إيهاب ما تحملش يشوفني هيك ومد إيده ع التمرجي حتى لا يغزني الإبرة، بس لحظتها كان أبو سامي بلَّش ينفّس فيني الإبرة[2]، وبدل ما يبعّد إيهاب إيد التمرجي عني دفشها أكتر فيني، وبدل ما تطلع السرنجة بره انكسرت إبرتها جوّه فخدي، والتمرجي صار ماسك بس نصها. صدمتي من اللي شفته رعّبتني ورعّبت الكل، ولا حدا نطق بكلمة.

صرخ أبو سامي «يا الله! يا الله!»

---

(1) دغّم: أُصِيب بمرض أبو كعب، وهو الاسم الشعبي لمرض النكاف. ويُسمّى مرض النُكاف في اللهجة الفلسطينية بـ«الدغام».

(2) ينفّس الإبرة: يضغط على الحقنة ليُفرغ ويُدخل الدواء الموجود فيها إلى جسم الإنسان.

صرت أنزف، وأبو سامي مات من الرَّعْبة وختّبر إمي تثبّت رجلي كلها، وطبعًا بلشت أنا أصرخ من جديد وبصوت أعلى. أما إيهاب إمي ما صرخت عليه لأنه ولد صغير ومش واعي للي عمله، وكمان لأنه فش وقت عندنا. كان لازم نروّح فورًا ع مستشفى في جنين حتى يطلعوا الإبرة منّي، تخيّل ضلّت إمي ساعة تحاول تلاقي سيارة تاخدنا.

أول إشي طلعنا ع المستشفى الحكومي، وهناك قالوا لنا إنه لازم يبتروا رجلي قبل ما تتحرك الإبرة وتقتلني. إمي ما قبلت أبدًا بهالحل، وحملتني ع مستشفى مسيحي خصوصي، مستشفى الإنجيلي بنابلس، وهناك قرروا يعملوا عملية يطلعوا فيها الإبرة من رجلي.

بتذكَّر هالحادثة منيح، حفرت وجعها فيّ وحفرت ندبتها على فخدي. مر وقت طويل بعد العملية لرجعت أمشي طبيعي. لهيك لما كنت ألعب مع صاحباتي يوم ولادة إياد، اختلّ توازني ووقعت بالبير. من يومها وإمي مُوَسْوَسِة، وأنا كمان.

بيقولوا «الثالثة ثابتة».

وهيك قضيت حياتي وأنا أستنى التالتة.

6

على مرِّ السنين، سافرتُ إلى كفر راعي ثلاث مرات لكي ألتقي بسيرين وعائلتها، وأختبر بنفسي حياة القرية. هناك رأيت ما رآه إياد، وعرفت عن كثب الظروف التي حثته على المقاومة. وفي الزيارات الثلاث لم أستطِع الالتقاء به. أخبرتني أم يوسف عن شخصيته المرحة، كيف يبعث الحياة في بيتها بمقالبه وضحكه. سيرين وصفته بالولد الشقي، كان قويّ البنية ونشيطًا، «يتشعبط» بالأشياء «وبينطنط» في أرجاء البيت، مما استدعى خالته عايدة إلى تسميته طرزان.

في عام 2005، استغرقت رحلتي على سيارة الأجرة ساعتين من رام الله إلى كفر راعي شمالًا، وفي الطريق اضطررنا إلى الوقوف عند ثلاثة حواجز تفتيش. كان سائق التاكسي يربط حزام الأمان كلما مررنا لدى حاجز تفتيش عند الشوارع الإسرائيلية المحظورة المتاخمة للمستوطنات، وما إن نعود إلى الشوارع الفلسطينية يفكّه، كما لو أنه يثور على قانون إسرائيلي آخر فُرِض عليه. بعد مرورنا على قرية الرامة، متجهين نحو كفر راعي، تحوَّل الطريق إلى شارعٍ مُهمَل ووعر، أرضية الشارع الأسمنتي

امَّحت تحت الرمال وبالكاد ظلَّ منها شيء، أصبح مجرد طريقٍ ترابي. خففت السيارة سرعتها لدى مصادفتنا راعي غنم يسوق قطيعه في منتصف الشارع، وما إن وجَّه قطيعه إلى جانب الطريق واصلنا مسيرنا. كان الوقت صيفًا، والتكييف في سيارة التاكسي معطَّل، لذا قضينا الرحلة مع الشبابيك مفتوحة، واختنقتُ بحرارة شمس الظهيرة وهبَّات الغبار.

تقع كفر راعي ضمن أربع قرى متجاورة شمال الضفة الغربية، تحاوطها ثلاث مدن رئيسة، نابلس جنوبًا وجنين شرقًا وطولكرم غربًا. أقرب قرية إليها قرية فحمة، والتي سميت بهذا الاسم إثر حريقٍ هائل اندلع فيها منذ زمن طويل وخلَّف بيوتها متفحمة. لكنها أيضًا معروفة لوجود قاعدة عسكرية أردنية سابقة خارجها، تحوَّلت فيما بعد إلى مخيم محصَّن لحماية العملاء الفلسطينيين بعد انكشاف عمالتهم.

سبق أن ذكرت سيرين هذا المخيَّم في إشارة عابرة. كان قد تفكَّك قبل وصولي بوقتٍ بعيد، وجرى نقل العملاء إلى مدن في الخط الأخضر، ضمن حدود (دولة إسرائيل) المعترف بها لدى الأمم المتحدة، وذلك بعدما أصبحت قرية فحمة تحت السلطة الفلسطينية في عام 1995 ضمن اتفاق أوسلو. كثيرًا ما حدَّثتني سيرين عن شكوكها في هوية العملاء في قريتها، على الأخص حين تستذكر غارةً إسرائيلية على إياد أو نناقش ماضي المقاومة الفلسطينية وحاضرها. التعاون مع العدو -الخيانة- هي الخطيئة العظمى التي لا تُغتَفر، وسيرين لم تكن وحدها التي تلاحقها هواجس الشك وتعذبها. فهذه الهواجس تحتل عقل كل من يعيش في كفر راعي، ومن يعيش في فلسطين. وهم محقون في ذلك.

فالاحتلال مهووس بتجنيد العملاء وتحويل الفلسطينيين إلى عيون المشروع الاستيطاني الصهيوني وآذانه.

أما القرى الأخرى التي تحاوط كفر راعي فهي قرية الرامة جنوبًا وعِلّار وصيدا غربًا.

الصهاينة بيكرهوا كفر راعي وكل القرى اللي حوالينا. بالأول فكّرت إنهم بيكرهوا وجودنا على التلال لأنه عندنا بس طريق وحدة بتقطع القرية، فصعب عليهم يدخلوا ويسيطروا عليها. لكن هسه فهمت إنهم بدهم تلالنا عشان يبنوا عليها مستوطناتهم. لهيك وجودنا عليها عامل زي شوكة بزورهم، لأنهم بيعرفوا قديش إحنا متمسكين فيها، وطول ما احنا موجودين بيقدرش الصهيوني يبني عليها.

في القرى تُبنَى البيوت متباعدة عن بعضها، وهذا التباعد يضيق كلما اقتربنا من وسط البلدة القديمة. في ضواحي القرية حيث أقمت، لا أسمع صوتًا خلا أصوات الحيوانات وهبّات النسيم، يقطعها بين الحين والآخر صوت سيارةٍ عابرة.

في رحلتي الأخيرة إلى كفر راعي، قطعت الطريق في باص «سيرفيس» إلى جنين. يومها مررنا أولًا على قريتيْ عرّابة وفحمة حيث نزل بعض الراكبين معنا، والهواء هذه المرة كان لا يُطاق أكثر مما كان عليه في زيارتي الأولى؛ فقد أقاموا مكب زبالة في مدخل فحمة المتاخمة لكفر راعي، وخنقتني الرائحة النتنة.

قضيت صباحي الأول جالسًا في شرفة البيت المطلّة على المدى. يقولون إن بوسعك رؤية تل أبيب من أعلى نقطة في كفر راعي، عدا أنَّ

في ذاك الصباح اختفت المدينة خلف السديم. تأملت المكان حولي، أنظر مليًّا إلى انحدار التلال الصخرية الشبيهة ببساطٍ مرقَّع بمختلف ألوان الأشجار.

هكذا قضيت صباحاتي في كفر راعي، أنوس بين صفاء الذهن والشعور بعدم الارتياح. حين يصيح الديك وينبح الكلب وتحمل نسائم الصيف العليلة زقزقة العصافير إلى مسامعك، حين تهمهم التلال في المدى أسرار ندى الصباح وتحمل قصص المزارعين في طريقهم إلى حقولهم، للحظة ستنسى من يسيطر حقًّا على هذه الأرض. الطبيعة حولك قناعٌ يخفي السياسة المتشابكة فيها، وللحظة ستغدو معذورًا إن نسيت أنَّ هذا المدى في واقعه جدران سجنٍ كبير، أنَّ الأرض الممتدة تُصَيَّر يومًا بعد يوم أرضًا يستوطنها الغرباء. ربما هذا القناع رحمةٌ من الطبيعة، تمنح بها الناس لحظات من النسيان تصبِّرهم على تحمُّل الحقيقة بقية اليوم.

قضيت يومي الثالث مع سيرين، ومشينا إلى البلد معًا. كانت ترتدي بنطالًا لونه بيج، وقميصًا بلا أكمام تحت سترة قطنية بيضاء خفيفة، مع شال بلون اللافندر موشى بالزهور السوداء ينسدل على شعرها دون إحكام. لم يكن أبدًا لباسها الاعتيادي، فهي تميل إلى ارتداء ملابس تكشف ذراعيها وكتفيها، ملابس نابضة بالألوان الحيَّة الزاهية –الأحمر والأصفر والأزرق– وبدون حجاب.

أنا غير عن كل خواتي، الوحيدة اللي ما بلبس حجاب ومستقلة بحياتي عن الكل. طبعًا إمي مش راضية، ولحد هاللحظة بتفكّر إنه بتقدر

تجبرني أعمل اللي بدها إياه، وتقرر عني إيش ألبس ومين أشوف وكيف أتصرف.

أمشي إلى جانب سيرين، وأرى عينيها تمعنان النظر إلى تلال فلسطين أمامها وتحدِّثني عن ماضيها. أحيانًا حين تتكلم تتَّسع عيناها كأنها لمّا تزل طفلة صغيرة، تشير بإصبعها نحو الأماكن التي قضت فيها معظم وقتها، وبين وقتٍ وآخر يختنق صوتها بحشرجة حنينٍ كئيب متى تذكرت أناسًا رحلوا أو أماكن تبدلت وما عادت كما كانت.

معًا استشعرنا ندى الصباح الباكر في الجو اللطيف الضبابي، الدخان المتصاعد من طابونٍ قريب ملأ الهواء بعبق الخبز الشهي، والعالم من حولنا بدا هادئًا، لا نسمع منه شيئًا سوى ضرب مطارق البنائين الآتي من بعيد. وبينما كنا نواصل المشي وتشاركني سيرين قصصها، لاحظت عينيها تحدقان في المدى بنظرةٍ رقيقة، كما لو أنها تنظر إلى شيءٍ محدد لا أراه أنا، كما لو أنها تمعن النظر في كفر راعي القديمة لكي تساعدني أنا على تخيلها كما هي تتذكرها. وبين هذين العالمين كادت تفقد توازنها – بين عالمٍ مضى متشبثة به وعالمٍ تعيشه الآن.

حاولتُ استنباط ما تود سيرين مني رؤيته من خلال وصفها: الطريق الترابية الوعرة التي أصبحت الآن مرصوفة ومسطحة، والنزلة الرملية المنحدرة من بيتها إلى شارع القرية الرئيسي التي لقيت المصير نفسه لكي تتّسع لسيارات أكثر.

من بيت طفولة سيرين، كان للمرء أن يرى الأرض المرقعة بالأشجار ممتدة نحو قرية صيدا، وكان سيلمح قريتي برقين ويعبد. لكن الآن، لا

أرض ممتدة تراها العين، إذ تقطعها عشرات البيوت الجديدة التي بنيت على التلال في العقد السابق، وفي الليل تنير أضواء تلك البيوت المتناثرة الوادي بينها. خزَّرتُ عينيّ لكي أتصور مسارات الهرب عبر التلال ما بين كفر راعي وصيدا، والتي سمعت أنَّ إياد كان يسلكها لمراوغة محاولات جيش الاحتلال القبض عليه. لكان صعبًا عليه اللجوء إليها الآن! إذ تطلَّب الأمر وضع ثقته في كل صاحب بيت من تلك البيوت بألا يخبر الجيش عن مكانه.

على الطريق الرئيسي، بالقرب من بيتيْ أبو سرحان وأبو شكري، رأيت مسجدًا. لكن سيرين تجاوزت النظر إليه ورأت الحاكورة الكبيرة الموجودة فقط في ذاكرتها؛ سمعتْ صوت المؤذن من بعيد، نداؤه للصلاة كان سيصلها من جامع قرية يعبد. لكن ليس الآن، فالحاكورة الكبيرة استبدل بها مسجد، وتبعه تشييد خمسة مساجد أخرى في القرية. في طفولتها، المسجد الوحيد في كفر راعي كان موجودًا في شمالها، في قلب البلدة القديمة، مما جعل أذان قرية يعبد الأقرب إلى أهل كفر راعي.

لدى زيارتي الأولى إلى كفر راعي صدمني فقرها. إرثها تُرِك للذبول، والقليل فحسب من عمارة القرية القديمة لا يزال باقيًا. فور أن وطئت قدماي شوارعها، لفت انتباهي وجوه الفتية والشباب الذين قتلهم الاحتلال، ومن سأعرف عن قرب تفاصيل عن حياتهم. ترمقني أعينهم البالية، تلاحقني من بين الملصقات المتراصة على جدران القرية؛ ملصقات الشهداء مثبَّتة على ملصقات أقدم، والأقدم مثبَّتة على الأقدم منها.

كان البناء عشوائيًّا. أغلب البيوت مشيدة من طابقين أو ثلاثة، ويمكن تصنيفها عمومًا إلى فئتين. البيوت الموسرة الحديثة، المشيَّدة غالبًا بأموال أصحابها العاملين في دول الخليج، بيوتٌ ضخمة، مبنية من الحجر المصقول، ومرفقة بملاحق ودرجٍ منحوت وأعمدة رومانيسك، وقد تتضمن تماثيل على طراز فرساي. هذه الفئة من البيوت تمثّل الأقلية، أما أغلب البيوت فهي بسيطة التصميم ومبنية من الخرسانة وتُبنَى على مراحل. قد تُطلَى بعض تلك الكتل الخرسانية بالألوان، لكن ليس كلها. غالبًا سترى تلك البيوت في صفٍّ رمادي أو باهت بعدما تشقق الدهان على جدرانها. بعض البيوت لها سقفٌ مرصوف، لكن أغلب سقوفها مسطَّحة وغير مكتملة، وتظل أعوامًا على هذه الحال في انتظار أصحابها يشيّدون الطابق الثاني أو الثالث. أطباق الساتلايت وخزانات الماء السوداء منتشرة على سطوحها.

مع مرور الأعوام، باتت قرى بلاد الشام كثيفة بالبناء الخرساني وبالناس، مما صيَّر القرى أقرب إلى بلدات. وبعدما أُتيحَت الأرض المشاع للاستملاك، هجر الناس الزراعة واتجهوا إلى المدن. كذلك غيَّرت التقنية طرق المزارعين في حرث أراضيهم، والاقتصاد الجديد أجبر العائلات على السعي إلى تدبير معيشتهم في مناطق أخرى أو في بلاد بعيدة. البحث عن مصدر دخلٍ أعلى ووظائف مستقرة مزَّق أواصر العائلات، والاستعمار الاستيطاني ضاعف حدَّة التحول وسرعته من خلال تقييد حركة الناس وخنق حرياتهم والتضييق على خياراتهم المستقبلية. وفيما ثروةٌ جديدة بدأت تتراكم من أجور العمالة، تبدلت

حياة القرية الفلسطينية ماديًّا دون عودة، ويتجلَّى هذا التبدُّل واضحًا في البناء، بمواده وتقنياته الجديدة، وبتوزيع مساحات البيت وبنيته التي حصرت الحياة حول الأسرة النووية بدل الممتدة.

قادتني سيرين خارج الطريق الجانبي المؤدي إلى مدرسة الفتيان خلف دار أبو شكري. المشي إلى هذه المدرسة من بيت طفولتها يستغرق دقيقتين، أما مدرسة البنات فكانت على الطرف الآخر من القرية، وأخبرتني سيرين أن الوصول إليها استغرق خمسًا وأربعين دقيقة سيرًا على القدمين، مسافة طويلة لطفلة صغيرة. مشيت بنفسي إلى هناك، وكان المشي شاقًّا.

إمي كانت تتطَّلع علينا أنا وخواتي من السطح وإحنا نازلين ركاض ع المدرسة، وكانت تتحلّفلنا «أوعكن تحكين مع الولاد في الطريق، عيب!»[1] تصوَّر هيك كانت تودعنا كل يوم الصبح.

في هديك الأيام، إمي كانت بتقدر تشوف من السطح الطريق كلها لحد دار سيدي، يعني نص طريقنا للمدرسة. حتى بوقت رجعتنا كانت تستنانا من السطح، وإذا أي وحدة فينا راحت هون أو هون كانت تطعمينا قتلة وتتهمنا إنه بدنا نلفت نظر الولاد الدايرين بالشوارع[2].

(1) تحلّف: هَدّد أو توعّد، وغالبًا ما يُرافق ذلك إشاحة باليد أو حركة جسدية تشير إلى الجدية أو الغضب.

(2) دَايْرِين بالشوارع: يُستخدم الفعل «دايِر» في اللهجة الفلسطينية للإشارة إلى أن شخصًا ما يتجوّل أو يتسكّع أو ينهمك في عمل يتطلب حركة متكررة ذهابًا وإيابًا. وفي هذا السياق تحديدًا، يُطلق الوصف على الأولاد، الذين يُشار إليهم أحيانًا بـ«الزعران»، ممن يتجولون في الشوارع بلا هدف واضح سوى مغازلة الفتيات والتحديق بهن بطريقة مزعجة وغير مريحة.

ما كانت تسمح لنا أصلًا نحكي مع أي صاحبة بالمدرسة عندها اخوة شباب.

مصاحبة الولاد عندها عيب كبير، وما كان مسموح لنا نروِّح ع بيت حدا من قرايبنا إذا عندهم أولاد هناك. لهيك إذا رحت ع بيت ولقيت كندرة رجالية بره الباب، دغري برجع لدارنا[1]، ما كنت مستعدة أبدًا أجازف بحالي.

صحبتني سيرين إلى وسط القرية التي باتت أقرب إلى بلدة صغيرة. رَكْب السيارات المستمر ما فتئ يقطع حبل أفكارها وسلاسة نقاشاتنا، وهي مشكلةٌ ما كنا لنواجهها في الماضي. مخبز القرية لا يزال قائمًا، لكن بالكاد يُرَى بين المتاجر العديدة التي شُيّدت على مر العقود. دور الخبَّاز في القرية ما عاد محوريًّا كما السابق، فالخبز والمعجنات تصب بوفرة في السوق من أماكن مختلفة في الضفة الغربية.

بعدها وجَّهنا أنا وسيرين نظرنا نحو وسط القرية الأصلي القابع على تلة، على مرمى حجر من حيث كنا، حيث مجموعة البيوت الأولى التي شُيِّدت في كفر راعي بشكل متقارب من بعضها البعض. بدت أشبه بأطلال قصبة صغيرة رغم المحاولات اليائسة لرئيس البلدية الحفاظ عليها وترميمها. تساءلت بيني وبين نفسي إن كانت تلك الأطلال تنظر إلينا، إلى هذه الحياة، إلى وسط البلد الجديد، وتقول في نفسها إنَّ خيرًا لها أن تظل أطلالًا؟

---

(1) دغري: بشكل مباشر أو مستقيم.

مررنا على بقالة محمد المطيع حيث اعتادت سيرين شراء أغراض البيت، وعلى سوبر ماركت أبو صالحية الذي لايزال يبيع التبغ والطحينة وغيرها من المواد الغذائية، وعلى دكانة أحمد الفايق الخضرجي. ثم وقفت سيرين تتأمَّل الحارة الجنوبية. بيت جدها قائمٌ على قمة أعلى تلٍّ في كفر راعي، وأينما وقفتْ في القرية، كان بوسعها رؤيته عائدًا إلى بيته أو يستقبل ضيوفًا في داره، وأحيانًا كانت تركض إلى بيته لترى ما المفاجآت التي يحملها معه. الآن ما عاد ممكنًا. بيوتٌ عديدة تحجب منظر الطريق المؤدي إلى بوابة بيت جدها، وجدُّها توفي منذ زمنٍ طويل.

هكذا قضينا أنا وسيرين أيامنا، نتجول في القرية ونزور أقرباءها وصديقاتها القدامى، الكل رحب بها بالأحضان والقبلات، بحماس من التقى عزيزًا بعد غيابٍ طويل. فسيرين لم تكسر يومًا ارتباطها بقريتها، كانت مرتاحة في ملعبها وواثقة من نفسها لدى تعريف الناس بي، مما جعل الآخرين يرتاحون إلى وجودي ومشاركتي قصصهم وتاريخهم معي. تقاربنا أنا وسيرين في هذه الرحلة، وعرفنا المزيد عن بعضنا البعض. وما أن نعود مساءً إلى بيتها نجلس ونتبادل أفكارنا حول مجريات اليوم، أو نواصل الحديث مع عائلتها. أدوِّن أنا المزيد من الملاحظات، وتسرد هي عليّ المزيد من القصص عن حياتها وأستمتع بالإصغاء إليها.

لم ينهكها أبدًا الحديث عن ذكرياتها، ولم يرهقها أبدًا مشاركتي العواطف التي تحفِّزها عودة تلك الذكريات.

7
1975

تحمل أم يوسف ابنها إياد بعمر السنة على ذراعها، وبيدها الأخرى تشد أذن سيرين وتصرخ عليها، وتلحق بسوزان لكي تمسكها هي الأخرى. ستتعرض الأختان للضرب المبرح نتيجة محاولتهما التهرب من أداء العمل الموكل إليهما.

سيرين كانت في الصف الثالث، كبيرة بما يكفي لتحمُّل مسؤوليات إضافية في العمل في أرض العائلة. أبو خالد، الذي يعمل لدى أم يوسف، كان قد وصل في الربيع مع حصانه لكي يحرث الحقل. لكن لم يحرث الأرض حول أشجار الفاكهة -اللوز والكرز والجرانق[1]- إذ يصعب على الحصان الوصول إلى جذوعها. هكذا أضحت مهمة سيرين وسوزان حمل الفأس واقتلاع الأعشاب الضارة من حول تلك الأشجار وحرث المتبقي من الأرض، كل أختٍ منهما مسؤولة عن سرب من الأشجار. فأم يوسف تدير شؤون أرضها وبيتها كما لو أنها تدير مصنعًا،

---

(1) ويُسمّى بالبرقوق أوالجنارِك.

وسيعلّق ابنها إيهاب قائلًا إنها أول رأسمالية عرفها في حياته، ومنها تعلَّم الكفاءة والانضباط والنهج «الفورديّ» في الإنتاج.

في ذاك الربيع، سوزان وسيرين تعمَّدتا تخطي عدة أشجار في نهاية كل صف، اعتقادًا منهما أنَّ أمهما لن تتحقق من كل صف حتى نهايته لانشغالها بأولادها الثلاثة الصغار. ظلتا على هذه الحال أسابيع قبل اكتشاف أمهما مخططهما. أُذُن سيرين ظلَّت حمراء يومين، علامات الجلد بعصاة الرمان بارزة على ذراعي الأختين وربلة ساقيهما. وفورًا بعد تلقيهما الضرب، أُجبِرتا على العودة إلى الحقل والعمل على الأشجار التي تخطتاها.

من بعدها عمرنا ما عدناها!

بعد موسم الحراث كان يجي على طول موسم تلقيط الكرز في نيسان وأيار[1]. ما كان عندنا أشجار كرز كتير أيامها، على عكس هلا. في السنين الماضية أهل القرية صاروا يزرعوا كرز أكتر من قبل، وصاروا يزرعوا دُخَّان بكميات كبيرة[2]. أيامها كانت إمي تبيع سلة أو سلتين كرز، وتعمل من الباقي مربى. كل موسم ربيع كانت تقعد أسبوع كامل تعمل مربى كرز يكفينا سنة كاملة.

---

(1) تلقيط: قَطْف.

(2) دُخّان: التبغ الذي يُزرع ويُستخدم بشكل رئيسي في صناعة السجائر. في اللهجة الفلسطينية، لا يُقال عادةً «زرعنا تبغ»، بل يُقال «زرعنا دخّان» للدلالة على زراعة التبغ.

بس كان عندنا لوز كتير، أبو أربعين لخمسين شجرة لوز[1] - إشي شبه الجرانق - ولأنه بِزرِة اللوز الأخضر طرية زي الجيلو[2]، كانت إمي تعطينا تعليمات صارمة كيف نلقطه، وكمان حتى لا نخلطش بين أنواعه؛ لأنه في لوز طعمه مر ولوز طعمه حلو، ولكل نوع سعره وتجّاره. بتذكّر أختي سوزان كانت تنبهني طول الوقت «ديري بالك سيرين، أوعك تخلطي بينهم، والله الحجة بتخرب بيتنا!» وأكيد إمي كانت رح تخرب بيتنا وتهده على روسنا! لهيك من خوفنا منها، نادر ما كنا نخلط بينهم.

أخيرًا، انزاح الربيع وحلَّ الصيف، وانتهى موسم قطف الكرز. عدا أنَّ أم يوسف وبناتها لن يحظين بفسحة راحة من العمل في الأرض، إذ فجأةً، في كل نواحي كفر راعي، ستصبغ زهور أشجار الخوخ الأحمر صفحةَ الحقول بأطياف متلألئة من اللونين الأحمر والأرجواني. ومرةً أخرى، ستكدح العائلة في قطف الفاكهة وتعبئتها تحت لهيب شمس الصيف. عرق الحصاد سرعان ما يُنسَى كلما اختلست سيرين وأخواتها قُضَم من الخوخ الأحمر الطازج والطري في لحظات استراحتهن العابرة. في ذاكرة سيرين، تمتزج أيام القطاف بعضها ببعض في ذكرى جميلة متجانسة، ثم اللحظة العابرة تمر، وتعود إليها حقيقة الأيام الطويلة المضنية. الذاكرة تختلّ، والماضي والحاضر بحلوهما ومرّهما يختلطان كلٌّ في الآخر.

(1) أبو: تُستخدم في بعض اللهجات الشامية، خصوصًا الفلسطينيّة، بمعنى «حوالي» أو «تقريبًا»، خاصة عندما نتحدث عن تقدير الزمن أو العدد.

(2) بِزرِة: لُبّ أو نَوَاة.

ما كنتش بنزل ع البستان كل يوم عشان ألقِّط الجرانق. إمي بتضلها تنزل ع البستان كل يوم لأسابيع، بس إحنا الولاد كنا نتناوب. كنا نصحى من النوم قبل طلوع الفجر وننزل ع الأرض بعد الصلاة. لهلّا بتذكّر كيف ريحة الندى مْعَبْقَة الطريق[1]، وكيف كنت ألمس قطراته على الورق بإيدي الصغيرة، والأرض اللي بدعس عليها برجليّ الصغار منتعشة من بعد هوا الليل الرطب.

كان ضروري نوصل الأرض بكير عشان نلحق ع الجرانق وهي بعدها مغلَّفة بالندى وبطبقة رقيقة من الغبرة اللي كانت تعطيها لمعة زيادة. «أوعك تمسكي الجرانق من تحت»، هيك كانت إمي تنبِّه علينا. كان لازم نمسك كل حبّة فيها بأطراف أصابعنا، شوي شوي، عشان ما توقعش وما تنمحيش منها قطرات الندى مع الغبرة. كانت إمي تضلها تقول إنه إذا قدرنا نحافظ على الندى واللمعة، هيك بتشهّي تجار السوق لحتى يشتروها. وما بتتخيَّل قديش كنا حريصات واحنا نلقِّط كل حبّة جرانق، ونجمعها في سَحَاحِير خشبية صغيرة مفروشة بورق بني[2]، وكنّا نتعمَّد نخلي أحسن شي فوق ونغطيها بنفس الورق البني،

---

(1) مْعَبِّق أو مْعَبْقَة: صفة (مشتقة من الفعل «عَبَّق»)، وتُستخدم للإشارة إلى رائحة منتشرة بشكل قوي في المكان، سواء كانت رائحة طيبة أو غير طيبة. فمثلًا شائع أن يُقال: «العطر معبِّق الدنيا»، «ريحة الميرامية مْعَبْقَة الدنيا» أو «الدخنة مْعَبْقَة الدنيا».

(2) سَحّارَة: صندوق مصنوع عادة من الخشب أو البلاستيك، ويُستخدم لتخزين المواد الغذائية مثل الخضراوات أو الفواكه أو نقلها، وجمعها «سَحاحِير». وفي بعض قرى شمال الضفة الغربية، تحديدًا قرى جنين، يُطلق على السحّارة التي تزن حوالي 2 كيلو «شَرْحَة»، ويجمعها «شَرْحَات». أما في حالة ما إذا كان وزن الصندوق أكبر، مثل 5 أو 6 كيلو، فيظل يُطلق عليه اسم «سَحّارَة».

وبعدين نربط كل هالسحاحير جوه أقفاص. كنت أنا وخواتي نجمع في اليوم الواحد خمسين قفص، وياما أنا أو سوزان طلعنا باقفاص الجرانق ع القرية على ضهر الحمار[1]. بتذكّر إمي كانت تركِّب صندوق معدني مربع على ضهر الحمار، وتحت الصندوق بيكون فيه مساند، بعدها نحمل أنا وسوزان الاقفاص جوّه الصندوق ونربطهم بحبل عشان لا يوقعوا.

عمري ما ركبت الحمار لحالي، ضليتني بخاف من يوم وقعت عنه. وهيك كنت تلاقيني طول حر الصيف في حزيران رايحة وراجعة من الأرض مشي. وبطريقي للقرية كنت بمشي لساعة ع أرض حجرية ووعرة، طلوع من الواد لفوق التل.

إمي اتفقت مع شوفير شاحنة ينقل الأقفاص لتجار جنين أو تجار فلسطين الداخل اللي بيقدروا يدخلوا ع سوق فلسطينية الداخل ويبيعوها ع الزباين والبقالات. ومع الوقت، جماعة من هالتجار صاروا يجوا دغري عند إمي ويشتروا منها بعد ما عجبهم جودة الثمر اللي إمي بتلقطه.

لا تزال سيرين تتذكر السهولة التي كان يبيع بها أهل جنين محاصيلهم على فلسطينيي 48. فاقتصاد جنين اعتمد تاريخيًّا على التجارة مع القرى والبلدات الواقعة على الشمال منها، في جنوب الجليل، إلى أن انقطعت عنها في عام 1948. ومع إعادة فتح الحدود عام 1967، استؤنفت

(1) ياما: تعبير شائع في اللهجة الفلسطينية، يُستخدم للدلالة على الكثرة، وخاصة في سياق تكرار حدوث الأمور مرارًا أو تكرار المحاولات. مثلًا: «ياما رحنا ع الأرض» أي «ذهبنا كثيرًا إلى الأرض» أو «ياما حاولت» أي «لقد حاولت كثيرًا».

التجارة مع الشمال، إلى جانب إمداد سوق الاحتلال بالعمالة المياومة. ولمَّا كانت كفر راعي ضمن محيط جنين، فقد اعتمدت النمط الاقتصادي ذاته. هذا الحراك أتى ضمن سياسة الحدود المفتوحة التي أقرتها الحكومة الصهيونية لكي تلبّي احتياجها من القوى العاملة الفلسطينية، فضلًا عن تسهيلها تطبيق مشروع استيطان الأرض. في واقع الأمر، سياسة الحدود المفتوحة تعني ضمنيًّا أن من فتحها بيده أن يغلقها متى شاء؛ فكل ما يُمنَح قد يُسلَب.

طريقنا ع أرضنا في الواد، وين ما أشجار الجرانق موجودة، صار هلقيت محاوَط بالبيوت، مش زي ما كان في السبعينات. في أيامنا، أوّل ما تحط رجلك في الأرض بتلاقيش حدا غيرنا.. احنا والشمس ومحصولنا. فش اشي بينشاف، فش بيوت ولا أساسات بيوت، فش أصلًا حدا كان يفكّر يبني بيته هناك.

تستحضر سيرين ذكريات ذهابها إلى الأرض، وقوفها تحت سماء الفجر، الشمس تتمدَّد من خلف التلال إذ لم تفق بعد من المنام، نسيمٌ عليل يداعب وجهها. عدا أنَّ ذكريات سيرين المشرقة عن رحلاتها المبكرة إلى الأرض في موسم قطاف الخوخ الأحمر تعكِّرها ذكريات مواجهتها الأفاعي. ليس أنَّ الأفاعي لا تغادر أوكارها إلا في موسم قطاف الخوخ، بل لأنَّ موسم الخوخ تحديدًا يحفّز في سيرين ذكرى مواجهة مرعبة.

كنا بنعرف إنه الحيايا بتلف حوالين أغصان الشجر قبل الفجر بشوي، بعد ما تكون قضت الليل كله بتْحُوس بالواد، وبتلم قطرات

الندى على حراشفها لأنه المي اللي بتشربه بقية النهار[1]. وهيك تضلها الحيّة لاقّة حوالين حالها ونايمة وملهاش دخل باللي بنعمله، شرط إنه ما نقربش صوبها. فكان لازم نخلّص لْقاط بعد طلوع الشمس بشوي، قبل ما تصحى الحيايا من نومها وتدافع عن أغصانها.

بيوم حكيت بصوت عالي لإمي «أنا رايحة ألقّط من هديك الشجرة» إمي هزّت اكتافها وضلّت ماشية في الأرض، كأنها بتحكيلي اعملي اللي بدك إياه بس خلصينا ولقطي الجرانق زي ما علمتك.

رحت ع الشجرة ورفعت أصابعي الاتنين لحتى أقطف الجرانق بس حسيت بشي ناعم ومحرشف، متت رعبة وصرّخت. كانت حيّة! هزّت ذيلها وهسّت، وبلشت تنزل من ع الغصن.

جْمِدِت في محلّي وصرخت مرة تانية!

ركضت عليّ إمي وفهمت عطول إيش صار، وخواتي فهموا كمان، فش مزارع فلسطيني بيعرفش معنى هالصرخة لما يسمعها!

ركضت عليّ إمي زي السهم، وحملت بطريقها صخرة عشان تقتل الحيّة، بس الحية نزلت من الشجرة وتخبّت جواتها بعد ما خافت من صرختي. من يومها عمري ما قربت ع هديك الشجرة، ومن يومها وأنا مرعوبة من الحيايا.

(1) حَاس: في اللهجة الفلسطينية تعني «يتحرك ذهابًا وإيابًا» أو «يلف كثيرًا في شتى أرجاء المكان»، سواء كان ذلك بهدف أو بدون هدف. فعندما يُقال مثلًا «ضله يحوس بالمدرسة»، يُقصد به أنه كان يتحرك كثيرًا في جميع أنحاء المدرسة، ولكن السبب غير معروف ولا يُعرف إذا كانت هذه الحركة لها جدوى أم لا.

اعتادت سيرين وأشقاؤها وشقيقاتها الاستماع إلى حكايا عديدة عن الأفاعي، وكثيرًا ما رأتها سيرين في كوابيسها.

كل مَرّة بشوف فيها حيّة بمنامي، إمي بتسألني «ضربتيها والا عضتك؟» لأنه عندنا الحيّة بالمنام هي العدو الخاين، ولازم نغلبها بأحلامنا عشان نكسر شرها. بس معظم الوقت هي اللي كانت تعضني.

وقت العمل في الأرض، تقضي أم يوسف فترة استراحة صباحية برفقة أطفالها، يوسف وإيهاب ينضمان إليهم بالتناوب، ومن يظلُّ في البيت سيكون برفقة ميسون. في الغالب تحمل أم يوسف إياد معها إلى الأرض، وتتركه على المفرش الكبير الذي تفرشه العائلة لكي تتناول الإفطار عليه: جبنة معدة منزليًّا وخيار وبندورة وزيتون وخبز من طابون الجيران. وجود إياد منح البنات ذريعة للاستراحة من العمل الشاق بداعي رعايته. سيرين كانت تستلقي إلى جانبه، تحدق في زرقة السماء الصافية، تدغدغه وتهرِّج بملامحها لعله يبتسم أو يضحك.

بعد عودتهم من الأرض، يبدأ تحضير وجبة الغداء، وسرعان ما يفوح عبق الطهي في أرجاء البيت: شوربة عدس، سبانخ حوس مع بصل وملح وزيت زيتون، سلطة، تبولة، وأطباق نباتية أخرى من خضار حديقة البيت والأرض. كانوا يتناولون لحم الضأن أو الدجاج مرة واحدة في الأسبوع تقريبًا، وأحيانًا أقل من ذلك، في حين كانت لحوم الحمام والأرانب تُستهلَك بكمية أكبر نظرًا لتربيتهم إياها في فناء البيت.

بعد الغداء تخرج البنات إلى الحديقة ليلعبن الحجلة أو بالحبل أو

بالقلول[1]. أما الأولاد، ما إن يشتد عودهم، يقضون أوقاتهم في الأزقة، يلعبون بالقلول أو بمسدسات ألعاب مصنوعة من ألواح خشبية من سحاحير الجرانق. وإذا كان يومًا دراسيًّا، ينسحبن الفتيات بعد الغداء إلى غرفتهن لأداء واجباتهن المدرسية، ومتى حلَّ المساء فلا لعب ولا دراسة، ونادرًا ما سهروا إلى وقتٍ متأخر. أحيانًا سيقضي الأطفال المساء مع مجموعة من الجيران، نحو عشرين منهم، ملتفِّين حول التلفاز الوحيد في القرية، بشاشة حجمها ثلاث عشرة بوصة، لمشاهدة البرامج العربية، أشهرها على الإطلاق «غوار الطوشة». وبما أنَّ التيار الكهربائي غير موصول بشبكة الاحتلال، فالتيار الذي يصل القرية يأتيها ضعيفًا ومتقطعًا من مولد كهرباء خاص. مع ذلك يظل لهذا الوضع إيجابياته، إذ رغم ضعف التيار الكهربائي وعدم استقراره، يظل أهل القرية هم المتحكمين بالطاقة الكهربائية، وسلطة الاحتلال لن يسعها حرمان أهل القرية منها متى ثاروا. كانت من بين القضايا القليلة التي لم يعد بمقدور المحتل استغلالها كورقة إغراء في إطار سياسة «امنح الفلسطينيين ما يخشون خسارته».

متى عاد أبو يوسف من السفر صيفًا، يشوب جدول العمل اليومي في الأرض تغيُّرات طفيفة، ومطلع الفجر بوجوده ينحو إلى وتيرةٍ أبطأ. ميسون من كانت تعد فطوره يوميًّا، فهي لم تتمتع بالجَلَد الكافي للعمل الشاق على الأرض، فحملت مسؤولية العناية بالبيت، تطبخ وتنظف

(1) القُلُول أو البَنانير: كرات زجاجية صغيرة ملوّنة مصنوعة من الزجاج، كان الأطفال يلعبون بها للترفيه والتسلية.

وترعى الصغار. بعدما يفيق الجميع، تتحوَّل غرفة نوم أبو يوسف وأم يوسف إلى غرفة معيشة، وتتحوَّل فرشات النوم إلى جلسة أرضية حيث يتناول أبو يوسف إفطاره على الأرض. الرحلة إلى نابلس أوضح ذكرى لدى الفتيات عن عودة أبيهن إلى فلسطين في مواسم الصيف، إذ كان يصحبهن معه لتناول الكنافة وشراء ملابس جديدة بمحض اختيارهن.

بعد الفطور، يجلس أبو يوسف متربعًا منتصب الظهر، وأحيانًا يستلقي مادًّا ساقيه، متكئًا بكسل على ذراع، يصغي إلى الراديو ويبدِّل بين محطات مونت كارلو والإذاعة الأردنية والإسرائيلية العربية، ويقرأ جريدة القدس التي يشتريها أسبوعيًّا.

أوَّل ما أبوي كان يدخل الدار، كان دايًما حامل معه جريدة القدس، وكان يقعد يقرأها كلمة كلمة، من الصفحة الأولى للأخيرة. كان بيقرأ صفحة النعي وإعلانات المواليد والتبريكات، وكان بيقرأ الصفحة الاقتصادية والصفحة الزراعية، وأكيد كان بيقرأ صفحة السياسة المحلية والإقليمية. الجريدة كلها على بعضها تمَن صفحات، بس صدقني بعد ما كنّا نقرأها أول مرة، كنّا نروح نخبيها تحت المخدة، ونرجع نقرأها ونعيد ونزيد بقرائتها طول الأسبوع.

يا الله.. قديش كانت الجريدة غالية علينا! كنا نحفظها كلها! ونتمسَّك فيها لبين ما تيجي جريدة الأسبوع الجاي، وما كُنّاش نخلي إمي تفرشها على الأرض حتى نوكل عليها.

بتذكَّر مرَّة لما إجى بروفيسور رشيد الخالدي ع جامعة برينستون، حكيتله إنه كان معه حق لما تكلَّم عن أهمية الجريدة في حياة الفلسطيني.

كل شي عرفناه، عرفناه منها. تعرف إنه احنا اجينا من قرية صغيرة ما في حدا بالعالم بيعرفها، بس طلعنا منها واحنا عارفين إشيا كتير. أنا واخواني وخواتي كنا نْدَافِش بعض واحنا ماسكين الجريدة[1]، وكنا نتسابق بيناتنا على مين بيكون عنده السلطة عليها ويقعد يقلب صفحاتها. فإذا قريت أنا صفحة مثلًا، كنت مجبورة أستنى اللي ماسك الجريدة يقلب ع الصفحة التانية.

أوقات أفكر بيني وبين حالي، كيف طلعنا متعلمين ومثقفين وفاهمين الدنيا بس من قراءة جريدة أسبوعية؟ هون بأميركا الناس بتعرفش إشي عن العالم! أكشاك الصحف معبّاية بالمجلات والجرايد من كل نوع، كل المعلومات اللي بتتخيلها موجودة، بكبسة زر ع التلفزيون والراديو والإنترنت، كل هالمعرفة مغرقيتهم، بس فش حدا بده اياها. عندنا بالقرية، كنا نقرأ الجريدة كأنها بتحكيلنا قصة، ونرجع إحنا نحكيها مثل الحكواتي، وكأنه عم نحكي عن مغامرة عظيمة.

كيف الناس هون بأميركا عاملة حالها إنها ما بتعرف؟ هل بيحكوا هيك عشان يريحوا روسهم ويتخلوا عن مسؤوليتهم الأخلاقية؟ إحنا دايمًا نحكي إنه بنعرف، وحتى إذا بنعرفش نعمل حالنا عارفين. بأميركا الناس بتحكي عن الجهل إنه نعمة، عندنا بفلسطين الجهل جريمة، وأصلًا مش خيار بيحق لك تاخده. لأنه من غير علم ومعرفة، الناس عمرها ما بتحترمك.

---

(1) يْدَافِش: يدفع شخصًا بقوة أو بعنف نسبي، وغالبًا ما يكون الدفع فجائيًا أو ناتجًا عن انفعال، ومن مرادفاتها «يِدْفِش» أو «يدَفِّش».

في المرات القليلة التي ينزل فيها أبو يوسف إلى الأرض برفقة عائلته، كان ينزل بعدما يستغرق اليوم السابق في سماع الأخبار. مثلًا، في صيف 1975، تابع باهتمام شديد أخبار مصادرة أراضٍ متاخمة للقدس لإقامة مستوطنة جديدة تُدعَى «معاليه أدوميم»، حينها كانت تضم عدة مئات فحسب من المستوطنين، وفي أقل من عقدين تمدَّدت إلى مدينة تضم عشرات الآلاف. انهمك أيضًا في متابعة أخبار لبنان وبداية الصدامات التي ستتحول إلى خمسة عشر عامًا من الحرب الأهلية. ومثلما كان الحال في الأردن، ستتعرض منظمة التحرير الفلسطينية إلى هجمات أليمة على يد جيش الاحتلال بعد غزوه لبنان.

متى أنهكت الأخبار أبو يوسف، كان يتمشى إلى الأرض ويستنشق عبق التلال الذي يفتقده طيلة العام، غير أنَّ إحساسًا بالغربة ما يفتأ يغمره. ففي كل عودة، يصعب عليه الاندماج في روتين العمل على الأرض، ويصعب عليه التواصل مع أطفاله. مع ذلك، أحبَّ أطفالُه وجودَه بينهم في الأرض، فهو لا يؤدبهم، وفي وجوده تخفف أم يوسف قسوتها عليهم.

وحين يزور أبو يوسف بساتين الفاكهة، لا تدعه أم يوسف يشاركهم القطف. لعلَّها لم تثق في قدرته على القطف بنحوٍ صحيح، أو ربما لم ترد إرهاقه والتسبب بمرضه. أيًا كان السبب، سيجد أبو يوسف نفسه جالسًا تحت ظل شجرة، يتولى مهمة فرش الورق البني على سحاحير الخوخ.

شتان ما بين جلوسه تحت تلك الشجرة وحياته في مدينة أبوظبي

النابضة بالإعمار، وكان سيفصح عن إحساسه هذا بعد عقود لأطفاله بعدما أصبحوا بالغين. وفي أحاديثه المفعمة بالذكريات، سيستغرق في استذكار مشاعره وهو يشهد بعينيه بلدًا تزدهر كل عام، وبلدًا تُدَمَّر يومًا بعد يوم.

8
1976

مع مرور السنوات، فيما الطفلة سيرين تكبر، ترسَّخ وجود دوريات الاحتلال العسكرية. حينذاك لم يصدف أن تواجهت العائلة مع أي من مركبات الجيش، غالبًا تصادفها عن بعيد (بعد سنوات ستستبيح تلك الدوريات حرمة بيتهم). بعينين مشدوهتين، تلمح سيرين من سطح البيت مركبة جيب عسكرية تنسلُّ كالأفعى في طرق البلدة وتثير الغبار خلفها. غالبًا تستوقف الدورية مراهقًا يمشي على الشارع الرئيسي، يترجَّل الجنود عن الجيب ويطلبون من الولد إبراز بطاقة هويته. في أغلب الأوقات يسحب الولد بطاقته من جيبه، يتبادل الطرفان عدة كلمات، ثم تمضي الدورية في طريقها. في تلك اللحظات يتجمَّد الزمن لدى سيرين، وتصمُّ أذنيها عن كل الأصوات المحيطة بها عدا نبض قلبها المتسارع.

قصص أمها قبل المنام لم تخفف رعبها.

«حبيبتي لازم تنامي والا بيجي الجيش وبياخدك». هيك أهلنا كانوا يهددونا واحنا صغار. وياما سمعنا «إجاك اليهودي، إجاك الإسرائيلي». وطبعًا الإسرائيليين بيجوا كتير، ودايمًا بيرجعوا. ولما بلشت أشوف

الجنود بعيني وأسمع قصص الأولاد اللي بياخدوهم، كان فش داعي أتخَيَّل شو بدهم يعملوا فيني إذا أخدوني.

على قد ما جيش الاحتلال كان يقتحم قريتنا، بس في السبعينات كان متمركز أكتر بالمدن الكبيرة متل جنين. نادر ما كنّا ننزل ع جنين، بس لما كنّا ننزل - مرة أو مرتين في السنة عشان نروح ع الدكتور أو نشتري أواعي المدرسة أو كنادر جديدة- كنا نشوف الجنود هناك. وعلى قد ما كنا نفرح بطلعتنا ع المدينة، هالطلعة كانت تخوفنا لأنه عارفين إنه رح نشوف الصهاينة فيها.

كتير ناس بهديك الأيام اضطروا يتعاملوا مع الصهاينة، وكانت الناس تتعالج بمستشفيات الاحتلال، ورجال كتير من أهل القرى تعتمد رزقتهم ع سوق العمل الإسرائيلي. الساعة أربعة الصبح، بعد صلاة الفجر، كانت تبلِّش باصات إيجد الإسرائيلية تنزل ع البلد، والرجال يصفوا ع الدُّور بيستنوها عشان يركبوا فيها، وتطلع فيهم الباصات على محطات مختلفة على طول حدود 1967 . وإذا حدا كان بده يشتغل في دولة الاحتلال، كان يكلم المشرف (أو المناهل) حتى يزبطه[1]. المناهل كلمة عبرية كنا نسمي فيها المشرف أو مدير العمال واللي عادة بيكون فلسطيني من أهل القرى وكان يأمِّن مكان للرجال بالباصات - بوقت من الأوقات، عمي كان مناهل. بتذكّر كانوا يرجعوا الرجال من هناك حاملين معهم عين الجمل والأفوكادو اللي ما كنت

(1) الكلمة العبرية מְנַהֵל (والتي تعني «مشرف» أو «مدير») تُنطق صوتيًّا وفق نظام IPA على النحو التالي: /ma.naaˈhel/.

بتلاقيها في الضفة. بس بعدين في الثمانينات والتسعينات، كتير من رجال القرى خسروا وظايفهم بعد ما إجوا اليهود الروس.

من بعد الـ67 ما كانش عندنا أمل بأي شي. الأردن كانت تحكم الضفة الغربية بين الـ48 والـ67، وبعدها الضفة صارت تحت سيطرة الاحتلال. بس مع هيك، الأردن ضلّت مسؤولة إداريًّا عن التعليم والصحة عندنا، لحد ما الملك حسين في سنة 1988 تخلى عن مطالبة الأردن بالضفة. صحيح كنا بحاجة للأردنيين، بس ضلينا نلومهم على اللي صار في الـ48 والـ67، لأنه جيشهم مقدرش يدافع عنا وخسر أرضنا.

بتعرف إنه عندنا مقبرة للشهداء العراقيين؟ عملنا لهم مقبرة لأنهم الوحيدين اللي دافعوا ببسالة عن جنين وقاتلوا بشرف في الـ48. المقبرة كبيرة والناس لحدّيت هلا بتزورها وتدير بالها عليها، وزرعوا شجر زيتون حواليها.

الابنة الرابعة في عائلة صوالحة، أرسلين، أتت إلى الدنيا في عام 1976. سُمّيت أرسلين تيمُّنًا بشخصية أرسين لوبين، اللص الأنيق المهذب وأستاذ التنكر والخداع. طفولة أرسلين ستتشابك مع طفولة أخيها إياد، وسيغدوان مقربين من بعضهما، على خلاف سيرين التي انفصل دربها عن درب أخيها في وقت مبكر من حياته.

وكما جرت العادة، مع مولد أرسلين انطلقت سوزان راكضةً نحو بيت أم علي الداية، بينما ظلَّت ميسون إلى جانب أمها. أما سيرين فهرعت تركض نحو بيت جدتها الحجة ميثة، تصرخ بأعلى صوتها لدى اقترابها من بيتها «إمي رح تلد! إمي رح تلد!»

حين أنجبت أم يوسف ابنتها أرسلين غلب الحماس قلب سيرين، فأخيرًا ستحظى بأختٍ صغرى. مع الوقت، ورغم فارق السن الشاسع بينهما، ستغدوان مقربتين من بعضهما، وستأتمن أرسلين أفكارها ومشاعرها الحقيقية لدى سيرين، ولاحقًا ستخبرها بكل المآسي التي شاهدتها بعينيها تصيب العائلة، مأساةً تلو مأساة.

هذه المرة، سوزان وميسون وسيرين أصبحن كبيرات كفاية لإعداد شوربة الولادة لأمهن، ولاستقبال الجارات المبارِكات. قضت العائلة الأيام الثلاثة التالية تستقبل الضيوف، غير أنَّ في اليوم الثالث اقتحم جيش الاحتلال القرية في عمليات بحث وتمشيط. كانت سيرين في المدرسة لدى سماعها بنبأ الغارة، جالسة في درجها في حصة الاجتماعيات تنظر خارج النافذة نصف المفتوحة، حين سمعت اهتياج الناس خارجًا.

وما إن بدأت أصوات الاضطرابات تتسلل إلى أرجاء الفصل، نهضت الفتيات من أدراجهن لكي يرين عن كثب ما يجري. رأين أولادًا في آخر سني المراهقة، مع بضعة أولاد أصغر عمرًا، مقبلين عليهن لإخراجهن من المدرسة. لمحت سيرين ولدين تعرفهما وفي عمرها - جلال العريس ابن جارها، وفؤاد الأشقر الذي دومًا يرافق صديقه جلال. كانت مجموعة الأولاد تخطط لحرق الإطارات لكي تمنع الجيش من العبور، لكن أرادوا تأمين سلامة الفتيات أولًا ومنحهن فرصة العودة إلى بيوتهن. سيرين هرعت مع زميلاتها خارج المدرسة، وتلك كانت أول مظاهرة تتذكَّر المشاركة فيها.

ما انفكَّ بعض الأولاد يصيحون عليهن «ارجعن عبيوتكن، ارجعن عبيوتكن»، لكن سيرين لم تدرِ ما تفعل الآن. إذ حتى تصل إلى

بيتها لا بد أن تقطع الطريق عبر مدرسة الأولاد إلى الطرف الآخر من القرية، وستعلق في المظاهرة لا محالة. لذا فعلت ما فعلته بعض الفتيات الأخريات، ظلت على جانب الشارع محتميةً بمدخل أحد المباني.

صفَّ بعض الأولاد الإطارات على صفَّين في الشارع، عند مدخل القرية، ورأت سيرين جلال وفؤاد يحاولان المساعدة، يحملان بأيديهما الصغيرة إطارات أثقل وزنًا منهما. ساعد جلال بعض الأولاد الأكبر منه سنًّا على صب البنزين على الإطارات، وبعد لحظات، ثلة من الأولاد أشعلوا النار فيها وانبعثت أدخنة كثيفة خانقة تصاعدت نحو السماء، مما أجبر مركبات الجيب العسكرية على التراجع. لم تفهم سيرين حينها لماذا لم يتصادم جيش الاحتلال مع الأطفال، لاحقًا ستدرك أنَّ الجيش لم يجد في هذه المواجهة ما يستحق التصعيد، لا سيما أنَّ القرية في غالب الأوقات هادئة ومذعنة.

هيّ المظاهرة بالـ76 كانت صغيرة، وأصلًا هيك كانت المظاهرات وقتها لأنه أهل القرى ما كانش إلهم كتير بالنشاط السياسي، على عكس أهل المدن الكبيرة زي نابلس. لما المظاهرات تبلِّش في المدينة، كانوا الصهاينة يقمعوها ويسجنوا الولاد الصغار قبل ما تنتشر المظاهرات للقرى، وبعد يوم أو يومين المظاهرات تخمد وتموت. وقتها أخوي يوسف كان عمره ست سنين، بس شاف قديش كنت مرتبكة لما وصلت ع البيت وشفته قديش كان خايف من الهوجة اللي صايرة بره. ومع إنه إيهاب وإياد كانوا صغار وقتها وما بيتذكروش اشي من اللي صار، هُمّ اكتر اتنين حياتهم رح تتأثر باللي عملوه جلال وفؤاد.

9
1977

لو لم يكن لدى الفلسطيني تقويمٌ هجري يقيس به توالي الأشهر القمرية، لو لم يكن لديه تقويمٌ ميلادي يسير على إيقاعٍ آراميّ، لجعل من موسم حصاد الزيتون رأس العام الجديد. ولا غرابة، فهذا موسم احتفائه السنويّ.

في مواسم الحصاد الخريفي، في عمر سيرين الفتيّ، اعتاد أطفال القرية التسلل من تحت أعين المزارعين لاختلاس حبات زيتون وبيعها مقابل مصروفٍ يومي بسيط. كانوا يتعاونون في مجموعات صغيرة، إما يهربون من المدرسة أو يتجهون إلى حقول الزيتون فورًا بعد نهاية اليوم الدراسي. وعليه، أجبرت أم يوسف أطفالها على التوجه فورًا إلى أرضهم بعد المدرسة لكي يحرسوا أشجار الزيتون القليلة التي تملكها العائلة.

صحيح ميسون كانت دايًما تضل بالدار وما كانتش تيجي معنا الأرض وتشتغل فيها، بس ما كانتش معفَّية من دورها في حراسة الزيتون. كل يوم كانت إمي تختار بنتين من بناتها التلاتة الكبار عشان يحرسوا الزيتونات والتالتة تضلها في البيت تدير بالها على إخوتي الصغار.

بتذكّر كنا نحمل شناتي المدرسة معنا وإحنا مروحين ع الكرم، ونقعد نستنى غاد لحد ما تغرب الدنيا[1]. ولحظة ما نسمع أذان المغرب نشيل شناتينا ونرجع ع الدّار. كنا ننزل من المدرسة ع الكرم من غير ما تبعت إمي معنا أي أكل، فنضلنا جَعَانين لوقت صلاة المغرب. وما كانتش إمي تعطينا مصروف نشتري فيه راحَة أو بسكوت من مقصف المدرسة، فبتذكّر قديش كنا جعانين وفش فينا حيل نركّز ونعمل واجباتنا. كنا نقضّيها عهالحال من آخر أيلول لأول تشرين.

أبوي كانت عنده قطعة أرض في الواد، وقطعة أرض تانية على تل صخرية قريبة من البلد كانت تطلع فيها أشجار الزيتون. الأرض اللي زي هيك كانت تتسمى عندنا حاكورة (وجمعها: حواكير) لأنها مْسَهْمَدة[2]، وحتى نروّح عليها كان لازم بالأول نقطع القرية وننزل من على طريق خلفي. ووقت ما يجي موسم تلقيط الزيتون، كنت أنا وميسون وسوزان ننزل ع الأرض نلقّط مع إمي[3]، لأنه إمي، على عكس أهل القرية، ما

---

(1) غاد: كلمة دارجة في اللهجة الفلسطينية، وتُستخدم للإشارة إلى المكان البعيد أو إلى «هناك». فعندما يُقال «رُحنا غاد»، يُفهم منها «ذهبنا إلى هناك».

(2) مْسَهْمَدَة: تُوصَف الأرض في اللهجات القروية بأنها «مْسَهْمَدَة» عندما تكون منبسطة ومسطّحة، أي خالية من التلال والانحدارات، الأمر الذي يجعل السير فيها أو استغلالها للزراعة أكثر يُسرًا وسهولة.

(3) تتميّز اللهجات القروية في فلسطين بغناها التعبيري، لا سيما في ما يتعلّق بالممارسات الزراعية الموسمية لقطف الزيتون. فهذه العملية لا تُختصر بفعلٍ واحد، بل تُعبّر عنها مجموعة من الأفعال، يُشير كلّ منها إلى أسلوب معيّن أو مرحلةٍ محدّدة ضمن موسم الحصاد. فيما يلي أبرز هذه الأفعال ودلالاتها: لَقَّط: يدلّ على قطف الزيتون مباشرةً من الشجرة باليد، وتُعدّ هذه الطريقة من أوائل مراحل الحصاد، إذ يُقْطَف الزيتون قبل أن يسقط على الأرض. جَال: تُستخدم للإشارة إلى جمع حبّات الزيتون المتساقطة على الأرض أثناء موسم القطاف، ويُعدّ من الأعمال الأساسية المرافقة لعملية قطف

كانت بتقبل تستأجر حدا من برّه العيلة حتى يساعدنا. بس وقت ما كبرنا وصرنا مشغولين قررت إمي أخيرًا تستأجر جارتنا أم خالد عشان تساعدها.

في أيام المدرسة كنا كلنا نرجع ع البيت، أولاد وبنات، نغيّر أواعينا ونلحق إمنا ع الحواكير. بس لما الولاد كبروا شوي، صار بدهم يقضوا وقتهم مع أولاد القرية ويخططوا كيف يقاوموا الصهاينة، ويحكوا بينهم عن مين في البلد جاسوس ويتعاون مع العدو، وكيف بدهم يعاقبوه.

واحنا بالكرم، تفرش إمي شَوَادِر بلاستيكية سميكة وكبيرة تحت شجرة الزيتون[1]، ووحدة منا تطلع ع السِّيبِة وتلقّط الزيتون من الأغصان اللي صعب تلقّط منها[2]، وترميها على الأرض. كان في

الزيتون. تَبَعَّر: تُقال عندما يجمع شخص بقايا الزيتون بعد انتهاء موسم قطف الزيتون، سواء من الأرض أو مما تبقّى على أغصان الشجرة. وتُعرف هذه المرحلة في القرى باسم «التَبَعُّر». جَدّ / حَتّ: تُستخدم للدلالة على قطف الزيتون بواسطة العصا الطويلة المعروفة بـ«الجَدّادَة»، حيث تُضرَب بها الأغصان لإسقاط الثمار ومنها الزيتون. عَكَف: يشير إلى استخدام أداة أطول من «الجَدّادَة»، تُسمّى «العَكَفِة»، وتُستعمل للوصول إلى الأغصان العالية التي يتعذّر بلوغها باليد أو بالأدوات التقليدية، وتسمّى هذه الأغصان بـ«الأغصان المُنَشَّرة».

(1) شَادِر: مفرش يُستخدم أثناء قطف الزيتون، حيث تُفرد تحت الشجرة لتتساقط عليها حبّات الزيتون مما يُسهّل جمعها ويوفّر الجهد والوقت، وجمعها «شَوَادِر».

(2) الفرق بين «السِّلّم» و«السِّيبِة» يكمن في الشكل وطريقة الاستخدام. فـ«السِّيبِة» تتكوّن من إطار يُستخدم كدعامة أو وسيلة للوقوف، وغالبًا ما تحتوي على منصة صغيرة يُمكن الوقوف عليها أثناء قطف الزيتون أو أداء أعمال أخرى. رأس «السِّيبِة» يتميز بكونه مزدوجًا، حيث يلتقي خطّان في الأعلى. أما «السِّلّم»، فهو يتكوّن من درجات متتابعة تُستخدم للصعود أو النزول، ولا يحتوي على رأس مزدوج أو منصّة للوقوف. ويجب إسناده إلى جسم ما ليتمكن الشخص من استخدامه، على عكس «السِّيبة» التي يمكن أن تقف دون الحاجة إلى سند.

مزارعين يضربوا الأغصان بالعصا حتى ينزل الزيتون، بس إمي منعتنا بتاتًا نعمل هالشي بشجرها. علمتنا إنه اللقاط بالإيد بيحمي الطلوق الصغيرة اللي رح تعطينا الزيتون السنة اللي وراها[1].

صحيح ما كنّاش نلقّط الزيتون زي أهل القرية، بس شغل إمي ع الزيتون وتحضيره كان زي ما أهل القرية بيعملوا. أول ما نرجع ع الدار، كانت تقسّم الزيتون للكبيس[2]، أول نص تدقّه -ونسميه المدقوق- والقسم التاني تقطعه - ونسميه المشطَّب. حتى نحضّر المدقوق كنّا ناخد كل زيتونة وندُقها بمَدَقّ الثوم الخشبي[3]، وحتى نحضّر المشطَّب ناخد كل زيتونة ونشرّحها لأربع شرايح، وتخّيل قديش كان يوخد معنا وقت لحتى نخلصه!

وبعد ما نخلص، كانت إمي تخزّن الزيتون كل نوع لحال. وكانت تحكيلنا إنه المدقوق ما بيطوِّل كثير لأنه الملح والمي بيتسربوا للزيتون فيعفّن أسرع من المشطَّب.

الزيتون مُرّ كثير وبتقدرش تاكله إذا ما تحَضَّر صح. فإمي كانت تنقع الزيتون بمي وملح كل يوم لمدة أسبوع، وكل يوم تغيّر المي والملح، وتضل تعمل هيك لحتى تروح مرارة الزيتون. بعدها نحط الزيتون بمرتبانات مع ليمون وفلفل حار ونسكِر عليه منيح ونستنى تلات

---

(1) طُلُوق شجرة الزيتون: الأغصان أو الأطراف الصغيرة التي تنمو على شجرة الزيتون.
(2) كَبِيس: زيتون الكبيس هو الزيتون الذي يتم تحضيره عن طريق تخليله.
(3) مَدَقّ: أداة تقليدية تُصنَع من الخشب أو الحجر (مثل حجر الرحى المستخدم في الجاروشة)، وتُستخدم لطحن أو هرس مكونات مختلفة مثل الثوم، التوابل، الأعشاب، وحتى الزعتر.

أسابيع لحتى ندوقه[1]. شايف هاد المخزون اللي بقينا نحضره بتشرين الأول؟ كان يكفينا سنة قدام.

بقية الزيتون اللي ما انكبس كنّا نودّيه ع المعصرة. بالسبعينات كان عندنا معصرتين زيتون بالقرية، والناس من القرى التانية، وحتى من المدن زي نابلس وجنين وطولكرم، كانوا يجوا عَ كفر راعي عشان يعصروا زيتوناتهم عندنا.

سيدي الحاج صادق -أبوها لإمي- كان عنده معصرة، بعتله إياها ابنه من ألمانيا في السبعينات. وكان عندنا كمان بالقرية معصرة قديمة من حجرين كبار، كانوا يحطوا عليهم الزيتون ويعصروه. بس معصرة سيدي كانت جديدة، وكانت مصنوعة من حديد وبتشتغل على محّرك هيدروليكي. بتذكّر حوض المي اللي يشغِّل المحرك كان مليان ضفادع وكنا نرتعب منها واحنا صغار!

كنت كتير اطلع ع دار سيدي لما كنت صغيرة، آخد رغيف حار من الطابون وأغمسه بالزيت المعصور، وأرش عليه شوية ملح وآكله. بنساش كيف الزيت يكون لساته دافي وفيه شوية مرارة.

لعلمك، معصرة سيدي شغّالة لليوم.

بتذكّر منيح دار سيدي، كانت أكبر بيت بجنين، مبني من حجر الجرانيت وحوشه كبير، أما البوابة فكان إلها أكتر من باب - باب للناس

(1) مَرتَبان: وعاء زجاجي مُستخدم لحفظ بعض أصناف الطعام، مثل المربى، والمخللات، والزيتون، والعسل. ويُعرف أيضاً باسم «مرطَبان» في بعض المناطق، ويتميّز بغطائه المحكم الذي يساعد على حفظ الطعام لفترات طويلة.

وباب للسيارات وباب للشاحنات. كانوا الضيوف يصفّوا سياراتهم وشاحناتهم وعرباياتهم في الساحة جنب صالون الضيوف المنفصل عن بقية البيت.

ياما أنا وإياد لعبنا غميضة ببيت سيدي، إياد كان ذكي وبيعرف وين يلاقي أماكن يدحش حاله فيها ويتخَبّى[1]، وكتير مرات كنت ما أقدرش ألاقيه وأستسلم. بتذكَّر مرة وقعت وأنا أدور عليه، وانجرحت ركبتي وبلشت أعيّط. حبيبي إياد أول ما سمعني نط من القرنة المتخبّي فيها وجري عليّ، كان كتير قلقان. حكيتله إنه فش إشي وأنا منيحة، بس ضل قلقان وعبطني. إياد كان يقلق علينا كتير، حتى بعد ما كبر، والصهاينة استغلوا هالشي ضده.

بتذكّر بالشتا كان سيدي يقعد معنا بغرفة كبيرة -مفروشة بقعدة عربية ع الأرض- ويطعمينا أزكى كستنا مشويّة ع الكانون[2].

تعرف، سيدي كان يدللني كتير. مرّة اشترالي بلوزة زهرية وبتذكرها منيح لأني تصوَّرت فيها، وشعري كان قصير وقتها زي الولاد. ياما أخدني سيدي معه ع جنين عشان يشتري لي أواعي جداد، أو ع نابلس عشان يشتري لي اكسسوارات من محل اسمه شهرزاد. بس أكتر شي بتذكره هو سندويشة الراحة التركية -كان يعطيني قطعة راحة وقطعتين بسكوت وباكلها كلها كأنها سندويشة -إمي عمرها ما أعطتنا هيك شي.

---

(1) يِدْحَش: يدسّ ويدخل الشيء في مكان ضيّق، أو يحشره.

(2) كَانُون: وعاء معدني ذو شكل مستطيل وأرجل قصيرة، يُستخدم لإشعال الفحم أو الحطب من أجل الشوي أو التدفئة أو الطهي.

في الخريف، سيدي وستي كانوا يفرشوا أرض الصالون بعشرين أو تلاتين فرشة ليستقبلوا الناس اللي جاية من جنين ونابلس وطولكرم عشان تعصر زيتونها. هالناس كانوا يجوا راكبين عربات تجرها الخيول، ويقعدوا باليومين أو التلات يستنُّوا دورهم ع المعصرة.

ستي كانت تحضِّر الفطور والغدا والعشا. بتذكر كانت تعمل فطير مشلتت للضيوف وياكلوه مع سكر وعسل. العسل كان يجيبه زلمة درزي من قريته في الناصرة وبيشتري فيه زيت زيتون من سيدي، ولهيك كان عند ستي عسل كتير بيكفِّي الضيوف. سيدي عمره ما أخد مصاري من الناس اللي تعصر زيتونها عنده، كان يطلب منهم بدل المصاري نصيب من الزيت اللي عصروه عنده.

ببيت سيدي، كانوا الرجال يقضوا النهار قاعدين مع بعض، يشربوا الشاي ويدخنوا سجاير ويتناقشوا بالسياسة، وكلهم لابسين القمباز. القمباز بيجي منه أكتر من لون، بس غالبًا بيكون باللون الأبيض والأزرق والأسود أو البني، وفوق القمباز بيلبسوا جُبَب أو دَوامِر[1]،

(1) الجُبّة: معطف طويل فضفاض يمتد غالبًا حتى الكاحلين، تُرتدى فوق القمباز، وتُضفي على من يلبسها طابعًا من الوقار والهيبة. غالبًا ما تُصنع من الصوف أو القطن السميك، وتُلبس في المناسبات أو خلال فصل الشتاء، ويميل إلى ارتدائها الوجهاء وكبار السن، وجمعها «جُبَب».
أما الدّامِر: سترة قصيرة يصل طولها إلى الخصر أو الورك، وتتميّز بقَصّتها الضيّقة مقارنة بالجُبّة، وبطابعها العملي والبسيط. كان يُرتدى في الغالب من قِبل الشباب أو الرجال العاملين، ويُلبس هو الآخر فوق القمباز، غير أنه أكثر ملاءمة للحركة والعمل اليومي، وأقل فخامة من الجُبّة، وجمعها «دَوَامِر».

أمّا سيدي فدايًما كان لابس العباية فوق القمباز[1]، ولونها بني نحاسي. وطبعًا لابسين معها الكوفية، إما كوفية بيضا سادة أو اللي فيها أحمر وأبيض أو الكوفية البيضا والسودا اللي صارت رمز المقاومة الفلسطينية.

كانوا يقعدوا حافيين على مساند ملونة ومطرزة، مسترخين وبيضحكوا، وبعضهم يغفاله قيلولة وقت العصر. وبزاوية تانية منفصلة عن الرجال -بس قريبة عليهم- كانن النسوان يقعدن يشربن شاي ويحكين عن الحصاد ويناقشن السياسة زي الرجال. كانن يلبسن أثواب ملونة - اللي من نواحي نابلس يلبسوا الثوب الأسود المطرز بالأخضر والأحمر، واللي من قرى جنين يلبسوا الثوب الأبيض المطرز بالأصفر والأزرق الفاتح. وبين الرجال والنسوان تلاقي الولاد يا إما بيركضوا في كل مكان ويتشاقوا، أو نايمين بحضن أهاليهم. ولما يجي الليل نقعد ونسلطن بقصايد الشعر والموسيقا، ونسمع القصص اللي يجيبوها الزوار معهم من كل مكان.

عن جد كان عيد!

سيدي كان يملك أراضي كتير حوالين كفر راعي، معظمها مزروعة بشجر الزيتون، وبموسم تلقيط الزيتون، كان يجيب تلاتين لأربعين شغّيل عشان يلقطوه. كان أغنى واحد بكفر راعي، قريب على صورة

---

(1) تُعرف العباءة التي يرتديها الرجال في الزيّ الفلسطيني التقليدي باسم «العبايِة» أو «العبايِة الرجالية»، وهي قطعة خارجية طويلة وواسعة تُرتدى فوق القمباز. تُصنع عادةً من الصوف أو من قماش ثقيل، وتُستخدم إما في فصل الشتاء طلبًا للدفء، أو في المناسبات الرسمية تعبيرًا عن الوقار والمكانة. وتتميّز العباءة عن الجُبّة والدّامَر من حيث شكلها وطولها وطبيعة استخدامها.

السيد الإقطاعي. وكنت بتلاقي أغلب زيت الزيتون معَّبى في قناني قزاز ملونة مصفوفة بمخزنه وحوالين بيته. بالأول كان يتاجر بالزيتون جوّه فلسطين، بس لما إجت الستينات والسبعينات بَلَّش سيدي يصدِّر زيت الزيتون ع السعودية والكويت وأبو ظبي والأردن. وعلى قد ما كان سيدي غني وعنده مصاري، ما كانش بده ولاده يعتمدوا عليه، ولهيك ما كان يعطي إمي مصاري. كان يتصدق كثير ويبني مدارس، بس قليل ما أعطى ولاده. بس هالشي مو معناه إنه ما ساعد إمي. بالعكس، كان يساعدها بإنه يعرض عليها يدفع بنفسه حق طراشة البيت[1]، أو يدفع أجرة الفلّاح اللي يحرث أرضها، وكمان كان يعطينا زيت زيتون إذا شجراتنا ما طلّعِن زيتون كفاية، بس نادر ما أعطاها مصاري بإيدها، عشانه ما كانش بده أبوي يكسّل ويِرْكِن عليه[2].

رغم محوريَّة موسم قطف الزيتون في حياة أم يوسف وعائلتها، لم تملك أم يوسف في أثناء طفولة سيرين سوى إحدى عشرة شجرة زيتون روميّة. لاحقًا، بعدما تمر مواسم عدة على سيرين وتغادر فلسطين، ستبدأ العائلة في زراعة المزيد من أشجار الزيتون.

وعلى مر كل تلك المواسم، حافظت سيرين على علاقتها بشجرة زيتون روميّة ظلت تحرص دومًا على زيارتها لدى كل عودة. تلك كانت الشجرة التي اعتادت التسلُّق عليها في سني طفولتها ومراهقتها، تستلقي

(1) طْراشة: دهان.

(2) يِرْكِن عليه: يعتمد عليه أو يتكل عليه، وتُستخدم هذه العبارة في السياقَين الإيجابي والسلبي؛ فقد يُقال عن شخص يُوثق به: «فلان بركَن عليه» أي يُعتمد عليه في الشدائد، كما قد تُقال بنبرة سلبية للدلالة على التواكل أو الاعتماد الزائد على الغير.

على أغصانها وترتاح، ومن حيث تجثم تطلُّ على الحقول الفسيحة المنبسطة لآخر المدى. الآن، وهي في منتصف العمر، تتسلق سيرين الشجرة كما لو أنها لا تزال في سن الخامسة عشرة، ومتى استلقت على أغصانها تشابكا في عناقٍ جميل مثل صديقٍ يعانق صديق طفولته. عدا أنَّ الشجرة الآن ما عادت معزولة عن أعين الجميع، إذ بات يحاذيها طريق، والبيوت تناثرت على المدى. تمعن سيرين النظر إلى شجرة الزيتون من العصر الروماني وتتأمل روحها التي عاشت على مدى تاريخٍ طويل من الاضطرابات، تتأمَّل كيف جذعها المحفور فيه تجاعيد الزمن متجذرٌ في أعماق الأرض، وأغصانها الطويلة المتشابكة باسقة نحو السماء، فتفكِّر بكل الأشجار التي اقتلعها الصهاينة من أرض فلسطين لمصادرتها، وبكل المزارعين المتشبثين بأرضهم التي زرعوها قرونًا من الزمن.

بس تتبدَّل الفصول، وريح الشتا تهب ع فلسطين، بتتبدَّل علاقتنا بالأرض، وبيدخل علينا في شباط موسم تلقيط الزعتر اللي كان يوخد منا وقت كتير طويل.

يا الله ع ريحة الزعتر! بتضلها ملاحقيتني طول حياتي، هي الشي الوحيد الثابت فيها! بتذكّر واحنا صغار كنا نفطر عليه كل يوم. ولليوم لازم الزعتر يكون موجود عندي بالمطبخ، بتلاقيه دايمًا محطوط ع الكاونتر وجاهز لحتى نغمسه بزيت الزيتون. بكفر راعي كان الزيت والزعتر بيجونا ببلاش لأنه من أرضنا ومن الأراضي اللي حوالينا. بتذكّر إمي بوقت الفطور تفرش الشرشف البلاستيك ع الأرض، بنص الغرفة، وتوزع عليها صحون نضيفة وكاسات، وبالنص تحط صحن الزيت

والزعتر، ومعها صحن لبنة وصحن زيتون وصحن بندورة وخيار. وإذا كنا محظوظين، كانت تعمللنا مفرّكةِ بطاطا بصحن كبير يوم الجمعة[1]، بس لما كبرت العيلة وزاد عددنا، كل وين ووين صارت تعملها.

حتى اللبنة ما كانت دايمًا موجودة عندنا لأنه ماعندناش ماعز، ولما نجيب لبنة ع الدار عادة بتكون كتير حامضة. وقتها ما كانش عندنا ثلاجة، فكنّا نُشْخُل اللبنة ونُمْرُسَها ونَدحبِرْها[2]، ونعبيها بمرتبانات ونصب عليها زيت الزيتون، وهيك كانت تضاين اللبنة سنة كاملة من غير ما تخرب[3]، بس لما كنّا نوكل منها بأي وقت نلاقيها حامضة، لهيك ما كنت بستطعم اللبنة ولا بحبها.

وما كانش عندنا حليب كمان. كنا ناخد ركوة القهوة الصغيرة ونروح ع دار أبو منذر، كم دقيقة مشي ونوصل ع بيته. كان أبو منذر

---

(1) مفرّكَة البطاطا: طبق بسيط وشهي يتكوّن من بطاطا مقلية يُفقَس فوقها البيض مباشرة، ثم تُقلّب على النار حتى ينضج البيض تمامًا، ويُضاف إليها القليل من الملح والفلفل الأسود لإضفاء النكهة، وتُسَمّى في بعض مناطق فلسطين «بطاطا وبيض» أو «مُبَعْثَرَة».

(2) يُشْخُل: فعل يُستخدَم في معظم اللهجات الفلسطينيّة للإشارة إلى عملية فصل اللبن المتجبّن عن الميص (الماء الناتج عن تجبن اللبن)، أي عندما يُوضَع اللبن المغلي، الذي أُضيف إليه المنفحة أو الخل حتى يتجبّن، داخل كيس من القماش المصمم خِصّيصًى لهذا الغرض. بعد ذلك، يُعلّق الكيس في مكان مرتفع لكي يتصفى اللبن من الميص. يُطلق على هذا الكيس أحيانًا اسم «كيس اللبن أو اللبنة»، «خريطة اللبن» أو «المخلاة».
يُمْرُس: يهْرُس، وغالبًا ما تُستخدم هذه الكلمة في سياق الطعام، مثل «يمرس البطاطا» أي يهْرسها.
يدَحْبِر: يُكوّر الشيء ويجعله على شكل كرة، وغالبًا ما تُقال عند تشكيل الطعام باليد، مثل «يدَحْبِر العجينة»، وتسمى اللبنة التي تتخذ هذا الشكل باللبنة المدحبرة أو لبنة دحابير.

(3) تضايِن: تعيش لوقت طويل أو تدوم لفترة زمنية ممتدة.

عنده بقر وبيبيع حليب ويعبي لنا الركوة، طبعًا الحليب ما كانش مبستر. أصلًا نادر ما كنا نشرب حليب - بس إذا حدا فينا مريض يمكن يشربه؛ وقتها كنا دايمًا نشرب الشاي مع فطورنا، مش حليب.

الطبق الوحيد المضمون وجوده في كل وقت هو الزيت والزعتر، وعلى قد ما بحبه على قد ما كرهت موسم تلقيطه.

الزعتر بيطلع بالتلال حوالين جنين بين أمطار شباط وآذار، فكنا لما نطلع ع الأرض نلاقيها رطبة ومْلَبْصَة(1). كل وحدة فينا البنات بتطلع حاملة شوال طحين فاضي حتى تعبيه. ولعلمك البنات بس اللي بيلقطوا الزعتر، الولاد عمرهم ما لقطوه معنا، حتى لما كبروا. كنا نلبس أواعينا القديمة المهرّيات واللي كنّا بنقدرش نلبسهن قدام الناس، زي مريول المدرسة القديم أو فستان قديم نلبسه فوق البنطلون، ودايمًا كنا نغطي شعرنا بمنديل.

صدقني لو ما كنّا نهلك من تلقيط الزعتر، لكانت الطلعة ع تلال جنين مشوار حلو. كنا نجهز التبولة وأكلات تانية نحملها معنا عشان نتغدى هناك. وبتذكّر كنا نمشي بالساعات لأنه إمي تضلها تحكي إنه كل ما بعّدنا أكتر كل ما كان أحسن، عشان رح نلاقي زعتر أكتر. كل نسوان القرية كانوا يلقطوا الزعتر من الأراضي القريبة ع القرية إلا إحنا. إمي كانت تطلع فينا الفجر وما بترجّعنا إلا المغرب بعد ما قضينا النهار كله نلقّط زعتر.

---

(1) مْلَبِّص أو مْلَبْصَة: موحلة ومليئة بالطين، ويشيع استخدامها خاصة بعد تساقط الأمطار.

أوقات كنا نحمل أرسلين ونجيبها معنا، وأوقات تتركها إمي عند الجيران. إيهاب وإياد كانوا يطلعوا معنا، ويوسف كمان إذا جبرته إمي. أنا وخواتي كنا نحب نذير بالنا على الولاد ونلعب معهم بالأرض، وبس يصير وقت الشغل، نرجع ونلقّط الزعتر والولاد يضلوا يلعبوا براحتهم.

ماكنا نلبس كفوف[1]، كنا نلقّط الزعتر من فوق الجذور بإيدنا، وعلى آخر النهار كل وحدة فينا تلاقي إيديها ناشفات ووسخات ومصبوغات بالأخضر ومليانين شوك. والموضوع ما بيخلص هون. بعد ما تغيب الشمس ونرجع ع دارنا لازم على طول نكمل شغل ونفرِّط الورق[2]، لأنه إذا الزعتر ذِبِل بيصير صعب كتير نعمله على طريقتنا التقليدية.

بتذكَّر ليالي الزعتر، كانت ليالي حلوة ومرة. كنا نقعد في الحاكورة تحت النجوم، ضواو القرية يا دوب تضوّي واحنا بنفرِّط الورق. كنا نشوف الزعتر من لمبة وحدة بتضوي علينا من مولد الكهربا في القرية. إمي كانت تعمل شاي بنعنع، وكانوا جاراتنا يجوا لحتى يساعدونا ويفرطوا الزعتر معنا لآخر الليل.

تاني يوم ننشّف أوراق الزعتر في الشمس، وإذا كانت الدنيا عم تمطّر ننشفها جوّه. كنا نفرش مفرش طاولة كبير ع الأرض ونترك الورق عليها لينشف. بأول الموسم بيكون الزعتر بعده أخضر، فبدل ما ننشفه كنّا نعمل منه فطاير زعتر كل أسبوع.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) كفُوف: قفازات أو مُصْبَعَانِيّات.

(2) يفرِّط: يقطع الأوراق عن الساق باستخدام اليد، حيث يُنزع الورق من العيدان، مثل الملوخية أو السبانخ أو الزعتر، والاسم منه «تفريط».

أول ما الزعتر ينشف، كانت إمي تطحنه بالجاروشة وتلمه بأكياس وتخزنهم تحت الدرج، وهيّ الكمية اللي جمعناها بين شباط وآذار بتكفينا السنة كلها. كل مرة حدا فينا بده زعتر، تطلّع إمي شوية زعتر من الكيس وتخلطه بسماق وروح الحامض والسمسم المحمّص مع شوية زيت زيتون. هاي الخلطة هيّ اللي انتوا بتشوفوها بالسوق. ولعلمك، صحن صغير من الزعتر المدقوق كان ياخد منّا شغل ساعتين، لأَنه حتى نطلع بهالصحن الصغير كان لازم نجمع كمية كبيرة من الورق.

روتين تلقيط الزعتر ما تغيّر بعد ما طلّع الاحتلال في الـ77 قانون بيجرِّم تلقيط الزعتر البري واعتبروها نبتة محميَّة. وكلنا بنعرف إنه هالقانون أداة من أدواتهم الاستيطانية لحتى يسيطروا على حياتنا وثقافتنا. وبتذكّر كمان، إنه في هديك السنة، بلّشت الحكومة الصهيونية تبني مستوطنة ميفو دوتان بعد ما صادرت أراضي من قرية يعبد. متنا رعبة واحنا نتفرج بعيونّا على مستوطنة تنبنى قريب منا، وكيف المستوطنين يبنوها على أرضنا بكل سهولة.

في ذاك الصيف، اصطحب أبو يوسف أبناءه الثلاثة إلى طريق الوادي، على تخوم المستوطنة الجديدة التي لا تزال تحت الإنشاء. تأمل الأولاد أباهم يقف صامتاً، اليأس وانكسار القلب متجليان في عينيه اللامعتين. خسارة تلك التلة للمستوطنين استمرارٌ للنكبة التي عاشها أبو يوسف في 1948، وها هي تتكرَّر على مرمى حجر من قرية أطفاله. غمره القلق على أولاده الذين سيكبرون قرب تلك المستوطنة بينما هو

يشقى في أبو ظبي بعيدًا عنهم، وداهمته الخشية على أراضي قريته من أن تصبح الهدف التالي للمستوطنين.

ودون أن يفكِّر بأثر كلماته الرنَّانة في حياة أبنائه، قال: «اوعدوني لما يجي الوقت إنكم تضلكوا صامدين».

10
1981

«إياد يلّا، تع جوَّه»، شرعت أم يوسف تصرخ على ابنها، مرهقة ومستنزفة ولا طاقة بها لملاحقته، فقبل أسابيع قليلة أنجبت ابنها بهاء. إياد، البالغ الآن السابعة من العمر، جاءها متّسخًا من لعبه في الأزقة مع أولاد الحارة.

«شو عامل بحالك! يا معفِّن!» صرخت أم يوسف مغتاظة مع عودة إياد إليها مطأطئ الرأس «ليش بتعمل فيني هيك؟ ها؟ كم مرة قلتلك تدير بالك وتوسخش أواعيك؟» ظلت تصرخ حاملةً رضيعها بهاء على ذراع، وتلوِّح بذراعها الأخرى بغية الإمساك بمؤخرة ابنها وهو يجري مذعورًا عبر الباب. في فورة غضبها، لم تلحظ عودة إياد إليها هذه المرَّة دامع العينين. أحد أصدقائه دفعه أرضًا وانتشل من يده الشومر التي قطفها من على جانب الطريق وكان ينوي تذوقها. ما كان إياد ليدع صديقه يرى دموعه، لكنها اندفقت من عينيه ما إن وطئ البيت. وبعدما فلت من قبضة أمه، ذهب إلى أخته سيرين التي فورًا تنبَّهت إلى دموعه.

أوَّل ما شفته سألته بحنّيّة «إيش صار يا بِسْبِس؟» هيك كنا ندلعه لإياد وقتها، بِسْبِس، لأنه شقي وحرِك كتير زي البسّ.

ظلَّ إياد يئن دونما إجابة. كان يمقت التعرُّض للتنمر، ويمقت إظهار انفعالاته العاطفية وعجزه اللحظة عن كبت دموعه أمام أخته، ومنذ تلك السن تولَّد لديه الاحتياج إلى اكتساب القوة للدفاع عن نفسه.

واسته سيرين، ومن بعدها حمَّمته.

في أيام كهذه، بعدما يستحمّ إياد، شعره رطب وممشط مع فرق على الجانب، سيمشي نحو غرفة المعيشة (التي هي أصلًا غرفة نوم أمه)، نحو السادسة مساءً، ويجلس على الأرض يلهو بمكعبات التركيب البلاستيكية.

بالمسا، إذا كان عندنا كهربا، نقعد نتفرَّج ع التلفزيون، والتلفزيون أيامها كان أبيض واسود وشاشته 13 بوصة، والاستقبال مش دايمًا منيح. بتذكّر واحد فينا كان يطلع ع السطح يزبط الأنتينا، والتاني يوقف عند الدرج، والتالت بالأوضة، ونضلنا نصرخ ع بعض حتى نعرف إذا الاستقبال تصلَّح والا لأ. ما كانش عندنا غير قناة الأردن والقناة الإسرائيلية العربية، لأنه مش مسموح للفلسطينيين يبثوا قناة فلسطينية أو يكون إلهم أي نوع من الاتصالات - ماكانش عندنا محطة إذاعية ولا محطة تلفزيونية ولا شبكة اتصالات، كلها تحت سيطرة الاحتلال. ووقتها كانت كل المحطات تقفل ع الساعة 7:30 المسا.

إذا ما كانش عندنا كهربا بنتعشى وننام بكّير، لأنه أيامها كهربة الدار كانت تيجينا من مولد كهربا عند جيراننا، وقبل ما يناموا كانوا يسكروه،

يعني كنا تحت رحمتهم. ما كانش عندهم مانع يخلوه وقت أطول بس بشرط إحنا نروح ونسكره قبل ما ننام، بس كنا مرعوبين نطلع بالليل وتهجم علينا كلاب الشوارع أو الجنود الصهاينة.

في بعض الأماسي، متى لعب إياد وحده، يأتيه أخوه يوسف ويحاول مضايقته وانتشال قطعة تركيب من يده. إياد ما كان ليقاومه إذ كان يخشى المواجهة، مما شجَّع الآخرين على استفزازه. كان سينزوي إلى ركن في الغرفة ويئن وحده، لا سيما إذا لم يهب أحدٌ إلى نجدته والوقوف معه. أحيانًا إيهاب كان يهبّ لنصرته، مما جعله الأقرب إليه من بين إخوته. كنت ستجدهما يلهوان سويًّا في الحاكورة، كلٌّ يحمل مخزونه من القلول، أو يلعبان دور فدائيين فلسطينيين يحاربان الاحتلال.

اعتاد إياد الاستمتاع برؤية شقيقاته الكبريات الثلاث يعجنّ في المساء ويتركن العجين ليتخمَّر طيلة الليل، كنَّ يتبادلن الدور كل ليلة، وفي كل ليلة ثالثة يحلّ دور سيرين. بعد صلاة الفجر، تأخذ أمهنّ العجين إلى طابون أم فريد لكي تخبزه.

في المساء، متى لم تكن سيرين مشغولةً بالعجن أو بمهام أخرى من مسؤوليات البيت، تذهب إلى الشرفة العلوية وتؤدي واجبها المدرسي في أيام المدرسة، أو تصغي إلى الموسيقا والأغاني على الراديو وتخربش على دفترها. إياد سيعدو خلفها نحو الشرفة، ويلتمس الدفء في حضنها على الأرض حيث تجلس على وسادة، تتكئ على الجدار بظهرها وشعرها المنفوش. وما إن تلهو بخصل شعره، سيطلب منها أن تسرد عليه حكاية. في تلك الليالي المضاءة بالشموع، تستحضر سيرين روح

الحكواتي فيها وتأخذ إياد معها في مغامرات إلى عوالم مختلفة عن العالم الذي يعيشانه.

حبيبي إياد كان بيحب القصص كتير، وأنا أكتر حدا بالدار كنت بعرف كيف أحكي قصص حلوة. فكنت كل ليلة أخترع له قصة جديدة، بس إذا سألني أعيدها عليه تاني يوم أو أكملها كنت أنسى أنا شو اللي حكيته بالزبط!

في لحظات كهذه، يجلس إياد مشدوهًا بحكايا سيرين، وأيًّا تكن الحكاية التي ترويها، تبعث فيه الطمأنينة وتقنعه بصوتها ونبرتها ألا شيء آخر يحدث خارج العالم الذي تحيكه أمام عينيه. وسيرين تنتشي بهجةً باهتمام أخيها بقصصها؛ ها أحدهم يمنحها كامل انتباهه، ذهنه معلَّقٌ بكل كلمة تقولها.

كانت البرندة هي المكان اللي قضينا فيه طفولتنا وشبابنا، مساحتها كبيرة وممتدة ع الغرفتين اللي فوق وبتطل ع الواد. في مواسم الصيف كنا نلعب وناكل فيها، وياما نمنا فيها بالليل. بس في الـ84 قررت إمي إنه تسكّرها وتحولها لغرفة زيادة وغطتها بواجهة قزاز. يا الله قديش عيطت يوم ركبت الواجهة.

بعدها فرشت إمي البرندة والغرفة التانية اللي فوق بكنبايات بلون الطحالب الخضرا، وطاولة أكل بيضاوية بلون خشب الجوز وما كانش مسموح إلنا نقعد عليها إلا إذا كان عندنا ضيوف، وخزانة بوفيه صينية بيضا.

بهديك السنة كمان، بالـ84، ميسون وسوزان تخرجوا من الجامعة بعمّان. تخرجوا مع بعض بنفس السنة لأنه سوزان تأخرت روحتها ع الجامعة بعد ما جبرتها إمي تضل كمان سنة معها حتى تساعدها في شغل البيت. إمي سافرت لتحضر التخرج بعمّان، وهناك التقت بأبوي إللي إجى من أبوظبي. ما أخدت إمي حدا معها إلا أخوي ضياء اللي كان عمره سنتين وقتها، وتركتني أدير بالي على اخواتي السبعة، عددنا زاد بعد ما أختي سهى انولدت بالـ78 وسوسن بالـ80. بتذكّر منيح إنه كان بدي أسمّي أختي سوسن «سلام» على معاهدة السلام اللي صارت بين مصر وإسرائيل وافتكرت إنها رح تجيب السلام ع فلسطين، بس كل اللي عملته هالمعاهدة إنها عزلت الفلسطينيين عن جيرانهم العرب.

كنت أصحى بكير وأجهز الفطور لاخواتي وأفرش الجريدة على الأرض حتى ناكل عليها. كان لازم أدير بالي على بهاء بس فش وقت لأنه عندي امتحانات كمان ولازم أدرس، فكنت أخليه عند الجيران وأروح ع المدرسة. وعلى طول بعد ما أرجع أبلّش أغسل الأواعي وأكوي، وأحمّم اخواتي الصغار، وأطبخ. يوسف وإياد ما ساعدوني بأي شي، وأخوي إيهاب بس اللي كان بيساعدني بالمطبخ.

بتذكَّر إنه أبوي وإمي رجعوا قبل امتحانات التوجيهي بيومين. كانوا متزاعلين وبيحكوش مع بعض على كلمة قالها خالي لأبوي. ضلوا يصيحوا ع بعض طول الليل وما قدرتش أدرس، فقبل ما أنام قلت لأمي تصحيني بعد صلاة الفجر عشان أكمّل دراسة.

بس إمي يومها ما صحَّتني، كانت تعبانة كتير ومَسْمُوم بَدَنْهَا من الخناق طول الليل[1]، وفجأة صحيت مفزوعة ع صوت الجرس في مدرسة الأولاد القريبة ع البيت، واللي كانوا يعملوا فيها امتحانات التوجيهي. نزلت ركاض ع المدرسة ومزعت فصل من كتاب التاريخ وخبيته. جاوبت اللي قدرت أجاوب عليه، وغشيت الباقي من الفصل المزوع، بس المراقب مسكني، وضليتني أترجَّى فيه يسامحني وشرحت له إني ما قدرت أدرس امبارح، وإني بنت شاطرة وأخدت علامة كاملة بالتاريخ بامتحان نص السنة، بس المراقب عنَّد معي وما قبلش يسامحني، فنزل معدلي من التسعين للثمانين.

عملت زي ميسون وسوزان ودرست جامعة بعمَّان، وأبوي نزل هناك عشان يساعدني. بتذكَّر وقتها طلعتنا ع سوق البلد لحتى أجهِّز للجامعة وأشتري بدل وأواعي ملوَّنة. اللي عمله أبوي معي ما كانش أبدًا من عادات الفلاحين، لهيك بقول إنه أنا وإخواتي كنا محظوظين كتير أيامها. بالأول أبوي وإمي كانوا بدهم إيانا ندرس بكلية دار المعلمين بالضفة الغربية، بس قدرنا نقنعهم إنه نكمل جامعة بالأردن.

حرص أبو يوسف حرصًا شديدًا على منح كل بناته تعليمًا جامعيًّا. وقتئذ كان الاحتلال لا يزال يطبِّق سياسة «الجسور المفتوحة» مما سهَّل حركة التنقل إلى الأردن ومنها، والأردن كانت لا تزال تتولى إدارة قطاع التعليم في الضفة الغربية. لهذا، كلما تخرجت ابنة من بناته من التوجيهي،

---

(1) مَسْمُوم بَدَنْهَا: تُقال لوصف شخص يشعر بالضيق والانزعاج، وكأن مزاجه معكّر أو متكدّر.

سهل عليها إقناعه وإقناع أم يوسف برغبتها مواصلة تعليمها الجامعي في الأردن، خصوصًا مع سيرين؛ فالظروف في فلسطين سرعان ما أخذت تتصاعد وتتبدَّل، والوضع غدا أقلَّ أمنًا.

بعد هزيمة منظمة التحرير الفلسطينية ورحيلها عن لبنان عام 1982، أدرك الفلسطينيون في الضفة وفي غزة أنَّ الصمود وحده ليس كافيًا لتحرير وطنهم؛ ما عاد انتظار الآخرين لكي يقاوموا نيابةً عنهم خيارًا مقبولًا ولا حتى متاحًا. صحيح أنَّ الأعوام الماضية شهدت أفعال مقاومة، إلا أنها تصاعدت بحدة في عام 1982 إثر تعبئة المنظمات النسائية والنقابات العمالية والمهنية ومؤسسات الإغاثة وتجمعات الطلبة.

في الأعوام اللاحقة ستحتد المواجهات ضد قوات الاحتلال، وستبلغ ذروتها في عام 1987، مع بلوغ يوسف وإياد وإيهاب سن المراهقة. هذا التبدُّل في الأحداث، في هذه السن المتبدلة في حياة الأولاد الثلاثة الأكبر سنًّا في دار صوالحة، سيجرُّ العائلة إلى فصلٍ جديد من حياتها، إلى قلب دوامة النضال في فلسطين.

الجزء الثاني

مشان الله ما تنسيني

11

1987

«برافو عليك يا بطل، إجت على درعه!» هتف يوسف لأخيه إياد، مبتسمًا، رافعًا قبضته في الهواء وهما يعدوان مسرعين من مرأى الجنود. براعة إياد في قذف الحجارة تفوق عمره، ويغمره الفخر كلما نال احترام أخيه الأكبر.

«خلينا نروِّح من هون، هسّه الجنود بيدخلوا وبيبلشوا اعتقالات وبيفضُّوا المظاهرة». تلك كانت تعليمات يوسف لأخيه فيما إياد يلحق به في أحد أزقة قرية الرامه المجاورة التي يحفظ يوسف شوارعها عن ظهر قلب. فقد شارك يوسف في عشر مظاهرات قبلها خلال العام، وبات يتمتع بالحسّ المطلوب لمعرفة متى يفر ومتى يرمي حجرًا. لحظتها إياد كان مشحونًا بالأدرينالين وبإحساسٍ واهم أنه لا يُقهَر.

انطلقا يعدوان إلى بيتهما كما السهم، ووجدا أم يوسف في انتظارهما، متجهمة، تتفحص ابنيها بحثًا عن دلائل على مكان وجودهما. زعقت في وجه يوسف «بدَّك تصيع صيع، بس أوعك تسحب إخوانك معك». ظل إياد مطأطئ الرأس، صامتًا خلف أخيه.

مع تصاعد اندلاع المظاهرات في فلسطين، تصاعد قلق أم يوسف على أبنائها. فمنذ 1986 إلى 1987 شهدت فلسطين اندلاع ما يقارب ثلاثة آلاف مظاهرة في غزة والضفة. وبدأ العام 1987 مع ترحيل قيادات الطلبة المنتمين إلى حركة فتح، وذلك بعد اعتقالهم في جامعة بيرزيت في ديسمبر عام 1986. وقادت فتح، إلى جانب حركات فلسطينية أخرى منها الجهاد الإسلامي والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، مظاهرات ضد الترحيل. وفي بعض مدن الضفة الغربية، حاول جيش الاحتلال قمع المظاهرات باستخدام القنابل المسيلة للدموع وإطلاق الرصاص الحي وإغلاق الجامعات.

بدأ انخراط يوسف في المظاهرات فور سماعه عنها وعن الناس التي بدأت تنتظم وتحتشد لمقاومة قوات الاحتلال في كل فلسطين، وانجرف إليها بتأثيرٍ من أصدقائه الأكبر منه عمرًا. من حسن حظ أم يوسف أنَّ المظاهرات في كفر راعي أصغر حجمًا وتُجابَه بقوة أقل بأسًا وشدّة. لكنها عانت في محاولاتها السيطرة على يوسف واحتوائه. ما فتئت تدفعه إلى المجيء معها للعمل في الأرض، لكن مع مرور العام خفَّ انصياعه لها، وبدأ يخوض معها في نقاشات حادة، إلى أن تبدَّى لها بوضوح عجزها عن إبقائه في البيت. وبات جلُّ أملها ألا تجرف الأفكار الرومانسية عن الثورة ابنيها المراهقين الآخرين.

حينذاك، سعى الفلسطينيون أيضًا إلى لجم العملاء الفلسطينيين المتعاونين مع العدو، ولاحقوا تحديدًا أعضاء حركة الروابط الفلسطينية. إذ حاول الاحتلال تمرير هذه الحركة على أنها أداة سلام، والبديل لمنظمة

التحرير الفلسطينية. غير أنَّ هذه الحركة ما كانت سوى محاولة من سلطة جيش الاحتلال لتجنيد العملاء ضمن الفلاحين الفلسطينيين، امتدادٌ للهوس الصهيوني بتجنيد ممثلين لها من السكان الأصليين يديرون الاحتلال نيابةً عنها لكي تضفي على استيطانها الاستعماري صبغةً ودية.

مع مطلع الثمانينيات، شهدت أم يوسف بذعرٍ وقلقٍ شديدين محاولات الرابطة تجنيد العملاء من القرى، وتعيين المخاتير بمساعدة من الصهاينة. ففي عام 1978 أُعْلن عن أول رابطة في الخليل، ثم توسَّعت إلى أن أصبحت حركة منظَّمة مع مطلع الثمانينيات. فرعٌ منها تأسَّس في قباطية، على بعد عدة بلدات شمال كفر راعي، وهذا الفرع تحديدًا أرعب أم يوسف، إذ أدركت أنَّ وقوع قريتها بين هذا الفرع وبين مخيم العملاء في فحمة سيعني أنَّ كفر راعي ستفيض بالخونة. وزاد من قلقها وجودها وحدها في البيت دون أبو يوسف. ففي غيابه عن بيته، سيتسنى لرجالٍ آخرين التأثير على أبنائها، وأبو يوسف قضى أيامه في أبوظبي يحمل على ظهره هذا الذنب الثقيل. لم يكن أمام أم يوسف خيار سوى أن تأمل أنَّها ربَّت أبناءها وبناتها على التحلِّي بما يكفي من كرامة لكيلا يقعوا ضحية في فخاخ الاحتلال. ليس أنَّ مهمة حركة الروابط كانت سهلة، فقد واجهت صعوبةً بالغة في نيل الدعم من القرى وأهاليها، وتعرَّض المخاتير في أكثر من قرية لمحاولات اغتيال.

مثل حال الكثيرين من الآباء والأمهات الفلسطينيات، خوف أم يوسف الشديد من احتمال تعاون أحد أبنائها مع الصهاينة، أو التعامل معهم بأي طريقة، لم يقابله حماسٌ عارم لانخراط أبنائها في المواجهات

ضد جيش الاحتلال. وفي هذا التناقض بين الموقفين، وجد المراهقون أنفسهم عالقين بين صفعات تأديب الأهل القاسية وبين طلقات رصاص جيش الاحتلال القاتلة. وكلما انكبَّ هؤلاء المراهقون على قراءة المناشير الثوريّة اشتدَّ خوف الآباء والأمهات عليهم. ولم يكن مستغربًا سماع أحد هؤلاء الآباء والأمهات، ومنهم أم يوسف، يصيح على ابنه «لا تكون مصدق إنه أنت اللي بدك تحرر فلسطين! من هون! من هالقرية!»

لكن هؤلاء المراهقين يعرفون تاريخ قراهم، ويعرفون من قصص الماضي مدى قوة الفلاحين متى ثاروا. فقد سمعوا تلك القصص من آبائهم وأمهاتهم، عن أجدادهم وأسلافهم الذين انخرطوا في ثورات ماضية. فقد انخرط جدُّ سيرين في الثورة العربية بإخفائه الثوريين لديه، ومن قرية يعبد القريبة اندلعت شرارة تلك الثورة في عام 1935.

مع حلول أغسطس من عام 1987، نفَّذت حركة الجهاد الإسلامي عدة عمليات على يد هاربين من سجن غزة المركزي. أشعلت تلك العمليات الحماس في المخيال الشعبي، غير أنها أطلقت أيضًا فترات منع التجول الطويلة، وحملات تفتيش البيوت، وحملات الاعتقال الواسعة. ذاكرة سيرين عن تلك الفترة غائمة، فقد عاشتها مستغرقة في روتين وظيفتها في بنكٍ من بنوك الأردن - تتنقل ما بين البيت والبنك، تحاول الحفاظ على مظهرٍ لائق والتعامل مع حياتها بصفتها امرأةً عزباء في عمَّان بعيدًا عن أسرتها. حينذاك لم تقلقها الأحداث بقدر ما أقلقتها عين أمها الخفيَّة، ترقبها وتحاسبها على كل تصرُّف.

في السادس من أكتوبر، أربعة من أعضاء الجهاد الإسلامي الفارين من السجن أطلقوا النار على ضابط إسرائيلي في شعبة الاستخبارات العسكرية الشاباك وأردوه قتيلًا. لوحِق الشُّبَّان الفلسطينيون الأربعة وقُتِلوا جميعًا. اندلعت الإضرابات العامة والشغب عشرة أيام، أغلبها في غزة والقليل منها في الضفة، وردَّت قوات الاحتلال بإطلاق الغاز المسيّل للدموع والرصاص الحي وهدم بيوت أعضاء الجهاد الإسلامي في غزة. في كفر راعي، ورغم محاولات أم يوسف إدارة دفة البيت بحزمٍ شديد، شارك أبناؤها يوسف وإيهاب وإياد في مظاهرات صغيرة. وبات يوسف يقضي ساعات طويلة في اجتماعات سياسية مع فتيان وشباب آخرين من أبناء القرية.

بعدها بشهرين، قرب مخيم جباليا في غزة، صدمت شاحنة إسرائيلية كبيرة عربة نقل تقلُّ عمالًا فلسطينيين عند تقاطع إيريز وهشّمتها، ونتج عن العملية مقتل أربعة فلسطينيين وجرح عشرة. اعتبر الاصطدام عملًا انتقاميًّا بعد تعرُّض رجل أعمال صهيوني قبل أيام للطعن حتى الموت في غزة على يد مجهول. البعض يقول إنَّ هذه الحادثة تحديدًا هي الشرارة التي حملتها الريح إلى الضفة وأوقدت حركة مقاومة أكثر تنظيمًا واستدامةً على مر الخمس سنوات القادمة.

قد تكون هذه الحادثة هي الشرارة، لكن المظاهرات وأفعال المقاومة والتنظيم على مر سنوات سابقة للعام 1987 هي التي هيأت الأتون لاشتعال النار التي بدت عشوائية يومئذ.

حاولت أم يوسف النأي بأولادها عن الثورة المتفجرة التي

ستحمل اسم «الانتفاضة». كل يوم يحمل معه أحداثًا مهمة وحركات تعبئة وتحوُّلات محوريَّة؛ بعض تلك الأحداث يحمل دلالات واضحة، وأخرى تقهقرت ذكراها في إعادة قراءة التاريخ. غير أنَّ حدثًا منها ظلَّ محفورًا في ذاكرة الناس: تأسيس حركة المقاومة الإسلامية حماس بعد شهر من عملية الاصطدام قرب مخيم جباليا. تأسست حماس بدايةً بصفتها ذراعًا ناشطة لحركة الإخوان المسلمين في غزة، لكنها انفصلت عن هدف الحركة الأم الرامي إلى أسلمة المجتمع، وصبَّت جهودها في تعزيز النضال الفلسطيني ومقاومة الاحتلال.

يمكن القول إنَّ المواجهات والاشتباكات بين الجهاد الإسلامي وجيش الاحتلال هي التي شرَّعت الباب أمام فورة الانتفاضة، لكن في الواقع ما كان لهذه الانتفاضة أن تفور لولا انخراط الناس من كافة الأعمار في التظاهر. صور الفتيان المراهقين على خطوط المظاهرات الأمامية، يرمون الحجارة على جنود الاحتلال ومدرعاتهم، أسرت أعين العالم، وبات يعرفهم الجميع بـ«أطفال الحجارة». وفي فترة قصيرة، غدت هذه الانتفاضة الشعبية حركةً منسقة تحت «القيادة الوطنية الموحدة» المكوَّنة من فتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والحزب الفلسطيني الشيوعي وغيرها من الحركات اليسارية الموالية لمنظمة التحرير الفلسطينية والمخلصة لقيادتها. حينذاك اتخذت منظمة التحرير الفلسطينية تونس مقرًّا لها، تصرِّح من هناك بالبيانات الرسمية، لكن على أرض الواقع، في فلسطين المحتلة، ما كان لها أي سيطرة على تحديد مسار الأحداث الداخلية. حركتا حماس والجهاد

الإسلامي لم تنضويا تحت القيادة الموحدة، لكنهما دعمتا الانتفاضة واستمراريتها.

لم تقتصر الانتفاضة على تلك الجماعات. شبكةٌ واسعة من التنظيمات -من النقابات والمنظمات المهنية ولجان القرى والمخيمات- شاركت بفعاليَّة في إزكاء نار الانتفاضة من خلال المظاهرات الشعبية والإضراب العام والمقاطعة والامتناع عن دفع الضرائب، فضلًا عن أنَّ القيادة الوطنية الموحدة دعت إلى الإضراب العام في اليوم التاسع من كل شهر. مع الوقت، دخلت عناصر مسلَّحة دائرة الحراك، منها مجموعات الفهد الأسود التي انبثقت عن فتح كجناحٍ عسكري يقاتل المحتل، لكنها أيضًا حمَّلت نفسها مسؤولية اقتلاع العملاء المتعاونين مع العدو. ومع قرب كفر راعي من مخيم العملاء في قرية فحمة ورابطة القرى في قباطية، ارتأى يوسف أنَّ مجموعات الفهد الأسود سيكون لها دورٌ أساسي في نجاح الانتفاضة. أخوه إياد سيحذو حذوه ويتبنى نظرته، عدا أنه سيتجاوزه مستقبلًا في الخطوات التي سيتخذها.

تابعت سيرين أحداث الـ87 من عمَّان، لكنها لم تعرف شيئًا عن انخراط إخوتها فيها. هي أصلًا لم تعرف الكثير عن الأحزاب والحركات السياسية، كانت تعرف فحسب حركة فتح بقيادة ياسر عرفات. أولاد قريتها -إلى جانب أشقائها- كلهم داعمون للانتفاضة. صحيح أنَّ المظاهرات منحت أملًا لسيرين وصديقاتها في عمَّان، لكن ذهنها ظلَّ حبيس استغراقه في محاولاتها شقَّ حيِّز لها في الحياة تعيشه، حيِّز تحتمي فيه من عين أمها المتفرِّسة.

درست الصيرفة الإسلامية بالأردن، وبعد ما تخرجت بالـ87 اشتغلت بقسم العلاقات العامة والتسويق ببنك الإسكان، واللي كان وقتها من أكبر المباني في الشميساني ومعلم من معالمها. اشتغلت هناك تلات سنوات. وقتها، مع الانتفاضة، صار صعب التنقل بين الأردن وفلسطين، مع هيك ضلوا أبوي وإمي يطاردوني كل يوم -إمي بالذات. بعد ما خلَّصت جامعة ضلت تكتبلي رسايل كل أسبوع، تبعتها مع أي حدا جاي الأردن، وبهالرسايل كانت تحكيلي كوابيسها عن الرجال اللي بلتقي فيهم:

«شفتك حبّيتي زلمة؛ شفتك انخطبتي لزلمة؛ شفتك هربتي مع زلمة».

كان عندي علبة مليانة بهالرسايل بس رميتهم أول ما تجوزت، ما كنتش طايقة هالرسايل، بكرهها.. بكرهها.. هدول كوابيسها مش كوابيسي، بس هالكوابيس ضلت تلاحقني كل مرة بطلع فيها برّه وكل مرة بيحكي معي رجّال.

ظلَّ إحساس سيرين بأنها دومًا مُراقَبة يعذبها. مرةً ذهبت إلى سوق الذهب، وبعدها بعدة أيام وصلتها رسالة من أمها. إحدى قريبات أم يوسف لمحتها في سوق الذهب ذاك النهار ضمن مجموعةٍ من الأصدقاء، من ضمنهم رجال. طيف أمها ظلَّ حاضرًا على الدوام، يحاصرها من كل الجهات ويشلُّ حياتها. الآن، حين تتأمل سيرين حالها ومدى اكتراثها وقتذاك لرأي أمها وخوفها منها تقول:

يا الله قديش كنت غبية!

لكن حتى حينذاك، قاومت سيرين رغبة أمها في ارتدائها الحجاب. فضَّلت الإبقاء على شعرها مكشوفًا، ينسدل إلى كتفيها مموَّجًا بعقصه

الطبيعية. كانت غالبًا ترتدي تنانير يصل طولها إلى أسفل الركبة بقليل، أو فساتين طويلة بأكمام قصيرة، ودومًا وأبدًا ملابسها نابضة بالحياة وساطعة بالألوان الزاهية.

عندنا بكفر راعي ما كانش مقبول إني أطلع أنشر الغسيل ع السطح من غير ما أغطي شعري، كأني عم أرتكب ذنب كبير. تخَيَّل بوابة بيتنا الخضرا كانت أطول من البيت نفسه، ومع هيك إذا طلعت ع برندة الطابق التاني الناس بتقدر تشوفني. صحيح سطح بيتنا كان مسوَّر كمان، بس إذا شعري بيبيّن كان لازم أغطيه. ياما تخانقنا أنا وإمي ع هالقصة.

فكرت هالموّال بيخلص بس أتجوز، بس ضل ملاحقني كل حياتي، خصوصًا إنه أنا الوحيدة اللي ما تحجبت. على عكس سوزان وميسون اللي تحجبوا أول ما راحوا ع الجامعة في الأردن. لهيك توقعوا مني أنا كمان أتحجب زيهم أول ما أخلص توجيهي.

بالأخير، لما إمي وأبوي شافوا إنه فش فايدة، أصروا إنه لما أنزل على كفر راعي لازم أتحجب. فبس أنزل بالشتا كنت بغطي شعري بطاقية وشال، وبالصيف يادوب أرمي الشالة رمي[(1)].

تْقَاتَلْنا كتير على موضوع الحجاب؛ إذا كنت بصلي وبصوم وبعملش إشي غلط، ليش الناس تجبرني أعمل شي أنا مش مقتنعة فيه؟ هالحكي مش من دينّا ولا الإسلام بيقول هيك.

---

(1) أرمي الشالة رمي: ارتداء الشالة بشكل غير محكم، بحيث تُلقى على الرأس دون تغطية كاملة، ويكون نصف الشعر أو أكثر مكشوفًا.

بس هاد اللي صار... وهيك قضيت الست سنوات اللي عشتهم بالأردن... هلا صحيح ما قبلت أتحجب، بس غير هيك ما ثُرتِ على إشي تاني!

وهلا، بعد ما وصلت لهالعمر، كتير أيام بندم إني ما ثُرتِ.

12
مطلع 1988

في كفر راعي، مجموعة من أصدقاء يوسف انضموا إلى خلية تابعة لمجموعات الفهد الأسود. فالمجموعة تأسست منذ شهور قليلة، وشرعت فورًا في تجنيد أعضاءٍ لها في قباطية حيث تَشكَّل قبل أعوام فرعٌ من حركة الروابط الفلسطينية. في البدايات، حصرت الفهد الأسود عملياتها في جنين، تستهدف جيش الاحتلال والفلسطينيين المتعاونين معه. لكن سرعان ما نما التنظيم، وتشكلت خلايا في مختلف أنحاء الضفة الغربية وقطاع غزة.

حينها، كان تعريف «العميل» فضفاضًا، وتهمة العمالة تُلقَى على أي مشتبهٍ فيه بزعزعة النضال الوطني وتقويضه. «السمسار» الذي يسهِّل بيع أرضٍ فلسطينية ليهود أو الصندوق القومي اليهودي عميل. «الوسيط»، الأقل خطورةً من السمسار، والذي يسهِّل الخدمات التي يقدّمها جيش الاحتلال أيضًا عميل. النوع الآخر من العملاء، وأخطرهم جميعًا، «العميل المسلَّح» الذي يرافق القوات الخاصة الإسرائيلية في غاراتها على بيوت الناشطين السياسيين. العميل «الجاسوس»، أي شخص يمد

المحتلَّ بمعلومات عن نشاطٍ سياسي في منطقة ما. وثمة أنواع أخرى من العمالة المبطنة، مثل «العميل الاقتصادي» الذي يدفع بالمنتجات الإسرائيلية في الأسواق الفلسطينية، و«العميل السياسي» الذي يطبِّق سياسات الاحتلال طويلة المدى، و«المندس» الذي يتسلل إلى صفوف التنظيمات الوطنية. رغم وجود كل هؤلاء العملاء، لم يكن واضحًا لدى المجتمع الفلسطيني كيفية التعامل معهم وتحديد العقوبة التي تنزل بهم، وظلَّ هذا النقاش مصدر جدلٍ كبير. وريثما يتجادل الفلسطينيون حول المسار الأنسب والعقوبة الأمثل، لم تهن حماسة الشاباك في استغلال الفلسطيني بأي وسيلةٍ متاحة، وما كان ليهدر فرصة تجنيد عميل فلسطيني متى سنحت.

وفي حين مثَّلت سجون الاحتلال منفذًا لتجنيد العملاء، فقد مثَّل نظام منح التراخيص منفذًا آخر. فالفلسطيني يحتاج إلى ترخيص لكل شيء؛ للسفر خارجًا، للطباعة والنشر، لتأسيس عمل، لبناء بيت، والقائمة تطول وتطول. ولكي يقدِّم على ترخيص يحتاج إلى ملاحقة مجموعة من المعاملات واستيفاء الكثير من الطوابع لكي يرفقها بالطلب، في عملية طويلة ومرهقة للغاية لا نهاية لها. لهذا ليس من المستغرب تجنيد أبوين يائسين لتأمين ترخيص سفر لابنهما المريض وتلقيه العلاج في الخارج، أو تجنيد خريجٍ جامعي في أمس الحاجة إلى ترخيص لكي يتوظف.

في كفر راعي، كما الحال في أرجاء جنين، قررت مجموعات الفهد الأسود أخذ زمام الأمور بيدها والتعامل بنفسها مع العملاء، في

وتيرةٍ منظَّمة وقاسية. كل عدة أسابيع، تختطف المجموعة عددًا من الفلسطينيين المشتبه بعمالتهم إلى مغارات سرية في التلال وتستجوبهم. يقيِّدون العميل المشتبه به، ينهالون عليه ضربًا، ويسجلون اعترافه على شريط. وفي صباح اليوم التالي، يذهب أعضاء المجموعة إلى المسجد ويعرضون الشريط على المكبرات لكي تسمع البلدة بأكملها أنَّ هذا الشخص عميل. حينها إما يفرُّ الخائن بجلده ويعيش في فلسطين 48 أو يحاول الدفاع عن نفسه ضد هذا الاتهام. في حالات كثيرة يُقتَل المشتبه به قبل أن يحظى بفرصة اتخاذ أيٍّ من الخيارين.

وحصل أن أخطأت مجموعات الفهد الأسود في اتهاماتها. في هذه الحالة تستلم عائلة المتَّهم، أو المتَّهم ذاته في حال سُمِح له بالبقاء حيًّا، رسالةً من منظمة التحرير الفلسطينية تقرُّ ببراءته. هذه الأخطاء خلقت حالة من الشد والتوتُّر بين الفلسطينيين، وبدأت الناس تتساءل إن كان البعض قد استغل اتهامات العمالة لحسم خلافات شخصية.

لم يكن يوسف عضوًا في مجموعات الفهد الأسود، لكنه رافق مجموعة من الأولاد في عملية ضد عميلٍ مشتبه به. تلك كانت عمليته الأولى، والأخيرة.

«أسامة صالح! المختار!» هكذا أعلن فراس، أحد أصدقاء يوسف منذ الطفولة.

«شو؟» صاح ولدٌ آخر ضمن المجموعة.

«هيك بتقول التعليمات اللي وصلتني».

ولدٌ آخر استغرب، «بس يا زلمة هاد عمره بالسبعين!»

«وشو يعني بالسبعين! أصلًا هيك ما حدا بيشك فيه. والا؟»

وافقه يوسف، وإن بان على ملامحه الشك.

«بس المختار بيضطر يتعامل مع الصهاينة طول الوقت حتى يجيب التراخيص للناس»، اعترض أحد أصدقاء يوسف.

«مش وحده اللي بيتعامل مع الصهاينة، وما بنقدر نشك بكل حدا بيتعامل معهم، هاد اللي بده إياه الاحتلال إنه يصير!» اعترض ولدٌ آخر محاولًا مقاومة القرار، لكن المحاولة جاءت على استحياء، إذ لم يكن ندًّا لفراس الأكبر منهم عمرًا والأكثر ثقةً في نفسه.

«أسامة صالح دايمًا بتلاقيه رايح ع مكتب التنسيق الإسرائيلي الفلسطيني، وبضلُّه مبلِّط هناك طول النهار، برأيك إيش بيعمل طول هالوقت؟ الناس بتروح للمختار حتى يخلص لها أوراقها ويطلعوا. بس هو بيضله طابز هناك، ليش؟»[1].

ليس فراس وحده من لديه شكوك حول المختار، فالمخاتير موضع شك لدى أغلب الناس في الضفة الغربية، والاحتلال يدرك ذلك. فمن عادة الاحتلال إبقاء المختار -أو أي فلسطيني آخر- مدةً أطول من المطلوب لكي يزرع الشك في قلوب الفلسطينيين الآخرين ممن سيدخلون المكتب ويرون الشخص المعنيّ. أو يتعمَّد استدعاء فلسطيني

(1) مبلِّط في مكان: «مبلِّط» هو اسم فاعل من الفعل «يبلِّط»، وفي هذا السياق تعني يبقى أو يمكث في مكان معين لفترة طويلة، دون أن يكون منشغلًا بشيء مهم.
طَابِز: هو اسم فاعل مشتق من الفعل «طَبَز»، ويُستخدم للإشارة إلى الشخص الذي يجلس فترات طويلة دون حركة ودون أن يقوم بأي نشاط ذي فائدة مرجوة أو غرض محدد.

إلى مكتب الإدارة العسكرية في وقت استراحة الغداء أو أوقات الذروة، لكي يراه الناس داخلًا وتنشأ الشكوك فيهم.

الشكُّ إشاعة، والإشاعة نارٌ تحرق الأخضر واليابس. ما إن تنتشر تحرق كل احتمالٍ لتبيُّن الحقيقة، فيقف المتهم أمامها كما الغابة، عاجزًا عن الابتعاد عن طريقها.

أيامٌ توالت منذ تناقَش الفتية لأول مرة التهمة الملقاة على المختار، واصل فيها يوسف وأصدقاؤه مناقشة حياة الرجل، «أبوي شاف المختار بمكتب التنسيق بيوَشْوِش الملازم الإسرائيلي»، وأردف آخر أنَّ المختار شوهد يتصرَّف بود مع أحد العملاء المعروفين، والثالث أضاف أنَّ المختار شوهد برفقة إسرائيلي في سيارة. كلما واصلت مجموعة الأولاد نقاشها، اشتدَّ حماسها وعظمت خيوط المؤامرة في أعينهم. والآن أخذ الأولاد يشكُّون في أصدقاء المختار ومعارفه، وأيقنوا أنه شكَّل منهم خلية عملاء. وهكذا قررت المجموعة مواجهته.

يومها كانت إمي طابخة مقلوبة ع الغدا. وكانت العيلة ملتمّة وقاعدة سوا لما سمع يوسف صوت من برّه، زي كإنها إشارة. وعالسريع، نط من محله وطلع ركاض متل الطّير الطّاير، مرق عن إياد اللي لسا ما لحقش يقعد معنا، وعدّى الحمار والأرانب في الحاكورة قبل ما يوقف للحظة عند كومة الشوالات، ويسحب شوال منها ويرجع يركض.

إمي نادت عليه وما التفت. أبوي، اللي رجع من أبو ظبي هالمرة رجعة نهائية، قام عشان يلحقه بس ما قدرش يركض وراه. إيهاب ركض وراه ولحقه إياد، بس ولا واحد فيهم قدر يجاري سرعة يوسف.

لما اجتمع يوسف بصحابه كانوا حوالي عشر ولاد، يمكن أكتر. كل واحد فيهم متنكر بقناع أسود ولابس كفوف سودا ومغطي بوطه بكيس بلاستيك عشان ما يترك أثر وراه. أما أخوي يوسف، فمزَّع الشوال ولبسه عشان يغطي جسمه ويتنكَّر، بس من كتر العجلة نسي يقلبه، وضل اسم العيلة اللي طبعته إمي عشوالاتها «أبو شقارة» واضح زي الشمس ع ضهره! ولاد صغار، شو بدك تتوقع منهم!

انطلقت مجموعة الأولاد في طريقها إلى بيت المختار، يوسف يسير معهم في مؤخر الركب. في الطريق بلغوا مفترق طرق، طريقٌ متفرِّع يأخذهم إلى بيت المختار، وآخر يأخذهم إلى بيت طه، صديق المختار. وعند مفترق الطرق هذا توقَّف فراس.

«خلونا نروح ع بيت طه بدل المختار، هو خاين كمان بس ما خبرتكم عنه وقتها».

صُدِم الأولاد، وبعضهم لم يستسغ هذا التبدُّل المفاجئ في الخطة واعترضوا، إلا أن فراس ظلَّ مصمّمًا، كما لو أنه خطَّط مسبقًا لهذا التحوُّل. لماذا؟ لا أحد من الأولاد سأل، فالحماسة غلبتهم، وكان عليهم التصرُّف بسرعة.

«يلّا شباب خلونا نكمل»، صاح أحد الأولاد، وصيحته الحماسية هذه كانت كفيلة بقمع أي تساؤل أو شكوك، ولحق الفتية بفراس.

بعد دقائق وصلوا إلى بيت طه. إيهاب وإياد كانا قد لحقا بأخيهما، لكن ظلَّا متواريين في الخلف حيث شاهدا الأحداث تتسارع أمام عينيهما.

طه كان برفقة ابنه وأقاربه وقت الغداء، بُعيْد صلاة الجمعة. ابنه، الأول على صفه، كان قد عاد من الأردن بعد دراسته القانون فيها. فجأة، أربعة أولاد أو خمسة اقتحموا المكان يصيحون باسم طه الأول دون أي احترام لتقاليد المناداة على الرجال الكبار في السن. ابن طه انتفض مدافعًا عن أبيه، وصاح عليهم «شو بدكم من أبوي؟»

«أبوك خاين وجايين حتى نحقِّق معه».

«أبوي مش خاين، أبوكم الخاين يا ولاد الكلب!»

بعدها، كل ما سمعه يوسف من الخارج ضجةٌ صاخبة، كراسٍ تتحطَّم، صرير احتكاك الطاولة بالأرض، أطباقٌ تتهشَّم، صرخاتٌ متفرقة في جلبة العراك «لا! لا! لا!»، قطعتها صرخةٌ واحدة «يابا!»

فرَّ الأولاد خارجًا وتفرَّقوا. طه خرج مترنحًا يتشبث بجسده، دمه يسيل على سائر المكان. من خلفه خرج أحد أقاربه، عيناه محتقنتان مسعورتان تبغيان الانتقام، في يده السكين الدامية التي طعن بها أحد الأولاد طه. ولدى خروجه اصطدم بيوسف، الواقف مذهولًا جامدًا في مكانه.

هرع يوسف راكضًا تحت الشمس، لاهثًا منقطع الأنفاس، غير واعٍ للألم ولا للدم النازف من خصره. تكفَّل الأدرينالين بحمله بعيدًا عن الواقعة. حتى حين توقف أخيرًا ورأى الدم على قميصه، ظنَّ الدم يعود إلى جرح شخصٍ آخر لا جرحه. راح يتلفت حوله ليرى إن لاحقه أحدهم، إذ أدرك أنه لا يزال في دائرة الخطر.

ما إن دوَّت صرخة ابن طه، حتى نقل أحد المخبرين المتعاونين

حدث العراك إلى الاحتلال، وفي ظرف دقائق ستحاوط قوات الجيش القرية. أصبح لزامًا على يوسف الفرار من القرية بأسرها وإلا سينتهي به الحال إما مقتولًا وإما مسجونًا. وقف يوسف، بالكاد قادرًا على التقاط أنفاسه، منحني الظهر يتشبث بجرح خاصرته. هرع إليه أخواه إيهاب وإياد، مذهولين فاغري الفاه. فقد شهدا الواقعة بأسرها ولم يصعب عليهما ملاحقته؛ فزيّ التخفي فضحه، مع اسم العائلة مطبوعًا على ظهر الشوال وباديًا لأعين كل أهل البلدة.

لا إيهاب ولا إياد طرح أي سؤال على يوسف، فورًا هبَّا لنجدة أخيهما، كلٌّ حمل ذراعًا وأسندها على كتفه. إيهاب حمل أغلب ثقل أخيه، إذ شقَّ على إياد حمل نصيبه من الوزن. سارا به مسافةً قصيرة إلى الشارع الرئيسي، وهناك أوقفا سيارة، دفعاه داخلها وانطلقوا إلى نابلس. ثمة مستشفى أقرب، لكن الأولاد ارتأوا أنَّ نابلس هي الخيار الآمن لأنَّ جنود الاحتلال سيتوقعون ذهابهم إلى مستشفى جنين. إياد ساعد أخاه في الضغط على الجرح، فمشهد الدماء النازفة ليس غريبًا عليه وسبق أن رآه في إطلاق النار على المتظاهرين، لكن هذه الدماء تسيل من جسد أخيه الأكبر، وما كان بوسعه إخفاء الصدمة والتوتُّر المتبديين على ملامح وجهه وهو يحث أخاه على التحمُّل إلى أن يصلوا المستشفى.

جرح يوسف كان غميق، السكينة خزقت كليته وعلى شوي كانت بتخزق معدته. بالمستشفى بنابلس، ربطوا الدكاترة جرحه بشَاش وخيّطوه بسرعة، لأنه جنود الاحتلال بلشوا يدوروا عليه وعلى الولاد

المتورطين بقتل طه. ما استناش يوسف كتير بالمستشفى، وصلوا صحابه وهربوه منها على قرية صيدا القريبة من طولكرم.

الجنود دوَّروا عليه كمان في صيدا.

صحاب يوسف خبّوه ببيت ع أطراف القرية وداروا بالهم عليه لمدة شهرين. كانوا يغيروا الشّاش ويطعموه، وبنهاية الشهرين ضِعِف يوسف كتير.

أول ما قدر يوسف يمشي ع رجليه أخده أبوي ع الأردن، وضلّه هناك سنة بعد ما انشفى جرحه، ورتبنا قبوله بجامعة أمريكية في كنساس. أيامها كان سهل تدبِّر قصة السفر ع أميركا، ساعده كمان إنه تخَرَّج من التوجيهي الأول على صفه. وهيك، مع رسالة القبول من الجامعة وشهادة الكفالة المالية من خالي بجدة، هاجر يوسف ع أميركا.

أما القاتل الحقيقي، المتخفّي بقناعه الأسود، فقد فرَّ من المكان مستغلًّا جلبة تداعي عائلة الحاج طه عليه لإنقاذه. الحاج مرميٌّ على الأرض، يتشبث بصدره في ألمٍ مبرح قبل أن يفقد وعيه. تدافعت مجموعة من الرجال المذعورين إلى حمله ونقله في سيارة إلى مستشفى.

توفي الحاج طه لحظة وصوله المستشفى رغم محاولات الأطباء والممرضات إنعاش قلبه. وبعدها بساعات، دفنت العائلة الحاج طه وأقامت العزاء، وتردَّد أهل البلدة إن كان ينبغي بهم حضور دفن رجلٍ مشكوكٍ في عمالته. أما الأولاد فقد أصبحوا أبطالًا، أو على الأقل هذا ما يتصورونه في أذهانهم. فقد قتلوا طه الخائن، ولا محالة هو الخائن.

فأي ذرة شك، أو استيعاب لحقيقة أنَّ الحاج طه لم يكن سوى راعي غنم بسيط، ستهشِّم ذواتهم.

غالبًا تُثبِت شكوك جماعات الفهد الأسود في هوية العملاء صحَّتها، لكن ليس في حالة الحاج طه. بعد عدة أيام، أجرى كبار البلدة تحقيقًا ولم يجدوا أي أدلة تؤيد مزاعم اتهامه. حركة فتح برأت الحاج طه من التهمة، وعزت الجريمة إلى معلومات مضللة. مع ذلك، لم يحاول أحدٌ من أهل الضحية الانتقام من مجموعات الفهد الأسود، فالجميع كان يخشاها في تلك الفترة، وأي ثأر عائلي سيُنظَر إليه على أنه فعل خيانة.

ابن الحاج طه، من عاش حياته بعدها يعاني جرح فاجعته الذي لم يلتئم، أصبح رجلًا ناجحًا ووقورًا. لكن الأرواح التي نفقدها لها سبيلها في التشبُّث بعقولنا وأجسادنا. بعد ثلاثين عامًا من الواقعة، سيتحفَّظ عن مشاركتي أي تعليق، خلا هذه الكلمات:

«مضى وقتٌ طويل على موت أبي، ولا رغبة لديّ ولا قدرة على النبش في الماضي. يكفيني عجزي عن نسيان ذاك اليوم ولو ليومٍ واحد، خصوصًا في سنويَّته حيث أبكيه كل عام، لا حزنًا عليه فحسب، بل حزنًا علينا نحن الفلسطينيين، على مدى الظلم الذي نوقعه على أنفسنا وعلى أخوتنا».

13
أواخر 1988

استيقظ إياد مع إخوته، مع طلوع الفجر، لكنه الأبطأ بينهم، إذ تخيفه فكرة الذهاب إلى المدرسة. ترنَّح في مشيه نحو المغسلة وشَطَفَ وجهه. شقيقاته الثلاث الكبريات ما عدن في البيت، سوزان وميسون تزوجتا، وسيرين تعمل في عمّان. أخوه يوسف أيضًا غادر البيت ورحل قبل أشهر. ورغم هذا الغياب، لا يزال البيت يَعِجّ بحيويَّة ثمانية أطفال.

صاح إيهاب على أخيه الأصغر. الصباح صافٍ ومنعش، وصيحته اخترقت الصمت كدويّ بوق شاحنةٍ في سكون الفجر. خرج إياد يتمختر، في يده موزة، كما لو أنَّ العالم بأسره واقفٌ في انتظاره. إيهاب وإياد صديقان لا يفترقان، أعز الأصدقاء. مع ذلك، يُحبَط إيهاب من شغب أخيه وجنوحه واندفاعه، وإياد يزدري وداعةَ أخيه إيهاب ويرى فيه «ابن إمه». كلاهما يساعدان أمهما في الحصاد، إيهاب أكثر من إياد.

إيهاب وإياد مختلفان. إيهاب يرى في نفسه صانع السلام، الدؤوب على إحلال الهدوء في كل موقف، وإياد هو من يثير المشاكل - غالبًا في محاولاته حماية أخيه الأكبر، عدا أنَّ أغلب هذه المحاولات مبنية على

افتراضات خاطئة من إياد. يتذكَّر إيهاب جيدًا طيش أخيه وقدرته على إقحام نفسه في معارك لا ناقة له فيها ولا جمل.

ذات مرة، إيهاب وإياد كانا يلعبان في إحدى الحارات حين صادف إيهاب ولدين يعرفهما، وبدأ الثلاثة يتحادثون. من بعيد، لحظ إياد ملامح انزعاج على أخيه بينما الولدان الآخران يضحكان، فاندفع إياد نحو أخيه، وبلا تحذير دفع بأحد الولدين أرضًا وطوَّق بذراعه رأس الولد. ثار عراكٌ بسيط بينهما، وهبَّ إيهاب والولد الآخر لفضِّه. مع الوقت، بات إيهاب يتوقع من أخيه الأصغر أن يهبَّ دومًا للدفاع عنه متى ثارت أي مواجهات.

في كل صباح، ينطلق الولدان معًا في صمت، كلٌّ منهما يرتدي بنطال جينز أزرق وقميصًا ذا أكمام قصيرة. حذاء إياد الأسود بالٍ من استعمال أخيه يوسف. ومتى وصلا المدرسة افترقا، لكن سرعان ما يجتمعان في أوقات الفسح ويلعبان كرة السلة.

في ذاك النهار من شهر نوفمبر، دخل إياد الفصل وانضمَّ إلى أصدقائه. كانت الأجواء مكفهرة بعد فرض جيش الاحتلال إغلاق المدارس لأسبوع انتقامًا من إضراب الطلبة وانخراط الأولاد يوميًّا في المظاهرات رغم منع التجول. في ذاك الأسبوع، إيهاب وإياد والعديد من رفاقهما نزلوا الشوارع وواجهوا جنود الاحتلال بالحجارة، وردَّ الجنود عليهم بإطلاق الرصاص الحيّ.

ذاك النهار اندلعت مظاهرة كبرى على تخوم القرية، شارك فيها الرجال والأولاد من مختلف الأعمار، وشارك فيها بعض النسوة أيضًا.

إيهاب وإياد كانا هناك، ومعهم فؤاد الأشقر وجلال العريس، اثنان من أصدقاء سيرين في صف الروضة.

بتذكّر ابن جارنا جلال، كان معجب فيني. مرَّة بامتحانات التوجيهي جاب معه مكبّر صوت وبلَّش يصرخ أجوبة الامتحان عشان يغششني. تصوَّر! هيك كان الغزل على أيامنا!

كنا نمتحن في مبنيين منفصلين، وبالعادة يطلعوا الولاد من الامتحان أبكر من البنات ويحملوا المكبّرات ويصرخوا الأجوبة علينا بأعلى صوت. هسّه لو كنا في الشارع مستحيل نتطَّلع عبعض، وأكيد مستحيل نتواعد. فهاي كانت طريقتهم الوحيدة لحتى يبينوا مشاعرهم إلنا.

يومها لحق إياد بخطى جلال وفؤاد، معجبًا بشجاعتهما في مواجهتهما العشرات من جنود الاحتلال ورميهما الحجارة عليهم. غير أنَّ بعد مرور وقت قصير على المظاهرة، رمى فؤاد حجرًا وأطلق الجندي النار على ساقه، واندفع فؤاد يجري عبر الشارع نحو إحدى الأزقة. ظلَّ إياد وإيهاب متواريين عن الأنظار، عاجزين عن قطع الشارع، وشاهدا الجنود يشرعون في عملية مطاردة. حاول جلال منح فؤاد المزيد من الوقت بمحاولته إلهاء الجنود وراح يلقي الحجارة عليهم بكثافة، مدفوعًا بجسارته لا بخوفه.

ما قدرش جلال يصمد أكتر من دقيقة قبل ما يطخه جندي صهيوني. الطلقة كانت قاتلة ومات قبل ما يوصل ع المستشفى. إياد وإيهاب شافوه وهو بيوقع ع الأرض، بس شو بدهم يعملوا؟ كانوا ولدين ما بإيدهم إشي يعملوه تحت الرصاص النازل على روس الكل.

تمكَّن فؤاد من الفرار إلى بيت الخياطة جميلة واختبأ لديها. جميلة كانت لاجئة من الـ48، من حيفا، وقضت حياتها تعيش وحدها مع القطط. لحق الجنود بفؤاد إلى بيت جميلة، وحين عثروا عليه دفع به أحد الجنود أرضًا وانهال عليه بالضرب، فيما داس جنديٌّ آخر على عنقه وخنقه. قاوم فؤاد، وحاول إبعاد جزمة الجندي عن عنقه، لكن جسده الواهن قد فقد المزيد من الدم.

لم يرفع الجندي الإسرائيلي جزمته إلا بعدما لفظ فؤاد أنفاسه الأخيرة.

فؤاد وجلال من عمري، تخرجنا سوا، وبلحظة ماتوا لأنهم رموا حجارة. عرفت بالخبر من مكالمة وصلتني وأنا في عمَّان.

بعدها بأيام جلس إياد في الفصل، مقموعًا مثلما قُمعَت المظاهرات. قضى نهاره سارحًا، يبحث عن أدلة حول صورة مستقبله الذي ينتظره، فيما المدرس منهمك في إعطاء الدرس كما لو أنَّ مظاهرات الأسبوع الماضي ليست سوى حدثٍ طبيعي في حياتهم. ولربما مدرسه على حق، المظاهرات حدثٌ طبيعي في حياتهم.

بينما جلس متكئًا بذقنه على أصابع كفّه، أخذ يتساءل عن دوره في الاحتجاجات الأخيرة، وتمنى لو أدى دورًا أكبر. هل رؤية إياد أخاه مطعونًا هو ما حرَّضه على اتباع طريقه المستقبلي؟ أم حين شاهد فؤاد وجلال يرميان الحجارة بمنتهى الشجاعة قبل أعوام؟ هل ثمة نقطة محددة أساسًا؟ لاحقًا، حين يسأله الناس عن سبب سلوكه طريق المقاومة، سيقول إنَّ مصيره تحدَّد لحظة نزوح أبيه في الـ48. لكن الآن،

في ذاك الفصل، كل ما تفكَّر به إياد بعدما قتل الاحتلال فؤاد وجلال، أنه لن يبقى ساكنًا عاجزًا متى أغار الصهاينة على قريته وخنقوها.

بعدها بثلاثة أشهر، أربعة أولاد من كفر راعي مضوا في طريقهم إلى قرية فحمة للعب كرة القدم، وإيهاب كان أحدهم؛ أما إياد فقد ظلَّ يومها في البيت. كان صباحًا منعشًا، وأشعة الشمس الدافئة تحضن أجساد الأولاد وتداعب وجوههم. في الطريق ركل الأولاد الحصى وتمازحوا، يسخرون بمرح من رفيقهم الأصغر عمرًا، سلامة صبيح. كان سلامة ولدًا في الرابعة عشرة، قوي الشخصية وذا ابتسامة عريضة لا تفارقه، ولطالما استمتع برفقة إيهاب والأولاد الأكبر عمرًا، ولهذا كان يضحك على نكاتهم عنه. أحد الأولاد نفش شعر سلامة ونظر إليه بابتسامة حنونة.

كانت المجموعة قد قطعت شوطًا في الطريق بين القريتين حين وصلها صوت إطلاق رصاص قادم من قرية فحمة. من حيث وقفوا لا شيء يحجب القرية عن أنظارهم، فلا شيء على مدِّ البصر سوى الطريق المنحدرة عبر التلال. شاهدوا بضعة أولاد يرمون الحجارة على جنودٍ بدا عليهم التراجع إلى مركبتهم العسكرية. وفي فورة حماسهم، قرر الأولاد الأربعة الاقتراب ومواصلة الطريق إلى فحمة. ولدى اقترابهم من المشهد، عربتا جيب عسكريتان اندفعتا من الخلف، وما إن التفت الأولاد ورأوا العربتين من بعيد متجهتين نحوهما، ذعروا، وتركوا كرتهم تتقافز أسفل المنحدر ولاذوا جريًا للاختباء في شوارع القرية.

سلامة جرى بسرعة، لكن ساقيه القصيرتين أبطأتا حركته، وراح إيهاب يصيح عليه «يلا سلامة يلا، لازم نتخبى بسرعة!»

مع اقتراب العربتين بات الأولاد على مرمى واضح، وبدأ بعض الجنود يطلقون النار عليهم. أحد الأولاد راح يصيح «يلا يا شباب عجلوا، عجلوا!» خطواته السريعة تزداد خفةً.

عدة رصاصات أصابت سلامة وأوقعته أرضًا. كبح الأولاد الثلاثة سرعتهم: هل بيدهم فعل شيء لإنقاذه؟ شاهدوا الجنود يقتربون من سلامة، صديقهم يتلوى ألمًا على الأرض ويبكي مذعورًا. وفي لحظة هبَّوا يجرون بعيدًا عنه.

حين ترجَّل جنود الاحتلال عن الجيب، انهالوا على جسد سلامة رفسًا وضربًا، وحين فقد وعيه جرُّوا جسده الهامد إلى عربتهم. كان القرويون لحظتها قد تجمعوا، وأراد طبيبٌ فلسطيني معالجة جروح الولد، إلا أنَّ جنود الاحتلال رفضوا.

لاحقًا، عددٌ من كبار القرية وجدوا جثمان سلامة في مقر عسكري محليّ. ثلاث رصاصات اخترقت جسده، عدة رضوض خلَّفت أثرها عليه، أنفه مكسور وفمه دامٍ.

أَمَّ جنازته جمعٌ غفير، رجالٌ وأولاد أتوا من القرى المجاورة تعبيرًا عن غضبهم. وبات للانتفاضة شهيدٌ جديد.

أما الأولاد الثلاثة، فأحدهم تمكَّن من الفرار، وآخر تعرَّض لإطلاق النار في ظهره، والثالث أنقذ حياة الولد المصاب، وهذا الثالث هو إيهاب. فقد نجح في خداع صديقه المصاب وإقناعه أنَّ

الألم في ظهره من رمية حجر لا من رصاصة مما ساعده على مواصلة جريه.

حين دوَّى صوت الرصاص في كفر راعي ذاك الصباح انتفض إياد من مكانه، واستغرق الأمر منه ثواني لمعرفة مصدر الصوت. وما إن أدرك أن الطلقات آتية من قرية فحمة، وأنَّ أخاه كان في طريقه إليها، انطلق يجري خارجًا، متجاوزًا أمه في ساحة الدار دون الالتفات إلى صراخها عليه بأن يدخل فورًا إلى البيت. لوَّح بذراعه وهو يجري، وصاح عليها بأنه ذاهب للاطمئنان على إيهاب. كان مدفوعًا بقلقه الشديد على أخيه، لكن أيضًا بحماسه العارم لمواجهة عدوه.

حين وصل إلى قرية فحمة، كان القرويون لا يزالون يتجادلون مع الجنود حول ضرورة تأمين علاجٍ طبي لسلامة. ورأى إياد أنَّ الوقت قد فات لأي مواجهة. ولدى سماعه بما حصل لسلامة، ذعر لاحتمال وقوع إيهاب جريحًا هو الآخر. لذا انطلق يبحث عن أخيه، وراح يسأل الجيران بيتًا بيتًا عمَّا إذا اختبأ أخوه لديهم.

أخيرًا عثر على أخيه إيهاب والولد المصاب مختبئين في زقاق. ظلا متواريين في انتظار مغادرة الجيش القرية، خشية إلقاء القبض عليهما وحرمان الولد المصاب من العلاج. وضع إياد ذراع الولد الجريح على كتفه، ولفت مع إيهاب انتباه رجلٍ عابر ساعدهما على العثور على سيارة. حملا الولد إليها وأسرعا به إلى المستشفى حيث خضع لعملية ونجا.

هذه الحادثة غيَّرت مجرى حياة إيهاب، وقرَّر أنه لن يمكث في فلسطين. إياد، في الجهة الأخرى، زادته الحادثة تصميمًا على البقاء والمقاومة.

14
أواخر 1989

فلسطين حرة.

وقف إياد وثلاثة من أقرانه الآخرين يراقبون الوضع تحسبًا لظهور أي جندي من جنود الاحتلال، ريثما يدهن أحد الأولاد «فلسطين حرة» على جدار بيت يطل على الشارع الرئيس في كفر راعي. مجرد رَفْع علم فلسطين، أو كتابة فلسطين على جدار، قد يزجُّ بك في السجن ثلاث سنوات. كان الصبي يكتب ويده ترتجف، وكان الطلاء الأسود يسيل على جانب الجدار. شعار «فلسطين حرة» تزاحم مع شعارات أخرى عديدة، وملصقٌ لحركة فتح تآكل من الأطراف وبهت لونه بفعل الشمس.

وجد الأولاد ملاذهم في الظلمة إذ لا أعمدة إنارة مضاءة في الأرجاء، غير أنَّ قمرًا غير مكتمل في سماءٍ صافية يظلُّ تهديدًا قد يفضح أمرهم. كم مرةً ارتكبوا هذه الفعلة؟ كم مرةً فروا من قبضة دوريات المراقبة الإسرائيلية؟ أكثر مما يتسنى لإياد عدُّها. لم يتخلَّ يومًا عن حذره، لكن مع الوقت زادت ثقته في نفسه. نادرًا ما ألقت الدوريات

القبض على من يدهن الجدار باسم فلسطين، لكن حدث أن وقع أولادٌ آخرون في قبضتها. الاحتلال لا يتساهل مع هذا النوع من الاحتجاج؛ فالشعارات ورسومات الغرافيتي تصيِّر الجدران مساحةً لحرية التعبير. ففي الغرافيتي مساحة تنفيسٍ عن الإحباط ومن خلاله تتناقل الأخبار والتعليمات، هو تكريسٌ للوجود وتعبئةٌ للجماهير وتهديدٌ للعدو.

ما إن فرغ الولد من الكتابة بعث إليهم بالإشارة. وقبل أن يتفرقوا كلٌّ في طريقه نظر إياد مسرورًا إلى الرسالة. كانت رسالةً جريئة ترفض الاعتراف بالاحتلال. الطموح الذي تختزله تلك الكلمتان منحته شعورًا بالكرامة، فهي تحثُّ على القتال لأجل فلسطين حرَّة، كما لو أنَّ فلسطين الآن حرَّة.

بيت إياد كان الأقرب، وانطلق يعدو إليه بأقصى سرعة. حشر نفسه عبر بوابة البيت المواربة ودخل، بالكاد يلامس البوابة، خشية أن يوقظ صوت مفاصلها الصدئة والديه.

ضاعت محاولته هذه عبثًا. فأم يوسف استيقظت على صوت خطواته؛ فتحت عينيها برهة، ثم أغمضتهما وتنهدت غضبى. بعد شهورٍ من تكرار الواقعة، ما عادت أم يوسف تنهض من فراشها لكي تزعق في وجه ابنها. ستنتظر، وتترك إياد يخمِّن العاقبة التي سيجرُّها عليه صباحُ اليوم التالي.

مع بزوغ الفجر، مشت أم يوسف إلى إياد النائم في فرشته على الأرض وركلت مؤخرته: «وين كنت امبارح بالليل؟» ركلته مرة أخرى، «وين!» جفل إياد مرتاعًا من نومه، وانهالت على رأسه صفعًا

فيما يحاول الاحتماء منها عاجزًا عن تفادي ضرباتها، يكرر عليها «كنت برَّه مع صحابي» ضاحكًا ضحكته الطائشة.

«وين؟!»

«حكيتلك برَّه»، أجابها بضحكة خبيثة وقد قفز بعيدًا عن أمه وهي تحاول الإمساك به. محاولاتها العبثية في ضربه إلى أن «يعقل» ثبت أنَّ لا طائل منها، مثلها مثل محاولات ابنها إياد صدَّ ضرباتها.

«يمَّه خليه، بعده ولد مراهق»، عارضتها سوزان التي جاءت في زيارة من دبي حيث تقيم. لكن أم يوسف ظلَّت على قسوتها تجاهه. فهي استشعرت تورُّط إياد في الحركات السياسية، وهي أعلم من ابنتها بالمزاج السائد في الشارع. رأت بعينيها أفعال الأولاد من أبناء القرية، كيف يواجهون جنود الاحتلال ويقفون أمام المدرعات والبنادق كما لو أنَّ أجسادهم منيعة لا يخترقها الرصاص. هي من حضرت جنائز الأولاد وهي من كادت أن تفقد ابنًا، ولا نية لديها في المخاطرة بولدٍ آخر. آثرت أن تلعب دور الأم القاسية الظالمة المتعنتة، وما كانت ستألو جهدًا في تأديب ابنها وطرد فكرة التحرير من دمه لكي تنقذ حياته.

أبو يوسف وقف في صفِّها. صحيح أنَّ خسارة بيته في الـ48 جرحٌ غائر ما التأم، وذكرى انفطار قلبه لدى زيارة قريته قبل عقدٍ من الزمن برفقة سيرين لم تفارقه يومًا، لكنه الآن رجلٌ كهل. لا يزال يؤمن في المقاومة، ولكنه غير مستعدٍّ لوهب ابنه إلى المقاومة. مع ذلك، ضاعت كل محاولات أم يوسف وأبو يوسف سدًى. فبعد رحيل إيهاب إلى عمَّان

قبل خمسة أشهر، فورًا بعد تخرجه من التوجيهي، صمَّ إياد أذنيه عن كلام عائلته. وتولّي مهمة الاستطلاع والمراقبة ما كانت سوى البداية.

بعدها بأيام، تقدَّم إياد بخطًى واثقة إلى ساحة المدرسة حاملًا في يده مكبِّر صوت. وقف تمامًا في وسط الساحة، كما لو أنه واقفٌ اللحظة على خشبه مسرح على نقطةٍ محددة مسبقًا. وبلا أي تردُّد، أعلن للطلبة عن قيام مظاهرة على مدخل القرية. تلك كانت فرصته الوحيدة في تحفيز الطلبة على المشاركة، إذ حظر جيش الاحتلال التجمُّع. فأصبح التواصل مع الأولاد في المدرسة حيث هم متجمِّعون أصلًا أسهل طريقة لتعبئتهم. وبالفعل، ما إن سمع الأولاد إعلان إياد، هرع الكثير منهم للمشاركة في التظاهر.

قبلها بدقائق كان إياد قد اقتحم مكتب الناظر، الذي ما إن رآه سأله متعجبًا «شو بدَّك؟» لم ينطق إياد بكلمة، توجَّه فورًا إلى الزاوية وانتزع مكبّر الصوت المستند إلى جدار، واتجه خارجًا على وقع صيحات الناظر «شو بدك تعمل فيه! ارميه من إيدك! عطني إياه!»

تريَّث إياد للحظة عند الباب، نظر إلى الناظر ثم انتزع المفاتيح من القفل وفورًا خطا خارجًا وصفق الباب خلفه وأقفله بالمفتاح. الناظر المحبوس جرى نحو الباب وحاول سحب المقبض لكن الوقت فات، وراح يصيح «غلطت غلطة كبيرة إياد! إياد! ارجع ورح أسامحك!»

ظلَّ إياد يمشي وما التفت للوراء.

في ذاك اليوم جمع إياد نحو أربعين طالبًا، وقادهم إلى تظاهرة على أطراف القرية اعتراضًا على إقامة مستوطنة جديدة في بلدة قلقيلية.

وعلى مر ساعتين، راح إياد والأولاد يرمون الحجارة على الجنود بينما الآخرون يهتفون، كان الكل يحاول تفادي الرصاص المطاطي والبقاء على قيد الحياة.

في اليوم التالي استدعى الناظر إياد ووالدته إلى مكتبه؛ هذه ليست المرة الأولى التي يفتعل فيها إياد مشكلةً في المدرسة. إياد أصلًا ما عاد مكترثًا بالدراسة وهوت درجاته في هبوطٍ مستمر، ونتيجةً لذلك، فُصِل من المدرسة.

في سن الخامسة عشرة التحق إياد بالمعهد التقني في قلنديا لكي يتعلَّم ميكانيكيا السيارات. وهناك، في قلنديا، بين القدس ورام الله، بدأ فعلًا ينخرط في حركات المقاومة، وطوَّر شبكة معارفه السياسية.

غالبًا ما تعرَّض إياد إلى المضايقة على يد جنود الاحتلال في دوريات المراقبة. أوقفوه مرة قرب مسجد قلنديا الكبير، ومرةً استجوبوه وهو يمشي في طريقه من مخيم اللاجئين إلى شارع رام الله. سألوه إلى أين هو ذاهب ومن أين أتى، وما الذي يفعله الآن في الشارع. استجوبوه لأنَّ بوسعهم استجوابه دون أي مبرر، ولأنه مجبرٌ على إجابتهم.

في قلنديا شارك إياد في المظاهرات الأسبوعية، يتصدَّر صفوفها الأولى ويرمي الحجارة على الجنود. وفي المساء يخوض نقاشات مع أصدقائه الجدد حول مستقبل الانتفاضة، وحول هوية العملاء المحتملين. من ضمن هؤلاء الأصدقاء مراهقٌ يُدعَى داوود، يعرفه إياد من كفر راعي وتربطه به علاقة وثيقة. داوود كان أصغر منه بعامين، يتمتع بقدرة على الإقناع ويدَّعي معرفة كل شيء عن كل شيء، أو ربما هكذا كان يرى

نفسه حقًّا. معًا شكَّلا خلية مسلحة من مجموعات الفهد الأسود. بدا حينها الخيار المنطقي، فإياد كان مطّلعًا على نشاطهم من خلال أخيه يوسف، وكل من في دائرته يوالي حركة فتح. وهكذا مضى إياد معهم.

شرع إياد في تنظيم الخلية في قلنديا، لكن أغلب أنشطة الخلية تركَّزت في كفر راعي والقرى المجاورة. جنَّد نور من كفر راعي، شاب أكبر منه بقليل، فهلوي، ويملك علاقات تمكِّنه من تأمين أسلحة للخلية - غالبًا مسدسات وبنادق من طراز (إم 16). وعلى مرّ العامين التاليين، سيشتبك إياد ضمن مجموعات الفهد الأسود في مواجهة جنود الاحتلال في مختلف البلدات والقرى. وفي الوقت نفسه سيكرِّس إياد مع نور وداوود وبقية زملائه في الخلية سمعةً قوية عن ملاحقتهم الحثيثة للعملاء واقتناصهم - مخبرين وجواسيس وخونة من كل الأصناف. فقد آمن إياد ورفاقه أنَّ لكي تتحرَّر فلسطين لا بد من تطهير بيتها أولًا من الخونة لتفادي محاولات الاختراق والتطويق.

لكن التعرُّف على العملاء عملية فوضوية، وكلما مضى إياد ورفاقه قدمًا في عملية التطهير، ارتكبوا مزيدًا من الأخطاء.

15
1990

أصبح إياد مطاردًا. فقد انخرط مع الفهد الأسود في عدة مواجهات مسلحة ضد جنود الاحتلال. في طولكرم، بعدما تمكَّنوا من جرح جندي إسرائيلي، تمكَّن إياد من الفرار عبر الأزقة الخلفية إلى التلال القريبة. وفي تخوم قلنديا، أطلق ورفاقه النار على دورية مراقبة وقتلوا جنديًّا إسرائيليًّا، ومرةً أخرى نفذوا بجلدهم دون تعرُّض أحدهم لأي أذى، ولجأوا إلى مخبأ في بلدةٍ مجاورة فيما جيش الاحتلال يمشط قلنديا بحثًا عنهم.

أبو يوسف وأم يوسف أدركا منذ وقتٍ طويل هزيمتهما أمام إياد، وأنَّ محاولاتهما إعادة توجيهه إلى الدراسة ونيل وظيفة ثابتة لن تثمر شيئًا. والآن، متى قضى وقتًا معهما في البيت، اكتفيا بسعادتهما لرؤيته حيًّا سالمًا. تفادى كلاهما سؤاله عن أية تفاصيل، لكن يحدث أحيانًا أن يتحادث أبو يوسف وابنه في آخر التطورات السياسية. فالانتفاضة ألهمت أبو يوسف، وظلَّ متشبثًا بأمله أن تعيده إلى قريته طيبة. إياد من جهته دومًا طمأنهما، وأصرَّ أنه آمن ومنتظم في دراسته في معهد قلنديا التقني. أرادت أم يوسف تصديقه، لكنها عرفت أنَّ ليس بيدها كبح جماح ابنها

عن مضيِّه في التزامه بتحقيق الحرية لوطنه. ففي دواخلهما هما معجبان بحماسة ابنهما، ويؤمنان أنَّ فلسطين بحاجة إلى تحلي المزيد من أبنائها بهذا التصميم، لكنهما خشيا كلفة هذه الحرية، وكَرِها ترقُّب لحظة وقوعها.

مع حلول أيار من هذا العام اكتملت عائلة الحاج يوسف وأم يوسف - ليس كما تصوَّرا تمامًا مع تشتت نصف أبنائهما حول العالم، مع ذلك تظل عائلتهما موحدة ومكتملة في نظرهما. آخر طفلين كانا ابنتين، سلام ولدت في 1984، وإسراء آخر العنقود ولدت في العام 1990، العام الذي غزا فيه صدام حسين الكويت ووعد بتحرير فلسطين.

مع ولادة إسراء، ولا شقيقة من شقيقاتها الكبريات ميسون وسوزان وسيرين كانت تعيش في فلسطين، وأشقاؤها الثلاث الأكبر لم يكونوا متواجدين. سوزان وميسون تزوجتا، الأولى انتقلت إلى دبي والثانية إلى جدة. سيرين كانت لا تزال في عمَّان، ويوسف في أميركا وإيهاب في روسيا. أما إياد فقد قضى معظم وقته بعيدًا عن البيت، أولًا في قلنديا، وبعد إنهائه الدراسة في المعهد قضى وقته في بلدات وقرى الجزء الشمالي من الضفة الغربية - على الأخص في نابلس وطولكرم وجنين.

سيرين كانت قد عادت من عمَّان في أيار للالتقاء بالمولودة الجديدة. كانت ستبقى عدة أيام فقط، وأملت أن تسنح لها فرصة قضاء بعض الوقت مع إياد.

من وقت انضم أخوي لعمليات الفهد الأسود، صاروا جنود الاحتلال يطبّوا على دارنا بين وقت والتاني عشان يدَوروا عليه. ومع

تكرار التفتيش صارت إمي تلمح الجيبات العسكرية من أطراف القرية وتعرف إنها طالعة لعندنا.

مرة وسوزان في الدّار خبّت إمي إياد تحت الفرشات، بالضبط تحت رجول اخواتي اللي نايمين عليها ومتغطين بالحرامات. وفي مرة تخَبّى إياد ورا باب الدّار. ومرة لما اقتحموا جنود الاحتلال دارنا، دحش حاله بين باب البيت والحيط وما قدروش يقبضوا عليه. ومرة فتشوا كل غرفة ومزّعوا الفرشات، ولما فتحوا الثلاجة لقوها مليانة كتب وأوراق وفقعوا ضحك. إمي شرت الثلاجة منظر بس وما كنّاش نستخدمها، بس يومها خدمتنا الثلاجة وشتتت انتباه جنود الاحتلال، وطلعوا بعدها بدقايق وإيدهم فاضية. في العادة يهرب إياد من الباب الخلفي ويركض ليتخَبّى بسرعة في التلال، والجنود ما كانوا يلحقوه.

أتى إياد إلى البيت في اليوم الثاني لزيارة سيرين. التقيا بابتسامات دافئة، وفي لحظ عينيهما تبدَّت عاطفتهما تجاه بعضهما. تعانقا بشدة، وقبَّل إياد جبين أخته. يومها أعدَّت أم يوسف الطبق المفضل لدى ابنتها سيرين، مقلوبة، وقضت سيرين مع أخيها فترة الظهيرة يتبادلان آخر أخبارهما.

لاحقًا، في تلك الليلة، الكل أخلد إلى النوم ما عدا سيرين وإياد. البيت ساكن، الأخ وأخته جالسين في البرندة الزجاجية، أسفل الوهج المتقطع للمبة الغاز، يستمتعان بنسيم حزيران المتسلل من نافذتين مفتوحتين. إياد، في بدلة رياضية رمادية، انحنى لكي يعدِّل جاربيه، ثم التفت إلى أخته طالبًا إياها: «تعملي لي عشا؟»

ردّيت عليه، «عن جد تحكي؟ أكيد لأ، الدنيا عتمة!»

«يلا سيرين... صار لك زمان ما شفتيني»، أصر عليّ وهو يضحك ضحكته اللي من تحت لتحت. «مشان الله لا تخليني أقوم أعمل لحالي عشا، مشتاق آكل من تحت إيدك».

«لا انت ما اشتقت لأكلي، خلاص حلّ عني مو شايفني تعبانة».

بس ضله يصرّ عليّ، «يلا، الله يخليك، عشاني».

في الآخر استسلمت، بس خبرته إني ما رح اطبخ عشا دسم، بس بيض مقلي ولبنة وصحن زيت وزعتر.

فجأة، بلَّشت الكلاب تعوِّي.

جفلت سيرين، النباح يعلو ويحتد. نظر إياد إلى عيني أخته، ورأت سيرين قلق أخيها في انخفاض حاجبيه وعضّ شفته. لكن كتفيه الراسختين أظهرتا ثقة رجلٍ عاش هذا الموقف مرات عدة.

لحق النباحَ صوتُ تدوير المحركات فيما العربات العسكرية تزيد سرعتها. إياد وسيرين نظرا خارجًا ورأيا الأضواء تتوهج من عربتين عسكريتين، قعقعة العجلات على الطريق تدنو وتدنو.

سارع إياد وارتدى بوطه عاقدًا خيوطه على عجل، وفتح الباب الخلفي.

كل اللي قدرت أطعميه إياه لقمتين خبز غمستهم في الزيت والزعتر وحطيتهم بإيد أخوي، وقبل ما يطلع حمل معه موزة وهرب.

بعد فراره من الباب الخلفي مرَّ على بيت جارتهم أم فريد، وعلى جارين آخرين. بعدها ما عاد أحدٌ سواه على الطريق الطويلة الملتوية،

ولا شيء على مد البصر سوى التلال المعتمة، لا بيوت حوله تُرَى ولا أرواح.

طرق الجنود البوابة الأمامية، وأقلقوا شجرة الياسمين المتعرشة. سيرين تمهلت في فتح البوابة، وحين فتحتها، بدأوا يستجوبونها قبل أن يقاطعهم نباح كلب خلف البيت، ونباح كلبٍ آخر أبعد. حينها أدرك الجنود أنَّ إياد قد تسلل من البيت ولاذ بالفرار، وعادوا متعجلين إلى مركباتهم وانطلقوا يطاردونه.

خرج إياد من البيت يعدو بأقصى سرعة على الطريق الرئيس ثم انسل خارج مجال الرؤية، مستفيدًا من الشجيرات في إخفاء مساره، مندمجًا مع الطبيعة حوله ومتخفيًا بها، ينحدر منزلقًا على مسارات صخرية لطالما عدا عليها مرات كثيرة. وفي دقائق معدودة بلغ أسفل تلِّ بيته، وبات في نصف طريقه إلى تلٍّ آخر.

طاردته العربتان العسكريتان لدقائق ثم تباطأتا على الطريق الترابي. حاول الجنود تفحُّص المنطقة المحيطة، لكن مجال الرؤية بات محدودًا بعدما رفضوا مواصلة شق الطريق نحو الوادي.

وصل إياد إلى مغارة في تلٍّ من التلال المجاورة وغطى مدخلها بالصخور والأغصان، ثم جلس ينتظر، يقضي وقته في التقاط حبات الزعتر من بين أسنانه، آملًا أن تتركه ثعابين البرية في حاله. وريثما أنهى الجنود تمشيط المنطقة بعيدًا عنه، غفا واستسلم للنوم.

في صباح اليوم التالي دخل إياد إلى بيت عائلته مغطى بغبارٍ أبيض، وعلى مرآه استعادت سيرين أنفاسها.

16

خريف 1990

كانت سيرين تعمل في مكتب التواصل مع أولياء الأمور، في كلية ومدارس المعارف في عمَّان التي تأسست مؤخرًا وتملكها عائلة من القدس، وذلك بعد عام من تركها الوظيفة في البنك. لم يتضمن عملها التواصل المباشر مع أولياء الأمور، لكن صودف يومها أنَّ زميلة غابت وحلَّت سيرين محلها في مكتب الاستقبال.

بعدها بيومين اتصل عليّ زلمة بشغلي، وحكى معي دغري. حكى لي إني لفتت انتباهه لّما إجى مع صاحبه لياخد ابنه، وخبرني إنه عم يدوّر على عروس، وسألني إذا كان في مجال نتعرَّف.

مستحيل أبوي وإمي يرضوا بهيك شي! حاولوا يلاقوا لي عريس مناسب، وتقدَّم لي كتير ناس، بس ما قبلوا ولا بواحد. تخَيَّل كل ما حدا من قرايبنا ومعارفنا بالبلد يقترح عريس على طول بيرفضوه، ودايمًا بيلاقوا حجة: يا إمّا شهادته مش منيحة، يا إمّا مش من عيلة ميسورة ومرتاحة وقادر يفتح بيت، يا إمّا أصل عيلته مش من المنطقة اللي هم بشوفوها مناسبة. دايمًا بيلاقوا عيوب. ولو عرفوا بهالحكي

والله غير ينجلطوا، وأكيد رح يوصلهم خبر، فش اشي بقدر أخبيه عنهم.

حكيتله إذا بده يشوفني كمان مرة يجي عندي ع الشغل. وتاني يوم إجى، على آخر الدوام، وحكينا شوي. كان نازل على عَمّان من أميركا، وبده نتواعد في الأول زي ما بيعملوا هناك، وشرحتله إني ما بقدر أطلع معه.

تحادثنا فقط لأقل من ساعة، لكن للجدران آذان، والخبر وصل إلى والديها.

كلها كم يوم ونزل أبوي على عَمّان مع تحذير نهائي: يا بتتجوزي، يا بترجعي معي على فلسطين. بهداك الوقت، بشهر آب 1990، احتل صدام حسين الكويت، وصار الكل خايف من ردة فعل الاحتلال الانتقامية ضد الفلسطينيين إذا تعرضت لهجوم بالصواريخ. بهيك وضع ما كان أبوي رح يقبل أضل لحالي بعَمّان، «خلاص مش مسموح إنك تضلي هون وهالحرب دايرة ومش عارفين شو ممكن يصير فيها!».

بالفترة القصيرة ما بين زيارة العريس إلي في المدرسة ووصول أبوي على عَمّان، صار أبوي عارف كل اللي بيلزمه لحتى يقيّم الوضع ويقرر. العريس اسمه محمد، متعلم ومن عيلة محترمة في نابلس، وبس! هون لقيت حالي مجبورة آخد خيار من اثنين: يا بتجوّز زلمة ما بعرفش عنه شي وبسافر معه على أميركا، أو أرجع على فلسطين وأنا لسّاتني بنِت مش متجوزة، وهناك أواجه خطر الكيماوي وأشوف أحلامي تندفن تحت الانتفاضة.

قررت أتجوز. ولحد هاللحظة مش قادرة أفهم كيف أهلي كانوا بياخدوا قراراتهم بخصوص زواجي. قبل ما يجي محمد بشهرين كان ابن خالي تقدَّم لي، والشاب متعلم وكل شي، ومع هيك رفضوه، بس لأنه إمي ما كانت تطيق إمه، وكانت تحكي عنها إنها قوّية. بس شو اللي خلاهم يوافقوا ع محمد وعيلته بهالسرعة؟ لأنه عايش في أميركا؟ اللي بيضحِّك إنه أمه طلعت أقوى من مرت خالي بمية مرة!

بين الانتفاضة وتهديدات صدام كانت الأجواء متوترة كتير، فكتبنا الكتاب بسرعة وما عملناش حفلة عرس مُطَنْطَنةِ[1]. عملنا عشا بمطعم في عَمَّان حضره حوالي عشرين شخص. تخَيَّل هاد كان فرحي، ولا فيه شي من عاداتنا وتقاليدنا. أبوي بس اللي كان موجود من عيلتي، إمي ما إجت، ولا حدا من اخواتي واخوتي إجوا. كلنا عملنا حالنا فرحانين، ورقصنا الدبكة زي ما بنعمل في العرس. أنا ضحكت وانبسطت، وأبوي كان مبسوط، ومحمد شكله كان مبسوط، وقلت بيني وبين حالي يمكن رح أحبه، كنت متأكدة إني مع الوقت رح أحبه.

صورٌ قليلة تبقت من ذاك اليوم. في صورة منها، يتعانق العريس وعروسه على ساحة الرقص. محمد ينظر إلى الأرض في ابتسامة خفيفة؛ وسيرين تحدِّق إلى يده التي يمسكها بها، مبتسمة. محمد كان يرتدي بدلة تكسيدو، وسيرين ترتدي بلوزة سوداء تكشف القليل من ظهرها،

(1) مُطَنْطَن: صفة تُستخدم لوصف الأجواء التي تتميز بالاحتفالات الصاخبة والمبهرجة، وغالبًا ما تتضمن فعاليات أو مناسبات تتميز بالضوضاء والموسيقا العالية، وتكون الأجواء مليئة بالحيوية والفرح.

وتنورة خضراء مبكَّرة بالأسود تنسدل إلى أعلى كاحليها، مع حزام مخمل عريض يطوِّق خصرها. أناقة سيرين في هذه الصورة ثمانينية بامتياز، لا سيما مع غرَّتها الكبيرة المنفوخة.

في خلفية الصورة يبدو بعض أصدقائهما جالسين حول الطاولات، ومن الصعب استنباط حقيقة مشاعرهم وإما إذا كانوا مستمتعين بوجودهم في الحفل. فعدا منظر الرقصة الأولى بين سيرين وزوجها، لا شيء آخر في هذه الصورة يوحي بأنه حفل زفاف. هي عزومة مطعم، لا أكثر ولا أقل.

لا تخوض سيرين في تفاصيل تلك الليلة، وبالكاد شاركتني شيئًا. أخبرتني فحسب أنها تتذكر شعورها بالسعادة، لكن المرارة في صوتها بادية بوضوح، وهذه المرارة ليست ناشئة من غضبها على والديها اللذين حرماها من عرسٍ تقليدي، لكن من الزواج الذي بدأ في مطعم.

لم تعرف سيرين حينها أنَّ شهر ديسمبر من ذاك العام سيكون بداية غربتها عن فلسطين. اجتاحتها حماسةٌ غامرة، فهي ستتخلص أخيرًا من قبضة والديها التي لاحقتها حتى في الأردن، ولن تضطر للعودة إلى فلسطين ومواجهة واقع الاحتلال الذي يُقال إنه مؤقت، لكن لا شيء على أرض الواقع يدلُّ على ذلك. فالاحتلال واقعٌ أثبت أنه عصيٌّ على التفكيك، ومثله مثل الأفعى، يتجدد ويُبعَث من جديد بعد كل ضربة يتلقاها.

في ذاك العام، رحلت سيرين إلى أرض الفرص برفقة زوجها. تركت وراءها عالمها وثقافتها ولغتها واتجهت إلى نيويورك. ورغم سمعة المدينة بأنها بوتقة تذوب فيها الثقافات وتندمج، أدركت سيرين في وقتٍ قصير

حقيقتها: هي مدينة قائمة على حدود واضحة بين المجتمعات الساكنة فيها، ونجاتك فيها يعتمد على معرفتك باللغة الإنجليزية.

قبل ما أسافر ع أميركا، سافرت ع كفر راعي لحتى أودّع عيلتي، وقعدت هناك خمس أيام. كنت متوقعة ألاقي فرصة أشوف فيها أخوي إياد، بس إمي قالت لي قبل ما أجي إنه نادر صار يزورهم بالبيت بعد ما صار مطلوب عند الاحتلال، ودايمًا مطارَد ويتنقّل من مكان لمكان.

بس بأول يوم إلي في كفر راعي دخل علينا إياد، وأول ما شفته سألته بحنيّة الإم «إياد يا معفّن، شو صارلك؟» كان مْغَبّر من سَاسُه لرَاسُه، وشكله تعبان. على طول عبطته وبسته، وهو عبطني وباسني بس ما رد عليّ، حكى لي «مرحبا» وبعّد عني وهو يبتسم، وأنا ابتسمت له.

حينذاك بلغ طول إياد ستة أقدام، كان نحيفًا ومسمرًّا، ذراعاه قويتان وعضلاته بارزة.

قعد معي حوالي ساعة، وإمي عملت شاي بنعنع. بعدها طلع من الباب الخلفي وما رجع إلا تاني يوم الصبح. ضليتني قلقانة عليه طول الليل، بس إمي ما عادت تقلق. سلّمت بالأمر الواقع لأنه ما بتقدرش تعيش كل يوم وكل ليلة من حياتها قلقانة وإيدها ع قلبها مستنية يصير له إشي. ما كان قدامها غير إنه تأمّن أخوي إياد عند رب العالمين وتدعي كل يوم إنه يرجع لها سالم.

في صباح اليوم التالي استيقظت عائلة صوالحة على خبر موت مصطفى الرمان، سائق تاكسي زوجته حامل على وشك ولادة صبي. عُثِر على مصطفى معلّقًا من عمود كهرباء، من قدميه، قميصه الممزّق

يغطي وجهه، كاشفًا ظهره وبطنه الممزَّقين بالجروح. القميص مضرَّج بالدماء، منها الدمُ النازف من قطعٍ في رسغيه والذي يشير إلى تركه ينزف حتى الموت. وجهه مرضوض، وعينٌ من عينيه مشوَّهة. علقوا جسد مصطفى أمام أهل البلدة رسالةَ نذير للكل عن المصير الأسود الذي سيحلُّ بالعميل. الأجواء فورًا توترت واحتدت، فالعلاقة قريبة بين الضحية وجلادها، بين الجيران بعضهم بعضًا.

ما إن سمعت أم يوسف بالخبر طلَّت من النافذة ورأت الناس يجرون نحو العمود لرؤية الجثة. ظلت هي داخل البيت وتربعت على الأرض، وجهها مدفون بين راحتيها وتهمس «الله يساعدنا، الله يساعدنا».

حين نهضتْ توجهت فورًا إلى غرفة إياد، تنبش الجوارير عن خنجره الذي غالبًا ما يحمله معه بحثًا عن آثار دماء عليه، لكنها لم تجد الخنجر، وقضت بقية اليوم صامتة في انتظار عودة ابنها. وأخيرًا، مع غروب الشمس، دخل إياد البيت من الباب الأمامي. رفعت أم يوسف رأسها ناظرةً إليه، ملامح وجهها مرعبة تحت إضاءة لمبة الفلورسين الوحيدة في الغرفة. شرعت تصرخ في وجهه، اتهمته بقتل مصطفى وأجبرته أن يحلف، لا مرة بل مئة مرة، أنَّ لا يد له في مقتل ذاك الرجل، واكتفى هو بالرد على اتهامها قائلًا «الله يسامحك، حجة»، إلى أن صفعته أخيرًا على وجهه. صمتٌ مطلق ساد المكان لثوانٍ، بعدها أدار إياد ظهره، غادر البيت وصفق الباب الأمامي خلفه.

الحادثة صارت قبل ليلتين من سفري. مع هيك كنت واثقة إنه إياد رح يرجع عشان يودعني، ورجع. بليلة السفر إجى عندنا في الدار لوقت

قصير. بعدها نمنا وهو طلع من البيت قبل ما أصحى ع الساعة أربعة الفجر حتى ألحق السيارة اللي رح تاخدني ع الجسر للحدود الأردنية. بس وأنا نايمة تسحَّب على غرفتي[1]، وأخد معاه جاكيتي الجلد اللي لونه سَكَني[2]. الجاكيت موديله نسائي، بس حكالي بعدين إنه حبّه، وصار يلبسه دايمًا.

لاحقًا، شاعت القصة أنَّ مصطفى لم يكن عميلًا، والقتل كان غير مستحق. لم يقتنع الجميع بهذه السردية الجديدة، لكن زوجته وطفله نالا البراءة، لكنها براءة بالكاد تخفف الألم والأسى الذي أحاق بهما. فمصطفى لن يعود من الموت، والإذلال الذي احتملته عائلته بعرض جثته على هذا النحو ليس مخفيًّا عن أحد.

⋙⋘

في أميركا، عاشت سيرين مع محمد في شقة من غرفة نوم واحدة في بروكلين. لم تكن بروكلين قد تحولت بعد إلى الوجهة المنشودة لدى الشباب الصاعدين الواعدين، يأتونها أفواجًا رافعين معهم أسعار الإيجار. هناك، حاولت سيرين تحقيق التوازن بين مواصلة تعليمها والحفاظ على أسرتها الجديدة. غير أنَّ بروكلين مدينةٌ تبعث على الوحدة، مدينةٌ عزلت سيرين بسبب ضعفها في اللغة الإنجليزية. كان يشقُّ عليها مغادرة شقتها والذهاب إلى البقالة، إذ أرعبها المشي في الشوارع والضياع فيها.

لم تعد تشعر بالأمان حتى في حرمة بيتها.

---

(1) يِتْسَحّب: يتسلّل بالخفية.
(2) سَكَنِي: رَمَادِي (لون).

بعد أيام فحسب من انتقالها إلى حياتها الجديدة، لدى مرافقتها محمد مشيًا للالتقاء بأصدقائه على العشاء، اختار تلك اللحظة تحديدًا لكي ينتقد مظهرها بجلافة، واصفًا إياها بالفلاحة عديمة الذوق. انتابها الاستياء وعادت أدراجها إلى المنزل. فلحق بها محمد، وللحظة عابرة ظنت أنه لم يرد أن يفترقا على خصام.

ما إن وصلا البيت وفتحت سيرين باب شقتهما، دفع بها من الخلف وثبَّتها بعنف على الأرض. بعدها أجبرها على النهوض والعودة معه إلى العشاء كما كان مخطَّطًا، ولأنَّ لا خيار آخر أمامها أذعنت له. في تلك الليلة، أدَّت سيرين دورها الاجتماعي باقتدار أمام المضيفين، تتبادل معهم الأحاديث وتتبسَّم في اللحظات المناسبة.

تلك المواجهات مع زوجها ستتكرر على وتيرة متزايدة. لا أحد رأى الرضوض، ليس لأنها مخفية تحت ملابسها فحسب، بل لأن أثرها موشومٌ أسفل جلدها، في عقلها. ما انفك محمد يحبطها في كل فرصة تسنح له. وكلما رآها تبتسم مزَّقها إربًا بكلامه، إلى أن ضعضع ثقتها في نفسها. حرمها مما كانت تبحث عنه فيه: الأساس لبناء حياتها الجديدة.

محمد شجعني آخد شهادة جامعية تانية لأنه كان شايف الشهادة الأردنية مش كفاية. فسجلت في صفوف مسائية في كلية باروش لحتى أتعلَّم إنجليزي[1]، وبعدها بفترة قصيرة دخلت الجامعة تخصص تسويق، وهيك لقيت حالي بقضي كمان ست سنين بالدراسة.

---

(1) كلية باروش أو باروخ، والمعروفة رسميًّا باسم (Bernard M. Baruch College)، هي إحدى الكليات التابعة لـ جامعة مدينة نيويورك (City University of New York - CUNY).

وبعد سنة من زواجي بلَّشت أشتغل في البعثة الأردنية في الأمم المتحدة. الشغل كان ممتع كثير، ومن حظي إني حصلت عليه بفضل حدا من معارفي. كانت مهمتي الأساسية أقعد على مقعد الأردن وأمثله باجتماعات مجلس الأمن واجتماعات الجمعية العامة. لقبي الوظيفي كان «المستشار» وهاللقب خلاني أحضر اجتماعات الأمم المتحدة وأمثّل البعثة الأردنية فيها، بس طبعًا ولا مرة فتحت تمي. دوري كان أمثِّل الدولة، وبعدها أبعث محضر الاجتماع يا إما للديوان الملكي الأردني أو لوزير الخارجية.

ما بقدر أوصف لك قديش كان شعوري رائع بإنه صار عندي شغل إله تأثير حقيقي في العالم، وأشوف الأحداث بعيني عم تصير لحظة بلحظة. بس بنفس الوقت كانت فترة صعبة ومرهقة، خصوصًا مع كل اللي كان صاير بالتسعينات، من الحصار على العراق لاتفاق أوسلو. هاد مو معناه إنه ما قضيت أوقات حلوة في الشغل، بس التوفيق بين الشغل والدراسة كان مرهق كتير. كنت أصحى الساعة ستة الصبح لحتى لا أتأخر ع الشغل، وباستراحة الغدا بقعد لحالي أدرس بقاعة الاجتماعات أو على مكتبي، معي ساندويشة وعلبة عصير.

بما أنَّ الطلاق حينها كان خيارًا صعبًا ومعقَّدًا، وأبوها وأمها ما كانا ليقبلا بالأمر، اقتنعت سيرين أخيرًا، بعد عامين من تعرُّضها للضرب أول مرة على يد زوجها، بفكرة إنجاب الأطفال. والداها كانا متيقنين أنَّ وجود طفل سيحسن علاقتها بزوجها. وهكذا، في العام الثالث من زواجها، أنجبت سيرين ابنها الأول باسل.

حتى بعد ما خلّفت باسل، ضل محمد مُصِر إني أكمل دراسة وشغل بالأمم المتحدة. مش عارفة إذا كانت هيّ فكرته المنحرفة عن النسوية وحتى يبيّن إنه شخص واعي ومثقف، أو كان شايف بشغلي وجاهة إله. بالحالتين، ولا مرّة مد إيده حتى يساعدني. بس الحمدلله قدرت أدبّر حالي، كنت أترك باسل عند إمي لما تيجي تزورنا، أو أتركه عند جارتنا اللي عندها ولد من عمره.

بعد ما كنت بقضي يومي بين الشغل والدراسة، كنت بنام لي ساعة على القطار بطريقي للبيت. وأول ما أوصل أفوت فورًا ع شغل البيت والاهتمام بباسل. وبعد ما ينام باسل، كنت برجع أدرس وأعمل واجباتي. بأوقات كنت بحس إنه السنين اللي قضيتها بعمّان كانت استراحة قصيرة ما بين حياتي الصعبة ببيت إمي اللي هلكتنا شغل واحنا صغار، وبين الحمل التقيل اللي لقيت حالي شايلته على ضهري وأنا مَرَة ببيت زوجي.

تعرف، أوقات بيخطر على بالي شي قاله محمد قبل ما نتجوز بأسبوع، وبسأل حالي ليه ما انتبهت منيح وقتها للي قاله. حكى إنه لما كان عزّابي كان يطبخ ويعمل عزايم وحفلات بنفسه، بالضبط قال «تعودت أعيش لحالي 17 سنة وأعمل كل شي بإيدي. لهيك إذا طلبت منك كاسة ميّ خليني أنا أجيبها بنفسي، لأنك إذا عودتيني تعملي كل شي عني، رح أكسّل وما بصير أعمل أي اشي».

للمرء أن يستشف في كلمات سيرين صدى الأيام الأولى بين الخطيبين، كلٌّ يحاول التودد للآخر وإظهار محاسنه. لكن حتى في خضم تلك المحاولات يزلُّ اللسان، فيكشف حقائق وإشارات واعترافات

صغيرة، لو أصغت سيرين يومها لعرفتها، لكنها لم تصغِ. وهكذا، كلما اجتهدت هي أكثر لأجل البيت ولأجله، تكاسل هو أكثر وأكثر عن رفع إصبعٍ لكي يساعدها.

بعد أن أدركت سيرين الحقيقة متأخرةً، عاشت وقتًا طويلًا تلوم نفسها أنها لم ترَ الإشارات الحمراء لحظة انكشفت لها.

17
أواخر 1991

بعد عام من سفر سيرين إلى نيويورك، وقعت حادثة مروّعة هزَّت كفر راعي ونواحيها. خلال ساعات محدودة في الظهيرة، إياد وداوود ونور، مع عدد من رفاقهم، اختطفوا أربعة شباب يافعين من مواقع مختلفة تحت تهديد السلاح. غطوا رؤوسهم وجروهم إلى مغارة في التلال أعدّوها لاستجواب معتقليهم. تراوحت أعمار الشباب بين السابعة عشرة والتاسعة عشرة، أحدهم ابن فرَّان القرية، والآخر جار إياد. الشباب الأربعة بائعو خضرة وعمال مياومة، يكسبون قوت يومهم من عبور الخط الأخضر والعمل في دولة الاحتلال.

«مش قادر أتنفس!» راح ابن الفرَّان يصيح يائسًا في سعاله الحاد. خشي إياد أن يصاب الولد بنوبة تشنج، فهو يعرفه شخصيًّا ويعرف أنَّه يعاني من الربو، لذا رفع عنه الغطاء وتركه يتنفس. بعدما استعاد ابن الفرَّان أنفاسه، نظر إلى إياد المتواري خلف لثامه، وشكره. ربما أمل أن يؤثر اعترافه بهذه المبادرة الطيبة في قلب آسره، فيعفو عنه ويطلق سراحه. لكن إياد صدَّه.

بعدها بقليل، سرَّحت المجموعة إياد من مهمة المراقبة لكي يتسنى له تناول العشاء في البيت، وعيَّنوا رفيقًا آخر ليأخذ محله. داوود أيضًا غادر إلى بيته.

حين عادا تلك الليلة وجدا ابن الفرَّان ملقًى على مدخل قاعدة عملياتهم في التلال، وقد اصطبغت الصخرة بلون الدم القاني. أمعنا النظر داخلًا ووجدا ابن جار إياد على الأرض أيضًا، وقد انشقَّ رأسه نصفين - أُعدِم برصاصة في الرأس.

سمعت حكايتين عن اللي صار، وبالحكايتين ابن الفرّان كان ميِّت لما رجع إياد على المغارة. حكاية بتقول إنه واحد من جماعة الفهد الأسود هو اللي قتل الشباب الأربعة. وأول ما وصل إياد وشاف المنظر عصَّب وركض لعنده وسأله «إيش عملت؟ إيش عملت؟» وجاوبه الشاب إنه الأربعة اعترفوا بإنهم عملاء وخونة.

بس أنا بظن إنه هداك الشاب كان بينه وبين ابن الفرَّان عداوة، فاستغل الفرصة وصار يضرب فيه لحتى قتله. بعدها خلَّص ع التلاتة عشان ما يشهدوا ضده. بهالقصة، سمعت إنه إياد وداوود قعدوا يسمعوا كلام صاحبهم اللي كان مكلف بالمراقبة، وحاولوا يتأكدوا من اللي صار.

«ووينه نور؟» سأل إياد.

«وإيش عرفني، حكى لي لازم يطلع لأنه عنده شغلة ضرورية يعملها».

«طب ليش ما سجلت الاعترافات؟» الشاب اللي قدامهم أصغر منهم بالعمر وأقل خبرة، وانضم جديد للفهد الأسود، فلما قال إنه نسي

مَشُّوا له إياها. هاد ما يعني إنه إياد وداوود صدقوه، بس هسه وقعت الفاس بالراس، وما عادش ينفع الحكي.

أما الحكاية التانية بتقول إنَّه نور هو اللي نفذ عملية الإعدام لأنه حدا من الشباب المخطوفين تعرَّف عليه، فحسّ إنه ما في بإيده خيار غير إنه يخلِّص عليهم كلهم.

لو كان ابن الفرَّان معنا اليوم، لربما أخبرنا أنَّ هذه العملية لم تكن سوى ثأرٍ شخصي تحت غطاءٍ سياسي. ولو سألناه، لحمَّل إياد المسؤولية. وعلى كلٍّ، ثمة حكاية ثالثة، تلقَّى فيها إياد أوامر مباشرة من رؤسائه في مجموعة الفهد الأسود المتمركزة في قباطية بإعدام الأولاد الأربعة، وهو ما فعله لدى عودته مع داوود. لا ثأرٌ شخصي ولا غطاءٌ سياسي، بل عمالة مثبتة بالدليل، وإياد من أطلق الرصاص.

تاني يوم سمع جيش الاحتلال بالخبر وبلشوا يدوروا ع الجثث لأنهم ما بيتهاونوا مع قتل المتعاونين. وفي الوقت نفسه صارت الناس تحكي عن عيلتنا.

في بعض الأنحاء هلَّل الناس: «إياد بطل»، «إياد رجّال من ضهر رجّال»، «فلسطين بحاجة لهيك أبطال»، «بيستاهلوا! الله لايردهم! ما خرَّب بيتنا إلا هالعُمَلَا»، «لما تشوف الحية اقطع راسها واقتلها».

لكن البعض الآخر لم يهلِّل، بل خاف. فقد رأوا في تلك الحوادث جرائم قتل اعتباطية تأخذ فلسطين وأهلها إلى الاتجاه الخاطئ. لكن الجماعة الأولى ما كانت لتصغي إلى تلك التحذيرات، «الأغلاط بتصير، وفي النهاية كله فدا فلسطين».

عيلتي لقت حالها بين نارين، بين فخر الناس بإياد وخوفهم منا. بظنّش إياد عملها وقتل هالأولاد الأربعة، لكنه بيعرف اللي قتلهم ومغطّي عليه. ضل مصر إنه هالولاد متعاونين وبيستاهلوا اللي صار فيهم.

في سنوات الانتفاضة، قُتِل 822 فلسطينيًّا بشبهة التعامل مع الاحتلال. إذ ما بيدك فعله غير قتلهم؟ ومثل الكثير من الفلسطينيين، آمن إياد أنَّ معاقبة العملاء فعلٌ نبيل وشريف في سبيل تحرير فلسطين. لكن ظلَّت تلك الحوادث سؤالًا بلا إجابة شافية عنه، جرحًا غائرًا مفتوحًا في المجتمع الفلسطيني لم يلتئم. إياد نفسه، في نهاية المطاف، سيندم على اندفاعه المتعصب في ملاحقته المشبوهين بالعمالة.

18

11 حزيران، 1992

هناك بيت على آخر الشارع المتعرج في تخوم مدينة باقة الغربية، مدينة فلسطينية ضمن حدود الـ48 وممتدة على الخط الأخضر الفاصل عند الضفة الغربية. تعرَّضت مدينة باقة للتقسيم عام النكبة، نصفها الشرقي ظلَّ جزءًا من طولكرم تحت السيطرة الأردنية، وباقة الغربية ضُمَّت إلى حيفا تحت سيطرة الاحتلال. إياد أبو شقارة طرق باب البيت على آخر الشارع المتعرج.

لقب إياد، أبو شقارة، بات اسمه المستعار والاسم الذي يطلقه عليه الاحتلال. في واقع الأمر، تُعرَف العائلة في كفر راعي بدار أبو شقارة، اشتقاقًا من كلمة «شقرا». تقول إحدى السرديات إنَّ العائلة اكتسبت هذا اللقب لأنَّ أبو يوسف ولد أشقرَ وبعينين زرقاوين، ما استدعى المزاح من الناس بأنه لا بد من ذرية جنرال بريطاني.

طرق إياد الباب مرةً أخرى وفتحه قاسم، فتى بذقن خشن يعرفه إياد من كفر راعي، ورحب به بابتسامة. دخل إياد إلى غرفة بسيطة الأثاث - طاولة خشبية بأربع كراسٍ متطابقة وأريكة زرقاء بمقعدين

موشاة بالزهور وعمرها لا يقل عن عشر سنوات. لمبةٌ متدلية من السقف تضفي على المكان أجواء شبيهة بالمستشفى وينعكس توهجها على دهان الجدران المتشقق إثر أعوامٍ من الرطوبة. الأريكة مدفونة تحت كومة من السُّتَر، وتغطي الطاولة مسدساتٌ متناثرة.

كان نور قد أرسل إياد في هذه الليلة غير المقمرة للحصول على المسدسات من باقة الغربية، فهي طريقٌ معتادة لتهريب الأسلحة. نور وإياد عانيا الكثير في العامين الماضيين، هربا من عدة محاولات لإلقاء القبض عليهما، وهمَّ كلٌّ منهما بمساعدة الآخر تحت وابل قنابل الغاز المسيل للدموع الذي يرميه جنود الاحتلال عليهما. كلٌّ منهما بات يعرف جيدًا كيف يفكِّر الآخر ويتحرَّك.

شابان يافعان ممتلئا الجسد خرجا من المطبخ حاملَيْن معهما بيرة. عرَّفا نفسيهما إلى إياد على أنهما أحمد وعماد، وعرضا عليه الشرب معهما، وإياد رفض.

سمع أصوات تلفاز من غرفةٍ أخرى. مرَّ عليه وقت طويل منذ شاهد أي شيء على التلفاز، أصلًا لم تقع عيناه على تلفاز طيلة تلك المدة. أخبراه بأن يتبعهما إلى تلك الغرفة. خلع حذاءه ووضع الفردتين عند الباب الأمامي مع كل الأحذية الأخرى، ولاحظ أنَّ لا أحد من الموجودين يحمل سلاحه. تنبَّه عماد إلى إياد ينظر إلى المسدسات المنتثرة على طاولة المدخل.

«بتقدر تترك سلاحك هون»، قال عماد بأريحية.

مدَّ إياد يده خلف ظهره، سحب سلاحه قابضًا عليه بشدة، وللحظة تجَمد، كما لو أنه غير راغبٍ بتسليمه. لكن اللحظة مرَّت، ووضع سلاحه

على الطاولة. هذا التصرُّف لم يستغرقه أكثر من لحظة، لكن في لحظات عابرة كهذه تتبدَّل حياة المرء.

سار إياد إلى الغرفة المجاورة وجلس على الدوشك وجلس الشباب الآخرون إلى جانبه. تبادلوا الحديث في دردشة خفيفة عن الطقس، وأحدهم سأل إياد إن واجه أي صعوبة في رحلته إلى هنا. بالكاد مرت خمس دقائق وإذ بخبط أقدامٍ يقطع عليهم الكلام، لم يتسنَّ لهم حتى الحديث عن صفقة السلاح. اهتزَّ البيت على وقع الخبط الثقيل، ولم يصعب على إياد تمييزه فورًا.

هوى قلب إياد على وقع خبط الجزم العسكرية. لا! لم يكن مفترضًا بالليلة أن تؤول إلى هذه النهاية! جحظت عيناه مندهشتين وهو يدير بصره على الجالسين حوله، غير مصدق لما يجري اللحظة. لا وقت لديه لاستعادة رباطة جأشه أو التفكُّر بحل، فلحظة الصمت الوجيزة قطعها خبط الطرق الشديد على الباب، والنداء: «نحن قوات الدفاع الإسرائيلي! سلموا حالكم ولا تقاوموا! فش داعي تموتوا هون».

جولةٌ أخرى من الخبط الشديد على الباب.

حملق إياد في وجه رفاقه، بالأخص قاسم، فهو يعرفه من كفر راعي وموقن من وطنتيه. من الواضح أنَّ جنود الاحتلال هنا لأجل القبض عليهم جميعًا، لكن إياد كان واثقًا من وجود عميل بينهم، وإلا كيف علم جيش الاحتلال باجتماعهم هذا؟ قلبه خفق بشدة وهو يستبق المواجهة مع الجنود بين لحظة وأخرى. وجنتاه تيبَّستا واحمرَّتا وهو لا يزال يجول بنظره بين وجوه رفاقه عاقد الحاجبين، يبحث عن أي دلالة على الخائن.

أحكم قبضتيه ومال للأمام استعدادًا للهرب، لكن لا مفر. صدغاه اشتعلا غضبًا، شيءٌ بداخله سينفجر. وفي تلك اللحظة، قبل اقتحام الجنود الغرفة، خطر له صديقه نور؛ أيعقل هو المتورِّط في هذا الفخ؟

وفيما هذا الخاطر يترسَّخ في ذهنه، محاولًا حساب خطوته القادمة، شُرِّع الباب على مصراعيه.

لم يواجه الجنود أي مقاومة.

أمسكوا الشباب الأربعة وأخذوهم خارجًا حيث ألقوا بهم أرضًا، تنتظرهم مجموعة أكبر من الجنود. تكوَّر إياد ورفاقه تحت الرفس، قبل أن يُكبَّلوا بأصفاد بلاستيكية.

أخذوا إياد، اختطفوه، اعتقلوه -سمِّها ما شئت- من بيتٍ على آخر شارعٍ متعرج في باقة الغربية. وفي لحظة اختطافه، تصارع إياد مع فكرة الرجل الذي سيغدو عليه الآن. هو تقبَّل السجن عاقبةً محتملة منذ بداية انخراطه في المقاومة، لكنه الآن قلقٌ بشأن والديه والمعاملة التي سيتلقيانها في محاولاتهما زيارته، وحزنهما على احتمال وجود ابنهما معتقلًا في سجون الاحتلال.

أبوي وإمي ما سمعوا بالخبر إلا بعد بيوم، وما عرفوش بالضبط إيش صار، لا وين اعتقلوه ولا إيمتى اعتقلوه ولا كيف اعتقلوه. ولأنه الأخبار وقتها ما كاناتش سريعة زي هالأيام، أنا عرفت بعدها بيومين. بتذكّر كنت ببيتي بنيويورك وقت رنَّ التلفون وانهرت، ضليتني أعيِّط، محروقة وخايفة من اللي راح يعملوه الصهاينة بإياد، بس ما تفاجأت من

اللي صار. كنت عارفة إنه عاجلًا أم آجلًا الصهاينة رح يعتقلوه، لأنه إياد بيوثق في الناس وبأمّنلهم بكل سهولة. ما كان حذر أبدًا في تصرفاته، وبيبيع السلاح ويشتريه من أي حدا، وأصلًا كتير ناس صارت تعرف بنشاطه مع الفهد الأسود.

قبضوا على داوود بعدها بيومين، وانسجنوا سوا. أما نور فهرب ع الأردن، ورجع بعدها بفترة وتجوّز. بالأخير قبضوا عليه، بس ما انحبس إلا فترة قصيرة.

في كفر راعي، أَمَّ جيران دار أبو شقارة البيت لمواساة العائلة، يشاركونهم الألم والحزن على واقعهم المشترك. ظلَّ أبو يوسف جالسًا على كرسي بلاستيكي أبيض في الحوش، والسيجارة في يده. استقبل ضيوفه بعينين زجاجيتين، مثبتتين على قمرٍ نيِّر في سماء الظهيرة. عقله متشبث بصورة إياد، بابتسامة ابنه الرقيقة، بملامحه القلقة، وسأل أبو يوسف نفسه إن كان قد فعل حقًّا كل ما بيده لأجل كبح اندفاع ابنه. لكن عقله أيضًا سرح إلى قريته طيبة، إلى زيارته إياها قبل عقدين، وحلمه بالعودة إليها. حاول الجيران مواساته قائلين: «فدا فلسطين»، «فلسطين بتتحرر عن قريب»، «شوي وترجع لنا فلسطين ونرجعلها»، «كلها وقت قصير ويتحرر إياد من السجن»، «إياد رفع راس العيلة»، «إياد بطل ورح يضله صامد»، «إياد تحت رحمة رب العالمين».

ما فتئ أبو يوسف يومئ أمام عبارات المواساة هذه إلى أن أنهكته، ثم انسحب داخلًا، روحه معذبة تحت ثقل عجزه، إدراكِه أنَّ لا خيط بيده يسحبه لكي يحرر به ابنه.

معاناة إياد الجسدية والعقلية انعكست صورتها على وجه أم يوسف. سيل الدموع الذي انصب لحظة سماعها بالخبر جفَّ وانقطع، وحلَّ محله دائرتان سوداوان سواد الليل الحالك حول عينيها. ومثل زوجها، نظرتها خاوية، تائهة في خيالاتها المرعبة عن وسائل التحقيق مع ابنها، وتائهة في تأملاتها حول خطوتها القادمة لأجله.

فالحزن لدى أم يوسف لحظة تحوُّل لا انكفاء، وعليها قبول المسار الذي اختاره ابنها. مهمتها الآن، في زيارات السجن التي تخطط لها، أن تبذل أقصى قواها في تعزيز الصمود لدى ابنها في الأسر، وحثِّه على الالتزام بالمتطلبات الأخلاقية لنضاله. عليه أن ينجو من الأسر بأي ثمن، وإلا سيحطِّم الأسرُ روحَه. ومهما تعرَّض لمحاولات الإكراه والتهديد، مهما بلغت شدتها، عليه أبدًا ألا يعترف بشيء.

بعد ما اختطفوا إياد بكم يوم، كتبت رسالة لمنظمة العفو الدولية بطلب فيها مساعدتهم حتى نلاقيه. أبوي وإمي ما كانش عندهم أي فكرة عن مكانه، وقالوا لهم يدوروا عليه. بس منظمة العفو ما ساعدتنيش بإشي، وأصلًا ما ردوش على رسالتي إلا بعد تلات شهور، ووقتها أبوي وإمي صاروا عارفين مكان إياد وزاروه بالسجن.

رموا إياد في مؤخرة شاحنة عسكرية خضراء، نوافذها مغطاة بطبقات من الشبك لحجب الأنظار عمَّا داخلها. جلس مقيد اليدين والساقين، معصوب العينين بخرقة قديمة قلبت عالمه رأسًا على عقب، ولا شيء بعدها سيظل كما كان. عاجزًا عن الحركة، متألمًا من اختراق الصفد البلاستيكي لحم رسغيه، موجَعًا من الضربات التي تلقاها مكوَّرًا

17 June 1992

Amnesty International
322 8th Avenue
New York, N.Y. 10001

ATTN: Ms. Soraya

Dear Ms. Soraya;

My mother just called to tell me that my brother, Ayyad Ahmad Yousuf, who is eighteen years old and is in the Occupied Territories, was arrested by the Occupying Israeli Forces on 11 June 1992 in Kafa Rai, Jenin. As usual, the occupying Israeli Forces accused him of ill-doing, and as you well know, they detained him without telling us where he is, what he was accused of, and without allowing him to contact his family. We were just told not to follow-up on him. How can we do that? He is just an innocent 17 year old who just turned 18. God knows what crimes they will accuse him of. I am willing to do everything to free my innocent brother - to save him from torture, detention,and suffering, as well as to help my parents who are beside themselves with worry, unable to sleep every night and unable to cope with this dilemma. They still have to worry about their 13 children who are dependent on them.

We have no one else to turn to for help. I know that your organization has been helping various families and people from different countries, I write to you now to ask for your help. All I want to know is how my brother is faring, his whereabouts, or any kind of information that could tell us how he is, Please contact me as soon as you can get hold of some news regarding my brother at this telephone number and address;

Ms. Sireen Ahmad Yousuf
3620 Bedford Avenue, # E9
Brooklyn, N.Y. 11210
(718) 253-1714

Your immediate attention on this matter will be highly appreciated.

Thank you very much.

Sincerely yours,

Sireen Ahmad Yousuf

Sireen

صورة الرسالة التي أرسلتها سيرين لمنظمة العفو الدولية بعد اعتقال إياد.

المصدر: سيرين صوالحة

على الأرض، استشعر إياد الكرب الفادح الذي يجتاح كل أسير منذ لحظة اختطافه. وفيما العالم حوله غارقٌ في ظلمةٍ حالكة، لا يرى فيها سوى الجزم العسكرية من خلال الخرم الضيق ما بين الخرقة وأنفه، ولا يسمع إلا قهقهة رجالٍ على أفعال مجنَّدة تهين كرامته، لاذ إياد إلى جمرة غضبه وإصراره ألا تنكسر إرادته.

رغم استعداد إياد لهذه اللحظة، إذ لا نهاية للطريق الذي اختار إلا الأسر أو الموت، وجد نفسه في قبضة الخوف. خوفٌ يداهمه من الخارج متلبِّسًا أصوات الجنود وخبط أقدامهم، وخوفٌ يداهمه من الداخل، يستشعره في معدته الهاوية وخفقان قلبه الشديد. وبين المداهمتين تملَّكه الخوف بالكامل، وكم تمنى لو لم يكن للخوف هذه السطوة عليه! كم تمنى لو كان بيده حبسه، ومنع يد العالم من الوصول إليه.

من فدائي إلى أسير، في طرفة عين. وجد إياد نفسه يصارع في تلك اللحظات ما سيجري عليه. وأمام تكرار تعرضه للعن والشتائم والضرب، ما فتئ يكرر على نفسه السؤال: ما الذي ينتظرني؟ إلى أين أنا ذاهب؟ وما عساهم سيفعلون بي؟

دار المحرك، وقفز أربعة جنود إلى مؤخر الشاحنة وسحبوا خلفهم طبقةً من الشبك. ما عاد بوسعه سماع ما يجري للرجال الآخرين في البيت أو رؤيتهم. لم يمنحوه لحظة يستعيد فيها أنفاسه في طريقهم إلى مركز الاعتقال. انهال عليه الجنود بالشتائم، وأطلقوا ألقابًا مشينة على أمه وأخواته، صفعوه ولكموه، وضربوه بأعقاب بنادقهم. بعد نصف ساعة توقفت بهم الشاحنة. أحدهم انتشله من ذراعه وصاح فيه «يلَّا انزل!»

جرَّ إياد قدميه المكبلتين وتعثَّر خارجًا، حارسان الآن يمسكان به. في تلك اللحظة، لا أحد من أهله وأصدقائه يعرف أين مكانه وما وقع عليه، لا أحد يعرف إن اقتادوه إلى بوابة سجن جنيد في نابلس أم سجن سالم شمال غرب جنين.

لدى دخوله بوابة مجمع السجون، أُجبِر إياد على التعرِّي وتسليم ملابسه وساعته التي أهدته إياها أخته. كان ثمة سجناء آخرون معه، كلهم (سجناء أمنيون) ضمن تصنيف الاحتلال، ووجودهم معه واساه، وطمأنه أنه ليس وحده.

خلع الجنود العصائب عن أعين المعتقلين، وها هم الآن يقفون عراةً أمام مجندات إسرائيليات. تلقَّى المعتقلون أوامر بسيطة، اجلس، انهض، دُر للخلف، دُر للأمام، في عرضٍ من الامتهان الجسدي والنفسي. عراةً تلقوا الضرب بالعصي والسلاسل، على أصوات المجندات يضحكن ساخرات من أجسادهم. وعراةً، رغم وجود آخرين، اختبر كل أسير أول لحظة انعزال حقيقي بعد انتزاعه من العالم الوحيد الذي يعرفه.

رمى الحرَّاس الأسئلة في وجه المعتقلين «شو اسمك؟ مين أنت»، والمعتقل يتساءل «مين أنا؟». لم ينطق معتقلٌ بحرف، خشية إن نطق اسمه سيسلبه الحراس منه للأبد، ويشرِّع بوابة الإجابة عن كل سؤال يسعون إلى معرفته.

خضع إياد لاستجواب قصير. أدرجوا بياناته في النظام، ثم تركوه واقفًا إلى أن جاءه حارس عصب عينيه، وقبض على ذراعه، ودفع به في رواقٍ طويل يقوده إلى زنزانته. لم يحذِّره أحدهم من وجود درجات

على الطريق، فتعثَّر ووقع على وجهه عدة مرات، الدم النازف من أنفه انتثر على الأرض. الرواق يصدح بالضحك، وما استطاع تمييز مصدره. الآن عدة حراس يحاوطونه، يسمع جرَّ أقدامهم وأنفاسهم الهادئة. في حضورهم، وقبل حتى أن يبدأ استجوابه، اختبر إياد لحظة انعزاله الثانية. هو الآن وحده، تحت رحمتهم.

ما عاد إياد الفدائي الفلسطيني، هو الآن الأسير الفلسطيني، والأسير دفعوا به إلى زنزانة تكفي خمسة وتضم خمسة عشر رجلًا. رحَّب به النزلاء كما لو حلَّ ضيفًا على بيتهم. حاولوا تهدئة روعه، إذ دون هذا العون النفسي لقضوا جميعًا نحبهم في هذا المكان. أشاروا إليه بالجلوس على فرشة بلاستيكية، ونفَّذ كلامهم. أدرك حينها أنَّ النوم مفرُّ الأسير من الاعتقال، لكن السجّان يدرك ذلك أيضًا، وصيَّر حرمان الأسير من النوم أداةً من أدوات تعذيبه. فالمعتقل يغمض عينيه مرهقًا، ليفزع فجأة على أصوات الصراخ والضرب، فيحاول تخمين مصدرها: لمن هذه الأصوات؟ من أي زنزانة؟ هل تعود إلى معتقلٍ يعرفه أم مجرد تسجيلات؟

في النهاية كلها سواء. لا تأجيل اليوم لحكم الاعتقال.

يحذِّر النزلاء المعتقل الجديد من استدعائه للتحقيق بعد فترة وجيزة، وذلك لكي يتهيأ. لكن «الوجيزة» دهرٌ من القلق سِمَته الانتظار.

جاء الحرَّاس لأجل إياد. قيَّدوه مرةً أخرى وجروه خارج الزنزانة. رموا به في مؤخر عربة جيب عسكرية. إلى أين سيذهبون به الآن؟ إلى سجن الجلمة؟ إلى بتاح تكفا؟ إلى مسلخ المسكوبية؟ فقد قيل له أنَّ

تلك هي المعتقلات التي يودعون فيها المعتقلين الخطرين، وإلا لكانوا استجوبوه في الرواق.

انطلق الجيب.

في تلك اللحظات، يضرب الخوف سائر جلد الأسير الذي يتمنى لو بوسعه اللحظة طرد جسده من جسده. يشعر بعرقه يتصبَّب، بالوهن ينسلُّ إلى أعضائه، بالدوار في رأسه. ومع ذلك كله، عليه أن يبدي القوة لا الضعف.

في الطريق، ما انفكَّ إياد يكرر على نفسه آخر الكلمات التي همسها رفاقه في المعتقل: دير بالك من العصافير. كان قد سمع سابقًا بوجود العصافير في المعتقلات والسجون، والآن عليه أن يحذر منهم، فالعملاء سيقتفون أثره أينما ذهب.

اصمد... اصمد... أوعك تعطيهم اللي بدهم إياه.

19

في سجنٍ من سجون الاحتلال، أواخر حزيران 1992

أرضية الزنزانة باردة حدًّا ترتعد معه عظام إياد كلما افترشها. الهواء زنخ بروائح السوائل التي تركها آلاف المعتقلين قبله - مزيجٌ من الدم والعرق والبول. هذا البؤس سيغدو مع الوقت مبعث قوة، يبني مناعته ضد عدوه. لكن الآن، في هذه اللحظة، باله مشغولٌ بنجاته، بكيف يتشبث بما تبقّى منه.

لا شيء سوى العتمة حوله، وعيناه تكيفتا معها. تطلّع حوله، في هذه الحظيرة الخانقة من مترين بمتر ونصف. هناك فرشة إسفنجية سمكها خمس سنتمترات -«البرش» كما يطلق عليها المعتقلون- وملاءتان تستخدمان كغطاء ووسادة. ولا ملاءة منهما كافية ليدّثر بها من صقيع الأرضية.

الجدران الأسمنتية المتشققة تحاوطه، تاركةً إياه معلّقًا بين الحياة والموت. أطبق عينيه وحاول أن يحلم. بين حينٍ وآخر تُفتَح كوّة الباب وتسقط صينية منه على الأرض، وللحظة ينسلُّ شعاع ضوءٍ يبعث الحياة في زنزانته رغم قبحها.

لم تقع عيناه على روحٍ أخرى عدا المحققين الذين يستجوبونه وجعلوه يفضِّل البقاء وحده في هذا العالم، في زنزانة الحبس الانفرادي مع الجرذان، مع الأدعية التي نقشها في قفصه الأسمنتي، مع سطلي البراز والبول.

حاول الاستدلال على تعاقب الليل والنهار من خلال مواقيت الوجبات. في الأيام السيئة، يطعمونه رغيف خبز بائت مع نصف ملعقة من اللّبن، وغَرْفَة مما يبدو لأول وهلة أرزًا وعدسًا لكنه في الواقع خليط «بيكة» من علف الماشية. وفي الأيام الجيدة، قد يرمون إليه بوعاء من الفاصولياء السوداء المسلوقة مع صحن مربى. وفي فعل مقاومة، يصف لهم كل وجبة بأنها لذيذة وشهية.

يحدث أحيانًا أن ينسى الحراس وجبةً، أو يبدِّلون وجبة الإفطار بالعشاء، فتنقلب المواقيت لدى إياد. مهما حاول جاهدًا تبيُّن مرور الأيام، ففي هذا المكان ما عاد للزمن وجود، وما عاد ثمة مستقبل ولا ماضٍ.

مع استدعاء المعتقل إلى استجوابه الأول، يكون قد قضى قبلها سنوات طويلة من العذاب تحت الاحتلال. كل جانب من جوانب الاحتلال، من حواجز التفتيش إلى منع التجول الذي ازداد في سنوات الانتفاضة، إلى تسهيل الفساد وإفقار الناس ورفع البطالة، كل تلك الجوانب ينسِّقها الاحتلال بدقة لكي يغرس إحساس الفشل والعجز لدى المعتقل ما إن يدخل عليه - لكي يكسر إرادته ويشظِّيه أيديولوجيًّا فيسهل على الحراس نيل اعتراف منه متى حان الوقت، لكي يغرسوا فيه

اليأس والشك في النفس، لكي يحولوا المناضل إلى عميل. لكن المعتقل يظل يتشبث بإيمانه أنَّ المناضل الذي عانى لن يذعن. وهكذا، بشفتين مطبقتين يحاول المعتقل مستميتًا إحباط مستجوبيه.

في تلك اللحظة، هدفٌ واحد فحسب يبقيه المعتقل نصب عينيه: رفض التعاون مع المحقق. وهذا الهدف يتحقق باستئصال المعتقل خوفَه من جوفه، بانتزاع أيَّ مَطْمحٍ له يبقيه خارج جدران السجن. الألم لن يُطاق، والاعتداءات على جسده ستغدو وحشية، لكنه عاهد نفسه على الصمود. يرفع ذقنه ويدفع بكتفيه للخلف، صمته سيخزق آذان أعدائه. وأيًا يكن الذي سيسمعونه من المعتقل سيكون أمرًا معروفًا لدى الجميع.

لقاء إياد الأول بالمحققين من الشاباك كان لطيفًا. زملاؤه في الزنزانة حذروه من تعرضه للضرب المبرح، لكن المحققين حاولوا نهج أسلوبٍ مختلف معه. أدخلوه إلى مكتب، «اقعد، بدك شي؟ إذا تعاونت معنا بيخلص الموضوع بسرعة وبترجع ع زنزانتك». ظل إياد صامتًا، وغادر المحققون المكتب.

بعدها بفترة وجيزة، عادوا وأخذوه إلى زنزانة الحبس الانفرادي. سبق أن سمع الكثير عنها، ومع ذلك لم يكن مهيئًا لها. الخوف حاوطه فيها من كل جانب، وانسحب من واقعه إلى أحلامه. ومن حلمٍ إلى آخر سيحاول قياس مرور الوقت، غير أنَّ الوقت تاه منه في الأشهر التي قضاها فيها.

سمع إياد كلمات عبرية، وسيتعلَّم لاحقًا معاني الكثير منها. لكن

في ذاك اليوم، تلك اللغة الغريبة النافرة ارتجَّت وهزَّت أعصابه، تقطعها صرخةٌ مروّعة بالعربية «اشلح!».

حين رفض إياد خلع ملابسه، تعرَّض للضرب المبرح على يد محققيْن. وحين كرَّر رفضه، تعرَّض للرفس إلى أن ما عاد بوسعه رفع رأسه. تركوه عدة ساعات، بعدها دخل عليه أحد المحققيْن وجلس، هذه المرة مع تكتيكٍ مختلف، واستهلَّ كلامه بنبرةٍ هادئة، «بعرف إنه إمك عَايْشِة، وعندك ثمان اخوات بنات». كان يجلس مترهلًا على الكرسي، فاشخًا ساقيه أمام إياد، «وما خلصت تعليمك الثانوي». قضى المحقق وقته يكشف حقائق من حياة إياد، لكي يدعه يعرف أنَّهم درسوه، أنَّ حياته كتابٌ مفتوح بين يدي سجَّانه.

هدف المحقق استخراجُ اعترافٍ من إياد، ولكي يحقق هدفه يتقمص عدة شخصيات، من المعتدي المبدع إلى الصديق الحنون. كل ما احتاج إليه إياد أن يلم شتات نفسه ويصمت. الصمت سلاحه الوحيد، وغالبًا سلاحٌ ناجع في إحباط محققه وتعطيل جلسة التحقيق.

يعرف المعتقل أنَّ بيد المحقق تجويعه، كسر ذراعيه، ثقب جلده، تشويه جسده. لكنه يعرف أيضًا أنَّ ليس بيد المحقق تحريك لسانه. مهما تعرَّض المعتقل لاعتداءات، مهما دنا من الموت، يظل الكلام فعلًا طوعيًّا. أسرار المقاومة ملكه وحده، إما يحتفظ بها أو يشاركها، ووفقًا لخياره سيتقرر إن كان سيمشي مرفوع الرأس، وإلى أي مدًى تبلغ قوة إيمانه في قضيته.

الكرامة والإيمان: هذان هما العمودان غير الملموسين اللذين يسعى المحقق إلى تحطيمهما.

المحقق الآخر دخل مترددًا، لم يكن واثقًا من نفسه كما الأول. وظيفته هذه، مثل أي وظيفة، تعتمد على شخصيته وتصميمه على تنفيذ المهمة. لكن معدل النجاح في هذا المسار المهني ليس عاليًا، وهذا المحقق يتساءل إن كان على قدر المهمة.

على المحقق أن يرفع التقارير إلى رؤسائه ويبقيهم على اطلاع بالمستجدات والاعترافات الجديدة أولًا بأول. أحيانًا يؤمن المحقق في عمله، وفي أنها مسألة حفاظٌ على الأمن القومي. وأحيانًا أخرى سيفاخر بعمله، لا سيما في الأيام التي ينتزع فيها الاعترافات بنجاح. وفي أحيان أخرى يمقت وظيفته: هل يؤديها على نحو جيد؟ هل هذه الطريقة المثلى في خدمة شعبه؟ هل ثمة مكانٌ آخر غير هذا؟

إن كان إياد سينجو من التحقيق دون المساس بكرامته، فعليه أن يفهم أنَّ المحقق رجلٌ ضعيف.

بتذكَّر كيف قضيت الليالي الأولى بعد اعتقال إياد. قاعدة مهمومة ع الكنبة، بحكي بيني وبين حالي «شو عم بيعملوا بأخوي هسّه؟» حسيت باليأس غصَّة في زوري، وضليتني ادعي ربنا من كل قلبي إنه ينجيه من إيديهم وما يتعرض لأبشع أنواع التعذيب.

ارتجَّت الغرفة على صوت الجلد يصفق بالجلد.

تلقى إياد صفعةً على وجهه، لتعلن رنَّتها بدء جولة جديدة من التحقيق. أمروه بأن يجثو على ركبتيه لكنه أبى. أمسك المحقق بكتف إياد ورفسه من خلف ركبتيه. سقط إياد للحظة، ثم عاود النهوض. تكرَّر

الأمر عدة مرات، إلى أن أمسك المحقق به أخيرًا، هزه بعنف، وأطاح به أرضًا.

انقلب إياد على ظهره، في غرفة بيضاء خاوية تمامًا خلا ضوءٍ ساطع وصورة تيودور هرتزل معلقة على الحائط في إطار خشبي. أدرك إياد من القصص التي سمعها أنَّ العصي الكهربائية سيحين دورها قريبًا، وسيصعقون بها خصيتيه. إلى أن يحين وقتها، فعل إياد كل ما باستطاعته للدفاع عن نفسه ضد الصفع على الوجه وركل معدته ولكمها. أحيانًا، يغطي المحققون رؤوس المعتقلين بأكياس كريهة الرائحة تدفعهم للتقيؤ على أنفسهم، لكن في تلك اللحظة تركوا إياد يبصر كل شيء. وفيما راحوا يواصلون ضربه، رأسه يُقذَف من جانب لآخر فتطوف عيناه الغرفة بأسرها، سيضحك إياد ضحكًا هستيريًّا كلما وقعت عيناه على أعينهم.

في قلبه، ما انفكَّ يهمس لربه «يا الله ارحمني، يا الله صبّرني».

في تلك اللحظات المصيرية، يدرك المعتقل أهمية حفاظه على تركيزه. فالرجل أمامه يملك أدوات قوية لكن روحه ضعيفة؛ ولا قوة أضعف وأوهن من هذه. لهذا على المعتقل ألا ينسى حقيقة الرجل أمامه إن كان ينوي النجاة من الفخاخ المنصوبة له كي يحولوه عميلًا.

هذه الفترة يسودها التلاعب الذهني. يستغل فيها المحققون ما يعرفونه عن المعتقل لكي يزرعوا الخوف في قلبه: سيغتصبون أمه وشقيقاته، سيغتصبونهن هنا أمام عينيه، أمام عيني والده. ثم يغادرون الغرفة، ويدخل آخرون. أحدهم يبتسم، يلمس المعتقل بلطف، ويعده

بالمال والفرص إن خضع لرغباتهم. رجلٌ واحد فحسب يقود التحقيق، أما الآخرون فيظهرون ويختفون. يستمر الحال على هذا المنوال ثمانية عشر يومًا، ثلاثين يومًا، مئة يوم، وأكثر.

استراحة الحمام لا تتجاوز أربع دقائق، واستراحة تناول الطعام ضعفها، يقتات فيها إياد على طعامٍ بارد وفاسد - 450 غرامًا من السمك واللحم زنخ الرائحة، وماءٌ ملوَّن يمررونه على أنه حساء أو شاي، ما يكفي من السعرات الحرارية لصدِّ منظمات حقوق الإنسان. وفي فترات الركود التي لا يتعرَّض فيها إياد للاستجواب، يُجبَر على الانتظار مع كيسٍ يغطي رأسه، واقفًا على أطراف أصابعه، معلقًا بحبلٍ مربوطٍ حول يديه خلف ظهره، مجبرًا على سماع أصداء ضرب المعتقلين وصراخهم من حجر التعذيب الملاصقة.

لكنه مدركٌ ما يفعلونه به، ويعرف أنَّ لا بد للمعتقل أن يبقي على تركيزه ثابتًا. عليه أن يكون مستعدًّا لكل مخططاتهم وإلا سيلتهمه الخوف. أي ردة فعل يبديها، أي كلمة ينطقها، سيستغلونها ضده، على الأخص في جلسات التحقيق الأولى حين يبحث المحقق عن معلومات عادية يعرف من خلالها شخصية المعتقل - ما يفضله وما يكرهه، ما الطعام المفضل لديه، حتى الجريدة التي يقرؤها أصدقاؤه وعائلته. كل معلومة منها سيستخدمونها سلاحًا ضده. كل شيء إلا الضحك. ولهذا، يضحك المعتقل ويضحك، ولن يعود واثقًا إن كان يضحك عمدًا أم جُنّ. وحين لا يعود قادرًا على الضحك، ينعزل إلى مكانٍ بعيد لا يسمع فيه قبح هذا العالم ولا يستشعر الألم المبرح الذي ينزله عليه.

هكذا، كلما علقوه رأسًا على عقب، من كاحليه، كلما قيدوه بالسلاسل ولووا جسده وحبسوه في «الخزانة»، كلما أنزلوا عليه أقصى صور التعذيب، يلوذ إياد إلى حوش بيته في القرية، حيث النسائم مفعمة بعبق الياسمين، يتخيَّل استقبال عائلته ورفاقه الفخورين بصموده في حال لم يعترف. أحلامه هي الملاذ الذي سيساعده على تحمُّل التحقيق.

كانت مواجهة غير عادلة بين طرفين غير متكافئين - سلاح إياد الصمت والضحك، وسلاح المحقق مجموعة واسعة من الأدوات وتكتيكات التعذيب. والصمود فرصة المعتقل الوحيدة للانتصار في هذه المواجهة.

في نهاية المطاف، اعترف إياد فحسب بالتهم التي زعم أنه ارتكبها، دون تسليم أسماء أو كشف معلومات مفيدة لسلطات السجن. ربما جاءت اعترافاته تحت ضغط التعذيب، أو بين جلسات التعذيب حين وضعوه في زنزانة مع رفاقٍ ثقات من حزبه السياسي الذين رحبوا به ترحيب الأبطال وواسوه وعالجوا جراحه. ربما تفاخر بفعلٍ أو اثنين من أفعال المقاومة أمامهم، ليكتشف بعدها بأيام أنهم ما كانوا رفاقًا، بل عملاء غرَّدوا كل ما عرفوه منه لسجانه. هذا التكتيك غالبًا يثبت نجاحه، إذ بعد أيام أو أسابيع من الصمت، يشعر المعتقل بالارتياح لوجوده في زنزانة بين رفاقه، فيتخلى عن حذره.

حين أعاد السجانون إياد إلى التحقيق، واجهه المحققون بكلماته.

20
1993

نادرًا ما تسنى لأم يوسف زيارة ابنها إياد خلال العام الأول من أسره. ومتى أتيحت لها فرصة الزيارة يفصلهما حاجزٌ شبكي، عدا تلك المرة حين رأته في أثناء عقد الجلسة التمهيدية في المحكمة العسكرية. ما إن رأته شهقت، إذ بدا شبحًا من ابنها لا ابنها الذي تعرفه. إياد، مكبَّل اليدين والقدمين، صاح عليها «أوعك يا حجة تعيطي قدام هالكلاب!»

صيحته بعثت فيها الحياة والصمود، وصاحت بدورها «أبدًا! ولو لساتني بقدر أخلِّف لكنت خلفت عشر رجال مثلك! السجن للأبطال!» هذه الصيحة تستحضرها أم يوسف ليلة كل زيارة.

تلك الزيارات أصبحت محور حياتها، فكرها مشغولٌ على الدوام بالبحث عن سبيلٍ لإطلاق سراحه. ومع الوقت تملكتها المرارة، وهذه المرارة تبدَّت في تصاعد وتيرة فقدان أعصابها على أطفالها، وفي تباطؤ نمط حياتها. ملاذها الوحيد وجدته في أرضها التي واصلت الاعتناء بها تمامًا كما اعتادت.

تناوب أولاد أم يوسف على مرافقتها في زياراتها إلى السجن، إذ

يسمح بالزيارة فقط لعدد محدود من أفراد العائلة. كانت أرسلين تزور إياد في أغلب الأحيان، وتتذكر كيف كان الفراق صعبًا عليهما كليهما، وكيف كان يقلق عليها عندما كانت والدتها تزوره بمفردها، وكيف اشتاقت إليه عندما سافرت لمدة ستة أشهر لزيارة شقيقاتها في دبي وجدة.

ما بين الزيارات، لا يغيب إياد عن بال أخته أرسلين، لا سيما حين تتناول وجبته المفضلة: طبق الفريكة من يد أم يوسف. ورغم أنَّ عامين يفصلان بينهما، ما يعني أنهما غالبًا تعاركا في طفولتهما، كانت أرسلين تنظر باحترام إلى أخيها الأكبر. تكلمت معي عن اعتناء إياد بها قبل اعتقاله، كيف ذات مرة هرع بها إلى الطبيب، يركض حاملًا إياها بين ذراعيه بعدما لدغها عقرب في طريقهما إلى الأرض. وبعدما فصل السجن بجدرانه بينهما، باتا أقرب إلى بعضهما.

كل لقاء بين إياد وعائلته يستحضر عاطفةً جياشة. إن انتابه الضعف ثبتوا أمامه وأمدوه بالقوة؛ ومتى ظهر قويًا، بكوا أمامه في نحيبٍ سرعان ما يخبو إلى دموعٍ صامتة. أم يوسف وحدها التي أبت أن تشاركهم هذه اللعبة. ظلَّت على صلابتها أمام ابنها، تحدق عنيدةً متحدية إلى أعين حراس السجن.

في السجن، بعد انتهاء مرحلة الاستجواب، ظلَّ إياد منهمكًا في التفكير بقضية فلسطين، يشغله سؤال واحد: كيف أحررها؟

شارك في حلقات الدروس في السجن. في بعضها، يناقش السياسة مع الرفاق، وفي حلقات أخرى يقرأ القرآن والنصوص الدينية. دوَّن الكثير من الملاحظات والتعقيبات والتأملات. كذلك، بدأ يرافق النزلاء

في أداء الصلاة. ورويدًا رويدًا، فيما راح يتأمل في الشخص الذي كان عليه، وفي تبدُّل المشهد السياسي حوله، أدار ظهره لحركة فتح، وبدأت أفكاره تتسق أكثر مع الجهاد الإسلامي. غير أنه لم يعلن رسميًّا انسحابه من فتح، في قرارٍ مدروسٍ منه أمل أن يفيده لاحقًا.

في أيامه الأولى في السجن، في أثناء حلقات الدرس التي يعقدها النزلاء ليلًا، يسند إياد ظهره للجدار مكتِّفًا ذراعيه وساقيه، ويركز متمعنًا في نقاشات الأسرى الأكبر منه عمرًا والأكثر منه درايةً وخبرة. أصغى إلى اختلافهم في تفسير تطوُّر حركة الجهاد الإسلامي؛ حيث قال البعض إنَّ الطلبة المصريين الذين قادوا المشهد النضالي في الستينيات والسبعينيات هم من أهم هذه الحركة، والبعض الآخر ربطها بنمو جماعة الإخوان المسلمين في غزة حيث انبثقت مباشرةً من رغبة فلسطينية بالخوض في أفعال مقاومة واضحة ضد الصهيونية.

في عام 1973، سمحت سلطات الاحتلال لجماعة الإخوان المسلمين بتأسيس جمعيات خيرية، مما سهَّل توسُّعها. وفيما توسَّعت الجماعة، تطوَّرت إلى ندٍّ مكافئ للسلطة الفلسطينية، لكنها ظلَّت متمسكة بدورها الإصلاحي الاجتماعي ونأت بنفسها عن الانخراط في مسألة فلسطين.

«في سنة 1982»، هكذا بدأ أحد أفراد الجهاد الإسلامي يحاضر على الحلقة، «البعض من جماعتنا، اللي ما عادوا مقتنعين بالمسار الإصلاحي، انشقوا عن الإخوان المسلمين في غزة وأسسوا الجهاد الإسلامي». وعلى خلاف جماعة الإخوان، اعتنقت الجهاد الإسلامي المقاومة المسلحة إلى جانب منظمة التحرير الفلسطينية.

إياد جلس يتعلَّم، لم يهمّه معرفة أصول الحركة بل معرفة إن كانت الحركة تملك الإجابة عن كيفية تحرير فلسطين. عمومًا، هذا التحوُّل السياسي لدى إياد ليس حالةً فريدة، فالحركات السياسية الأخرى، لا سيما حركة الجهاد الإسلامي والإخوان المسلمين، نجحت في جذب عناصر من فتح. فالإدراك العام عن فتح أنها حركة تفتقر إلى العمق الأيديولوجي، والجامع الوحيد بين عناصرها مفهومٌ سطحي عن الوطنية ونداؤها للمقاومة المسلحة، والمقاومة المسلحة لا أحد يشك في مصداقيتها.

ما وجده إياد مختلفًا في الجهاد الإسلامي أنها حركة جمعت بين مسار فتح الثوري لتحرير الوطن والنهج الديني. فالحركة شعارها: الإسلام... الجهاد... فلسطين: الإسلام بصفته المُنطَلق، والجهاد بصفته الوسيلة، وتحرير فلسطين الغاية. فإذا كان العنصر الفلسطيني المنتمي إلى فتح متدين أساسًا، والجهاد الإسلامي معنيّ بالإسلام وفلسطين، فالقفزة من الحركة الأولى إلى الثانية هيِّنة، ولم يستغرق إياد فترةً طويلة لكي يقفزها.

وفي حين أصرَّت جماعة الإخوان المسلمين على أسلمة المجتمع متطلبًا أساسيًّا سابقًا لتحرير فلسطين، تصوّرت حركة الجهاد الإسلامي التحوُّل خطًّا موازيًا لتحرير فلسطين الآن، وأولويةً أدنى. إياد آمن في نهج الحركة، واقتنع بانخراط الجهاد الإسلامي في التحرير أكثر من اقتناعه بالنهج الإصلاحي لدى جماعة الإخوان المسلمين المتمثل في جناحها حماس. كذلك، وعلى خلاف علاقات الإخوان المسلمين

الحميمة ببعض أنظمة الحكم العربية، انتقدت قيادة الجهاد الإسلامي تلك الأنظمة وحكوماتها لما تمنحه من ضمانات أمنية لدولة الاحتلال، واتهمتها بكونها مجرد دمى في يد الغرب.

انجذب إياد إلى طليعية الجهاد الإسلامي ومقاومتها المشروع الاستيطاني بالكامل، وأَسَرته الشخصية الكاريزمية لأحد مؤسسيها، فتحي الشقاقي، المنحدر من عائلة لاجئين تهجَّرت من قرية زرنوقة عام 1948. دفن إياد نفسه في كتابات فتحي الشقاقي، قرأ عن عبقريته ومشروعه، وأمل الخروج حرًّا من هذا المكان والالتقاء بالرجل الذي غدا كل ما يتمنى إياد أن يكون عليه.

تعلَّم الشقاقي مما جرى على قريته أنَّ الاستسلام لن يمنع التدمير والمحو، كذلك ألهمته الثورة الإيرانية ووجد فيها أنموذجًا ناجحًا للتغيُّر الثوري الشامل. وتلك كانت النقطة التي دفعت الإخوان المسلمين إلى تصنيف الجهاد الإسلامي على أنها حركة شيعية في يد إيران.

بدأ إياد يفهم عقلية الشقاقي ويُعجَب بتفكيره، وشاركه آراءه حول الثورة الإيرانية واحترامه حزب الله، المقاومة الإسلامية في لبنان الفعَّالة في توجيه الضربات لجيش الاحتلال.

ما انفكَّ إياد يسأل نفسه، مثلما سأل الشقاقي نفسه، لماذا هُزِم الفلسطينيون؟ ولماذا الآن؟ ومثل الشقاقي، وجد إياد نفسه مدفوعًا إلى نقد الاستعمار. فالفلسطينيون ليسوا عالقين في معركة كبرى بين الغرب والإسلام، بل منخرطون في نضالٍ ضد الاستعمار حيث الحركة الصهيونية ذراعٌ لها. قرأ إياد نصوص الشقاقي وأعاد قراءتها فيما واصل

انخراطه في حلقات الدروس في السجن. ومشدوهًا بفكر الشقاقي، آمن هو الآخر أنَّ الصراع ليس معركة دينية بين الخير والشر، بل معركة تاريخية بين المضطهِد والمضطهَد. عاش إياد لحظةً تنويرية حين وقع على تحليل الشقاقي بشأن الفلسفة الغربية، الفلسفة التي تزعم مطالبتها بتحرير الإنسان لكنها تقصد الإنسان الغربي حصرًا، لا الإنسان الفلسطيني ولا بقية البشر. ووجد إياد في هذه الفكرة العائق الأكبر أمام تحرير شعبه.

كذلك وجد إياد في النهج الفكري لدى الشقاقي وحركة الجهاد الإسلامي رفضًا لتطويع التكفير سلاحًا ضد الأعداء الداخليين. رمضان شلاح، الذي خلف الشقاقي في قيادة الحركة بعد اغتيال الأخير في 1995، قال: «نرى أنَّ سلاح التكفير أخطر أداةٍ تقتل الأمة من الداخل، وتقتل إيماننا بها». هذه التعاليم أثَّرت في إياد ودفعته إلى إعادة التفكير في نهجه السابق ضد العملاء.

بدأ تحوُّل إياد إلى الجهاد الإسلامي في 1993، قرابة الفترة التي التقى بها عرفات بإسحاق رابين وشيمون بيريز وبيل كلنتون في «روز جاردن» في البيت الأبيض وتوقيع اتفاق أوسلو. إياد، مثل كثير من الفلسطينيين، رفض الاعتراف بالاتفاق وهذا العرض المسرحي للسلام، وشعر مثلهم أنَّ عرفات سلَّم شعبه رهينةً للقرار الأمريكي الإسرائيلي دون أي مقابل.

المصافحة في روز جاردن غيَّرت الظروف في السجن، وأكثر السجناء تأثرًا بها هم عناصر فتح. فقد شعر بعضهم بالخيانة، أنهم تحملوا عذابًا لا يُطاق لأجل قضية تخلَّى عنها أصحابها. وآخرون داهمتهم مشاعر الهزيمة وأعلنوا وأد المقاومة. وعلى خلاف معتقلي الجهاد الإسلامي وحماس، فقد

وعد الاتفاق بإطلاق سراح معتقلي فتح. هذا الامتياز أدَّى إلى تصاعد التوترات بين المعتقلين ونشوء انقسامات في جبهة كانت موحدة. لكن، حتى مع الضربة القاصمة التي تعرَّض لها هدفهم المشترك في المقاومة، فقد بذل المعتقلون أقصى جهودهم في مساندة بعضهم بعضًا ضد عدوٍّ مشترك يبحث مليًّا في طرق لاستغلال الانشقاق الجديد.

كلٌّ من حماس والجهاد الإسلامي وقفتا ضد اتفاق أوسلو منذ لحظته الأولى. ولم يمضِ على المصافحة وقتٌ يُذكَر إلا ونظمت الجهاد الإسلامي جناحها العسكري سرايا القدس. سمع إياد بتشكيل سرايا القدس وهو في السجن، كما سمع بعملياتها المسلحة، من ضمنها عمليات استشهادية في عامي 1994 و1995 قتلت عددًا من العسكريين والمدنيين الإسرائيليين. في هذه العمليات، يطوِّق عنصر الجهاد الإسلامي صدره بحزامٍ ناسف، ويفجّر نفسه في مواقع محددة تبث الذعر في دولة الاحتلال.

في تقرير إخباري على تلفاز السجن، لمح إياد صور الدمار بعد عملية استشهادية، وصفَّق هو ورفاقه هاتفًا بإعجاب وحماس «اطَّلعوا! اطَّلعوا!» بينما صاح أحد رفاقه مبتهجًا «رجَّعوا لنا كرامتنا!». أمام هذه المشاهد غلب على المعتقلين الإحساس بأنَّ تلك العمليات نُفِّذَت لأجلهم وإسنادًا لصمودهم واستمرارًا للمقاومة. كما دفعتهم أيضًا إلى خوض نقاش حول المنفعة الإستراتيجية لتلك العمليات، وإن كان استهداف المدنيين مقبولًا - هذا إن كان المستوطنون في الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس مدنيين في الأساس أم أداة تخدم مباشرةً الاحتلال

العسكري. أيًّا يكن مآل تلك النقاشات، لم تقلل أبدًا إعجاب إياد بعمليات سرايا القدس. فقد أظهرت تلك النقاشات تميُّز سرايا القدس بتنظيمٍ عالٍ وفعالية يفوقان بمراحل أي عمل نفّذه سابقًا مع مجموعة الفهد الأسود. وفي غياب خيار السلاح التقليدي، رأى إياد في عمليات سرايا القدس الاستشهادية أداةً قوية وفعَّالة. وهكذا، بين خنوع فتح للمسار الدبلوماسي ما بعد أوسلو الممهَّد بالوعود الكاذبة، وعمليات سرايا القدس المقاوِمة، أصبح جليًّا لإياد إلى أي حركةٍ منهما ينتمي.

تفرَّجت ع المصافحة، وتفرَّجت على الاحتفالية كلها من شقتي في بروكلين، على «سي إن إن»، وبتذكَّر وقتها قديش كنت قلقانة وفرحانة بنفس الوقت، وبتذكَّر إني ضليت أسأل حالي كيف بدّو هالسلام يجي من غير جدول زمني واضح لتحرير أخوي؟ من غير رؤية واضحة لدولة فلسطين؟

رغم تلك الشكوك، انجرفت سيرين في الدراما الهوليوودية التي طبعت مراسم التوقيع. وما بين مشهدية البيت الأبيض في الخلفية ورجال الدولة تحت الشمس، أمام ثلاثة آلاف من كبار الضيوف، وأبَّهة ختام تلك اللحظة التاريخية، غفلت سيرين عن الكلمة الافتتاحية في خطاب رابين حيث شدَّد على مظلومية إسرائيل وعلى كونها الضحية في هذه السردية.

أُعلِن عن اتفاق أوسلو على أنه اتفاق يمهد لقيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة إلى جانب الدولة الإسرائيلية، والذي من شأنه أن يمهد الطريق إلى السلام. مع الوقت، باتت المفردتان «أوسلو»

و«السلام» مترادفتين، وبات الناس يطلقون على الاتفاق مسمى اتفاق أوسلو للسلام. غير أنَّ وثيقة الاتفاق لم تتطرق إلى السلام إلا مرات محدودة، بينما انصبَّ جلُّ اهتمامها في تنظيم حكمٍ ذاتي مؤقت. المسألة برمّتها مؤقتة، فترة عالقة ما بين زمنين، لكن لا وجود لإدراك عام عن أمد هذه الفترة، متى تبدأ ومتى تنتهي، وإلى أين الوجهة. اتفاق أوسلو، المتخفي خلف غطاء الحل، لم يقدم حلولًا بقدر ما أثار أسئلة أكثر حول صورة المستقبل.

أرسى اتفاق أوسلو قواعد السلطة الفلسطينية الجديدة وكيفية تعاونها مع حكومة الاحتلال في الشؤون السياسية والاقتصادية وفي المشاريع التنموية وفي التنسيق الأمني. وبعد طول انتظار، تحقق هدف الكيان الصهيوني منذ عام 1967 بتأسيس مندوبٍ فلسطيني ينوب عنه في إدارة شؤون الاحتلال. أما على الجانب الصهيوني، فقد سرَّعت الاتفاقية توطيد التعاون الإسرائيلي الأمريكي الأمني إلى حد كبير، إضافةً إلى تطوير قدراتها التقنية. وأعطت إشارة للشركات العالمية بأن بوسعها الاستثمار في الاقتصاد الإسرائيلي رغم استمرارية الاحتلال. وفي السنوات اللاحقة، في ظل اجترار العملية وتحوُّل المؤقت إلى الواقع الراهن، انفتحت السوق الإسرائيلية على العالم، وزادت ثروات الصهاينة وثروة دولتهم.

كان التحذير واضحًا للعيان. لكن صورة المصافحة في روز جاردن ما انفكَّت تتردد في أذهان الناس، وكانت أقوى من الكلمات المكتوبة في الاتفاقية، والتي لم يقرأها الكثيرون على أي حال.

بعد عام من مصافحة روز جاردن، سافرت سيرين إلى فلسطين في حزيران لكي تعرِّف ابنها باسل إلى عائلتها. كانت قد مرت عدة شهور على مجزرة الحرم الإبراهيمي في الخليل، حيث اقتحم مستوطن صهيوني أمريكي الجامع وأطلق النار على المصلين في أثناء الصلاة. تسعة وعشرون فلسطينيًّا قتلوا يومها، وأصيب 125. بعدها وقعت عمليتان استشهاديتان ردًّا عليها في نيسان. مع ذلك صمدت المصافحة، لكن بدأت الناس تشكك في المستقبل الموعود، وبات السؤال الأبرز: إن كان الاحتلال لا يميز بين المقاتلين والمدنيين، هل المقاومة الفلسطينية مجبرة أخلاقيًّا على هذا التمييز؟

كنت متحمسة كتير لأشوف أخوي إياد، ولا شي من اللي صاير بفلسطين كان رح يمنعني عن شوفته.

حاولت أم يوسف خفض توقعات ابنتها، وحذرتها: «الحرّاس ممكن يرجعونا من غير سبب». لكن سيرين ظلت مصرة على تعريف ابنها إلى أخيها. إياد كان معتقلًا في سجن جنيد في نابلس، حينها كانت لا تزال المدينة تحت سيطرة الاحتلال، ولن تنتقل إلى السلطة الفلسطينية إلا بعد عام، في 1995. لذا لم يكن التنقل بين كفر راعي وسجن الجنيد أمرًا عسيرًا للغاية، باستثناء بعض نقاط التفتيش المتحركة أو «الطيّارة» التي نُصِبت على إثر مجزرة الحرم الإبراهيمي وما ترتب عليها[1].

(1) الحواجز الطيّارة: الحواجز الأمنية التي تُنصَب بشكل مفاجئ وعادةً ما تكون مؤقتة، وذلك في أعقاب وقوع حدث أمني خطير أو حادث طارئ.

بعد وصولها إلى فلسطين بعدة أيام، وبعد ليلة مؤرقة، نهضت سيرين فجرًا لكي تستعد لرحلتها إلى نابلس. عواطفها كانت مشوَّشة. كانت سعيدة بعودتها إلى وطنها، ففي هذا البيت يسكن ماضيها الذي لا يزال حيًّا، يواصل التغيُّر والنضوج معها. لكن لحظة استيقاظها في هذه الساعة أربكتها لما فيها من ذكريات حلوة ومرة. فقد اشتاقت في نيويورك إلى صباحات كفر راعي المفعمة بالندى ونسائمها الباردة قبل أن تشرق الشمس وتغمر الصباحات بدفئها. اشتاقت إلى صياح ديك الجيران وحوافر حمار أمها تضرب الأرض بلطف فيما آلات الزراعة خاملة. اشتاقت حتى إلى حفيف مقشة أم فريد وهي تكنس الغبار عن درجات مدخل بيتها، اشتاقت إلى أصوات أشقائها وشقيقاتها وهم يستعدون للحاق بأمهم إلى الأرض. لكن هذا الصباح ذكَّرها أيضًا بكل العمل الشاق الذي لم تشتَق إليه، وبكل التقرحات التي عادت بها إلى البيت في مختلف مواسم الحصاد التي كدحت بها في أثناء طفولتها.

فركت سيرين يديها وعضت شفتها برقَّة، فيما راحت تفكِّر في اللحظة التي سترى بها أخاها. واقع وجودها على قارة أخرى يعني مرور سنوات دون التواصل مع عائلتها، غير أنَّ التعايش مع وجود أخٍ لها في السجن، وتصوُّر مختلف طرق الاعتقال والتعذيب والعقاب التي يعانيها، ضخَّمت مشاعرها بالانفصال عنه. اعتقاله يثقل عليها كلما مشت في شوارع نيويورك، أو تبسَّمت بين الأصدقاء، أو تأملت أضواء المدينة ليلًا. الذنب يستنزفها ولحظاتها السعيدة تتآكل. المسافة هنا

ما عادت تقاس بالوحدات المترية، بل بالمسافة بين الاعتقال والحرية. واللحظة، تاقت سيرين إلى زيارة أخيها الصغير.

خطت سيرين على رؤوس أصابعها في الظلام، بين إخوتها النائمين. باسل كان مستغرقًا في النوم. كل إخوتها وأطفالهم (من عادوا ذاك الصيف) ناموا على فرشات أرضية في غرفة واحدة. تحممت سريعًا، ارتدت بنطال جينز وقميصًا ذا أكمام قصيرة، وقضت وقتًا في تسريح شعرها القصير الرطب. بعدها انضمت إلى أم يوسف في المطبخ حيث تعد الشاي. بيت الخلاء تحوَّل إلى حمَّام (وإن لا يزال المرحاض على طراز الحمام العربي) وبات موصولًا بالمطبخ الكبير الذي بُنِيَ مكان حظيرة الحمار والأرانب بعد سفر سيرين إلى أميركا. المطبخ يضم خزائن خشبية وأدوات باهظة الثمن حينها، مثل الثلاجة والفرن، لكن نادرًا -إن ليس أبدًا- ما جرى استخدامها. الآن، بعدما أُرفِق بيت الخلاء والمطبخ ببقية البيت، ما عاد مخيفًا الذهاب إليهما ليلًا.

احتست الأم وابنتها الشاي واستعدتا للمغادرة. وضعت أم يوسف الحجاب على كتفيها، عيناها السوداوان قاتمتان ومثقلتان بانتفاخات محيطة بهما لم يسبق لسيرين أن رأتها على أمها.

ضلّت إمي تطّلع عليّ وقالبة وِجِهها طول ما احنا قاعدين، وقبل ما نقوم صيّحت عليّ: «يلّا روحي اشلحي هالأواعي والبسي شي واسع، وجيبي معك حجاب». تنهدت وما رديت عليها مع إني ما كنتش راضية عن كلامها. وبعدين كنت شايفة إنه كل ملابسي على مقاسي تمام، وما عنديش أصلًا شي واسع! فاضطريت أستعير قميص حريري واسع

بكمين طوال من أختي. اتطَّلعت عليّ إمي ورجعت تصرخ "وينه الحجاب؟ جيبيه!" بس *هالمرة أصرّيت على موقفي وما عملت اللي بدها إياه.*

قررت أم يوسف ألا تصعِّد النقاش هذا الصباح تحديدًا، ولربما ستصغي ابنتها إلى أخيها متى التقيا.

سيارة التاكسي التي كانت ستقلهم إلى نابلس وصلت. حملت سيرين ابنها باسل بلطف دون أن توقظه، وانتشلت حقيبة الحفاضات التي وضَّبت فيها احتياجات طفلها الأساسية. رفعت أم يوسف الحجاب الأبيض عن كتفيها وشدَّت وثاقه حول رأسها، لون الحجاب متناسق مع عباءتها بلون الخردل. كلتاهما تعجلتا نحو السيارة، وبعد ساعة أوصلتهما إلى بوابة سجن جنيد. السجن عبارة عن مستشفى غير مكتمل بدأ الجيش الأردني بناءه إلى أن سقط تحت سيطرة الاحتلال عام 1967، وجرى إعادة توظيفه إلى سجن في عام 1980.

سارت أم يوسف بخطى واثقة نحو حارس البوابة، تلحقها سيرين تحمل باسل بين ذراعيها. سحبتا بطاقات الهوية، من ثم فتشهما الحارس وأدخلهما المجمع. سارتا معًا إلى غرفة حيث تنتظر العوائل الزائرة، وانتظرتا تسعين دقيقة قبل وصول دورهما لأنَّ سلطات السجن تسمح لعدد قليل من العوائل بالدخول كل مرة، وكل زيارة تستغرق نصف ساعة. في تلك اللحظة، باتت سيرين أقرب ما يكون إلى رؤية أخيها بعد أربع سنوات من الفراق. بدا لها وكأنَّ الزمن يتمدَّد في هذه الغرفة.

حذرتني إمي من اللي رح أشوفه جوّه، وإني ما رح أقدر أعبط أخوي وأضمه لصدري. حاولت أهيئ حالي نفسيًّا للموقف، ولما إجى دورنا نادى الحارس علينا حتى ندخل.

إمي فاتت بالأول وأنا لحقتها. ووقفنا نستنى أنا وإياها.

الغرفة مقسومة نصفين بسياج شبكي سميك يفصل الزوار عن المعتقلين. فُتِح الباب من الجهة المقابلة ودخل منه المعتقلون. إياد كان الثالث، وما إن لمحته سيرين شعرت بالدمع يخز عينيها. ابتسم إياد وحاول جاهدًا الحفاظ على رباطة جأشه، لكن بضع قطرات من الدمع ترقرقت في عينيه أيضًا. كلٌّ منهما وضع يده على السياج وتلامست خناصرهما عبر ثقوب الحاجز الشبكي، وفي هذا التلامس تشابكت مشاعرهما. عجزت سيرين عن إيجاد الكلمات؛ فعجزها عن عناق أخيها الصغير، شعورها بدنوِّه الشديد منها مع البعد الشاسع الفاصل بينهما، قد حطّم قدرتَها على استيعاب منطق هذا العالم.

أخوي هو اللي كسر الصمت بيننا وحكى «كيفك اختي؟» ورديت عليه «أنا منيحة». كنت ابتسم وأمسح الدموع عن عيوني.

اطّلع إياد على باسل اللي كنت شايلته بحضني، وابتسم له ابتسامة من الدّان للدّان[1]. كان فرحان كتير بشوفته، بس شفت في عيونه الألم من عجزه، كيف إنه مش قادر يحمل ابن أخته ويحضنه؛ حتى في سجن مثل سجن جنيد ممنوع الأطفال يلمسوا المعتقلين.

---

(1) ابتسم ابتسامة من الدّان إلى الدّان: ابتسامة عريضة غمرت وجهه من شدّة الفرح، حتى بدت كأنها تمتد من الأذن إلى الأذن.

اتطّلّع عليّ إياد وسألني «إيش أخبارك؟ احكي لي عن حياتك في نيويورك».

لما حدا يسألني هيك سؤال بلاقي حالي على طول بحكي قصص طويلة عن حياتي، بس بهديك اللحظة كل اللي قدرت أقوله «إيش بدك تسمع حبيبي إياد؟»

«احكي لي عن حياتك هناك، كل اللي سمعته من إمي شوية أخبار عنك، بس أنا بدي أسمع قصصك. تتذكري آخر مرة شفنا فيها بعض؟ ما كانش عندنا وقت نحكي بالمرة».

هزّيت راسي وكمّل حكي «مشتاق لقصصك سيرين، مر علينا سنين ما سمعت شي منك، تتذكري هديك الأيام؟»

أكيد بتذكر! بس ما قدرت اقولها. فلتت مني ضحكة وحسيت بالدموع على شفايفي.

«على فكرة، لما اعتقلوني كنت لابس جاكيتك الجلد».

«عن جد؟»

«آه عن جد، بتمنى يرجعولي إياه لما يطلعوني من هون»، وابتسم لي.

حاولت أبيّن إني متفائلة وقلت، «ان شاء الله». وقتها كان مرّ عليه في السجن سنوات ولهلّا ما طلع عليه حكم قضائي، وهالشي عطاني أمل. بس في هديك اللحظة تحديدًا، ما قدرت أتوقع إنهم رح يفرجوا عنه.

«يلّا، خبريني عن أحوالك».

حكيت بسرعة. حاولت أشارك أخوي أحداث حياتي في آخر سنتين، عن حياتي في نيويورك وعن شغلي في الأمم المتحدة ودروس اللغة الإنجليزية في كلية باروش. وحكيت له كمان عن حياتي مع زوجي محمد لأنه سأل عنها، وبالطبع ما حكيت له إلا الأمور السطحية من حياتي معه وما جبت سيرة أي شي من الجانب المظلم لهالحياة. خبَّرته إنه أخته الكبيرة في الحفظ والصون وفش داعي يقلق عليّ. بعدين هو حكى لي عن حياته من وقت افترقنا. ومع إنه كان نحفان كتير وذايِب مش ضايِل منه إشي، أكد لي أنه بخير.

فجأة غَيَّر الموضوع وسألني «ليش مو لابسة حجاب، سيرين؟» وأنا ضحكت.

«عن جد بسألك. بيصرش تلبسي هيك أواعي. في المرة الجاي اللي بدك تزوريني فيها بتلبسي حجاب».

كلام إياد أحبط سيرين، وبدل أن تكشف إحساسها له فلتت منها ضحكة متوترة أخرى.

كل مَرَة في القرية عندنا صارت تلبس حجاب، وهالعادة بلَّشت بعد الانتفاضة. وقتها الفلسطينيين صاروا يحسّوا إنه هزيمتهم قدام الصهاينة سببها ضعف الوازع الديني عندهم. أصلًا ما كنّاش متشددين دينيًا قبل الانتفاضة، وجماعات زي حماس والجهاد الإسلامي ما كانش إلها وجود بحياتنا اليومية. صلاة الجمعة مثلًا كانت مناسبة اجتماعية أكتر منها دينية، كانوا الزلام يزبطوا حالهم، ويحلقوا، ويلبسوا البدل وينزلوا ع المسجد لحتى يناقشوا آخر المواضيع السياسية والاجتماعية.

بتذكَّر منيح لما بلَّشت عيلتي تحس بضغط الالتزام الديني، في الأول على إيد إختي بعد ما تجوزت وراحت على جدة، وبعدها على إيد أخوي إياد بعد ما تديَّن.

أصرّ في زيارتي يومها إنه ما رح يقبل أزوره كمان مرة إلا وأنا لابسة حجاب.

كاد وقت الزيارة ينتهي، فكفَّ إياد عن متابعة موضوع الحجاب. وحين استشعر دنو رحيل أمه وأخته، تبدلت نظرته من حازمة إلى مرهقة؛ تراجع خطوة وترهَّل ظهره ورقَّ صوته المشوب باليأس. كان في حاجة ماسة إلى الخروج من هذا المكان، وناشد سيرين أن توكِّل محاميًا جيدًا وتفعل كل ما بوسعها لتحريره.

حين انتهت الثلاثون دقيقة نادى الحارس على الجميع بالمغادرة، ورافق المعتقلين خارج الغرفة. إياد كان آخر من يغادر. شاهدته سيرين يمضي بعيدًا عنها، التفت للوراء، وابتسم لها ولأم يوسف ابتسامةً عريضة مع ضحكة صبيانية، واختفى بعدها عن أنظارهما.

مغادرة السجن كانت أشقّ على سيرين من مجيئها إليه. كما لو أنها تركت بضعةً من جسدها، أو حتى روحها، في ذاك المكان. إحساسها بالذنب لمواصلتها حياتها لا يُطاق، لكنها تحمل طفلها بين ذراعيها، تعيش حياةً بأسرها في أميركا، لذا وجدت نفسها مجبرة بعد يومين على حشر قصة أخيها في حجرةٍ خلفية من حجرات عقلها، بينما يحصِّن قلبها جدرانه يومًا بعد يوم، وتشقُّ الحياة الطبيعية طريقها.

21

1995

في نيويورك، واصل الناس حول سيرين تفاؤلهم بشأن اتفاق أوسلو، الفلسطينيون وغير الفلسطينيين على حد سواء. أصواتٌ ناقدة محدودة شذَّت عن هذا التفاؤل العارم. أما سيرين، فقد ارتبكت مشاعرها بين موجتين متضاربتين - أحيانًا تجرفها موجة الأمل، ثم تجرفها موجة مضادة ما إن تتصل بأهلها وتسمع منهم سرديةً مختلفة. في تلك الأيام كانت بطاقات الاتصال الخارجي رخيصة مما ساعدها على مداومة الاتصال. فتعرفة الاتصال بأهلها في فلسطين كانت تحسب ضمن تعرفة الاتصال بدولة الاحتلال التي تُعامَل معاملة الشبكة الأوروبية لا الدول العربية. ولحسن حظ سيرين، لم تميّز شركات الاتصالات الأمريكية بين الأرقام الفلسطينية والإسرائيلية على الشبكة.

غالبًا ما جادلت سيرين والدها وأمها على الهاتف بشأن الوضع الفلسطيني الراهن. سيرين رأت نفسها تتمتع بمنظور أفضل للسياسة الفلسطينية من خلال عملها في البعثة الأردنية، وأخذت موقفًا داعمًا لاتفاق أوسلو. أرادت من أهلها أن يمنحوا الاتفاق فرصة ووقتًا لكي

تتحقق مفاعيله على الأرض. لم ينخرط أبو يوسف طويلًا في الجدال معها، وغالبًا يذعن لها بكلمة «بنشوف». لكن في منظوره، ما دام ابنه معتقلًا في سجون الاحتلال، فلا تقدُّم للوضع الراهن ولا سلامٌ في الأفق.

أم يوسف أخذت موقفًا أشد عنادًا ضد تفاؤل ابنتها. ما فتئت تجادل سيرين في المكالمات بينهما، وتحاول أن تريها حقيقة اتفاق أوسلو على الأرض، وكيف علّق حياة الناس. «بيقولوش إشي عن المستوطنات، ولا عن خطط تجميدها أو تفكيكها، بالعكس هالاتفاق عم يشرّعها!» هذا التشريع تحقق بإشارة حكومة الاحتلال إلى الإسرائيليين بأن بوسعهم فعل ما يشاؤون إلى أن تتفق جميع الأطراف على كيفية تعريف نهاية الاحتلال.

أكيد بعرف إنه حكومة الاحتلال عم تسمح باستمرارية بناء المستوطنات، وقاعدة بتزيد عددها كمان، بس وقتها كنت بحاول أعيش ع أمل إنه يتغير شي.

كيف لسيرين أن تعرف وقتها أن السنوات السبع التالية ستشهد ارتفاع عدد المستوطنات بنسبة 42٪ (إلى 115 ألف مستوطن)، نسبة أعلى مما شهدته السنوات السبع ما قبل اتفاق أوسلو.

كان يفترض بالاتفاق أن يشكل خطوة للأمام نحو دولة فلسطينية على تماس (إسرائيل). لكن بعد عامين، في 1995، في المرحلة الثانية من المفاوضات وتحت مسمى اتفاق أوسلو الثاني، اتفق كلا الطرفين على تقسيم الأراضي المحتلة إلى ثلاثة أقسام. هكذا، وبينما نظام الأبارتهايد

والبانتوستونات في جنوب إفريقيا كان يتفسَّخ، بدأت بانتوستونات الفصل العازلة تُشيَّد في فلسطين، ويُثبَّت واقعها بالجدران وحواجز التفتيش وأبراج المراقبة وإخضاعها تحت نظام أمني فعَّال.

تمزُّق الأرض على هذا النحو أثخن جراح أبو يوسف وأم يوسف، وزاد عليهما عوائق زيارة ابنهما في السجن.

سمعت بهالتغييرات في الأخبار ومن شغلي في البعثة الأردنية، وقريت شويّة مقتطفات من الاتفاق، بس ما قدرتش أستوعب حقيقتها. اللغة المكتوبة فيها لغة عقيمة، وحسيت حالي كأني عم أقرأ عن أرض مش أرضي وعن ناس مش أهلي.

سينشأ عن هذا الاتفاق ثلاث مناطق إدارية فلسطينية: «أ»، «ب»، «ج». المنطقة «أ» هي الأصغر، ومقسَّمة إلى إحدى عشرة منطقة منفصلة، وتخضع أمنيًّا وإداريًّا بالكامل للسلطة الفلسطينية، ويُفترَض أن تشمل معظم مراكز المدن الفلسطينية الكبرى عدا القدس وعشرين بالمئة من مدينة الخليل الكائنة في جنوب الضفة الغربية وتضم خمسمئة مستوطنًا يهوديًّا. المنطقة «ب» مقسَّمة إلى 120 منطقة منفصلة، وتخضع إداريًّا للسلطة الفلسطينية وأمنيًّا للاحتلال، وتضم 440 قرية ونواحيها. في المنطقتين «أ» و«ب» الشرطة الفلسطينية هي المسؤولة عن استتباب الأمن العام.

المنطقة الأكبر هي المنطقة «ج»، كتلة متصلة تضم 60٪ من الضفة الغربية، بما فيها القدس، ومفترض أن تخضع مدنيًّا وأمنيًّا بالكامل لسلطة الاحتلال، بحيث تضمن بقاء المستوطنين في الضفة الغربية تحت نطاق السلطة الإسرائيلية.

في المنطقة «ج» منع الاحتلال الفلسطينيين من تشييد أي بناءٍ جديد.

«إنتي شايفة شو عم بيصير هون، سيرين؟» سألت أم يوسف ابنتها وهي محبطة، «عم يفصلونا عن بعض». فقد رسَّخت التقسيمات الجديدة نظامًا بنيويًّا كان قد بدأ يتشكَّل أثناء الانتفاضة على نحوٍ غير رسمي، وأقام جيش الاحتلال المزيد من حواجز التفتيش للحفاظ على هذه البنية الجديدة، وأم يوسف فهمت بسرعة ما يجري. «واحد من معارفنا في طولكرم كان جاي يزورنا الأسبوع الماضي، وحتى بعد ما أخد طريق الشوارع الترابية لقى حاجز تفتيش. هاد بتسميه سلام!؟»

حوارات سيرين مع أهلها هي ما تمنح الأخبار طابعها الواقعي. ومع ذلك، حتى في تلك اللحظات وسيرين على الهاتف، يغمرها الارتباك وتعجز عن رؤية المستقبل الذي رأته أمها.

«طول محنا قاعدين في المنطقة «أ» ما حدا إله دعوة فينا، بنقدر نروح على عرابة ونرجع، بس هاد هي حدودنا، ورح تشوفي بعينك! شوي شوي رح يخنقونا! أختك أرسلين محظوظة إنها بتدرس بنابلس وما بتنطر عند حواجز التفتيش لفترة طويلة، بس اللي يدرسوا في بير زيت بيمرُّش عليهم يوم من غير حواجز تفتيش طيَّارة. مش معقول! بدهم يجبرونا نضل دايمًا قريبين ع بيوتنا ونتحرّكِش من مكاننا!»

على الطرف الآخر من المكالمة، جلست سيرين تصغي إلى فورة الغضب في صوت أمها.

حاولت أواسي إمي، «معلش يمّه، ان شاء الله هالوضع مؤقت».

«مؤقت؟ عم تحكي زيهم يا مجنونة!» ما عرفتش شو أرد عليها.

«هيني عم أخبرك شو صاير! بدل ما يفتحوا الحدود ع أراضي 48 عم يصعبوا علينا الواقع اللي عايشينه كل هالسنين. الحواجز اللي وقفتنا الأسبوع الماضي في طريقنا ع نابلس ما رح تروح ع محل، بدها تضل حتى يتحكموا فينا حتى واحنا في أراضينا ومناطقنا. شي ما بيتصدق!»

مع الوقت، بات اعتياديًّا اضطرارهم إلى تفادي الطرق الجانبية والتحويلات المتزايدة الناشئة عن توسّع المستوطنات الصهيونية؛ تلك الشوارع التي امتدَّت وتفرَّعت في سائر الضفة الغربية، ويُمنَع على الفلسطينيين عبورها.

واجه أهل كفر راعي قيودًا كثيرة على حرية التنقل، مع ذلك هم أحسن حظًّا من أهل قرية يعبد التي لا تبعد عنهم سوى عدة كيلومترات، في المنطقة «ب». إذ حتى يصل الناس إليها من كفر راعي، لا بد أن ينعطفوا في طريقٍ طويلة ويعبروا عدّة حواجز. كذلك هم أحسن حظًّا من أهل دير أبو ضعيف، أو أي قرية أخرى واقعة على شرق جنين. فتلك القرى قُطعَت تمامًا عن جنين بشارعٍ من شوارع المستوطنين الممنوعة عليهم. شوارع المستوطنين ستكبر وتتطور إلى بنية تحتية تمتد على 795 كيلومترًا، تتفرَّع كما الثعابين في أعماق الضفة الغربية، فتقسِّم القرى بدقة جراحية عالية بعدما صادرت ما يزيد عن 80 كيلومترًا مربعًا من الأرض الفلسطينية الزراعية التي تؤمِّن حياة العديد من أهالي القرى.

«خلاص سيرين، احنا صامدين، تقلقيش علينا»، قالت أم يوسف حين ما عاد من كلامٍ يقال. صمتت سيرين لوهلة وقالت «ربي يحميكم»

في محاولة يائسة منها لطمأنة أمها. وما إن أقفلت سماعة الهاتف، أثقل القلق كاهلها.

في الوقت اللي بيقسّم فيه الاحتلال أرض فلسطين كل يوم، ومع الأخبار اللي صرت أسمعها من إمي وأبوي، بلشت أشوف أوسلو على حقيقتها: سرقة أرض متخفية ورا قناع اتفاق السلام. ورح تمر سنين طويلة قبل ما أشوف بعيني كيف هالقيود فصلت عيلتي عن ابنهم الأسير، عن أخوي إياد.

22

نظام سجون الاحتلال، حوالي العام 1996

قضى إياد أول عامين من اعتقاله في سجن جنيد. لكن في عام 1995، جرى تسليم السجن للسلطة الفلسطينية إثر انتقال نابلس من السيطرة الإسرائيلية إلى الفلسطينية وفق بنود اتفاق أوسلو، وذلك لوقوعها ضمن نطاق المنطقة «أ». وبالتالي كان ينبغي إطلاق سراح إياد فورًا كما ينص القانون الدولي -متى «تحرَّرت الأرض». لكن عوضًا عن ذلك، نقل الاحتلال المعتقلين كافةً إلى سجون أخرى في فلسطين 48. نقلوا إياد إلى سجن شطة، تمامًا خارج الحد الشمالي للضفة الغربية، قرب قرى شطة وبيسان الفلسطينية المحوَّة، مما زاد صعوبة الزيارة على عائلته. وبعد قضائه شهورًا في سجن شطة، نقلوه إلى سجنٍ أبعد في الصحراء الجنوبية، إلى سجن النقب. ومن سجن النقب، عادوا ونقلوه شمالًا إلى سجن مجدو، الكائن في موقع قرية لجّون المهجَّرة قرب شطة، قبل إرغامه على العودة جنوبًا إلى سجن شيكما في بلدة المجدل المهجَّرة، والتي تُعرَف اليوم بعسقلان.

تعمَّد الاحتلال نقل المعتقلين بين السجون لكي يكبحوا نشوء

علاقات قوية وعميقة بينهم، ولتفتيت أي محاولات للتنظيم الداخلي والتعبئة.

بعدما انتهت الأشهر الأولى من التحقيق، بدأ إياد يدخل روتين الحياة في السجن. لكن بسبب رفضه الموافقة على صفقة اعتراف بالذنب، تطلب الأمر سنوات قبل أن يُحكَم عليه ويعرف مدة محكوميته. العملية ذاتها عذَّبته، وما انفكّ يبدِّل فرق الدفاع عنه. أي رجلٍ قد يفقد عقله في هذه المتاهة من التنقلات ما بين السجن والمحكمة، في الجرِّ من سجنٍ إلى آخر. فكل انتقال، كل زيارة محكمة، يرافقها تحقيقٌ جديد يهدف إلى إضعاف معنويات المعتقل وكسره ودسِّ الخزي فيه. في البداية، أمل إياد أن تمنحه هذه التنقلات، على الأقل، فرصة رؤية أراضٍ لم يرَها من بلده، أن تمنحه فرصة استنشاق هواءٍ نظيف. لكن هذا الأمل سرعان ما يتبدّد ما إن يركب «البوسطة» التي تقل المعتقلين.

في صبيحة كل انتقال، حراسٌ من وحدة نحشون من جيش الاحتلال يلتقون بإياد في ساحة الانتظار. يتمتع حرَّاس هذه الوحدة ببنية جسدية فولاذية، مدرَّبين على تقنيات كراف ماغا القتالية، وحريصون على استغلال عضلاتهم في إجبار السجناء والمعتقلين على التعري وتفتيش أجسادهم، ولا يتوانون عن صفع المعتقل والتهجم عليه بالشتم والضرب المبرح.

«بكرة عندي جلسة محكمة». قال إياد لزميله في السجن، والذي ردَّ عليه: «الله يعينك». أومأ إياد بصمت، فهو صدقًا في أمس الحاجة إلى عونٍ إلهي.

تقلَّب إياد ليلتها في فراشه، أكثر من المعتاد، مدركًا الإذلال الذي ينتظره بعد ساعات. في صبيحة اليوم التالي، رافقه الحارس إلى حرّاس وحدة نحشون. عرُّوه وفتَّشوه إلى جانب معتقلين آخرين. وبعدما ارتدى إياد ملابسه، كبَّل الحراس يديه بشدة ودفعوه مع الآخرين صائحين في صبرٍ نافد «يلَّا! يلَّا!».

نفخ إياد ساخطًا، وهذا كان كافيًا لينال ضربة هراوة على ظهره أفقدته اتزانه وأوقعته أرضًا. حارسٌ حمله من كوعه ودفعه داخلًا.

إياد وبقية المعتقلين -معذَّبو الأرض- جلسوا معًا مكبَّلي الأيدي ومصفَّدين بالأغلال إلى مقاعد معدنية باردة، في عربة تبدو من الخارج شبيهة بباصٍ سياحي أو شاحنة بهيكلٍ معدني ضخم. الرائي من الخارج يشاهد نوافذ زجاجية معتمة، لكن في الواقع، النوافذ مغطاة داخليًّا بألواح معدنية مثقوبة بثقوب بالغة الصغر تسمح بدخول الهواء والضوء. المساحة داخل العربة مقسمة إلى أقفاص، قفص حيث يجلس حراس وحدة نحشون بمعداتهم مع كلاب الشرطة، وقفص يضم ما يزيد عن عشرين سجينًا فلسطينيًّا، والقفص الأخير يضم أخطر المعتقلين المعزولين. هذه هي «البوسطة» التي صارت تلقَّب بالقبر المتحرِّك.

مصفَّدون بالأغلال وعلى مقاعد متلاصقة، بالكاد يتسنى للسجين التحرُّك إلى وضعية جلوس مريحة. كل مرة يحاول إياد التزحزح يشعر بقيد يديه يحز جلده. تطلَّع حواليه، أحد رفاقه يحاول اجتياز ألم هذه اللحظة بإغماض عينيه؛ آخرُ طأطأ رأسه واستغرق في التفكير. أما إياد، فشفتاه تتحركان، يتلو في صدره آيات من القرآن الكريم.

الرحلة التي يُفترَض ألا تأخذ أكثر من ساعتين تنجرُّ إلى إحدى عشرة ساعة، لا يستطيع إياد فيها تناول الطعام ولا الشرب ولا التمدُّد ولا التبوُّل.

هذه هي حال تنقلات أغلب السجناء والمعتقلين متى نقلوهم إلى سجون أخرى أو إلى جلسات المحاكمات أو المستشفيات، ووجهة هذه البوسطة ليست بنهاية الطريق، بل محطة توقُّف. فجلسة إياد ستعقد في محكمة سالم، شمال الضفة الغربية، ما يعني أن الرحلة من سجن شيكما إلى عسقلان تقف أولًا عند سجن رملة حيث عليه قضاء الليلة في «المعبر»، بعدها يُنقَل إلى موقع قرية الجلمة الممحوَّة قرب حيفا، حيث سيقضي ليلة في سجن الجلمة. في هذه المعابر إما يُرمَى إياد في حبس انفرادي، وإما يُكوَّم في غرفة تكفي أربعة ويحتشد فيها عشرون. تلك الزنازين المؤقتة تحت الأرض، ببردها القارس شتاءً وحرِّها الخانق صيفًا، مهملة على نحوٍ أسوأ من زنازين الاستجواب. تغزوها الفئران والصراصير، وتطفح بواليعها المتهالكة ببقايا الفضلات البشرية.

قضى إياد تلك الساعات غاضبًا من عدم تلقيه حكمًا حتى الآن. فالحكم سيعفيه من جحيم البوسطة، ومن جحيم التنقلات التي قد تستغرق ثلاثة أيام بين محطات التوقُّف، وما يتعرَّض إليه فيها من التفتيش العاري والضرب المبرح.

لدى وصوله محكمة سالم، أودع إياد في معبرٍ آخر، كتلة أسمنتية من مترين بمتر ونصف، بنافذة صغيرة، مع عشرين سجينًا محتشدين فيها. وقف إياد مع الآخرين في هذه المساحة الضيقة من الصباح الباكر حتى الثالثة عصرًا، تحت رقابة حارس منع عليه الذهاب إلى الحمام أو الصلاة

أو مجرد الحديث مع رفاقه. أي محاولة تواصل مع سجين آخر ستعرِّضه للضرب، أو تنزل عليهم عقابًا جماعيًّا بإغلاق تلك النافذة الصغيرة. بعد انتهاء الجلسة، نُقل إياد إلى سجن شيكما، لتستغرق رحلة حضور جلسة المحكمة خمسة أيام بالمجمل بدلًا من ساعات محدودة.

قضاء إياد أعوامًا في السجن بلا حكم عنى اضطراره إلى خوض هذه التنقلات مرات لا تحصى، سلوانه الوحيد منها تمثَّل في احتمال رؤية والديه في بعض تلك الجلسات.

أما خارج جحيم التنقلات، فقد عاش إياد حياةً روتينية في السجن؛ هذا الروتين لم ينظمه السجّان فحسب، بل أيضًا المعتقلون الفلسطينيون على اختلاف فرقهم السياسية. ولعلَّ أفضل ما في روتين حياة السجن الراكدة عودة إياد إلى تناول طعامٍ مقبول، أبعد ما يكون عن العفن الذي اضطر إياد إلى أكله في شهور الاستجواب. كان بوسعه هو ورفاقه شراء الطعام والمواد الأساسية من مقصف السجن الذي يديره السجناء وطهي ما يشاؤون، من ثم يتشارك الجميع تناول الطعام بعد طبخه. فالمقصف يبيع اللحم والدجاج والخضراوات والسجائر والصابون والشوربة والشاي والقهوة سريعة التحضير وسكر وحلوى.

صحيح يستلم المعتقلون مبالغ مالية من عائلاتهم لشراء احتياجاتهم من المقصف، لكن هذه الأموال تجمعها قيادات الفرق وتديرها منعًا لأي تفاوت في المزايا المالية بين الأسرى والمعتقلين. قدرة السجناء هذه في الاستجابة لظروف السجن كمجتمعٍ متماسك، ساعدتهم على تجاوز ظروف الاعتقال.

في أغلب الأيام ينأى إياد بنفسه عن الاختلاط بمن حوله، رغم صعوبة هذا النأي في زنازين سجن عسقلان المزدحمة في القسم «12» حيث قضى إياد وقته في زنزانة ضمن عشرة معتقلين، أو في القسم «د» الذي نُقِل إليه لاحقًا حيث تضم زنزانته 18 معتقلًا. كان يعرف الجميع، والجميع يعرفه ويحترمه، مع ذلك ظلَّ انتقائيًّا بمن يختلط معهم. ظلَّ متحفظًا، متيقظًا، قليل الكلام والمشاركة. فالفخ الذي نصبوه له في باقة الغربية لا يزال حاضرًا في ذهنه، وكذلك خدعة «غرفة العصافير» مع من ظنهم رفاقه في النضال.

في سجنه الأسبق، جنيد، تعرَّف إياد إلى شخص في الجهاد الإسلامي، وهناك بدأ يتعمَّق في الدين بصفته مسارًا ثوريًّا. اعتاد الاستيقاظ قبل انبلاج الفجر لكي يؤدي صلاة التهجد، ينتظر بعض الوقت ثم يصلي الفجر. استيقاظه مبكرًا يعني خلوده إلى النوم أبكر من أغلب السجناء، وتفويت مشاهدة التلفاز والمشاركة في الأنشطة الاجتماعية آخر الليل.

قبل تخليه الكامل عن تلك الأنشطة، تعلَّم إياد أنَّ المعتقلين ليسوا أولياء صالحين، والصورة التي حملها عنهم من منظوره خارج السجن ما عادت ذاتها من منظوره داخله. ففي السجن تجد الرجال يحبون ويكذبون ويخونون ويسندون بعضهم بعضًا، تمامًا كما الحال في الحياة الطبيعية، اطرح منها فحسب الحرية المتاح لهم التمتع بها خارجًا. رغم خجل إياد وتحفظه، ما انفكَّ زملاؤه يحاولون توريطه في لهوهم، ويخدعونه أحيانًا إلى مشاهدة صور لنساء شبه عاريات في التلفاز. بذل جهده في تفادي تلك الصور لأنَّها تخلق لدى المعتقلين رغبات جامحة لا

سبيل إلى تفريغها، وتلك كانت مشكلة المشاكل في السجن. بات الجنس هوسًا، والأحلام الجنسية تراود السجناء، حتى الصالحين منهم. هذا الهوس هو أيضًا أداة من أدوات سيطرة الاحتلال في السجن.

بعد صلاة الفجر، وبعد قدوم الحرَّاس للعد، يمارس إياد ساعةً من الرياضة، بعدها يقضي ساعة حرة في ساحة السجن -«الفورة»- حيث يُسمَح للأسرى بالتجمع في ساحة صغيرة مغطاة بشبك حديدي في حال نسي الأسرى أن الاحتلال يقف حاجزًا بينهم وبين السماء.

في هذا الوقت الحر، حتى بعد ممارسة إياد الرياضة في الصباح الباكر، كان سيلهو أحيانًا بلعب كرة السلة أو الطائرة. وفي أحيان أخرى، يقضي وقته مع رفاقه يمشون في دوائر حول الساحة، ودومًا كان ينجذب إلى الرجال المتدينين بصرف النظر عن انتمائهم السياسي. في رفقتهم حلم بالحرية - حرية مغادرة السجن والعيش تحت الاحتلال العسكري! باتت الحرية الشاغل الآخر لدى الأسير الذي يحاول يائسًا تذكّر الحياة خارجًا. مع ذلك، حتى في أحلامه، أدرك إياد أنَّ الحرية ليست في متناول يده، وأنَّ صفقة تبادل الأسرى هي تذكرته الوحيدة للخروج من هذا السجن.

ما إن ينقضي الوقت الحر يعود إياد إلى زنزانته، حيث يحاول كسر الرتابة بطرائق مختلفة. ولفترةٍ قصيرة، تولى مهمة غسل الملابس. لم يكن العمل نفسه السبب وراء انخراطه هو أو غيره من المعتقلين فيه، بل لكونه فعلًا من أفعال المقاومة. فالعمل في السجن يشكِّل نظامًا بريديًّا، يعتمد فيه التواصل بين المعتقلين على العاملين في تلك الوظائف لما تهيئه

لهم من حرية تنقُّل ضمن جدران السجن. وفي هذا النظام، المعتقلون العاملون هم الأوردة التي تسري من خلالها شبكة التواصل في السجن، إذ يحمل المعتقلون رسائل لفظية، ويتعامل الواحد منهم بحذر شديد خشية إيصال الرسالة إلى الأذن الخطأ.

الأوقات التي لم يعمل فيها إياد قضاها في حلقات دراسة الفقه، وكتابة صفحات وصفحات من الملاحظات والتأويلات والتفسيرات للنصوص الدينية التي يقرؤها. استغرق كليًّا في قراءة القرآن وتلاوة الآيات وتدوين المزيد من الملاحظات، واعتاد كذلك الصيام. مع الوقت، بات إياد يتحلَّى بالهدوء والصبر، يتحدَّث بلطف وجديَّة - أبعد ما يكون عن أيامه الأولى في الاعتقال التي قضاها سريع الغضب وثائر الأعصاب ويختلق المشاكل مع زملائه وإدارة السجن.

وفي لحظات نادرة، في المناطق العمياء خارج أعين كاميرات المراقبة، كان سيجد الوقت هو ورفاقه لتلقي الدروس في الفنون القتالية واستخدام المتفجرات.

في عام 1997، بعد خمس سنوات من اعتقاله، وعددٍ لا يحصى من تنقلات البوسطة، نال إياد أخيرًا الحكم.

تُظهِر السجلات من المحكمة العسكرية أنَّ إياد اتهم بقتل خمسة عملاء، من ضمنهم ابن الفرَّان والشباب الثلاثة الآخرين في المغارة، واتهم بالانتماء إلى تنظيم الفهد الأسود وارتكابه جرائم الخطف والتحقيق والاعتداء على مقيمين يُشتبَه بعمالتهم، كما اتُّهم بحمل السلاح. تزعم

الإجراءات أنَّ إياد اعترف ببعض تلك التهم، رغم تضارب شهادته مع شهادات أخرى وخضوعها للمراجعة عدة مرات. اُنتزعَت هذه الاعترافات تحت التعذيب، ونطقت المحكمة بحكمها دون دليلٍ دامغ أو تأمين مسار قضائي طبيعي.

لكن هكذا الحال في محاكم الاحتلال العسكرية، حيث «الطبيعي» يُعاد تعريفه.

لا شيء مما سبق مهم، المهم الإجراءات التي سجلها كاتب المحكمة: «في جلسة الاستماع الممتدة من 4/ 8/ 1992، وبعد استلام لائحة الاتهام، أقرَّ المتهم قائلًا «أعترف بكافة التهم الموجهة إليّ»».

وبناءً على هذا الاعتراف، تلقَّى إياد أبو شقارة حكمًا سيضمن بقاءه في السجن مدى الحياة: 250 عامًا.

23

1999

مكتبة
t.me/soramnqraa

بعد آخر مرة إجيت فيها ع فلسطين، قبل أربع سنين، أخيرًا قدرت أرجع لأنه حماي كان مريض وبينازع عفراش الموت، لولا هيك ما كان زوجي وافق إنه أنزل ع فلسطين. هالمرة إجوا معي اولادي الاتنين - باسل اللي دخل الروضة، وزيد اللي كان بعده صغير ع المدرسة. وصلت ع فلسطين مع بداية الربيع، قبل أسابيع من وصول زوجي، وضليتني فيها لنهاية الصيف.

حينذاك كانت شبكة نظام السجون قد تبدلت بعد اتفاق أوسلو. إياد معتقل في سجن شيكما في عسقلان ضمن الخط الأخضر، مما زاد صعوبة الزيارة على أم يوسف أضعافًا مضاعفة. ففي كل زيارة، تحتاج أم يوسف إلى تقديم طلب للحصول على تصريح بزيارة السجن يسمح لها بمغادرة الضفة الغربية - تصريح يتطلب أسابيع حتى يصدر، هذا إن صدر أساسًا.

حرصت قبل ما أسافر ع فلسطين إني أؤمن حق زيارة إياد في السجن، ولجأت لشبكة معارفي اللي أسستها مع الصليب الأحمر ومنظمة

العفو الدولية من خلال شغلي في البعثة الأردنية في الأمم المتحدة. وقبل سفري، بعثت لهم بالفاكس طلب بمنحي حق زيارة شخصية يعطيني وقت أطول مع إياد، ووافقوا عليه.

في ذاك الربيع، ركبت سيرين مع ابنيها الطائرة من مطار (جى أف كى) إلى مطار عمّان، قضوا ليلةً في بيت إحدى صديقاتها، وفي صبيحة اليوم التالي استقلوا سيارة تاكسي إلى وادي الأردن. وصلوا إلى موقف محطة الحافلات التي تقل المسافرين إلى معبر جسر ألنبي - الجسر المؤدي إلى فلسطين الذي يربط الضفة الشرقية لنهر الأردن بالضفة الغربية. ورغم وصولهم باكرًا، وجدوا طوابير طويلة من الناس تنتظر عبور الجسر، مع حقائب سفر وصُرَر وأكياس بلاستيك مليئة بأغراض لن يجدوها في فلسطين.

لو كنتَ واقفًا يومها هناك لما استطعت تمييز أول الطابور من آخره، هذا إن كان وصف «طوابير» ينطبق هنا. الكل متروكٌ يعافر وحده، كل مسافر عليه تمرير حقائبه على التفتيش، ختم أوراقه، دفع رسوم خروجه من الأردن، ودفع أجرة كرسيه على الباص مع رسوم إضافية على كل حقيبة وكيس. أمام كل شباك تحتشد جموعٌ من البشر على هيئة هرمٍ مقلوب، وتنتظر. ورغم نسائم ربيع مارس العليلة التي خففت الوضع على سيرين، لم تطِق الوضع؛ فالشمس بدأت تحتد، ووجود حرَّاس المعبر خانق.

أخيرًا ركبنا باص من باصات جت الأردنية، وأخدت منّا دقيقتين بس من المحطة ع بوابة المعبر في الجانب الأردني. يا بييه... الباصات

بتشوفها واقفة قدامك عطول الطريق، كلها عم تستنى، إحنا كمان الباص وقف فينا وعطول الشوفير طفَّى المحرك، وأنا وهالولاد قعدنا نستنى بالساعات.

انتظرت سيرين مع طفليها ثلاث ساعات لكي يقطعوا نهر الأردن الجاف - النهر نفسه الذي خاطرت أمها بحياتها وقطعته مع سيرين وأختيها حين كان نهرًا جارفًا.

الانتظار مؤلمٌ ومبرح. لا أعني الألم الوجوديّ إثر انتظارك ساعات على بعد رمية حجر من وطنك وأرض أسلافك، بل الألم الجسدي الدنيويّ لانتظارك ساعات في باص. ألمٌ ينبعث من إحساسك بتفسُّخ جسدك ببطء في الحرِّ الخانق، من تصبب العرق، من ملاصقة الأجساد بعضها ببعض، من الأنفاس الكريهة والغبار وأدخنة المحركات والأطفال المتململين.

لا يمضي وقتٌ طويل إلا ويبدأ الراكبون بالتساؤل إن كانوا سيعبرون اليوم إلى جانب الاحتلال من الجسر. وإن عبروا الجسر، هل سيسمح لهم بدخول فلسطين، أم سيعيدونهم إلى حيث جاءوا على أوهى خطأ في الأوراق؟ هذا السؤال كفيلٌ بأن يشغل بال الركاب طيلة ساعات الانتظار. أما الاحتلال، على الجانب الآخر، يظل على هوسه بالبوابات والأقفال بما يكفل تعزيز واقع الحدود وتكريسه، خشية أن يأتي يومٌ يبتلع فيه النهر الجاف وشجيرات التلال تلك الحدود.

عجلات الباص بدأت تدور بمنتهى البطء على الجسر -أعلى النهر- ولولا رتل الباصات المنتظرة لما استغرق عبور الجسر لحظةً أطول من

عبور خاطرٍ على البال. تأملت سيرين الأرض المهجورة ما بين الأردن وفلسطين المحتلة، ورأت قشور البيوت التي هُجِّر أهلها في حزيران 67. بدت البيوت أطلالًا من زمنٍ بائد، غير أنها ليست بأطلال من زمن بائد، بل البقايا الحية للتهجير المستمر.

اقترب الباص نحو الجانب الآخر من الجسر الواقع تحت سيطرة الاحتلال. حراس الحدود هم أول تواصل للراكب مع الإسرائيليين في هذه الرحلة، يشاهدهم من نوافذ باص جت الكبيرة. حراس الحدود في ذاك اليوم كانوا ثلاثة: شابة يافعة بشعر مُجَعَّد وابتسامة عريضة وشابان متوردا الخدين، والثلاثة يعطون انطباعًا بأنهم مراهقون فرُّوا من المدرسة وليسوا جنودًا مدرَّبين تدريبًا عاليًا على حماية أمن الوطن. بعد تبادل قصير بين السائق الأردني وضباط الاحتلال، سُمِح للباص بدخول فلسطين المحتلة. تلتفت سيرين وراءها، نحو البوابة المؤدية إلى الأردن، وترى لافتةً ترحب بالمسافرين إلى المملكة الهاشمية. تعود وتنظر أمامها، فترى لافتة ترحب بها إلى معبر جسر ألنبي. هذا كل ما تقوله اللافتة، لا إشارة أبدًا إلى الأرض التي يؤدي إليها هذا الجسر. لافتة مبهمة، كما لو أنَّ الأردن متصل بأرضٍ مجهولة، إلى أرض لم تُسمَّ بعد. فحكومة الاحتلال لم تضمّ الضفة بعد، لذا لا تستطيع تسميتها. والفلسطينيون لم ينجحوا في فرض حقهم على تسميتها، بالرغم من وعود اتفاق أوسلو الخادعة بالدولة الفلسطينية الموعودة.

أخيرًا وصل باص سيرين إلى محطة الحافلات الإسرائيلية. مئات من الناس وصلوا قبلها في انتظار دورهم خارج الباصات، لذا كان

عليها البقاء في الباص في انتظار انتهاء إجراءاتهم. حين جاء دورها غادرت الباص، وهرع الراكبون معها للتعرف إلى حقائبهم، بعدها وقفوا متشبثين بحقائبهم المحمولة في انتظار عبور حقائبهم الكبيرة من التفتيش. مقتنياتهم ستسبقهم وتدخل فلسطين قبلهم بوقتٍ طويل.

بعدها بساعتين شقَّت سيرين طريقها إلى المعبر. بشرتها لزجة، طفلاها يتصببان عرقًا، يتلويّان، يرجوانها أن تحملهما بين ذراعيها. بذلت سيرين أقصى جهدها كيلا تفقد أعصابها معهما، وظلت تعطيهما قطعًا من الحلوى تكسب بها الوقت. عبرت حاجز التفتيش الأول، فتشها الضابط ثم سلمته تصريحها وتصريح طفليها. قلَّب الضابط صفحات التصاريح، أعاد إليها تصريح طفليها وامتنع عن إعادة تصريحها. سلَّم التصريح لضابط مسلَّح في ملابس مدنية، وبدوره رماها في كومة تصاريح أخرى. بعد ربع ساعة، نادى الضابط على قائمة أسماء وسلمها تصاريح من الكومة دون طرح سؤال. أما البقية، من ضمنهم سيرين، استجوبهم الضابط عن سبب الدخول، وأين يقيمون، وعمَّ يفعلونه في حياتهم. بعدما أجابت سيرين أعاد إليها التصريح ومضت قدمًا في المعبر، حيث عادت وسلمت تصريحها لضابط حدود آخر أخبرها بأن تنتظر، وغادر مع كومة من التصاريح.

وقفت سيرين وجلست وقطعت الممر جيئة وذهابًا، مرة تلو المرة. طفلاها ينوحان نزقين، ومع ذلك حافظت على رباطة جأشها. عقص شعرها لم تتأثر بالتعرق، كتفاها مشدودتان، عيناها تضيقان وتحدقان بجسارة إلى ضابط الأمن.

بعد برهة شرعت إحداهن في الحديث معها، الحديث كان متحفظًا واقتصر على التعريف والرسميات، واكتنفه الشك. فهنا، في الحدود، الكل يلزم حذره من العملاء الذين ينبشون أيَّ سببٍ يمنع الفلسطيني من الدخول. لهذا، رغم طبيعة سيرين المنفتحة والميّالة للدردشة، قطعت الحديث من أوله مع تلك المرأة وتحججت بانشغالها بالاعتناء بولديها المتوترين، ثم اشترت ماءً وشوكولا من الكشك الواقع على المدخل المقابل لمقصورة الهجرة. وكما الحال في حواجز التفتيش في أنحاء الضفة الغربية، يقف الكشك تذكيرًا بحتمية الانتظار في نقاط العبور.

بعدها بساعات عاد الضابط، ونادوا على سيرين لكي تتجه إلى الشباك رقم واحد. ضابط الهجرة كان شابة تُدعى أوريل، شابة يافعة وعلى الأغلب مراهقة. لا أحد من الضباط في ذاك اليوم بدا أكبر من عشرين عامًا. ابتسمت أوريل ابتسامة زائفة، ردَّت عليها سيرين برفع زاويتي شفتيها، لتبدأ أوريل في طرح أسئلتها: ما مهنتك؟ ما سبب الزيارة؟ أين تقيمين؟ سيرين أجابت عن تلك الأسئلة ذاتها مع الضابط السابق، لكن عليها أن تحتمل هذه الدقائق المعدودة.

في نهاية المطاف، ضابطة الهجرة التي إما نفدت منها الأسئلة أو أخيرًا اقتنعت بالأجوبة، ختمت التصريح وسمحت لسيرين بالعبور. ما إن تجاوزت سيرين الضابطة، تنهدت تنهيدةً طويلة أدركت معها إلى أي حد حبست أنفاسها كل تلك الساعات. ثم أدركت أمرًا آخر ما إن خطت خارجًا: الاحتلال سلبها يومًا من عمرها. مصرّةً على ألا تسمح لهم بسلب ثانية أخرى من حياتها، هرعت بطفليها إلى باص أريحا، حيث

تحتاج إلى عبور نقطة السيطرة الفلسطينية، لكن العبور جاء سريعًا. بعدها جمعت حقائبها التي بعثها الإسرائيليون في باص منفصل، وأخيرًا استقلت مع طفليها سيارة تاكسي إلى كفر راعي.

بعد يوم من وصولي للضفة اتصلت ع الصليب الأحمر في القدس، وبلغوني بوجود نسخة من الموافقة على تصريح الزيارة الخاصة، وإنه لازم أتوجه فورًا على سجن عسقلان.

تاني يوم الصبح صحينا قبل الفجر - وما بظنش حدا فينا نام ليلتها، كلنا كنا قلقانين، خصوصًا أنا لأنه كان عندي أمل كبير بهالزيارة. قررنا إنه إمي والولاد يجوا معي، بس أبوي رفض يجي معنا بحجة إنه العدد كبير أصلًا، وما بده يقطع كل الطريق ويحرموه بعدها من حق الزيارة.

أبو يوسف، البالغ من العمر سبعين عامًا، حليق الذقن وشعره البني العسلي لا يزال على شبابه خلا خصل فضية، غلبته المرارة من صحته الواهنة التي صيَّرت زيارات السجن بالغة الصعوبة عليه. فهو يعاني السكري، والقلب كذلك، إذ سافر قبل أعوام إلى أميركا لإجراء عملية جراحية للقلب. والآن، بات يقضي أيامه في دشداشته البيضاء، يدخن السجائر ويتناوب على زيارة أصدقائه واستقبالهم في بيته.

الساعة أربعة الفجر ركبنا الفورد ع جنين[1]*. وبس وصلنا جنين لحقنا بباص الصليب الأحمر - كانت وسيلة النقل الوحيدة من الضفة*

---

(1) يُشاع في اللهجات الفلسطينية استخدام كلمة «فورد» للإشارة إلى وسيلة المواصلات التي تنقل الركّاب بين مدن الضفة الغربية، وهي سيارة صفراء اللون تشبه الـ«ڤان»، تتّسع لسبعة ركاب بالإضافة إلى السائق. وقد سُمّيت كذلك نسبةً إلى شركة «فورد» الأمريكية المصنّعة لهذا النوع من السيارات.

الغربية المخصصة لزيارات السجون. الوضع كان على عكس السنين الماضية لما كنا بكل بساطة نركب سيارة تاكسي وتاخدنا على سجن جنيد بنابلس.

الفوضى أبدًا مش طبيعية. الناس أُمَم فوق بعض، وصرنا ندفّش بالناس لعرفنا نوصل ع الباص. إمي كانت متعودة على هالفوضى، بس مع باسل وزيد الوضع صار أصعب بكتير عليها. الولدين مش نايمين منيح وساعات نومهم انقلبت من السفر وتعبانين وزهقانين. المهم، هيك قضينا الرحلة والباص يدفش فينا يمين وشمال على الطريق. آخر شي وصلنا على نقطة تفتيش جنب حقل ذرة على حدود طولكرم في فلسطين 48. وهناك خلونا نستنى ساعتين في الباص.

كان شهر آذار، وصقعة الفجر مش قادرة أتحملها. الباص مكركع وفِش فيه تدفئة وشبابيكه معلقة مش راضية تسكّر[1]، والوسخ مرمي بكل مكان. عددنا مية بني آدم مكدّسين زي السردين بباص مفروض يحمل بس تلاتين أو أربعين راكب. النسوان قاعدين على حضن نسوان، والرجال واقفين طول الوقت، حتى درج الباص صار مقاعد. بتذكّر ست كانت راكبة معنا وتحمل ابنها الرضيع حتى تعرفه على أبوه المعتقل، وشيخ ختيار يا دوب قادر يوقف مستني يشوف ابنه. بعدها بفترة بلغونا إنه بنقدر نطلع من الباص ونستنى بره لحتى يسمحوا لنا نمرق نقطة التفتيش. وإمي إجت مجهزة حالها.

---

(1) مْكَرْكَع: تُستخدم في اللهجة الفلسطينية لوصف الشيء القديم والمتهالك. وأصل الكلمة هو «قَرْقُوع» أو «مْقَرْقَع»، حيث تم استبدال القاف بالكاف.

كانت جايبة معها حرام كبير وفرشته على التراب جنب الطريق، وفطرنا خبز وجبن وخيار وفطاير زعتر. العوايل اللي معنا عملوا نفس الشي.

على الساعة ثمانية سمحوا لنا نمرق نقطة التفتيش. أخدنا الباص على سجن عسقلان، وأوّل ما بلَّش الباص يبطئ سرعته، وقبل ما يوقف، هبّوا الكل زي المجانين وصاروا يتسابقوا؛ هلا أول واحد بيطلع بيكون أول واحد يسجّل اسمه عند شباك التسجيل في السجن، لأنك إذا كنت الأخير مش رح يجي دورك لزيارة المعتقل إلا الساعة أربعة العصر، ومش رح ترجع بيتك إلا بعد نص الليل. أما إذا سجلت بكّير فبتقدر تلحق الباص على وقت أبكر وترجع بيتك قبل ما تغيب الشمس.

الرجال والولاد ما اهتموش لحدا، بعضهم نطّ من الشبابيك، وبعضهم داس ع النسوان والولاد الصغار. أما أنا فما سمحت لحالي إني استنى مع البقية قدام شباك التسجيل.

خبَّرت إمي إنه عندنا تصريح زيارة خاصة وفش داعي نسجِّل. النسوان اللي معنا أول ما سمعوا كلامي تمسخروا عليّ، وقالوا عني هبلة، «مش رح يقبلوا بتصريح الزيارة الخاصة تبعك، أحسن لك توقفي في الصف زيك زينا وما تضيعيش وقت».

قطعت الطابور ومشيت دغري على شباك الزوار عند المدخل الرئيسي، حاملة بإيدي جوازي الأمريكي وهويتي تبعت الأمم المتحدة، وكتاب رسمي منهم إني موظفة عندهم. الحارس اللي قاعد ورا الشباك

زهقان ولا همّه كل هالناس اللي واقفة تستنى. ولما أخيرًا رفع عينه اطَّلع عليّ، قرفان منّي كأني عم ألوث الهوا اللي بيتنفسه. حكيت معه بالإنجليزي وخبرته إنه عندي تصريح زيارة خاصة، وعلى طول سبّ عليّ ولعنّي وصرخ علي إني انقلع من وجهه. عصَّبت وخبَّرته إنه عندي رسالة من الصليب الأحمر، ولا اقتنع. صيَّح مرة تانية علي وقال لي أرجع أوقف بالطابور مثلي مثل كل هالناس.

لو قبلت بالزيارة العادية مش رح يكون عندي غير عشرين دقيقة أشوف فيها إياد بغرفة مزحومة بأربعين معتقل وعوائلهم، ومستحيل تسمع صوتك بين هالناس. الكاميرات موزعة وتراقب كل حركة حتى تمنع أي محاولة تهريب، وكل عيلة يوقف على راسها حارس.

تصوَّر حالك في هيك وضع، كنت رح تنهار مو هيك؟ صار لي خمس سنين مش شايفة أخوي، وبدهم يعطوني بس عشرين دقيقة!

إمي ما خاب أملها لأنّه أصلًا ما كانش عندها أمل، وما توقعت الصهاينة يقبلوا بتصريح الزيارة الخاصة. قالت لي أبطِّل بُكا وأوقف بالدور، بس ما رضيت أسمع كلامها. أما النسوان اللي حذروني فصاروا يطَّلعوا عليّ بنظرة «مو قلنالك» وما قدرت أتطَّلع بعيونهم. حاولت أعرض على الناس اللي بأول الدور مية دولار عشان يعطوني محلهم بس ما رضيوا. كان كابوس عن جد، وما في إلا الصليب الأحمر يطلعني منه!

كنا في مكان مقطوع، صحراء ترابية ومغبرة وفش طريق إلها إلا الطريق اللي جينا منها. خبّروني إنه في تلفون عمومي في مكان قريب

من السجن، ركضت عليه وطلبت مكالمة مدفوعة للصليب الأحمر في القدس على حساب المستقبل. زلمة فلسطيني رفع السماعة، وبعد ما شرحت له الموقف اللي أنا فيه حكى لي إنه رح يتصل ببعض الناس وطلب مني استنى عند التلفون العمومي عشرين دقيقة، وأرجع أتصل. تخَيَّل! يطلب من مَرَة بمنطقة مقطوعة تستنى عشرين دقيقة! بس ما كان بإيدي أعمل شي، ما كنتش مصدقة أصلًا اللي عم بيصير!

قعدت استنى، استنيت نص ساعة ورجعت اتصلت. الزلمة ع التلفون بلغني أنهم تواصلوا مع آمر السجن، وأنه لازم أروح على مدخل الموظفين.

نفذت تعليماته. ولما وقفوني الحَرَّاس خبَّرتهم إنه عندي تصريح من الصليب الأحمر في تل أبيب، وبدي أقابل آمر السجن. هالمرة ما حدا صَرَّخ في وجهي. نادوا على الآمر، وأوَّل ما إجت قالت لي أروح ع مدخل الزوار. ومن هناك استلمَتْ الآمر بطاقات الهوية وسمحت لي بالدخول، واعتذرت عن اللي صار وحكت إنه أي شخص إجى معي مسموح له يدخل في الزيارة. أبوي زعل كثير لما خبرناه.

إمي ما توقعت يسمحوا لها تدخل معي لأنَّه التصريح يحمل اسمي واسم ولادي بس. حتى أبوي خبَّرها قبل ما نطلع، وهي عم تستعد للرحلة، إنه ما تتعب حالها وتطلع معنا. هي ياما حاولتْ تطلِّع موافقة عن طريق أكثر من محامي وما نفعش معها. بس إمي راسها يابس، وما كانت رح تتخلى عن هالأمل الصغير.

أول ما فات أخوي ع الغرفة الخاصة انصدمت بمنظره؛ ما كنتش

مصدقة إنه واقف قدامي وبقدر ألمسه، من فرحتي دخت ورحت أعيط وأضحك. وحبيبي إياد أول ما شافني عبطني من كل قلبه. تسع سنين. تسع سنين من آخر مرة عبطنا فيها بعض.

اتطَّلع علي وقال، «يا مجنونة! والله إنك مجنونة!» خبّرنا إنه أول ما سمعهم ينادوا على أصحاب الزيارة الخاصة واسمه ما كانش بين هالأسماء قعد يبكي. ما كانش مصدق إنه حتى مع معارفي وإصراري ما قدرت أجيب التصريح. بس لما نادوا على اسمه بعدين، قال في قلبه «أختي المجنونة عملتها!»

أوَّل ما تركني صار يتطَّلع فيني، أنا أخته اللي كنت دايمًا أطول منه. بس هسّه، بعد كل هالسنوات، الولد المراهق اللي تركته وراي كبر وصار رجّال، وأنا صرت قصيرة قدامه.

اتطَّلع عليّ وقال «كيف الجبل بيصغر؟» يعرفش إنه هو صار الجبل في عيلتنا.

الزيارة الخاصة مميزة. قعَّدونا في غرفة مكيفة مع طاولة وكراسي، وجابوا لنا مشروبات غازية وعصير برتقال وكيس مليان بعشرين نوع من الحلو والكوكيز والشوكولاتة للولدين. وبين وقت والتاني، يدخل علينا واحد من الحراس ويسألنا إذا محتاجين أي شي. ما بعرف إيش قالوا لهم الصليب الأحمر في تل أبيب عنا!

قضينا ساعتين مع أخي يومها. ابتسامته اللي من الدّان للدّان أكبر من كل ابتساماتنا، وإمي طايرة من فرحتها. ضلّه إياد يبوس إيديها وجبينها؛ هاي كانت المرة الأولى في سنوات اعتقاله، في كل زياراتها إله،

اللي تقدر فيها تلمسه وتعبطه وتبوسه. شوفتهم بيتواصلوا مع بعض بهالطريقة، من غير حاجز يفصل بينهم، لحظة عمري ما بنساها.

لكن الفرحة كانت ناقصة.

سأل إياد أمه «ووين الحاج؟»

«أبوك كان تعبان هاليومين، وافتكر إنه ما رح يخلونا ندخل ونشوفك». أجابته أم يوسف.

فرحة الزيارة ناقصة من غير أبوي. خبّرت إياد إنه السكري هدّ حيل أبوي وبيقدرش يتحمل هالرحلة الصعبة. وما كانش مضمون أصلًا إنهم رح يدخلونا كلنا. وإمي حكت له إنها إجت معي بس كرمال ما نتوه أنا والولاد، وانصدمت لما سمحوا لها تفوت الزيارة معنا. رغم هيك، ضلّ إياد يتطّلع ع الغرفة على أمل يظهر أبوي. غيابه كان سحابة سودا غطّت فرحتنا.

إياد الواقف قدامي صار رجّال متديّن، أكتر بكتير من وقت شفته في 1994. على أيامنا ما كانش يصلي ويصوم، بس هلّا صاروا ينادوا عليه الشيخ إياد. ولأني ما شفتوش من سنين على طول لاحظت هالتغيير عليه. كان يحكي معنا برباطة جأش تشوفها بالعادة عند الشخصيات الدينية، حتى إنه هدوءه وثبات نبرته في الحكي ذكروني بحسن نصرالله. هالمعرفة الدينية اكتسبها إياد من الساعات الطويلة اللي قضاها كل يوم في السجن يقرأ القرآن ويدرسه ويكتب ملاحظاته.

حكينا بمواضيع كتير يومها، وحاولت أحكي له عن حياتي من غير ما أدخل بتفاصيل زواجي. إياد كمان حكي عن الزواج، وكيف إنه ناوي

يتجوز النسوان اللي وضعهم صعب. واحد من أصحابه انقتل وترك وراه زوجة صغيرة حامل بشهرين، وإياد بدُّه يتجوزها أول ما يطلع من السجن. وحكى عن نيته إنه يتجوز أرملة عندها ولاد، ويتجوز من مَرَة طرشا كمان. إمي مزحت معه، «ولك إياد، كم مَرَة بدّك تتجوز؟»

بتذكّر إنه رغم هدوؤه في الكلام، كان قلقان وبدُّه يطلع من السجن. وقبل ما نطلع ترجّاني «مشان الله سيرين ما تنسيني، اعملي كل شي بتقدري عليه حتى تطلعيني من هون. بترجاكِ!»

حسيت بيأسه، أكيد ما بده حياته تتعفن في الاعتقال، هو بحاجة إنه حياته يكون لها معنى بره السجن. سألته شو بقدر أعمل حتى أساعده، وطلب منِّي أعيِّن له محامي كويس. بعد ما انتهت الزيارة، وفي الوقت اللي ما بكون فيه مع عيلة زوجي بنابلس، قضيت معظم الربيع والصيف أدوِّر على محامي شاطر. وأخيرًا قدرنا نعيِّن المحامية الإسرائيلية المشهورة ليئة تسيميل حتى تشتغل على قضيته.

مرَّت شهور الصيف سريعةً، في لمح البصر. ومع استعداد سيرين للعودة إلى أميركا في منتصف آب، بدأ الإعلام يتداول خبر صفقة إطلاق أسرى في أيلول، حيث ستطلق سلطة الاحتلال سراح خمسمئة معتقل. تواصلت سيرين مع مكتب ياسر عرفات وطلبت إدخال اسم أخيها في القائمة. بعدها بأسبوع، جاءها الرد بأنَّ الاسم رُفِض.

الأول من أيلول سيكون آخر يوم لسيرين في كفر راعي قبل عودتها إلى نيويورك. يومها استيقظت مضطربة، إذ كيف ستغادر الآن مع وجود فرصة تحرير إياد من السجن في صفقة محتملة خلال الأسبوعين المقبلين؟

يومها عملت اتصالات مكثفة لحتى وصلت على مكتب وزير الداخلية في السلطة الفلسطينية. ترجيتهم يعطوني خبر إذا اسم إياد ع القائمة. كانوا رح يعلنوا الأسماء في يومين أو تلاتة، بس ما كنتش بقدر أطلع من غير ما أعرف مصير أخوي. وصَّلني الوزير بالمكتب المسؤول عن القائمة، وهون كانت الضربة القاصمة: الصفقة شملت تحرير 200 أسير، وإياد مش واحد منهم.

عشت لحظاتي الأخيرة في كفر راعي وأنا ببكي، بتخيل إياد وهو بيبني آماله على صفقة يا عالم تجي أو يمكن عمرها ما رح تجي. هداك اليوم، في الأول من أيلول، سافرت وأنا موطية راسي، بعرفش إذا بيجي يوم أشوف فيه أخوي إياد حر.

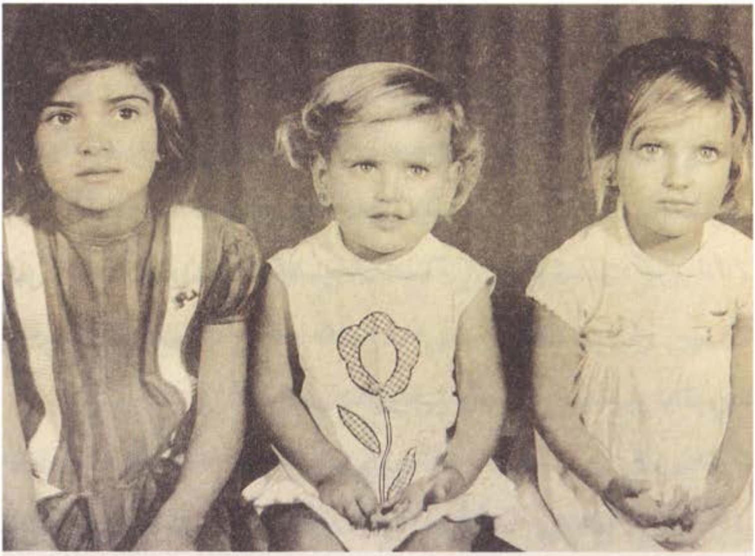

سوزان وميسون وسيرين، أخذت هذه الصورة عندما عادت العائلة إلى فلسطين 1967.
المصدر: ألبوم العائلة

أبو يوسف مع يوسف وإيهاب وإياد 1975.
المصدر: ألبوم العائلة

سيرين على البرندة في لباس زهر من جدها الحاج صادق والد أمها
وفي الخلف منظر كفر راعي ومقبرة الشهداء 1980 .
المصدر: ألبوم العائلة

إياد في منتصف سن المراهقة 1990.

المصدر: ألبوم العائلة

إياد يقف لالتقاط صورة في زنزانته بالسجن وخلفه على الحائط حرام صوف، وهو يرتدي زي السجن تحت سترة جلد.

إياد يلعب مع آلاء ابنة أخته ميسون.

المصدر: ألبوم العائلة

أم يوسف في بيتها مع باسل ابن سيرين الأكبر 2021.

المصدر: المصور جمال العاروري

سيرين تتجول في شوارع كفر راعي ومجموعة من البيوت الجديدة في الخلف 2021.

المصدر: المصور جمال العاروري

صورة للعائلة من الشمال إلى اليمين: سيرين، سلمى، باسل (في الخلف)، الوالدة أم يوسف في الوسط، وخمسة من أخوات سيرين وبهاء (يمين) وعدد من الأحفاد 2021.

المصدر: المصور جمال العاروري

سيرين مع أولادها زيد (شمال) سلمى (الوسط) باسل (يمين) في منزلهم في برنستون. في الخلف لوحة لوسط جنين معلقة 2022.
المصدر: ألبوم العائلة

الجزء الثالث

وعدًا وعهدًا

24
أيلول 1999

صباح التاسع من أيلول كان مريرًا في دار صوالحة. صفقة الإفراج عن الأسرى ستتم، وإياد لن يُفرَج عنه. في الساعات الباكرة، أصدر المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان تصريحًا صحفيًّا، تضمَّن ما قيل لسيرين قبل مغادرتها كفر راعي:

(في هذا الصباح، التاسع من أيلول 1999، أفرجت السلطات الإسرائيلية عن 199 معتقلًا من السجون الإسرائيلية. تشمل القائمة 98 معتقلًا من قطاع غزة، و101 من الضفة الغربية. تمت صفقة الإفراج تماشيًا مع بنود مذكرة شرم الشيخ التي جرى توقيعها في الخامس من أيلول لتفسير «اتفاق واي»، وشكلت إطار العمل لمتابعة المرحلة الانتقالية ومفاوضات الحل النهائي.

تنص المذكرة أن «الحكومة الإسرائيلية ستفرج عن المعتقلين الفلسطينيين الذين ارتكبوا مخالفتهم قبل 13 أيلول 1993 واعتقلوا قبل 4 أيار 1994». وتمثِّل صفقة الإفراج التي ستجري اليوم المرحلة الأولى من عملية الإفراج عن المعتقلين المتفق عليها في المذكرة، والتي

تقضي بتنفيذها في غضون أسبوع من التوقيع وتشمل 200 معتقل. أحد المعتقلين على قائمة الإفراج رفض وجوده في القائمة إذ لم يتبقَّ سوى أسبوع واحد على قضاء محكوميته، وطلب أن تُمنَح الأولوية لمعتقل آخر ضمن بنود المذكرة.

من المقرر الإفراج عن 150 معتقلًا في الثامن من تشرين الأول، كما نصَّت المذكرة على إفراج الجانب الإسرائيلي عن معتقلين إضافيين قبل شهر رمضان المقبل، أي قبل نهاية العام).

رغم وضوح بنود الإفراج التي نصَّت عليها المذكرة حول الإفراج عن المعتقلين الذين ارتكبوا مخالفتهم قبل الثالث عشر من أيلول 1993 واعتقلوا قبل الرابع من أيار 1994، فقد استثنت سلطات الاحتلال من هذه الصفقة العديد من المعتقلين الذين تنطبق عليهم بنود المذكرة:

1. استثناء المعتقلين من القدس.
2. استثناء المعتقلين من داخل الخط الأخضر.
3. استثناء المعتقلين من حماس والجهاد الإسلامي.
4. استثناء المعتقلين المتهمين بقتل إسرائيليين.
5. استثناء المعتقلين المتهمين بالتسبب بإصابات بالغة لإسرائيليين.

[...]

استيقظ أبو يوسف ومشى بصمت نحو الحوش متفاديًا الجميع. فخبر الإفراج عن المعتقلين يتردد صداه في كل مكان، وعمَّق فيه إحساسه بالعجز تجاه ابنه. أم يوسف نهضت عن فراشها غير مصدقة أنها ستضطر

لمواصلة انتظار سماع خبر الإفراج عن ابنها دون أي أمل بموعد محدد. لكن لا خيار أمامها سوى التشبث بالأمل، إن لم يكن لأجلها إذن لأجل إياد؛ فمهما بلغ إحباطها اللحظة، لن يساوي الإحباط الذي يشعر به ابنها.

في رام الله انطلقت حافلتان نحو المقاطعة حيث مقر ياسر عرفات. وفي الساعة الأخيرة، حملت الحافلتان 200 معتقل بدل 199، كل معتقلٍ منهم مصدوم من نيله الحرية أخيرًا، عيناه تبحثان مليًّا عن ملامح قريبٍ من أقربائه في حشد العوائل المنتظرة. الكل، عدا واحدًا، استقبلتهم عوائلهم بموسيقا الدبكة الصادحة، حيث امتزجت ألحان المجوز بإطلاق الضباط الفلسطينيين الرصاص الاحتفائي في الهواء.

أما المعتقل رقم 200 على قائمة الإفراج، من يرقب البحر الهائج من الوجوه المبتهجة الغريبة عليه ولم يجد عائلته في انتظاره لأنها لا تعرف أصلًا بخبر إطلاق سراحه، فقد عاش فرحته ناقصةً.

المعتقل رقم 200، العضو في حركة فتح، كان إياد. وبما أنَّ بيان المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان كان واضحًا في استثناء المنتمين إلى حركة الجهاد الإسلامي من الاتفاق، فلا بد أنَّ إياد لم يكن قد أعلن انتماءه الجديد إليها.

أيًّا يكن السبب، اسمه لم يُذكَر على القائمة الرسمية ولا في البيان الصحفي. وهكذا، في صباح الإفراج عن المعتقلين، لا أم يوسف ولا أبو يوسف، ولا أحد في العائلة، أَمِل في سماع خبرٍ جيد.

ترجَّل المعتقلون عن الحافلتين، كلهم لا تزال أيديهم مكبلة بقيود بلاستيكية.

أخيرًا خطا إياد نحو الشمس.

ها هم الآن مفرج عنهم، أحرارٌ من جديد، رغم مرارة ترك رفاقهم خلفهم والخروج من المعتقل إلى السجن الكبير، رغم مرارة التحرير الذي لا يزال يلوح في أفقٍ بعيد. نشوة الجذل بهذه الدفقة من نسائم الهواء الحر امتزجت بقلق هذه اللحظة غير المعقولة. هل سيعود السجّان عن قراره؟ هل سيعتقلونني من جديد؟ عين المعتقل ما تفتأ تتطلّع على قوى الأمن والمراقبة حوله.

وقف إياد في قلب الحدث، موقنًا أنه لن يتعرف على ملامح أي وجه من تلك الوجوه. غرباء تلقوه بالأحضان والقبلات ابتهاجًا بمرأى تحرير الأبطال من الأسر، وابتسم لهم جميعًا، غير أنه أراد العودة إلى بيته، أراد إيجاد طريقة يبلّغ فيها عائلته بخبر خروجه، ويشق طريقه نحو الباص المتجه إلى جنين. المحرَّرون حوله رفعوا علامات النصر، وآخرون كبَّروا وأنشدوا «فدائي، فدائي، فدائي يا أرضي يا أرض الجدود». العوائل والأقارب يصيحون وينتحبون فرحين، والنساء في الحشود تزغرد وتزغرد وتزغرد، الحارات والشوارع والسماء والشمس تصدح بزغاريدهن.

أمام عدسات الكاميرات، ارتدى المعتقلون ملامح الاحتفاء أمام عوائلهم التي كابدت مرارة الانتظار، وأخفوا غصة الألم في قلوبهم على رفاقهم ممن لم تشملهم الصفقة. شكري سلامة، بعد ثمانية عشر عامًا قضاها في السجن، وصاحب أطول محكومية لأسيرٍ محرر في القائمة، منح صوتًا لهذه الغصة في تعليقه لصحيفة «ذ غارديان»:

«كيف أعبّر عن سعادتي وقد تركت أصدقاءً خلفي قضوا محكومية

أطول مني في السجن، بعضهم قضى فيه خمسًا وعشرين عامًا. على الإسرائيليين إطلاق سراحهم أيضًا».

إياد هو الآخر ضمن المعتقلين الغاضبين والعاجزين اللحظة عن عيش فرحة الحرية وتقديرها، فقد أُطلِق سراح عُشْر المعتقلين القابعين في سجون الاحتلال فقط. وفي عقله، ظل يتردد همس رفاقه المتروكين في سجون الاحتلال «ما تنسونا».

رنّ التلفون، ولّما رفعت السماعة كان صوت أختي سوسن. بالعادة كلامنا كله ضحك وتنكيت، بس هالمرة نبرة صوتها منفعلة ومش قادرة تسيطر على حالها ونَفَسها مقطوع من العياط، بسرعة خبرتني افتح التلفزيون «أخوي إياد طلع مع بقية المحَرَّرين!» كيف بدَّك أوصف لك شعوري وأنا أشوف أخي المحكوم عليه بالمؤبد محَرَّرع التلفزيون، ومتلي متل أي غريب في هالعالم ما عرفت إلا من الأخبار.

شفت إياد، كان آخر واحد نزل. كان مطلّع راسه من الباص، ووقتها خطر لي إنه هيك عرفوا إمي وأبوي بتحريره. طرت من الفرحة ورحت أعيط، بس وقت ما هديت، حزنت كتير إنه ما قدرتش أكون هناك، يا ليتني استنيت عند أهلي عشرة أيام كمان.

حين انتشر الخبر في كفر راعي عمَّت الاحتفالات البلدة، والدائرة المقرَّبة من عائلة سيرين خرجت بسياراتها تزمِّر وتبتهج في شوارع القرية. أما عائلة سيرين فهرعوا جميعًا إلى تبديل ملابسهم وخرجوا في موكب طويل لاستقبال باص إياد في جنين وكأنها زفة عريس. غير أنَّ الاحتفال لم يدم طويلًا.

على الطريق جرفت الحماسة سواقين السيارات، وانقلبت سيارة ابن خالة أبوي وتعرَّض لإصابة قوية كثير عكَّرت بهجة اليوم. وبعد ست شهور توفى بسبب إصابته.

أوَّل ما أفرجوا عن إياد، تبرَّأ من فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية؛ خبّرنا إنه كلهم عملاء ولا واحد فيهم قد كلمته. وخبَّرنا كمان بقراره ترك السياسة.

حاولنا نقنعه يطلع من فلسطين للأبد وما يرجع... بس هو رفض.

25
تشرين الأول 1999

بالكاد مرَّ شهر على خروج إياد من السجن، وما إن يغمض عينيه ليلًا يسمع قعقعة إغلاق باب الزنزانة عليه. نفحة الرطوبة الممتزجة بالعرق والبول لا يزال يستنشقها، لا يزال الهواء عفنًا بروائح التفسخ حتى إن سار في الهواء الطلق إلى أطراف القرية خلف بيته ووقف مواجهًا التلال. عجز عن الاستمتاع بطهي أمه، بأحاديثه مع أبيه، بعناق إخوته وأخواته. أذرع السجن الطويلة لا تزال تقبض على عقله بمجسَّاتها. ذكرياتٌ كثيرة، لا سيما الجدران الرمادية، تتشبَّث للأبد بذاكرة المعتقل.

كذلك، لم يجد مفرًّا من قلق عائلته الخانق، جلُّ تركيزهم الآن منصب على إبقائه بعيدًا عن المشاكل. وإن كان قراره النهائي البقاء في فلسطين، حسنٌ، لكن عليه أن يتزوج. فأبوه وأمه اعتقدا أنَّ بزواجه سيصبح رب أسرة، وحينها لن يضطرا للقلق عليه. ما انفك إياد يحاول طمأنتهما، «خلاص بدي أكمّل حياتي، بدي ألاقي شغل واتجوز». ومع أنَّ لا شيء في نبرة صوته يوحي بنيَّة مختلفة، ظلَّ أبوه وأمه على قلقهما.

إياد قضى سبع سنين في السجن، فطبيعي موضوع الزواج مش سهل عليه. علاقته مع أبوي وإمي وإخواتي صارت متوترة. علاقته كانت متوترة حتى مع اخوتي الصغار ضياء وبهاء اللي كانوا ولدين لما اعتقلوا إياد، وهلّا صاروا مراهقين في الثانوي وعادي يطلعوا مع أصحابهم ويأرجلوا[1]، بس كل مرة يرجعوا البيت يحاول إياد يربِّيهم ويؤدبهم. ما كانش راضي أبدًا عن أسلوب حياتهم وانهم ما كانوش يصلّوا. وكمان مع أرسلين، كل ما رجعت البيت متأخرة من وظيفتها في جنين كان يفتح معها تحقيق.

صار أول واحد يصحى من النوم الصبح، ويقعد يقرأ قرأن بصوت عالي في البرندة.

من ناحية، إياد كان شاب حْليوة وعِشَرِيّ ودمُّه خفيف وبيرفع معنويات اللي حواليه[2]، واعتقاله سبع سنين في السجن نيشان بطولة بعيون كتير من الناس. بس كمان إياد صار زلمة صارم وخلقه ضيق، وصدمة السنوات اللي ضاعوا من عمره في السجن ما بتشجع البنات يرتبطوا فيه.

في الشهور الأولى بعد تحريره، قضى أخوي معظم يومه بيتفرَّج ع الأخبار، خصوصًا قناة الجزيرة اللي كانت جديدة وقتها وتعرض الأخبار طول اليوم. كان يتفرَّج كمان ع البرامج الدينية، ومنع اخواتي

(1) أرْجَل: شرب الشيشة (الأرجيلة).

(2) حْلَيوَة: وسيم.
عِشَرِيّ: سَهْل المعشر.

يتفرَّجوا على المسلسلات وقنوات الأغاني. سمعت منهم عن تقلباته المزاجية المفاجئة ما بين النرفزة العصبية والحنَّية الزايدة؛ هالشي مش جديد، كتير سمعنا عن هالتقلبات المزاجية عند المعتقلين بعد ما يفرجوا عنهم.

وكمان، بالأيام الأولى بعد تحريره، حاول إياد يعتذر من عوائل الضحايا اللي اتهمهم بالغلط إنهم عُمَلَاء للاحتلال وأعدمهم. سمعوه الناس وهو يلعن الفهد الأسود، ويعبِّر عن ندمه على القرارات الانفعالية اللي أخدها وعلى انخراطه في مجموعة ضالة.

أم ياسر كانت من بين الذين زارهم إياد طلبًا للصفح. طلب منها المغفرة على ما ارتكبته مجموعات الفهد الأسود بحق صهرها، وأنه نفض يديه منهم بعدما أدرك في السجن الطريق الضال الذي سارت عليه الجماعة والأخطاء التي ارتكبتها. أم ياسر صدَّته، وأخبرته أنَّ المغفرة بيد الله.

فهم من موقفها أنَّ كلماته ليست كافية ولن تعيد الميت إلى أهله. وحين غادر بيتها مهمومًا، عاهدها أنَّه لن يعيد أخطاء الماضي وسيسير على طريقٍ مختلف.

تحت ضغط والديه للزواج حاول إياد العثور على زوجة، واقترح عليهما أسماء نساء من القرية وجدهن مناسبات. لكن في القرية، الانجذاب وحده ليس كافيًا. فالخطبة تتعلَّق أيضًا بمصاهرة عائلتين والحفاظ على السمعة. وهكذا، مع كل امرأة اقترحها إياد تلقَّى رفضًا قاطعًا من والديه: ولا امرأة ممن اقترح تليق بعائلته.

إمي ما تعلمت من أغلاطها في زيجات ولادها، وضلّت تتشرَّط على أخوي إياد «بيي مش حلوة؛ بيي مش من عيلة منيحة». هي بمخها، البنت لازم تكون كاملة مكمّلة حتى تقبل فيها لابنها، وبالأخير كل ولادها تعبوا من شروطها، ولا واحد فيهم تجوّز فلسطينية: إيهاب تجوَّز روسية، ويوسف تجوَّز أمريكية. أما إياد، اللي بعده عايش ببيت إمه وأبوه، ما قدرش يلاقي وحدة... أي وحدة.

بعد الإفراج عن إياد بفترة قصيرة منحته السلطة الفلسطينية وظيفة، على الأقل بالاسم. لم يكترث إياد أبدًا بالمال ولا بالتأنق؛ كل ما أراده الحصول على مدخول يكفيه لضمان استقلاله المادي. كانت السلطة قد عرضت على المعتقلين المحررين وظائف متواضعة في القوات الأمنية والشرطة. في الأشهر الأولى تدرَّب معهم ضمن برنامج التأهيل، وبعدما انتهى البرنامج بدأ يحصل على راتب، لكن نادرًا ما توجه إلى عمله؛ فلا رغبة لديه بأن يسهم بأي طريقةٍ كانت في إدارة الاحتلال بالوكالة على أرضه، ولم يكن وحده من تملَّكه هذا الشعور.

كان ثمة جانب مستتر من حياة إياد في تلك الفترة. فقد انخرط، مثل حال شباب كثر ممن يعيشون قرب حدود الضفة الغربية، في عمليات تهريب الأسلحةِ. كان اتفاق أوسلو دقيقًا وواضحًا في تحديد عدد رجال الشرطة والأسلحة المسموح بها في كل قرية. فإذا أراد أهل القرى، والفلسطينيون عمومًا، التسلح بما يزيد عن الحصص الهزيلة، كان لا بد لهم من اللجوء إلى وسائل أخرى. بدأ إياد يستلم الأسلحة

المهربة من معارف في الأردن وقرى المثلث، ويوزعها على الشباب في الضفة الغربية، تحديدًا عناصر الجهاد الإسلامي. لاحقًا، عرف طريقًا للحصول على الأسلحة المسروقة من جيش الاحتلال، وعلى أسلحة أخرى من طريق العصابات داخل الكيان.

انخرط إياد في هذه العملية من خلال أحد أعز أصدقائه، معتصم، من قرية عنبتا شرق طولكرم. كان معتصم في عمر إياد، في بدايات الصلع وعيناه ناعستان واسعتان خضراوان تبعثان الطمأنينة فيمن حوله. كان ناشطًا في الانتفاضة وتعرَّض للإصابة مرتين. اعتقله جيش الاحتلال وحبسوه خمسة عشر يومًا قبل أن يطلقوا سراحه، ثم في عام 1991 حكموا عليه بعشر سنوات في السجن لأنشطته ضد العملاء وقوات الاحتلال. إياد ومعتصم التقيا في السجن، ووجد إياد في معتصم صديقًا مخلصًا وقدوةً يحتذي بها في قدرته على الجمع بين المقاومة وإكمال تعليمه والتسجيل في الجامعة قبل اعتقاله. مكتبة سُر مَن قرأ

قضى معتصم خمس سنوات من محكوميته قبل الإفراج عنه ضمن مجموعة المعتقلين المحررين الأولى وفق ترتيبات اتفاق أوسلو. وبعد الإفراج عنه، عمل في «مكتب التنسيق» الذي تولى مهام التنسيق الأمني الفلسطيني الإسرائيلي في سنوات أوسلو.

بعد عدة أشهر من العمل لدى السلطة الفلسطينية، وجد إياد عملًا في نابلس لدى صائغ مجوهرات وسجَّل في دورة تدريبية لتعلُّم الحرفة، واستأجر غرفةً هناك لكيلا يضطر للتنقل يوميًا.

في المرات النادرة اللي كان يزور فيها إياد البيت، كان دايمًا يحمل معه حِلْية لكل وحدة من اخواته. ومرة حكى لي في مكالمة بيننا إنه ناوي يصمم لولا دي قلادة عليها كلمة «الله».

في الأيام الأخيرة من الألفية الأولى وفي شهور بدايات الألفية الثانية، تمتَّع إياد ورفاقه بصحبة بعضهم بعضًا، وقضوا الليالي يتحادثون ويمزحون، مع ضحكة إياد تجلجل في الأجواء. لطالما كان إياد شابًّا قليل الكلام، لكن ضحكته دومًا حاضرة تتحدث عنه، ومجلجلة في وجه السلطة.

26

أيلول 2000

كان صباح خميس، الثامن والعشرين من الشهر. سيرين في غرفة الشمس، في بيتها الجديد في برينستون، نيوجيرسي. أكوام الكراتين لا تزال منتشرة في البيت الذي انتقلوا إليه نهاية الصيف. في واقع الأمر، البيت لا يقع في برينستون، بل في بلدة مجاورة تدعى كنجستون، لكن سيرين دومًا تشير إليها على أنها برينستون لكيلا تتعنَّى شرح عنوان سكنها للناس. ومن جهة أخرى، كنجستون بلدة مجهولة، وادعاؤها الإقامة في برينستون يعكس وجاهة اجتماعية أعلى.

شغَّلت التلفاز وقلبت المحطات إلى أن استقرت أخيرًا على قناة الجزيرة، وانصرفت إلى ترتيب الغرفة.

كانت تتحرك ببطء إثر الألم والتيبُّس في ظهرها وركبتيها من كل العمل الذي أجبرها زوجها على القيام به في البيت. فقد رفض التعاقد مع مقاول محترف لترميم البيت بعد شرائه، أراد أن يتولى هو بنفسه هذه المهمة. هذه الرغبة ليست نابعة من تصوُّر رومانسي مثالي، بل نابعة من عناده ورغبته بإثبات قدرته وتفوقه، طبعًا بمساعدة سيرين التي استغلها

كما يستغل أي مدير المتدرب الجديد لديه. أخبرها أنَّ كل ما عليهم فعله نزع ورق الجدران ودهنها والانتقال فورًا إلى البيت. لكن بعد نزع ورق الجدران، تبين وجود خمس طبقات سابقة بالية، واستغرق الأمر ثلاثة أسابيع لانتزاعها كلها. تطلَّب تنفيذ المهمة مجيئهم من نيويورك برفقة طفليهما كل نهاية أسبوع، وأحيانًا خلال الأسبوع. تحمَّلت سيرين هذا العناء لأنها سئمت العيش في نيويورك وراقت لها فكرة الانتقال خارجها. كذلك، راودها الأمل بأن يمنحهما الانتقال فرصة لتغيير حياتهما. فالاعتداء الجسدي عليها بات أعنف وأشد حدَّة. مرةً لم تجِب طلبه لإحضار كاسة شاي، وكَاد يكسِر ذراعها لولا وصول يدها إلى سكين وتهديده لكي يفك قبضته عنها.

أجل، لربما البداية الجديدة هي ما يحتاجان إليه.

بالكاد حملت سيرين غرضًا أو غرضين من أحد الكراتين حين لمحت مذيع قناة الجزيرة ينقل خبرًا مباشرًا عن فلسطين، ورفعت الصوت. كان الوقت مساءً في فلسطين، وشاهدت على شاشة التلفاز اقتحام أرييل شارون الحرم القدسي في وقتٍ أبكر مدَّعيًا حمل رسالة سلام. من بين كل قيادات الاحتلال وشخوصها السياسية والعسكرية، شارون تحديدًا هو أحقرهم لدى العرب. فهو المسؤول المباشر عن مجزرة صبرا وشاتيلا في 1982، ومؤسس فرقة جيش الاحتلال (101) التي ارتكبت مذبحة قبية في 1953، ناهيك عن كونه أحد الداعمين الأوائل لسياسة التوسع الاستيطاني في الأعوام التالية لحرب 1967. في عين

العرب، شارون صنفٌ آخر من الأعداء، الصنف الذي يستحق أن يهوي في غياهب الجحيم.

حين وصل شارون القدس المحتلة، كان قد أرسل مسبقًا مئات من قوة مكافحة الشغب لمنع الفلسطينيين من الوصول إلى المسجد الأقصى. وبعد مغادرته راح الفلسطينيون يرمون الحجارة على قوات الشرطة اعتراضًا على وجودهم. في المقابل، أطلقت عليهم قوة مكافحة الشغب الرصاص المطاطي.

في تلك اللحظة رمت سيرين العمل من بين يديها، وجلست تتابع التغطية المباشرة من القدس.

فورًا اتصلت بوالديها، ورفع أبو يوسف السماعة. تحدثا بإيجاز، وطمأنها أنَّ الأمور على ما يرام في كفر راعي. لكن في غضون أيام قليلة، انتشرت الاحتجاجات من القدس إلى رام الله ومختلف مناطق الضفة الغربية وإلى قطاع غزة، والرصاصات المطاطية تحولت إلى حيَّة. سقط قتلى فلسطينيون، أحدهم محمد الدرة الذي لم يتجاوز عمره اثني عشر عامًا، قتله جنود الاحتلال وهو يحتمي بحضن أبيه.

قاوم الفلسطينيون الرصاص بأي سلاح يقع في أيديهم.

إياد كان في جدة حين اقتحم شارون الحرم القدسي. كان قد ذهب إليها في رحلة عمرة وحاولت عائلته إقناعه بالاستقرار فيها، حتى أن أخته التي تعيش في جدة عرضت عليه مساعدته في فتح متجر مجوهرات صغير، غير أنه قاوم الفكرة. فحركة الجهاد الإسلامي، التي انتمى إليها كليًّا الآن بعد الإفراج عنه، رأت في المحور الأمريكي السعودي عاملًا

من عوامل بقاء السيطرة لدى دولة الاحتلال، لهذا لم يتحمَّس إياد للإقامة في جدة.

في اليوم الذي اندلعت فيه احتجاجات القدس، كان إياد يجلس بأريحية على أريكة مرتديًا فانيلة قطنية بيضاء بقبّة مثلثة، وسروالًا قطنيًا أبيض (الذي يرتديه الرجال عادةً أسفل الدشداشة)، وأمه جالسة إلى جانبه، إذ جاءت برفقته إلى جدة. ما إن شاهد المصادمات مرَّر أصابعه في شعره وارتخى فكَّه، وصاح في ذهول «يا الله!».

سرعان ما بدأ يجادل أمه حول العودة إلى فلسطين، يصيح مصرًّا «فش تحرير من غير مقاومة!». رأت أم يوسف في عينيه التصميم ذاته الذي تملَّكها ودفعها إلى العودة سيرًا ببناتها إلى فلسطين ضد تيار التهجير. ومع ذلك، رفضت بعناد تقبُّل أفكاره. واتصل أبو يوسف بابنه وتحادثا – أو بالأحرى صرخ كلٌّ في وجه الآخر: «فش شي تعمله هون، خلاص، كافي اللي أعطيته من عمرك! مش كافي اللي شفته في السجون؟ بدك ترجعلها؟ كافي يابا كافي!» صاح أبو يوسف في ابنه، يرجوه. لكن رجاءه وقع على آذانٍ صمّاء وما كان ندًّا لتصميم إياد. وبعد سماع إياد تفاصيل الأحداث على الأرض من رفاقه، قرر العودة إلى وطنه.

رجع أخوي ع فلسطين متحمس. انتشار الاحتجاجات في كل البلد، وارتفاع المعنويات في قريتنا، والدعم العربي والدولي اللي معنا، عطاه وعطانا كلنا بصيص أمل إنه قادرين نحقق السلام الحقيقي.

بلَّش يقضي ليالي كتير بره البيت، برام الله وطولكرم ونابلس. وبليلة من الليالي جاب صحابه معه ع الدّار وقعدوا يتناقشوا ساعات

عن الوضع السياسي وإنه ممكن يخططوا لاعتصامات. وبنص القعدة راح يتأمَّر على اخواتي ويجبرهم يعملوا له عشا هو وأصحابه، وأبوي عصَّب، «عندك خمس بنات في الدار، كيف بتجيب كل هالشباب هون!» أبوي وإياد تقاتلوا، وبعد هديك الليلة صار إياد يقضي أغلب وقته بره، أغلبه في نابلس. ما كانش قادر يقعد في الدار لأنه أبوي وإمي جنَّنوه، وهوّ جنَّنهم.

بعد عودته بوقتٍ قصير، اجتمع إياد بصديقه معتصم وأسَّسا خلية من خلايا سرايا القدس، على الأرجح في نابلس أو طولكرم، بتوجيه من نعمان طحاينة. طحاينة كان كاتبًا ومفكرًا وقائدًا إستراتيجيًّا لحركة الجهاد الإسلامي في شمال الضفة الغربية، ويقال إنه المسؤول عن تجنيد قادة للحركة في جنين ونابلس وطولكرم، قادة مثل سعيد طوباسي ومحمود طوالبة وثابت مرداوي.

انخراط إياد في الحركة تعمَّق في نابلس. فقد مدَّ الناشطين فيها بالأسلحة المهربة، والأهم من ذلك، اكتسب خبرة في صنع المتفجرات. كذلك تعلَّم تفكيك الألغام والقنابل اليدوية وأدوات متفجرة أخرى، وإعادة استخدام المواد الحارقة في صنع الأحزمة الناسفة وتفخيخ السيارات. مع نهاية تشرين الثاني، بدأ يتوخى الحذر في تحركاته، ويقلل زياراته إلى بيت عائلته في كفر راعي، والتي باتت كلها زيارات مفاجئة.

رغم شك عائلته بانخراطه في أنشطة سياسية، فلا أحد منهم عرف بالتفاصيل. سبيلهم الوحيد إلى معرفتها حين يقتحم جيش الاحتلال بيتهم بحثًا عنه، يتلون عليهم في كل اقتحام، وفي نبرة تهديدية، قائمةً

طويلة من الاتهامات. ولا مرة أفصح إياد لأحد من عائلته بما يفعل، ودومًا أنكر أمامهم هذه الاتهامات.

في برينستون عاشت سيرين الانتفاضة من مكالمة إلى مكالمة، من ساعة إخبارية إلى ساعة إخبارية.

في الأوَّل، فكّروا الناس حواليّ -أو تأملوا- إنه النار اللي أشعلها اقتحام شارون المسجد الأقصى بتخمد عن قريب لصالح الدبلوماسية والمفاوضات، وبكل مرة كنت بعارضهم «لا، ما رح تخمد». وألاقي حالي مجبرة أشرحلهم اللي عشناه في سنوات المفاوضات، وكيف قدر الاحتلال يسرق منا أراضي أكتر، ويتوسَّع في بناء المستوطنات بأسرع معدل في التاريخ من وقت النكبة. بعدها بيتحجَّجوا وبيقولوا، «بس لو يقبل عرفات بالعرض الإسرائيلي». وقديش كان يحبطني إلقاء اللوم على قيادتنا، اللي أصلًا تنازلت عن جزء كبير من أراضينا كرمال اتفاق السلام. الاحتلال بدُّه المنطقة «ج» كلها، ويحصرنا بس في المنطقتين «أ» و«ب»، والناس هون في أميركا بدهم ايانا نقبل بهالتنازل. الحكي معهم بيحبطني أكثر، وبفسر لهم سخافة الحكي اللي عم يحكوه، واسألهم «لو كنتوا محلنا بتقبلوا بهالوضع؟» بضل أخبرهم إنه عيلتي يا دوب تقدر تطلع بره القرية من غير ما تتعرض للمضايقات ع حواجز التفتيش.

دايمًا آخر كلامي معهم: ما دام الصهيوني بيسرق أرضنا، فش حل غير المقاومة.

فيما الأيام تحولت إلى أسابيع، أضحت سيرين نزقة وعصبية. تعيش على انتظار مكالمة من أهلها، تقطع الخطى جيئة وذهابًا بين الحديقة

وبيتها، خطاها سريعة ومتعمَّدة، كما لو أنها تحاول الوصول إلى مكانٍ محدد. بدأت تكرِّس جهدًا كبيرًا في الاعتناء بحديقتها، تقضي ساعات طويلة في زراعتها لعلَّ بالها ينصرف عن التفكير بما يجري. وكلما اتَّصلت بعائلتها، لم تجد إياد.

شفت ع التلفزيون، مباشرةً، جيش الاحتلال وهو بيفرِّق الاحتجاجات بالرصاص الحي وقنابل الغاز المسيل للدموع. تفرَّجت ع سيارات الإسعاف وهي حاملة ولاد صغار وكيف كانت تطير فيهم ع المستشفى، تفرجت ع طيارات الأباتشي وهي بتقصف المناطق المدنية بصواريخ هيلفاير، وكل ما يعلى رقم القتلى بتأكد في عقلي إنّة اتفاق أوسلو مات. فش رجعة على الوضع قبل صيف 2000.

وأنا بتفرَّج ع الأخبار بفكِّر بإياد. كنت بتوقع أشوفه في الاحتجاجات وكنت بسأل حالي شو عم يعمل هلّا - هل بيرمي حجارة ع الجنود أو مشترك مع قوات أمن السلطة، وليش ما عم ألاقيه في البيت أبدًا؟ ضليتني أحكي مع إمي كل يوم، وأول ما أسألها عن أحوالهم ترد «هَيْنا عايشين». ما عندهاش خبر عن أخوي إياد، بس كانت تضلها تحكيّ لي إنه منيح، إنه اتصل، أو مرع الدّار امبارح.

بقية العيلة نادر ما كانوا يطلعوا من الدّار، خبرتني إمي إنه الوضع خطير كتير في جنين. الوضع خطير في كل المدن اللي فيها قتال شوارع وبتتعرض للقصف. وكمان صار صعب كتير يطلع حدا من القرية بسبب حواجز التفتيش اللي وصل عددها فوق الميّة في الضفة الغربية، ما بين حواجز دائمة وشبه دائمة ومرتجلة، زيد عليها منع التجول اللي

صار مفروض أغلب الوقت في كل المدن. مع كل هالعوائق، فش حدا من اخوتي وخواتي قدر يكمل دوامه في الجامعة بنابلس، فضلّوا قاعدين بكفر راعي. على الأقل أصغر بنتين من خواتي قدروا يكملوا تعليمهم بالمدرسة.

الانتفاضة الثانية في فلسطين ربطت سيرين بمجتمع جديد في برينستون. فهي لم يكن لديها أصدقاء هناك بعد، ولا مكان تذهب إليه، والحياة مملة ولا تُقارَن بالحياة في بروكلين. ففي بروكلين اعتادت سيرين الخروج إلى شاطئ مانهاتن على بعد تمشية، وبوسعها اصطحاب ابنيها إلى المتاحف والتجوُّل في أرجاء المدينة. هكذا، مع اشتداد حدَّة الانتفاضة، بدأت سيرين تنخرط أكثر في مجتمع برينستون المناصر للقضية الفلسطينية، وسرعان ما عقدت صداقات مع أعضاء هذا المجتمع ومع طلبة الجامعة، وبدأت تخرج برفقتهم إلى مظاهرات صغيرة في ساحة بالمر. وفي تلك المظاهرات ترفع لافتات صنعها الطلبة، تنشد معهم وتصيح بشعارات ضد الاحتلال. مع الوقت تملَّكتها الشجاعة وأصبحت تقف على المنصة وتلقي الخطابات، فتشعر لحظتها بأنها تصنع فرقًا كلما دوَّى التصفيق وقادت الحشد في النشيد (Free, Free, Palestine). مع ذلك، رغم كل هذا الحماس، لم تأمل سيرين باستعادة حق العودة ولا بتحرير كامل فلسطين، أقصى آمالها أن يخرج الاحتلال من الضفة وغزة. حينذاك آمنت سيرين أنها سترضى بهذا الخروج، هذا إن حدث أصلًا. غير أنَّ بعد كل اعتصام ومظاهرة، ومع مواصلة الانتفاضة الثانية اشتعالها، بدأ التهكم يشوب تلك الآمال.

يوم الخميس، السادس والعشرين من تشرين الأول 2000، بعد شهر من اندلاع الانتفاضة الثانية، عنصر في حركة الجهاد الإسلامي فجَّر نفسه بحزامه الناسف عند هدف إسرائيلي في قطاع غزة. كانت العملية الاستشهادية الأولى منذ بدأ جيش الاحتلال يستخدم الرصاص الحي ويقتل الفلسطينيين. نجم عن العملية إصابة جندي من جيش الاحتلال دون وقوع قتلى. في اليوم التالي قتل جيش الاحتلال أربعة فلسطينيين وجرح 250، وأطلق النار على سيارة إسعاف وتسبب بإصابة السائق إصابات بالغة. بعدها بأسبوع، نفذت حركة الجهاد الإسلامي عملية استشهادية أخرى في سوق ماهان يهودا في القدس المحتلة أوقعت قتيلين وأسفرت عن إصابات كثيرة. عينا سيرين اتسعتا على مشهد الدمار الذي خلَّفته العملية، كفها على فمها وهي ترقب ملامح الرعب على وجوه الناجين. أغمضت عينيها وفركت وجهها بيديها في محاولة للسيطرة على انفعالاتها بعد هذه الصدمة. غير أنها مثل الكثير من الفلسطينيين، كانت مغتاظة بشدة من الصمت الدولي في وجه استمرار العدوان الصهيوني، ومحبطة من دعوات العودة إلى طاولة المفاوضات التي أثبتت عقمها. انتابها غضبٌ مرير على تناسي العالم القتلى الفلسطينيين وسلب الاحتلال المتواصل لأراضيهم أمام أعين الجميع، ودون أي ردة فعل. وهي، مثل الكثير من الفلسطينيين، رأت في تلك التفجيرات متنفسًا للعجز ومبعثًا للأمل والحماس.

هذا لا يعني أنها لم تدرك بشاعة تلك العمليات؛ أنَّ هذه العمليات، وإن على نحو محدود، تحاكي عدوان المغتصب وأفعاله. وأنَّ العالم سينظر

إلى العمليات الاستشهادية على أنها فعلٌ إرهابي، لا على أنها السبيل الأخير أمام المستضعف لكي يقاوم.

27
مطلع 2001

كانت إحدى مهام إياد الأولى زرع عبوات ناسفة على جانب الطريق تُفجَّر عن بعد بالهاتف المحمول، على الشوارع التي يسلكها فقط المستوطنون وعربات جيش الاحتلال. كان إياد قد جنَّد ثلة صغيرة من الشباب اليافعين، انحدروا من إحدى التلال قرب يعبد ونجحوا في زرع العبوة في مكانٍ ما على الطريق إلى مستوطنة ميفو دوتان. معتصم كان أحدهم.

بعد زرعها هرعوا جميعًا صوب التلال، وانحدروا نحو الوادي بعيدًا عن موقع الانفجار. معتصم وحده رابط في مكانٍ قريب لكي يعطي الإشارة للتفجير.

بعد دقائق مرَّت مركبة عسكرية، وأحد الشباب اتصل على الرقم لكي يفجّر العبوة. كل شيء كان مخطَّطًا له بدقة، لكن ما لم تحسب له المجموعة حساب أنَّ الخط كان مشغولًا. عاود الشاب الكرَّة، وردَّ عليه صوت امرأة «رجاءً حاول مرة أخرى، الرقم المطلوب خارج الشبكة». محاطون بالتلال من كل جانب، نظر كلٌّ إلى أصحابه

بإحساسٍ مخجل من الغباء، وصاح معتصم بالشاب، «يلعن أبوك يا غبي!».

إياد كان مغتاظًا لدى عودتهم، لكن عودتهم جميعًا دون أن يتعرض أحدهم للاعتقال خفف غضبه. أنَّبهم بشدة قائلًا، «الله يساعدكم»، مدركًا أنهم في حاجة ماسة إلى مزيد من التدريب.

حتى تحضيرات معتصم للعبوات الناسفة لم تكن دومًا مثالية وناجحة، ومعجزة أنَّه لم يفقد ساقًا أو ذراعًا في محاولاته تحضيرها. مرةً، بينما كان يعد عبوة ناسفة -وهو ما اعتاد فعله في بيته المجاور لبيت أبيه- سرح بأفكاره، وبدل أن يوصل هاتفه الخاص بالشاحن أوصل الهاتف المشبوك بالعبوة. على صوت دوي الانفجار اندفع أخوه من بيت أبيه إلى المكان، ووجد معتصم مرميًّا على الأرض وينزف. حمله لكي يهرع به إلى المستشفى لكن معتصم رفض، إذ خشي أن ينبِّه سلطات الاحتلال إلى ما يجري. لحسن حظه، لم تترك الجروح أثرًا دائمًا.

إياد كان يدير العمليات من طولكرم، وواجه تحديًا كبيرًا في تهريب الأسلحة خارج المدينة عبر حواجز التفتيش الإسرائيلية لأنَّ السلطة الفلسطينية حاولت منع تلك التحركات، لكن إياد وضع إيمانه في الله ومضى قدمًا. في عملية أواخر شباط، جهَّز ثلاثة أحزمة ناسفة بهدف تفجيرها داخل الخط الأخضر.

«جاهزين؟» سأل معتصم إياد لدى دخوله المشغل.

«آه، كل شي جاهز. ع وين رح تاخدوهم؟»

«على باص ومطعمين».

رفع إياد حاجبيه وتمهَّل. لم تكن المطاعم ضمن الأهداف المعتادة، وعرف لحظتها أن العملية إن نجحت ستضعهما فورًا أعلى قائمة المطلوبين. رأى إياد في عيني صديقه أنَّ الخاطر ذاته يجول في باله، فقال له مطمئنًا وهو يمرر إليه الأحزمة، «توكَّل على الله»، وأجابه معتصم، «توكلنا على الله».

في اليوم المقرر لتنفيذ العملية، حيث السحب السوداء هائجة، اجتمع معتصم بثلاثة عناصر وسلَّمهم الأحزمة والتعليمات، ثم انطلقوا في سيارة فولفو قديمة فيما المطر ينهمر. تمكن الشباب الثلاثة من مغادرة المدينة إلا أنَّ السيارة تعطلت بهم في الطريق.

«كان لازم نستنى يوم أو يومين لحتى يصفى الجوّ»، قال معتصم لإياد لدى بلوغه خبر تعطُّل السيارة.

«ما بنقدر نخلي الطقس يفرض علينا خططنا»، ردَّ إياد، ثم أردف بثقة، «توكَّل على الله، الشباب بدبروا حالهم».

قضى العناصر الثلاثة ساعةً في تصليح السيارة، وما إن أصلحوها انطلقوا فورًا. لكن ما مرَّ وقتٌ طويل على عبورهم طريقًا غير ممهد إلا وغرّزت السيارة في الطين. اثنان منهما غادرا السيارة يلعنان حظهما وراحا يدفعان السيارة، فيما الثالث يضغط على دواسة البنزين. ما إن نجحوا في إخراجها، كان العنصران غارقين في المطر والوحل، ولا سبيل أبدًا أمامهم لمواصلة تنفيذ العملية. إن كانت هذه مشيئة الله فمشيئته لم تتفق مع خطتهم، وأُجبِروا على تأجيل العملية.

بعدها بعدة أسابيع، فيما عنف الاحتلال يتصاعد والمقاومة الفلسطينية المسلحة تبرهن ثباتها وقوة إمدادها، زار إياد أصدقاءً له في جامعة النجاح في نابلس. كان جالسًا على درج بين المباني، يمزح ويضحك ويقضي وقته مع أصدقائه إلى أن يحين وقت عودتهم إلى محاضراتهم، وإذ برجل يقترب منه، يحمل حقيبة ظهر وبدا أشبه بطالب جامعي. طلب الرجل من إياد إن يعيره بطارية هاتفه لكي يجري مكالمة. لم يكن بالطلب غير المعتاد، والرجل وضَّح أنَّ شحن بطاريته نفد ولا يريد استهلاك دقائق إياد، فضلًا عن أنَّ الرقم الذي يود الاتصال به محفوظٌ على جهازه ولا يحفظه.

تردد إياد لوهلة وراح يمعن النظر في الرجل. إحساسه الأوليّ أنَّ ليس بوسعه رفض طلبه، لكنه خشي أن يتلاعب الرجل بالبطارية، فهذا تكتيكٌ معهود لدى مخابرات الاحتلال. نظر إلى هاتفه ثواني، ثم فتحه. انتزع البطارية وسلمها للرجل قائلًا، «تفضَّل». أخذها الرجل وابتعد برهة لكي يجري المكالمة.

بعد دقيقة عاد الرجل وشكر إياد قائلًا «الله يحميك» وهو يعيد البطارية. رفع إياد كفّه، وأومأ للرجل بالاحتفاظ بالبطارية لديه، قائلًا، «الله يهديك، خدها مني إلك».

تفاجأ الرجل وارتبك. أصرَّ على إعادة البطارية لكن إياد ما كان ليتزعزع عن قراره، حتى حين حاول الرجل إعادة البطارية بالقوة. أخيرًا، غادر الرجل وفي حوزته بطارية جديدة.

لا يتمتع إياد برفاهية التخلي عن حذره؛ فأن تواجه جيش الاحتلال بكامل قواه وأدواته المخابراتية المتعددة يعني أن تظل يقظًا لكل ما يجري

حولك، لأنَّ عدوك بوسعه ضربك في أي لحظة وبأي طريقة. وأحد أنجح إستراتيجيات الاحتلال توظيف فلسطينيين تدربوا لدى الوحدة الإسرائيلية السرية (504). هذه الفئة من العملاء يحددون الأهداف لجيش الاحتلال، يحددونها أحيانًا برش دهان فوق بنفسجي على سيارة المستهدف لكي تقصفها الأباتشي.

لا أحد على الإطلاق في مأمنٍ منهم.

عُرِف عن إياد نظرته الثاقبة في التعرف إلى العملاء منذ أيامه مع الفهد الأسود. وحدث مرة أن جاء أحد العناصر في الجهاد الإسلامي بعرضٍ من رجلٍ تواصل معه وادَّعى أن بإمكانه تأمين أسلحة للحركة. وحين أبلغ العنصر قادته المباشرين بهذا العرض، طلبوا مشورة إياد حول مصداقية الرجل. تعرَّف إياد على الاسم من الانتفاضة الأولى وحذَّرهم من عمالته، فقد حقق معه بنفسه قبل نحو عشرة أعوام. تجاهل العنصر تحذيرات إياد وأكَّد التزامه الحذر. بعدها بأيام، فيما العنصر يستعد لدخول السيارة مع الرجل، حاوطته قوة من مخابرات الاحتلال، أطلقت النار على قدمه وألقت القبض عليه، وتلقَّى حكمًا بقضاء خمس وثلاثين عامًا في السجن.

❖❖❖

مع مواصلة المقاومة نشاطها، أخذ جهاز الشاباك يضغط على السلطة الفلسطينية في اتجاه كبح الناشطين الفلسطينيين في أنحاء طولكرم وجنين، وتبادلت الجهتان المعلومات المخابراتية والأمنية. هكذا، أصبح إياد ومعتصم مطارَدَيْن من السلطتين، يحاولان الإفلات من قبضتهما.

ذات مرة، علمت قوات السلطة الفلسطينية بوجود إياد ومعتصم في مخبأ في طولكرم حيث يعدان المتفجرات، وحاوطت المبنى دون أن تثير شكوك الرجلين. ما إن اكتشف إياد حقيقة ما يحصل، اتصل برفاقه في سرايا القدس في طولكرم. وفي ظرف دقائق، حاوطت مجموعة من مقاتلي السرايا المبنى في مواجهة شرطة السلطة الفلسطينية، وهيَّجوا الوضع بعدما صاح أحدهم في الشرطة، «اطلعوا من هون! فش حدا!»

«إذا فش حدا ليش تواجهونا؟» ردَّ عليه أحد ضباط الشرطة.

«المنطقة هاي منطقتنا، وما لكم شغل فيها!»

واصل الطرفان رفع أصواتهما بغضب، وانتفخت الصدور ولاحت الأيدي بإيماءات غاضبة، وفي لحظة هدّد عناصر سرايا القدس باستخدام القوة إذا لم تغادر قوات الشرطة المكان. رغم أنَّ الوضع لم يتصاعد إلى هذا الحد، فقد منحت المواجهة إياد ومعتصم الإلهاء المطلوب لكي يفرَّا من المبنى عبر السطح والقفز إلى سطح مبنى مجاور، ومن هناك شقَّا طريقهما نحو مخبأ آخر. المواجهة بين السرايا والشرطة لم تكن ناجحة بالنسبة للشرطة -أو ربما قوات السلطة الفلسطينية لم تحرص على تنفيذ المهمة المطلوبة منها بالكامل- لأنَّ حين تسلل إياد ومعتصم بعد أيام إلى المبنى، وجدا المتفجرات والعبوات على حالها كما تركاها. أخذاها كلها وانتقلا إلى موقع أكثر أمنًا.

هذه لم تكن آخر مرة تلاحق قوات السلطة الفلسطينية إياد ومعتصم، ولا آخر مرة يفرّان منها بمنتهى السهولة. فالكثير من عناصر شرطة السلطة الفلسطينية متعاطفون مع المقاومين، والأوامر التي تصلهم

من جهات عليا، غالبًا ينفذونها بأقل جهد ممكن كما حصل مع الغارة «الخرقاء» على المخبأ في طولكرم. مرةً، اتصل ضابط في وحدة المخابرات الفلسطينية بإياد لكي يحذره من توجه الشرطة إليه لاعتقاله. وهكذا، ضمن تلك الشبكة الداعمة، تمكَّن إياد دومًا من تفادي الاعتقال.

28

نيسان - أيار 2001

بعد عيد ميلاده السابع والعشرين بعدة أشهر، التقى إياد بفتاة اسمها مريم. كانت جارة صديقه. كان الوقت ربيعًا وشقائق النعمان الحمراء أزهرت وأينعت في وديان كفر راعي وتلالها، لكن إياد لم يلحظ شقائق النعمان في الربيع الذي التقى فيه مريم.

والد مريم من كفر راعي لكنه عاش في كرواتيا عدة سنوات، تزوج فيها وأنجب ثلاثة أطفال. كان أحد الفلسطينيين الذين سافروا إلى أوروبا الشرقية في السبعينيات والثمانينيات نتيجة الروابط القوية بين السلطة الفلسطينية والاتحاد السوفييتي. في عام 1999، طلَّق والد مريم أمها الكرواتية، وكسب الحضانة على مريم وأختها وشقيقها، وعاد بهم جميعًا إلى عمّان. غير أنه عجز عن الاعتناء بهم وحده، فأرسلهم إلى فلسطين لكي يعيشوا في رعاية جدهم وجدتهم.

حين كبر الولد قليلًا انضم إلى أبيه في عمَّان، وبقيت الابنتان في الضفة الغربية حيث وجدتا الحياة صعبة عليهما، لا سيما في سن المراهقة. كانت مريم متحفظة ولم تتمتع بثقة عالية في نفسها، خصوصًا مع حديثها

بلغة عربية مكسرة، والحياة تحت الاحتلال مختلفة تمامًا عن الحياة في زغرب. وخلال الانتفاضة الثانية، عاشت في خوف دائم من تصعيد جيش الاحتلال العنف وإحكام سيطرته على الضفة الغربية.

كانت مريم ذات قامة قصيرة وجسد رشيق، وكان شعرها الناعم بلون التراب المحمر ينسدل إلى أسفل أذنيها، وبشرتها بيضاء معتمة؛ مع هذا المزيج من الصفات والألوان وأنفها الحاد، جذبت مريم انتباه رجال القرية.

أوّل ما عرفت باهتمام إياد بمريم اعترضت فورًا، وسوزان اعترضت كمان. سمعة عيلة أبوها في القرية مش منيحة مع كل هالإشاعات عن تواطؤ ناس من قرايبهم مع الاحتلال. تقاتلنا مع إياد لكنه عنَّد وأصرّ على موقفه، «يا بتجوّزها يا ما بتجوّز حدا».

فسَّرت سيرين تعلُّق إياد بمريم بسبب جمالها، لكن أخاها إيهاب شاركها تفسيرًا آخر؛ إياد رأى في شبابها اليافع فرصةً لتشكيلها على هواه إلى امرأة مسلمة صالحة وتقية، وفي المقابل، سيؤجره الله ثوابًا عظيمًا.

لم يبدُ أنَّ مريم كانت واعية لكل هذا الاهتمام الذي تجذبه، فهي في الغالب كتومة ومطيعة لجدَّيها. وربما لهذا السبب وافقت مريم على رغبة جدها وجدتها اللذين رأيا في إياد، من له شقيقة تعيش في أميركا، فرصةً لذهابها هناك معه إذا تزوجته.

في نهاية المطاف أقنع إياد أبوي انه يوافق يجوزه لمريم، وقلبي انكسر. ما قدرتش أفهم هالعلاقة! مريم تربت بأوروبا بعقلية مختلفة عنا تمامًا، وإياد شاب صارم ومتشدد وبدُّه الأمور كلها تمشي ع الدين والعادات

والتقاليد، فشو كانوا متأملين من هالزواج؟! الصراحة كان عندي أمل إنه هالباب يتسكَّر بوجه إياد إذا رفضت عيلتها طلبه، بس تفاجئت بموافقتهم عليه. طب كيف؟ إياد قضى تمان سنين في السجن، ما عنده شهادة جامعية وعاطل عن العمل، ليه حدا يوافق يزوّج بنته بهيك شاب؟ مريم نفسها ليش توافق؟!

سيد مريم وستها اتصلوا على أبوها في عَمّان وأقنعوه، وهو وافق. حسيت انه الكل انِجنّ! شو اللي صاير؟ ليش بدهم يزوجوا بنتهم لإياد؟

أم يوسف استاءت من اختيار ابنها، لكنها أملت أنَّ زواج إياد سيمنحه أخيرًا فرصة الاستقرار، ولربما سيقتنع مستقبلًا بالرحيل عن فلسطين.

أشخاصٌ كثر ضمن عائلة سيرين الممتدة رفضوا هذه المصاهرة. مع ذلك، ورغم كل الجدل الحاد، استضاف أبو يوسف وأم يوسف جمعًا غفيرًا احتفالًا بكتب الكتاب، فقد كانت هذه المرة الأولى التي يُعقَد فيها قران أحد أبنائهما في فلسطين. إلا أنَّ الفرحة جاءت على مضض، وفي يوم كتب الكتاب سمعت العائلة صوت أبو يوسف وهو يحث أم يوسف على النهوض وإظهار الفرح، «قومي! يلا امشي!».

لم يرتدِ إياد بدلة رسمية يومها بل لباسًا عاديًّا، قميص أزرق فاتح نص كم مع بنطال بيجي. لحيته مشذبة وابتسامته العريضة من الشق للشق، ضحكته المعروفة غطت على ملامح الوجوه الخالية من التعبير حوله. أما مريم فقد بدت متحفظة، في فستان سهرة مخملي بلون العنب الأزرق الغامق وبلا كمين، مع قفازي أوبرا باللون نفسه.

بعد يوم من كتب الكتاب اتصل عليّ إياد وطلب مني احكي مع مريم. ترددت شوي بس بعدين وافقت، وما عرفتش شو بدي احكي معها.

وبنبرة طفولية قال لي، «مشان الله احكي معها بالانجليزي».

دردشنا فترة أنا وهي، وحاولت أخبي الغصة اللي بقلبي بإني أتمشى في المطبخ وأمسح الكاونتر النضيف أصلًا، وألعب بخصل شعري، وأحاول أتبسَّم بكلامي معها. والظاهر نجحت في الدور لأنه إياد انبسط مني بعد كلامنا. باركت له وتمنيت له السعادة، بس كان صعب أخبّي حزني.

بعد يومين عاد إياد إلى نابلس، وهناك تشابكت حياته اليومية مع السياسة، والسياسة مع الأحداث العسكرية، وفي اليوم التالي ذهب في مهمة لمواجهة جنود الاحتلال. اختفى إياد على مر عشرة أيام، ولم يرد بتاتًا على اتصالات مريم. لاحقًا، بعد أسبوعين من آخر مرة تحادث فيها إياد ومريم، استيقظ جدًّا مريم ليجدا حفيدتهما قد رحلت من البيت دون علمهما. لم تذهب إلى المدرسة ولم تكن موجودة لدى أي أحد من أقاربها. فجأة اختفت.

سرت الشائعات بهروبها، وخمَّن البعض أنَّ الوقت الذي قضاه إياد في نابلس جعلها تعيد التفكير في اقترانها به بعدما عرفت إلى أي حد هو منخرط في النشاط السياسي المقاوم.

بعد يومين اتصل والدها من عمّان وأخبرهم أنَّ مريم لدى أمها في كرواتيا.

ناس قالوا إنّه سيارة مش معروفة استنتها على حدود القرية وراحت فيها ع السفارة الكرواتية في تل أبيب. هناك، خبَّرت مريم السلطات إنه

سيدها وستها جبروها تتجوز زلمة هي ما بتحبه. بعدها قضت كم يوم في السفارة قبل ما يسفروها ع كرواتيا. هاد اللي صار حسب كلامهم.

والد مريم أرسل رسالة إلى عائلة إياد يوافق فيها على دفع كافة نفقات كتب الكتاب - الفستان والطعام والترتيبات والمهر الذي دفعته عائلة إياد لمريم. اعتذر منهم قائلًا، «بنتي ما بدها تتجوز وتركت البلد. بعتذر منكم كثير». غير أنَّ جديها رفضا دفع تلك المستحقات، وقالا إنهما سينتظران عودة مريم.

لم يدفعا أبدًا.

اللي صار ما بيتصدَّق. مريم قعدت شهرين تجهّز للزواج، ما كانش شي عفوي أو سريع. ما حدا غصب عليها تعمل شي، هي بنفسها نزلت السوق مع اخواتي حتى تختار فستانها، وتدخلت بتجهيز حفل كتب الكتاب بكل تفاصيله. أبوي وإمي زاروها أكتر من مرة ببيت سيدها، وأختها ضربت صُحْبِة مع خواتي[1]، وأكتر من مرة قالت عن إياد إنه شاب حلو.

بعد ما هربت مريم اتصلت أنا على إياد، كان مجروح ومتدمِّر وخايف الناس توكِل وِجْهه[2]، شو رح يقولوا الناس هسّه بعد ما هربت خطيبته منه.

وهكذا اختفت مريم من حياة إياد بسرعة مثلما دخلتها بسرعة.

---

(1) ضرب صُحْبِة: صادَق شخصًا، أو بدأ علاقة صداقة معه.

(2) الناس توكِل وِجْهه: تعبير عامي مجازي يُقال عندما يتعرض شخص للإهانة أو التشهير أو الذمّ من قبل الآخرين علنًا، إلى درجة أنه يشعر بالخجل الشديد والعار، ويتمنى لو يختفي من شدّة الحرج.

29

تموز - أيلول 2001

عشت أيام صعبة بعد ما اختفت مريم، خفت من أثره على أخوي إياد وخفت من تأثير التوتُّر والزعل على أبوي وإمي. كان واضح قدّيش إياد متأثر باللي صار، لأسابيع ما إجى على كفر راعي، مرة بس زار أبوي وإمي في السر. بس وينه؟ وشو يعمل هلّا؟ ضلت هالأسئلة تلاحقني وأنا في برينستون، مش عارفة من وين بدّي ألاقيها، من التركيز على ولادي، ولا من قلقي طول الوقت على أهلي في فلسطين وقلبي اللي بيغلي عليهم وعلى أخوي إياد.

في تلك الأسابيع انشغل إياد بمحاولة النجاة والإفلات من قبضة الإسرائيليين، إذ بدأوا يقتربون منه. فقد صعَّد الاحتلال عمليات اغتيال عناصر المقاومة الفلسطينية، وفي خمس عشرة غارة ما بين تموز وآب قتلوا اثني عشر عنصرًا من المقاومة.

في أواخر آب، رتَّب أبو يوسف أموره للسفر إلى الولايات المتحدة لزيارة سيرين. كانت سيرين حينها في الشهر التاسع من حملها، وتتوقع ولادة ابنتها في غضون أسبوعين. تاقت سيرين إلى وصول أبيها، سعيدةً

بوجوده في حياتها من جديد، وأملت أنَّ الوقت الذي سيقضيه خارج فلسطين سيساعده. تذكرت زيارته الأخيرة إليها في أميركا حين كانت لا تزال تقيم في بروكلين، وكيف قضيا وقتهما معًا في المقاهي، يشاركها قصاصات من حياته وأفكاره حول العالم.

لكن لدى وصوله، بالكاد كان قادرًا على التقاط أنفاسه من شدة الألم.

***

صباح مغادرة أبو يوسف كفر راعي، استيقظ قبل معظم أهل القرية. الهواء كان ساكنًا، وفي المدى سديمٌ يحيط مخفر مستوطنة على تلةٍ من التلال. أم يوسف كانت قد أعدت له إفطارًا خفيفًا، وأيقظت أطفالها لكي يودّعوا أباهم. ودّعوه دامعين، إذ مرَّ وقت طويل منذ افترق عنهم؛ لكن أم يوسف، مثل سيرين، رأت في ابتعاده عن التوتر في فلسطين قرارًا نافعًا لأجل صحته. كان إياد أكثر الأشخاص ارتياحًا لسفر والده، فبابتعاده لن يُضطرّ إياد للقلق عليه، ولا الخوف من علم أبيه بما ينوي الإقدام عليه، ومن المؤكد أن سفره سيقلِّل حدّة نقاشاتهما.

عانق أبو يوسف بناته، وقبَّلْن جبينه دامعات. فاضت عيناه بالدمع، ووجنتاه احمرتا، ومثل كل مرة كان يسافر فيها عن عائلته، استسلم لدموعه وبكى. بعدها عانق ابنه بهاء، وأوصاه بالاعتناء بنفسه وبعائلته، ثم عانق أم يوسف واستقل سيارة الفان التي كانت في الانتظار، وانطلق في طريقه.

كان الصباح لا يزال مبكرًا لدى وصوله الجسر ودخوله الأردن.

وعدا الانتظار المعهود لدى قَطْع الجسر، بالكاد وقعت أي جلبة. لكن في طريقه إلى مطار الملكة علياء شعر بضغطٍ في قدمه اليمنى، غير أنه لم يُعِر بالًا للأمر.

الانتظار في الأردن استغرق وقتًا طويلًا. خلع فردة حذائه لكي يتفحَّص إصبع قدمه الكبير، هل ثمة جرح؟ هل الظفر داخلٌ في الجلد؟ لم يستطِع التأكد من سبب الألم، لذا راح يحرك إصبعه قليلًا ويثنيه، ثم ارتدى فردة حذائه.

في الرحلة الطويلة المباشرة إلى نيويورك، لم يخلع أبو يوسف حذاءه ولو لمرة. ربما منعته عزة نفسه واحتياجه إلى أن يبدو لائقًا أمام الناس طيلة الوقت، أو لربما رغب في الظهور رجلًا رصينًا صبورًا أمام أعين الغرباء الناقدة. لكن ما إن وصل مطار (جى أف كى) بالكاد استطاع تحمل الألم، وبعد ابتسامه في وجه ابنته وعناقها وقبلاتها، ما عاد لديه الآن سببٌ لإخفاء ألمه. في السيارة، خلع حذاءه وتبيَّن وجود التهاب حاد. قضى ساعتين في السيارة من المطار إلى برينستون بسبب أزمة السير، ومع ذلك أصرَّ أنه بخير. كانت سيرين من تقود السيارة.

على مر ساعتين بعد وصولهما البيت حاولت سيرين فعل كل شيء، ولا محاولة منها نجحت. استعانت بالكمادة الباردة، وبالثلج، وبمسكنات الألم – لا فائدة. أخذت والدها إلى غرفة الطوارئ في مستشفى برينستون، وهناك أخبروها أنَّ إصبع القدم ملتهب للغاية؛ وفي محاولة بطولية يائسة، وصفوا له مضادات حيوية على أمل تغيير النتيجة الحتمية.

بعد يومين، عادت سيرين مع والدها إلى مستشفى برينستون. الالتهاب في إصبع القدم الكبير استفحل - السم يسحب الأكسجين ببطء من خلايا إصبع القدم، الظفر اصفرَّ والجلد تعفَّن واخضرّ. اصبعان آخران بدأا في الانتفاخ.

أصيب بالغنغرينا.

خبّرونا إنه لازم نبتر الاصبع عطُول، على أمل إنه ما يضطروا يبتروا الإجر كلها[1]. أبوي زعل وعصَّب، بس لأنه عنده السكري فهم إنه هالشي ممكن يصير. على الأقل رح يبتروا اصبعه بس مو إِجْره كلها.

لم يستغرق الإجراء الجراحي وقتًا طويلًا، سحبوا السوائل وتركوا الجرح مفتوحًا لمراقبة الالتهاب وغطوه بضمادة رطبة. بقي أبو يوسف راقدًا عدة أيام في المستشفى.

أربعة أيام مرّوا وإِجِر أبوي ما انشفت، بالعكس زَرّقت والتهبت، وما صار في خيار قدام الدكاترة غير إنهم يبتروا طرفها، ويبتروا معها الأصابع كلها. بتروا الطرف، ورغم هيك ما انشفى أبوي، وهون خبرّونا إنه البتر ما رح ينجح إلا إذا بتروا إِجْره كاملة من تحت الركبة.

أبوي انجنّ.

تخيَّل أن تفقد ساقك، تصوَّر مدى غضبك وإحباطك وألمك.

كنّا لحالنا في غرفة المستشفى وفش دكتور معنا، وأبوي بيصرخ عليّ. بتذكّر منيح شو قال لي «اقتليني هون ولا ترجعيني معاق على فلسطين

(1) إِجِر: رِجل أو ساق.

والناس هناك تشوفني عاجز»، وبعدها صرخ عليّ من كل قلبه، «اليش سيرين؟ شو عملت لك حتى تقطعي رجلي؟»

الابنة أصبحت الوصيَّ على أبيها في أرضٍ ليست أرضه، محاطًا بلغةٍ لا يجيدها. هي من اضطرت إلى توقيع الإذن ببتر ساقه - مجرد حبرٍ على ورق سيعذبها عقودًا عدة.

أمورٌ كهذه لا ينبغي أن تُطلَب من الابنة.

المستشفى كلها سمعوا صراخ أبوي وأنا أوقِّع الورقة. خبِّرني، شو كان بدّي أعمل إذا أربع دكاترة خبروني إنه فش حل تاني؟ إنه الغنغرينا رح تنتشر بكل جسم أبوي وتقتله، وإنه الأسلم نبتر إِجْره تحت الركبة، وإنه الأطراف الصناعية تطورت كثير عن قبل ورح يقدر يمشي مرة تانية؟

صعب على أبو يوسف تقبُّل الخبر رغم خضوعه لعمليتيْ بتر سابقتين في ذاك الأسبوع، أو لربما صعب عليه تقبُّل الخبر بسببهما. فالمريض بالسكري يتعايش نفسيًّا مع احتمال البتر، لكن في كفر راعي الأمر مختلف. فسيرين لا تستذكر معرفة مريضٍ بالسكري بطرفٍ مبتور أو حتى رؤيتها واحدًا. صحيح مِن الرجال مَن تعرَّض للتعذيب والإذلال أمام أهل القرية على يد الاحتلال، لكن جميع رجال القرية مكتملو الجسد، حتى المرضى بالسكري. لكن أباها سيعود الآن إلى فلسطين بطرفٍ من جسده مدفون في أميركا - سيعود ناقصًا، فاقدًا، مبتورًا. لهذا صدمة أبيها من الخبر مزيجٌ من الفقد الموشِك على الحدوث والخزي المستقبلي الذي سيعيش معه في فلسطين.

كانت سيرين قد نقلت الخبر فورًا إلى أخيها يوسف المقيم في أوهايو وإلى أهلها في كفر راعي. يوسف تحدث إلى الأطباء وتفهَّم خطورة الوضع ودعم سيرين في قرارها. أما أمها، فما إن سمعت منها حتى صاحت عليها، «إيش عملتِ بأبوك! إيش عملتِ فيه!» لكن يوسف اتصل بأمه، ولم يستغرق وقتًا طويلًا في إقناعها. أحدهم نقل الخبر إلى إياد، وفورًا اتصل بسيرين. إياد كان على طبيعته الهادئة، وسأل سيرين، «متأكدة فش حل تاني؟»

شرحت له المحنة بكامل تفاصيلها، وشعر إياد بوخز الضمير لتمنّيه مغادرة أبيه فلسطين. ظلَّ صامتًا. بعدها، كما لو أنَّ العملية بأسرها تعتمد على موافقته، قال، «طيّب». سيرين كانت أصلًا تنتحب باكية على الهاتف، أخبرها إياد بأن تعتني بنفسها وأنهى المكالمة. بعدها، سيظل الهاجس يطارده، أنه لو لم يختَر طريق المقاومة، لو لم يختَر طريق القتال لأجل إعادة أبيه إلى أرضه، لربما ما كان سيفقد أبوه ساقه.

أخذوا والد سيرين لتجهيزه للجراحة. لم يكن بوسعها مرافقته أبعد من البابين المتأرجحين، واضطرت للافتراق عن أبيها. رأته يدخل مذعورًا إلى عالم تعجز أذناه عن ترجمة لغته، بينما تقف هي عاجزة أمام حدود يُمنَع عليها تجاوزها.

حتى لو استطاع الأطباء التواصل مع أبيها بسهولة؛ ما المزحة التي سيلقونها لكي يخففوا عنه؟ ما السلوان الذي سيمنحونه إياه بعودته إلى سابق عهده؟ ما الطمأنينة، ما الأمل، ما الوعد، الذي سيواسونه به؟

بدأ البنج يأخذ مفعوله، تلفَّت حوله في اللحظات الأخيرة قبل

انزلاقه إلى الهوة السحيقة. أقدامٌ تتحرك، أفواهٌ تنطق كلامًا غير مفهوم، أصوات ضحك، وفي اللحظة الأخيرة نام وأخذ خوفه معه.

العملية نفسها لم تستغرق أكثر من خمس وأربعين دقيقة، استخدم فيها الطبيب منشار العظام في كسر الساق وقطعها. اللحم المتدلي من الركبة بدا مثل جيفة التهمتها الحيوانات. وأمام هزيمةٍ كهذه يقر الطبيب بحدوده، بحدود الطب وتقنياته القديمة والحديثة العاجزة عن مجاراة طرفٍ مصابٍ بالغنغرينا.

بعد انتهاء العملية، تُرِكَ أبو يوسف في غرفة الإفاقة وحيدًا وبساقٍ واحدة. حين استيقظ وبدأ يعي ما حوله، لربما تمنَّى في نفسه الموت بالغنغرينا على الحياة مع هذا الألم.

استلقى على فراشه موصولًا بمحلول مغذٍّ عن طريق الحقن الوريدي، خاضعًا للتخدير فوق الجافية لتخفيف الألم، مع قثطار بولي لتفريغ مثانته إذ لن يقوى على الحراك لأيام.

لما نقلوا أبوي على غرفته، كنت قاعدة جنبه لما فتح عيونه بعد الإفاقة. إجى الطبيب وطَمّنا إنه العملية ما صار فيها أي تعقيدات، بعدين التفت لي وقال، «شكلك رح تِلَدي هسّه».

ولدت بنتي سلمى في 2 أيلول 2001، وهيك صرنا أنا وأبوي نايمين بالمستشفى، أنا بالطابق الخامس وهو في الطابق التالت، وبالطبع ما قدر يزورني ويشوف حفيدته. كان صعب كتير عليّ أعيش فرحة ولادتي ببنتي سلمى وأبوي عم يتوجَّع تحتي بطابقين.

قبل ما أطلع من المستشفى، وبمساعدة زوجي، طلع أبوي من

المستشفى ونقلناه على مركز ميروِك للرعاية والتأهيل. خبرونا المستشفى إنه ما بيقدر يرجع ع البيت هسّه من غير ممرضة تدير بالها عليه، وحالتي ما كانت بتسمح لي إني أتولى هالمهمة فورًا.

بعد ما طلعت من المستشفى رحت أزوره في المركز عشان يشوف سلمى. وبتذكّر منيح اللحظة اللي شفته فيها وشاف فيها بنتي. قعد يبكي ويترجاني أرجعه البيت معي، «مشان الله خديني معك، مشان الله، مش فاهم عليهم شو بيحكوا ومش فاهمين عليّ شو بحكي! والأكل اللي يعطوني إياه قرفت منه... قرفت!».

كان صعبًا على سيرين أن ترى أباها ينهار وتقف عاجزة أمامه عن فعل شيء، روحها تحطَّمت لحظة مغادرتها المركز ذاك المساء.

الأمور تعقدت مع رجعتي ع البيت اللي لقيته مكركب عالآخر. محمد ما دار باله ع البيت نهائي بغيابي، وابني زيد صار عنده التهاب حاد لأنه أهمل علاج الرَّمَد اللي بعيونه. اضطريت آخده بنفسي فورًا ع المستشفى اللي يا دوب طلعت منها مع بنتي سلمى، وصار لازم نخليه راقد تلات أيام هناك عشان يتعالج. محمد ضل قاعد مع زيد في المستشفى لأني ما قدرتش أقعد هناك. كانت فترة صعبة ومرهقة، حسيت فيها قدّيش أنا لحالي ومحدّش جنبي.

في الصباح التالي ذهبت سيرين إلى مركز ميروِك وحاولت إخراج والدها، لكن الممرضات رفضن. فالأمر ليس بهذه البساطة، وعلى الطبيب أن يتفحص ساقه أولًا. ظلَّ أبوها في المركز حتى السادس أو السابع من أيلول، بعدها عاد مساءً إلى البيت.

في البيت نام أبوي في الصالة بالطابق التحتاني، على فرشة فوتون مرتفعة شوي عن الأرض. هالترتيب كان أسهل عليه. وبالليل حطينا جنبه جهاز لاسلكي، وأنا حطيت جنبي الجهاز التاني حتى إذا اعتاز أي إشي منّي.

بـ10 أيلول نمنا بكير، وع الساعة أربعة الفجر سمعت صراخه. نزلت الدرج مثل المجنونة وشفته واقع ع الأرض. كان بده يروح ع الحمام، وفي غفلة حاول يوقف على إِجْره المبتورة ووقع. السلك الحديدي اللي بيثّبت قطعة الجلد الماسكة باللحم تحت الركبة انفصل، وعلى ما نزلت الدرج لقيت الأرض والشراشف حواليه وحتى دشداشته البيضاء غرقانة دم.

أنا ومحمد حملنا بابا عن الأرض وأخدناه ع السيارة، وحملت معي سلمى كمان وحطيتها في كرسي الأطفال لأني بقدرش اتركها تصحى في البيت من غير رضاعة. سقت السيارة على غرفة الطوارئ والحمدلله ضلت سلمى نايمة طول الطريق. محمد ضلّ في البيت مع زيد وباسل.

لما الدكاترة شافوا أبوي خبروني إنه بحاجة لجراحة عاجلة حتى يرجعوا يقطبوا الجلد اللي تحت الركبة. ما سمحوا لي استنى معه في الغرفة لأني والدة جديد، وكان ضروري أطلع من قسم الطوارئ. العملية أخدت وقت طويل، وبتذكّر هالشي منيح لأني وقتها كنت بتفرج على «سي إن إن» في غرفة الانتظار، وهناك شفت اصطدام الطائرة الأولى ببرج التجارة العالمي في 11 أيلول. ومع إنه بالي كان مشغول ع أبوي،

بتذكّر صدمتي وأنا قاعدة بتفرج مع طاقم المستشفى، عيوننا ع الشاشة، وكيف بعضهم كان قلقان على عيلته في المدينة، وكيف كنا كلنا مرعوبين.

مع رضيعة بالكاد تبلغ أسبوعًا من العمر، وأب لا يزال يعاني ألم البتر وارتباك التعامل مع الساق الشبحية، والآن جنوب مانهاتن مدفونة تحت الأدخنة والحطام، بدا لسيرين كما لو أنَّ العالم بأسره يتآمر اللحظة ضدها. عجزت عن إيقاف دوامة حياتها اليومية لحظةً للتفكر في الحدث الجلل الذي يجري أمامها الآن على بعد خمسين ميلًا في مدينة نيويورك.

بعد ما رجّعت أبوي ع البيت، وتأكدت إنه محمد موجود حتى يدير باله عليه، طلعت بالسيارة على صيدلية (Rite Aid) لأجيب الأدوية، وفي الطريق وقفني ضابط شرطة على شارع (ناسو) حتى يخالفني ع السرعة. لهّسه بتذكّر كيف انهرت قدامه وترجيته يتركني.

سيرين كانت غارقة تحت فيضان من المشاعر. وفي تلك اللحظة، حين استوعبت أخيرًا كل ما جرى عليها ذاك الأسبوع، انهارت أمام ضابط الشرطة وحاولت استعطافه، والاستعطاف ينفع أحيانًا، بشرط أن تتمتع بالمزيج الصحيح من الامتيازات ولون البشرة واللهجة والتواصل العاطفي. حينها قد تنحّي البيروقراطية لا مبالاتها لصراعات الناس اليومية جانبًا، ويستدرُّ التعامل الشخصي وجهًا لوجه عطفَها، فينصهر الزي الرسمي وقواعده الصارمة في لحظة إنسانية جميلة.

في الحادي عشر من أيلول 2001، بعد نحو اثنتي عشرة ساعة على اصطدام الطائرة الأولى ببرج التجارة العالمي، عجز ضابط الشرطة

عن التواصل مع وجه سيرين الزيتوني، ولم تستعطفه توسلاتها المشوبة باللهجة العربية.

في الجهة الأخرى من العالم، في فلسطين، كان إياد يلتقي بعدد من الرفاق في قرية عرَّابة لإقناع المقاومين هناك بالرحيل منها. إذ قبلها بليلتين شوهدت طائرات إسرائيلية عسكرية تحوم على ارتفاع منخفض أعلى القرية، وثمة شعور متزايد بأنَّ عناصر سرايا القدس ما عادوا آمنين فيها. قضى إياد عصر الحادي عشر من أيلول مع قادة آخرين في القرية لتخطيط عملية الهروب. من ضمن هؤلاء القادة محمد العارضة الذي بعد نحو عشرين عامًا، في السابع من أيلول، سيهرب من سجن جلبوع المشدَّد أمنيًّا برفقة خمسة من رفاقه الأسرى من حركة الجهاد الإسلامي وعضو من حركة فتح.

لاحظ محمد أنَّ إياد لم يكن على طبيعته، وسأله «شو مالك؟»

«أختي عايشة قريب من نيويورك، وأبوي معها هناك». لم يكن إياد قد سمع خبرًا منها، لكنه يعرف أنهما في المستشفى. كذلك أقلقته هواجس التفكير بألم أبيه، وتسلل إليه الشك بأنَّ الأحداث في نيويورك لن تنعكس جيدًا على فلسطين.

مع حلول الليل، بدأت الأخبار تتوارد من الولايات المتحدة بوقوف القاعدة خلف الهجمات على برجي التجارة العالمي والبنتاغون. عرف إياد الخبر على شاشة تلفاز صغير بهوائي مكسور واستقبال سيئ. في الوقت نفسه، وصل إليه الخبر بتحركات عسكرية جديدة على محيط

القرية، فرئيس حكومة الاحتلال أرييل شارون سيستغل اللحظة لتوجيه الأوامر بإطلاق سلسلة من الهجمات على المقاومة الفلسطينية، وإحدى تلك الهجمات على وشك أن تُشَن على المقاومين في عرابة.

هكذا، قبيل فجر الثاني عشر من أيلول، اقتحمت قوات الاحتلال القرية تحت غطاءٍ من قذائف المدافع وإطلاق نار كثيف. هذا الاقتحام خلا من عنصر المفاجأة.

«محمد صار وقت نطلع!» هتف إياد في عجلة وهو ينتشل بندقية (إم 16) مسروقة من جنود الاحتلال، ويحمل على ظهره رشاش كارلو كسلاح احتياطي، «بعرف من وين فينا نهرب، بس خلينا نشتت الجيش عشان يقدروا البقية يهربوا. بدنا نقاتلهم كم دقيقة بس».

تلثَّم إياد ومحمد بالكوفية، ولم يظهر من ملامح الواحد منهما سوى عينيه، وغادرا المخبأ وهما يحملان رشاشات مع ذخيرة من الرصاص، ثم احتميا خلف جدارٍ أسمنتي. أشار إياد لمحمد ببدء إطلاق النار، فانطلق محمد من خلف الجدار ووجَّه عدة طلقات متتالية على جنودٍ في نهاية الشارع. في الوقت نفسه، شقَّ إياد طريقه بسرعة نحو أحد المباني لكي يقترب من هدفه. انتظر انتهاء الجنود من رشق الرصاص ردًّا على محمد، ثم ظهر وأطلق الرصاص عليهم. تكرر هذا الكرّ والفرّ في تبادل إطلاق النار عدة مرات.

مع احتماء جنود الاحتلال خلف دبابة الميركافا، بدأت القوة العسكرية تقترب. أطلق إياد جولة أخرى، وبعدها عمَّ الصمت من جهة محمد. نظر إياد خلفه لكن لم يستطِع رؤية محمد، والجنود كثفوا

إطلاق النار. بدا له أنَّ الميركافا تستعد لإطلاق نارٍ كثيف على الجدار، وشعر بالزمن يمر ببطء شديد وهو في انتظار أن يُظهِر محمد وجهه.

حينذاك أطلق محمد صفيرًا. فقد تسلَّل إلى مبنى آخر، وأشار إلى إياد بنفاد ذخيرته.

تنفَّس إياد الصعداء. أطلقت الميركافا جولة جديدة من الرصاص على الجدار وسحقت جزءًا منه. أشار إياد لمحمد بالانسحاب. كانا سينطلقان يمينًا نحو نهاية الشارع، ويركضان عبر عدة مبانٍ ويهرعان نحو التلال التي يحفظ إياد طريقه فيها مثلما يحفظ شقوق جدار سجنه عن ظهر قلب، ومن هناك سيتوجهان إلى قرية فحمة. بعد الإشارة، انطلق إياد وجرى عدة أمتار قبل انعطافه يمينًا، أطلق جولة جديدة من الرصاص على الجنود لإعطاء محمد فرصة لكي يعدو وينضم إليه، ومن تلك اللحظة تلاشيا من مرأى الجنود، ونجحا في الفرار.

فيما هرب إياد ومحمد بعد الفجر بقليل، ثلاثة من رفاقهم ممن ظلوا عالقين في المخبأ باتوا محاطين بالكامل، والثلاثة لقوا حتفهم برصاص قوات الاحتلال.

30
مطلع شباط 2002

تسلَّق إياد جدارًا صغيرًا، وجرى بسرعة بين عدة أشجار في حديقة بناية من ثلاثة طوابق في كفر راعي. كانت ليلة صافية يضيئها الهلال برفقة نجومٍ وكواكب لا تُحصى. ليلتها، أرشدته النجوم مثلما أرشدته طيلة سنوات الانتفاضة الأولى، حين كان يجري من بيته نحو التلال المظلمة هاربًا من جنود الاحتلال المنطلقين في أعقابه.

في غمرة الظلمة الحالكة، في القرية النائمة بدون كهرباء، وصل إلى بوابة حديدية خضراء وراح يتحسسها بحثًا عن خرم القفل. وجده. فتح البوابة بالمفتاح الذي أعطوه إياه، وتسلَّل إلى شقة أرضية غير مكتملة البناء مساحتها فسيحة ومفتوحة، أشبه بمرآب.

ما إن دخل، سار نحو بابٍ خشبي غير مقفل عند نهاية الشقة، يصغي إلى صدى خطواته الخفيفة بالغة الحذر. فتح إياد الباب وانسلَّ نحو بيت الدرج بعدما تأكد ألا أحد هناك. صعد دورين برشاقة دون لفت انتباه أحد، وهناك فتح بالمفتاح باب شقة قريبه. في ليالٍ عدّة تسنّى له دخول الشقة دون أن يوقظ أحدًا من أهلها.

ليلتها كان إياد بصحبة رفيق ويتحادثان همسًا حين سمعهما ابن قريبه البالغ من العمر سبعة أعوام. كان مستيقظًا وطرق على بابهما. فتح إياد الباب ونظر للأسفل، حيًّا الولد بابتسامة عريضة مشرقة وعانقه. ففي غضون العام تشكلت علاقة وثيقة بينهما، إياد يمزح ويلهو مع الولد، والولد يرى في إياد بطلًا خارقًا من أبطال المقاومة، وكان إياد سيسمح له بحمل بندقيته. بعدها أتت الأم ورحَّبت بالرجلين، وأمرت ابنها بالتوجه إلى غرفته.

نام الرجلان على فرشتين إسفنجيتين. كانا قد قضيا اليومين الأخيرين هاربين من جنود الاحتلال، بعدما صعَّد الجيش عملية البحث عن عناصر المقاومة الواقفين خلف عملية تتعلَّق برجلٍ يُدعَى مراد أبو العسل. لذا، حين انفلق الصبح في ذاك اليوم، لازما الشقة عدة ليالٍ.

قصة مراد أبو العسل قصة غريبة. كان مراد شابًّا في الثانية والعشرين، ينحدر من قرية عنبتا قرب كفر راعي، القرية نفسها التي ينحدر منها معتصم، وعلم معتصم بأنَّ مراد تحوَّل إلى عميل أثناء وجوده في السجن. لكن ثمة اختلاف ما بين سردية حركة الجهاد الإسلامي وسردية سيرين حول كيفية اكتشاف معتصم عمالة مراد. تزعم الحركة أنَّ مراد اعترف على نفسه وأخبر معتصم بما حصل، وعرض أن يكون عميلًا مزدوجًا. أما سيرين فتقول إنها سمعت أنَّ أنشطة مراد المخابراتية كُشِفَت، وأنَّ دوره كعميلٍ مزدوج فعلُ توبة عن جريمة العمالة.

حين علم معتصم بعمالة مراد شارك المعلومة مع إياد. صحيح كلاهما من الرتبة القيادية نفسها في الحركة، إلا أنهما أيضًا صديقان

حميمان ورفيقان متلازمان، ويخططان لكل شيءٍ معًا. ناقش إياد ومعتصم خيارات التعامل مع هذه المعلومة، ورفع إياد الأمر إلى القيادة العليا حيث جرى الاتفاق على خطة. قررت سرايا القدس في المنطقة السماح لمراد بمشاركة المعلومات مع المسؤول الإسرائيلي عنه بما يسمح له بنيل ثقة الاحتلال، على أن تقرر قيادة الحركة بالطبع المعلومات المسموح بمشاركتها. واستمر الوضع على هذا المنوال عدة أشهر.

في صباح الثلاثين من كانون الثاني غادر مراد عنبتا. قبَّل جبين أمه وغادر البيت بهدوء مرتديًا بدلة رياضية كحلية فضفاضة. استقل سيارة تاكسي إلى نواحي طولكرم وطلب من السائق النزول بالقرب من مقهى يطل على الشارع. انتظر عدة دقائق، دخَّن سيجارة، ثم أوقف سيارة تاكسي أخرى وطلب من سائقها أخذه إلى حاجز الطيبة.

ترجَّل مراد من سيارة التاكسي على مسافة من الحاجز، وانتظر على جانب الطريق يدخّن سيجارة أخرى. بعد عدة دقائق، ظهرت سيارة فولكس فاغن بيضاء من على بعد، وقادها سائقها إلى حيث يقف مراد منتظرًا. فيما أبطأت السيارة سرعتها، تلفَّت مراد حواليه بحثًا عن مارة، لكن لم يكن ثمة أحد في الجوار. رمى نصف سيجارته على الأرض وداس عليها. رجلٌ ترجَّل من السيارة، وتصافحا.

«كيفك مراد؟»

«أنا منيح، كيفك أنت؟» ردَّ مراد مبتهجًا.

«منيح، منيح». ردَّ الرجل وهو يربِّت مراد بحثًا عن أسلحة. «فوت جوّه».

«شكرًا»، قال مراد ودخل. كان ثمة رجل آخر في السيارة. كلا الرجلين عنصران من عناصر الشاباك.

«أهلين مراد، عندك شي إلنا اليوم؟» قال السائق وهو ينطلق بسلاسة عبر حاجز التفتيش خارج الضفة الغربية ونحو بلدة طيبة.

«أكيد حامل لكم شي معي»، أجاب مراد بابتسامة مواربة، ولمح السائق مراد على مرآة الرؤية الخلفية وهو يشير إلى ملابسه، وسأل بنبرة يشوبها الخوف، «إيش هاد؟»

«هاد هديتي إلكم!» أجاب مراد، لا يزال على ابتسامته المواربة. العنصر الآخر على مقعد الراكب التفت خلفًا ليري ما الذي يقصده شريكه. حينها أخذ مراد نفسًا عميقًا، حدَّق إلى عيني كل عنصرٍ منهما، ثم أعلن في صوتٍ هادئ وعالٍ، «الله أكبر!»

مراد، المسلَّح بنصف كيلو من المتفجرات الملصقة على جسده التي لم يكشفها عنصر الشاباك، فجَّر العبوة الناسفة في السيارة، وقتل ضابطي الشاباك ونفسه.

ليلتها، كان مراد قد سجَّل نفسه يقرأ نصًّا مكتوبًا، حاملًا بندقيةً في يده، جبينه معصوب برباط سرايا القدس، وإلى جانبه علمٌ أسود مرفوع يحمل عبارة «لا إله إلا الله». بدا هادئًا، متمالكًا نفسه، وفي لحظة أخطأ في القراءة وعاد صحح لنفسه.

سجَّل مراد خطابه وعاش ليلته الأخيرة في حضور معتصم، ولربما إياد كان هناك أيضًا. بعدها بسنوات، شاهدت سيرين الخطاب على يوتيوب، وحاولت جاهدة استنباط وجود شخصٍ آخر من خلال

انعكاس عيني مراد. ربما إياد من كان يحمل الكاميرا المهزوزة، ورأى مراد يعيش هذه اللحظات من خلال عدسة الكاميرا. أو ربما شخصٌ ثالث كان يحمل الكاميرا، وإياد واقفٌ في زاوية أخرى من الغرفة. شاهدت سيرين الفيديو وحاولت تصوّر مشاهدته من عيني أخيها. الفيديو ينتهي فجأة، وحاولت سيرين تصوّر اللحظات الاعتيادية بعد هذا التسجيل! هل تمازحوا؟ هل تناولوا العشاء معًا؟ هل راجعوا العملية للمرة الأخيرة؟ هل خاضوا نقاشات حول العالم؟ أو ربما تركوا مراد وحده لكي يصلّي قبل ذهابه إلى بيت أمه؟

اليوم، في عنبتا، هناك دوّار يحمل اسم الشهيد مراد أبو العسل، أقاموه بعد عشرين عامًا من العملية.

لاذ إياد إلى المخبأ لدى قريبه مرةً أخيرة بعد عملية مراد أبو العسل. بعدها، أصبحت تحركاته أشدَّ سريَّةً، وباتت كفر راعي مخبأً خطرًا للغاية. رغم أنَّ للمطلوبين أساليبهم في الاختفاء بين الجموع والمشي بينهم دون لفت الانتباه، فقد كان من الأسهل على إياد الاختفاء في مدن مثل جنين ونابلس وطولكرم. ففي تلك المدن شبكة واسعة من المخابئ، ودوريات الاحتلال لا تجول في شوارعها بانتظام كون تلك المدن تظل تحت سيطرة السلطة الفلسطينية. أما في كفر راعي، فمن السهل على أي عميل تسليم إياد لأنَّ الكل يعرف الكل، كذلك لا يضمن إياد ألا يسلمه أحدٌ من أهالي القرية انتقامًا مما ارتكبه في أعوامه ضمن جماعة الفهد الأسود. مع ذلك، حرص إياد بين وقتٍ وآخر على زيارة بيت عائلته، لكن ما كان ليبقى فيه أكثر من عدة دقائق.

تعوَّدنا أنا وإياد نحكي بالسنة الأولى من الانتفاضة التانية، وبكل مرة بكلمه فيها بحكي بحماس عالي زي البنت الصغيرة، بحاول أعرف منه آخر أخباره قبل ما يسكّر المكالمة بسرعة. بتذكّر مرة اتصلت عليه بعد مظاهرة كبيرة في واشنطن، وحكالي إنه انجنّ وهو يدوِّر عليّ بين هالناس. كنت وقتها أعطي مقابلات للمحطات الإعلامية وأنا في المظاهرات، لهيك دوَّر عليّ على أمل إنه يشوفني. بس مع بداية 2002 صار صعب كتير نحكي مع بعض.

أبوي كان لسّاته معي بأميركا، وأكتر من مرة عبَّر عن خيبة أمله في إياد. ولما أسأله عن السبب يجاوبني «إنتِ مش عارفة إيش صاير معه، بس أخوك إياد رح يخلي الصهاينة يهدّوا دارنا». في كل مرة أبوي يعطيني هالإجابة بثقة، بس ما بظن كان يعرف أصلًا إيش صاير مع إياد.

أصلًا أبوي فقد سيطرته على إياد حتى قبل ما يجي عندي على أميركا. أبوي ما كانش راضي عن دخول إياد البيت مع أصحابه الشباب، حاملين معهم شنط احتمال يكون فيها متفجرات، وهاد خلق زعل بينه وبين إياد. إياد شاركني زعله من أبوي على منعه دخوله للبيت بس كان متفهّم وجهة نظره. بس بالنسبة لإياد، هو نذر نفسه ليحرر فلسطين، وفش شي أو حدا بيخليه يترك هالطريق.

معارك الشجار بين إياد وأبيه حول سلامة العائلة احتدَّت، ومع الوقت أصبح لا طائل منها. «ما بنقدرش نصلي وندعي ربنا إنه ينهي الاحتلال!» اعتاد إياد الصياح على أبيه في كل شجار. فمع انضمام إياد إلى حركة الجهاد الإسلامي، بات يعتنق منظورًا مختلفًا للعالم عن

أبيه. فقد آمن بمنظور المفكر الإسلامي فتحي يكن، «بأن طغيان مبدأ السلامة والمبالغة في أهميتها لن ينتج عنها إلا قتل روح الفداء والتضحية في الأفراد».

في الشهور الأولى بعد البتر، صار صعب على أبوي يتابع آخر أخبار فلسطين، ويتابع آخر مكان موجود فيه إياد. حط كل تركيزه في هديك الأشهر على العلاج الطبيعي[1]. وبعد ما انشفى جرحه والتأم، أمّنوا له ساق اصطناعية، وقضى تلات شهور يتعلم المشي عليها من غير عكاز.

ظلَّ أبو يوسف برفقة ابنته سبعة أشهر بعد عملية البتر، إلى حلول ربيع 2002. أحبَّ أبو يوسف حياته مع سيرين، لكن عزم في النهاية على العودة. لم يجد في كفر راعي ما يحثُّه على العودة إليها سوى أنها ببساطة الحياة الوحيدة التي يعرفها، ولم يهضم الحياة في برينستون. كذلك، أمل أنَّ عودته وحضوره في البيت سيحبط إياد، ولو مؤقتًا، عن ارتكاب أي عملٍ يهدد سلامة عائلته.

حين علم إياد بخطة أبيه للعودة، اتصل بسيرين في محاولة يائسة منه علَّها تغيّر رأي أبيها. فالانتفاضة بلغت أوجها، وقوات الاحتلال تغير ليلًا على القرى. وما عسى رجلٍ مسن يريد من حياةٍ كهذه؟

«الله يخرب شيطانك، سيرين!» صاح إياد على أخته، «تخليهوش يرجع! إذا عرف باللي بعمله رح ينجن، ومش رح يعرف كيف يتصرَّف!».

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) حط كل تركيزه: صب كل تركيزه

ترّجاني إياد لحتى أمنع أبوي يرجع ع فلسطين، بس ما رضي يخبّرني ليش. حسيت حالي عالقة بين الاتنين. ما قدرتش أنام، وجسمي كله صار يوجعني. شو اللي رح يصير وأبوي ما رح يعرف كيف يتصرف معه؟ ليش رح ينجن؟

حسيت إنه إياد تورَّط بإشي كبير، بس كيف؟ ما كانش عندي دليل، وما قدرتش أقنع أبوي يقعد معي أكتر من هيك.

31
أواخر شباط 2002

مرَّ شتاء 2002 على برينستون ببرودة معتدلة، وكان أشدَّ شهور الشتاء جفافًا. غير أنَّ البرد في البيت الصغير في جادة لوريل، بأرضه ذات الثلثي فدَّان، كان صقيعًا. سيرين لم تكن معتادة على هذه البرودة الشديدة، وشقتها في نيويورك دومًا كانت دافئة، ارتداؤها بلوزة هناك كان كافيًا لكي تدفأ.

ذات ليلة في أواخر شباط، وقفت سيرين أمام مرآة حمَّامها، ضباب أنفاسها يحجب انعكاس وجهها. دومًا ما شعرت بأنَّ المرآة تحدِّق إليها، ترقبها وهي تعدو جيئةً وذهابًا بين غرفتها وغرفة سلمى، تنتظرها آخر النهار لكي تلتقط ملامح وجهها لدى صعودها الدرج بعد يومٍ طويلٍ آخر من الاعتناء بعائلتها وبيتها دون سماع كلمة شكرٍ واحدة، دون أي تقدير. مرآة الحمَّام تخترق سيرين بنظراتها، تلج أعماقها، وتنتزع الوحدة الحزينة التي تخبئها سيرين عن كل من حولها.

لم يكن من غير المعتاد على سيرين الوقوف أمام المرآة والتحديق إلى العالم الحقيقي فيها، فكُّ شفرة وجودها اللانهائي. هي اعتادت الأمر حدًّا ما عادت تفكّر به.

في تلك الليلة أرادت سيرين الهروب من حاضرها ومستقبلها. دنت من المرآة وضبّبت السطح بأنفاسها لكي تُخفي عينيها، لكي تسمح لنفسها، ولو للحظات، الهروب من نظرة مرآتها. مالت برأسها للوراء وانتظرت انقشاع أنفاسها الحارة. صَفَت المرآة وعادت تحدِّق إليها. مالت سيرين مرةً أخرى للأمام، زفرت، واختفى وجهها في الضباب. كرَّرت هذه الفعلة مرارًا إلى أن ما عاد الهرب خيارًا.

نظرت للأسفل إلى بيجامتها المخملية السوداء، ثم عادت تحدِّق إليها من خلال عيني مرآتها. كانت بيجامة بشعة - سميكة للغاية وما كانت لترتديها أبدًا في شقتها في نيويورك، لكنها تنفعها الآن في صقيع هذه الليلة في بيتها الجديد. رفعت عينيها، ثم عادت تنظر للأسفل إلى بيجامتها السوداء.

رفعت عينيها مرة أخرى، وإذ تلمح رؤيا سريعة اخترقت المسافة بينها وبين مرآتها. كانت تنوح، إياد مستلقٍ أسفل منها، مدثَّرًا بكفنٍ أبيض، وعلم فلسطين ممدودٌ على ساقيه.

الجموع محتشدة، وهي واقفة، عاجزة عن فهم سبب احتشادها.

هي تنوح، وهو يبتسم في سلام وطمأنينة.

شدَّت المرآة شعرها، مثل يدٍ من المستقبل امتدَّت لكي تجبرها على القفز من هذه اللحظة. شؤمٌ مفاجئ غمرها، عبق زهور الجنائز انتشر

في الحمام، وشعرت بدموعها تتجمَّع وتحتبس في عينيها. شدة الشعر باتت أقوى وأثقل؛ إحساس الضربِ في رأسها أعنف. فلتت أخيرًا من القبضة على شعرها واندفع رأسها خلفًا، قبضت على صدر بيجامتها وخلعتها بعنف عن جسدها. وها هي الآن تنظر إلى نفسها من جديد بعدما تحررت من المخمل الأسود الخانق واستعادت أنفاسها. ما حدث التو ليس حقيقيًّا، ولن يأتيَ يومٌ يكون فيه حقيقيًّا.

لَمَّت شتات نفسها وفتحت باب الحمام. سارت نحو غرفة ابنتها. زحفت إلى الفراش واستلقت إلى جانبها.

32

آذار 2002

إياد كان يختبئ في التلال، في مكانٍ ما بين نابلس وطولكرم، بينما معتصم رابضٌ في حظيرة في حقلٍ في نواحي قرية بلعا، مع رفيقٍ آخر يُدعَى ماهر البلبيسي. كان يومًا ربيعيًّا لطيفًا، بجمال ربيع البحر المتوسط، وما كنت لتريد رؤيته ينتهي، ففي نسائمه يمتزج دفء الشمس بالبرودة الرقيقة وتداعب وجهك. في الحقل، تسنَّى لمعتصم رؤية زهور الشهداء، الشقائق الحمر، منبسطة من حوله، بعمرها القصير وبتلاتها الرقيقة الملطخة بدماء أدونيس. إياد أيضًا تسنَّى له رؤيتها من موقعه في التلال، ففي آذار يمتد البساط الأحمر، والرجلان تأملا جمال الشقائق، مدركين ذبولها الحتمي السريع قبل أن يزهر ربيع المستقبل.

التوتر في الضفة بلغ ذروته. قوات الاحتلال تُغير على القرى وتصعِّد عمليات اعتقال عناصر المقاومة وقتلهم. بالقرب من رام الله، انتشارٌ كثيف لقوات الاحتلال رغم تصريح الولايات المتحدة بضرورة انسحاب القوات بأكملها من المنطقة «أ». في المجمل، عشرون ألف

جندي إسرائيلي انخرطوا في هجمات عسكرية وعمليات اقتحام في قطاع غزة والضفة الغربية. إياد ومعتصم كانا مدركين أنهما مطاردان.

ففي ذاك الوقت، ارتقى معتصم على قائمة المطلوبين لتجهيزه العبوات المتفجرة والأحزمة الناسفة، وتدريب الآخرين على القتال بالرشاشات والبنادق، ولانخراطه شخصيًا، إلى جانب إياد، في اشتباك مباشر ضد جنود الاحتلال. والأهم، أراده الاحتلال لصلته بعملية مراد أبو العسل، والعملية التي خطط لتنفيذها في بلدة بيت ليد جنوب طولكرم.

معتصم وإياد باتا يعرفان إلى أي حد بلغ الإبداع لدى الاحتلال في ارتكابه عمليات القتل. قبل عام، اغتال عدد من عناصر الوحدة (504) رفيقًا من رفاقهم، إياد حردان، بتفخيخ كابينة هاتف عمومي عرفوا أنه سيستخدمه، وانفجرت في وجهه. كذلك، يعرف إياد ومعتصم كيف يحوّل جيش الاحتلال الهواتف المحمولة إلى أسلحة. فمن جهة، يستفيد منها المقاومون في التواصل على بعد مسافات شاسعة، على خلاف أجهزة اللاسلكي، وتسمح لهم بالالتفاف على قوات الاحتلال. لكن الهواتف نفسها ممكن تحويلها إلى متفجرات متنقلة تُفجَّر عن بعد، أو أداة يحدد بها الجيش مواقع عناصر المقاومة ويغتالهم. بل إذا افترق عنصر المقاومة عن هاتفه النقال لوهلة، قد يتحوَّل هاتفه إلى لغم. وإذا تشبَّث مقاوم بخطِّه فترةً طويلة، سيتسنى للاحتلال تحديد موقعه وقصفه بصاروخ. بقدر ما مثَّل الهاتف المحمول أداة تقنية نافعة في يد المقاومة، فقد مثَّل أيضًا أداة مراقبة أمنية تشدُّ قبضة القوة الصهيونية.

إياد ومعتصم كانا على الهاتف، فإياد اتصل على معتصم لكي يشاركه آخر تحديثات تحرُّك القوات. وفي أقل من دقيقة على بدء المكالمة، سمع كلاهما ضجَّة مراوح طائرات الأباتشي ترتفع فوق التلال. على الأرجح لم يكن إياد على مسافة بعيدة من معتصم، ربما كان في بلعا أو قرب كفر راعي. حذَّر إياد صديقه فورًا، قائلًا إن تلك الطائرات لربما آتية لاقتناص أحدهما.

إياد قال لمعتصم «يا إلك، يا إلي»، هيك حكى لي إياد لما تكلمنا أنا واياه عن العملية.

لم يكَد إياد ينهي الجملة حتى سمع دويّ انفجار يصمُّ الآذان، وانقطع الخط.

في المدى، انفجر بيت مزرعة. لم يكن إياد واثقًا إن سمع قطع الخط أولًا أم الانفجار. كان قريبًا بما يكفي لكي يسمع وقع الانفجار من أعلى التلال. أغمض عينيه بشدَّة وللحظة خوى قلبه، كما لو أنَّ يدًا انتزعت روحه منه.

معتصم وماهر استشهدا فورًا، دون أوهى فرصة بالنجاة. قُتِلا بالقذيفة التي أطلقتها طائرة الأباتشي. أو على الأقل، هذه هي القصة التي تعتمدها حركة الجهاد الإسلامي. فعائلة معتصم متشبثة بقصة مختلفة إلى حدٍّ ما، وهذه القصة تقول إنَّ ماهر وحده من قُتِل. أما معتصم، فقد كان يصلي حينها وبذا تفادى الانفجار، وتمكَّن من مقاتلة الجنود على الأرض، حيث دامت المواجهة واحتدَّت إلى ما يزيد عن ساعة، إلى أن استطاع أحد الجنود اقتناصه وأرداه قتيلًا.

هكذا اقتنص الاحتلال رفاق إياد وقتلهم، الواحد تلو الآخر.

وحده بكى فَقْد أصدقائه وعاهدهم على الانتقام. بعد اغتيال معتصم، طبع إياد صورة رفيقه على بلوزة بيضاء، وأعلى صورته طبع العبارة «وعدًا وعهدًا»، وأسفل الصورة طبع عبارة «لن أنساك».

اليوم، في عنبتا، فريق كرة قدم يحمل اسم معتصم.

بتذكّر إنه وقت استشهد معتصم توفّت ستي، إمها لإمي. وإمي تركت عزا إمها وراحت ع بيت أم معتصم. كانت المرة الأولى اللي بيلتقوا فيها ببعض، وأول ما عرفت أم معتصم إنه إمي تكون أم إياد، عبطتها وصارت تعيّط وتنوح على كتفها.

33

نيسان 2002

بعد أسابيع قليلة من اغتيال معتصم، وفيما اختبأ إياد في قرية قرب طولكرم، حاوط مئات الجنود مخيم جنين استعدادًا لمعركة جنين، والتي كانت ستندلع في الثالث من نيسان. سيأتي الاجتياح ضمن هجوم عسكري صهيوني أكبر انطلقت عملياته قبل الحصار بخمسة أيام. وشهدت تلك الأيام الخمسة اقتحام قوات الاحتلال المدن الفلسطينية الرئيسية في المنطقة «أ» - رام الله وبيت لحم وطولكرم وقلقيليا وجنين ونابلس. كان هدف الاحتلال المعلن خلف هذا الهجوم وضعُ حدٍّ لأنشطة الميليشيا الفلسطينية في المدن الإسرائيلية ضمن الخط الأخضر. غير أنَّ الهدف الحقيقي، على أرض الواقع، تمثَّل في تعزيز سيطرة الاحتلال العسكرية والإدارية المطلقة على كامل الضفة الغربية.

آمن جيش الاحتلال أنَّ تدمير المقاومة في جنين سيوجه ضربة قاصمة لعمليات المقاومة على امتداد الضفة الغربية. ففي مخيم جنين تتَّحد أجنحة مختلف الفصائل الفلسطينية في عمليات المقاومة، وتتشارك

مقر عمليات رئيسي واحد للتنسيق بين مختلف العمليات، مما يجعل تلك العمليات مُهلِكة وفعَّالة.

في الثالث من نيسان، في الساعة الثانية صباحًا، شرعت دبابات الميركافا في قصف المخيم. وفي الوقت نفسه، اخترقت وحدات من القوات الخاصة نواحي المخيم وتمركزت على أسطح المباني العالية والجوامع. واصلت القوات الخاصة تمركزها حتى الرابع من نيسان، تتموضع في مواقع إستراتيجية ضمن فرق من خمس وعشرين إلى ثلاثين جنديًّا. بيت إبراهيم عامر، أحد سكان المخيم، كان أول البيوت التي ستحتلها القوات الصهيونية في الأيام الأولى. ابنه زيد قُتِل برصاصة في رأسه، وتُركَت جثته في غرفة المعيشة طيلة أيام المعركة. إياد تلقَّى تلك المعلومات أولًا بأول من شبكة مقاتلي الجهاد الإسلامي المتحصنين في المخيم، ومن عناصر آخرين من الحركة في وسط مدينة جنين وعلى مسافة قصيرة من المخيم. استاء إياد من عجزه ومن إحساسه بالذنب لعدم وجوده مع رفاقه.

في اليومين الأولين ظلَّ المدخل الشرقي للمخيم مفتوحًا، وتمكَّن بعض سكان المخيم من النزوح. لكن مع حلول الخامس من نيسان حوصر المخيم بأكمله، وشرعت طائرات الأباتشي وكوبرا تقصف المخيم بصواريخها. في الثامن من نيسان وجدت القوات المتقدمة منفذًا واجتاحت مخيم جنين من المدخل الشرقي، وواصلت تحركها في اتجاه حارة الحواشين في وسط المخيم.

في اليوم التالي، قتل عناصر المقاومة الفلسطينية ثلاثة عشر جنديًّا من جيش الاحتلال، في اشتباكات عنيفة قاتل فيها المقاومون ببسالة في

أزقة المخيم الضيقة التي يحفظونها عن ظهر قلب. إياد سمع الخبر في تقريرٍ إخباري، كان في مخبأ برفقة عناصر آخرين في المقاومة، وما استطاع أحدهم إخفاء حماسه. شعر إياد بالفخر حتى مع معرفته بأنَّ قوات الاحتلال ستواصل اجتياحها رغم وقوع قتلى من جنودها. فالمقاومة استطاعت إيذاء الاحتلال المستبد ووجهت له ضربة قوية بعدما زرعت الخوف في قلوب جنوده. بعدها بدأ جيش الاحتلال يجرف البيوت ويهدمها، على الأغلب دون تحذيرٍ مسبق لأهلها القاطنين فيها. معظم حارتي الحواشين والدمج سويّت بالتراب بهذه الطريقة.

الآلاف من أهل المخيم، بعدما تهدمت بيوتهم وتعرضت أحياؤهم للقصف، فرّوا إلى القرى المجاورة، وبعضهم تعرَّض للاعتقال، وأجبر جنود الاحتلال المئات على مغادرة المخيم تحت تهديد السلاح. البعض من أهالي المخيم نزحوا إلى مدينة جنين طلبًا للأمان. وفي النهاية، وقعت المجزرة.

جرى توثيق قصص العديد من سكان المخيم. أبو جندل، أعدمه جنود الاحتلال برصاصة في رأسه، معصوب العينين ومقيّد اليدين. عبد الكريم يوسف السعدي، أطلق جنود الاحتلال عليه النار وهو يواجه الحائط رافعًا يديه.

هالة، زوجة عطية ارميلات، تسرد لحظات زوجها الأخيرة على فريق استقصائي من الصحفيين:

«زحف زوجي إلى غرفة الصالون ووجدها منتثرة بالزجاج المهشَّم، عاد إلى غرفة النوم وارتدى حذاءه، ثم زحف مرة أخرى إلى الصالون.

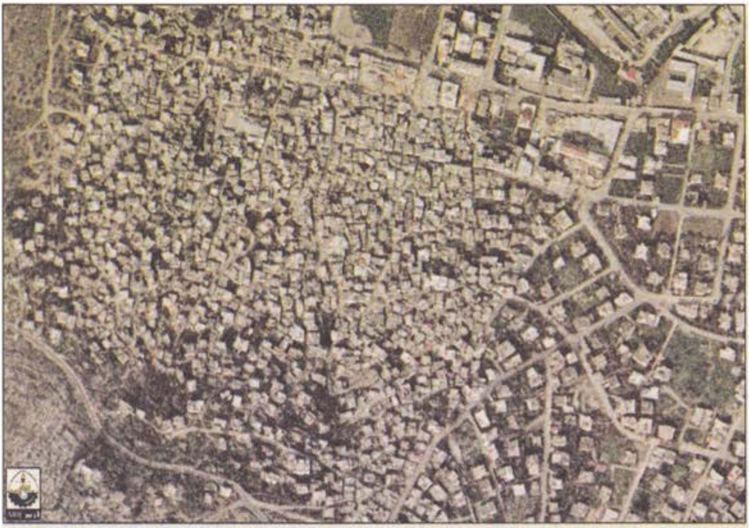

فوق: مخيم جنين قبل 2001. تحت: المخيم في شهر أيار 2003 بعد معركة جنين، تظهر الدمار الكامل الذي تعرضت له عدة حارات في المخيم.

المصدر: معهد الأبحاث التطبيقية - القدس (أريج)

بالكاد مرت دقيقة وإذ أسمع دوي رصاصة واحدة. صار ينادي عليّ، نادى عليّ ثلاث مرات «هالة... هالة... هالة». صوته كان مختلفًا، كان صوت إنسانٍ موجوع، وأدركت فورًا أنه تعرَّض لإطلاق النار. كنت في غرفة النوم مع أطفالنا، وهو لا يزال بعد في الصالون. جريت إليه وجرى أطفالي خلفي، وما إن دخلت وجدته واقفًا، نظر إليّ وسألني «إيش صار؟»، يشير إليّ بيديه كما لو أنه فعلًا لا يدري ما الذي حصل التو، وسألته «إيش صارلك؟». لحظتها رأيت الدم يسيل من رأسه. فتح فمه لكي يجيبني، لكن لم يستطِع نطق كلمة واحدة. حاول الكلام مرة أخرى، والدم اندفق من فمه وأنفه ورأسه. سقوطه على الأرض كان بطيئًا. حدقت إليه بنظرةٍ جامدة، ثم التفتُّ إلى أطفالي المرعوبين. لم أكن موقنة أين أصيب، لأن الدم ما فتئ يندفق من كل مكان في جسده. نظر إليّ وإلى أولاده، وارتجّ. هنا عرفت أنه مات».

ظلَّ جثمان عطية في البيت سبعة أيام، وإلى اليوم يحمل أولاده ألمه.

مع حلول الثالث عشر من نيسان توقف القصف. وفي الأيام القليلة التالية، منح جيش الاحتلال تصريحًا محدودًا بدخول الصليب الأحمر وإخراج الجثامين والمصابين. غير أنَّ الصليب الأحمر أوقف عملياته في الخامس عشر من نيسان اعتراضًا على عدم تعاون الجيش. بعدها بأيام، شارك بيتر هانسين من وكالة الأونروا هذا التصريح، «أنا وزملائي نعمل في خضم الأزمات الطارئة منذ عقود، لكن لا أستذكر أزمةً نلنا فيها دعمًا من السلطات أقل من الدعم الذي نلناه من الحكومة الإسرائيلية». بعدها بأيام تشكَّل فريق لتقصي الحقائق، وسرعان ما أُجهِضَ بعد اعتراضات

الاحتلال وعدم تعاونه. منظمة هيومن رايتس ووتش وجدت أدلة ظاهرية على ارتكاب جيش الاحتلال جرائم حرب، ودعت إلى تحقيق جنائي لم يرَ النور.

بعدها بأسابيع قليلة، في أواخر أيار، عُقِد اجتماعٌ في وقت متأخر من الليل بين عضو من القيادة العليا في سرايا القدس وبين إياد وسعيد طوباسي وعناصر آخرين من رفاقه. عقد ممثل قيادة سرايا القدس هذا الاجتماع بأوامر من نعمان طحاينة، وذلك لاختيار قائد جديد. ففي معركة جنين قُتِل محمود طوالبة، قائد سرايا القدس في جنين، وعناصر خليته إما قُتِلوا أو أُسِروا. لذا لا بد من إعادة بناء الخلية في مخيم جنين، كونها أحد أقوى معاقل المقاومة الفلسطينية. وحتى يتحقق ذلك، تحتاج حركة الجهاد الإسلامي إلى اختيار قائد جديد في المدينة. هذا الشخص سيمثّل خط التواصل الرئيسي مع القيادة خارج جنين، وسيصبح مسؤولًا عن إعادة بناء الخلية.

إياد كان يجلس متربعًا على الأرض، في حلقة مع أربعة آخرين، يصغي إلى ممثل القيادة وهو يقيّم الوضع في جنين تقييمًا شاملًا، ويشاركهم الخطوات القادمة. كان قد خلع فردتي حذائه، وكان يرتدي جوربين أبيضين وبنطالًا فضفاضًا باللون الكاكي، وقميصًا بأكمام قصيرة مطبوعٌ عليه وجه معتصم. عينا إياد البنيتان المخضرتان لمعتا في الضوء المعتم، تركزان في كل كلمة تُقال فيما يتعبَّث بحافة السجادة المجتمعين عليها. سعيد جالسٌ إلى جانبه، إحدى ساقيه مثنيَّة والأخرى

ممدودة أمامه. وهو الآخر كان يرتدي بنطالًا باللون الكاكي، وقميصًا أخضر فضفاضًا بأكمام طويلة. كان سعيد فاتح البشرة، عيناه غامقتان ثاقبتان وحاجباه البنيان كثيفان، ورغم كونه في الثامنة عشرة من عمره فحسب، تمكَّن من تربية لحية مثالية. جلس سعيد بتواضع لكن واثق النفس، يتطلع باحترام إلى مرشده إياد.

بعد سرد الملخص، شرح ممثّل القيادة أنَّ أمر مهمة اختيار القائد الجديد تعود إليهم. تبادل إياد وسعيد والآخرون نظرات عدم الارتياح، فلا أحد منهم يودُّ حمل هذه المسؤولية. وكز سعيد إياد، وهزَّ إياد رأسه قائلًا «إنسَ يا زلمة»، قالها وهو يحدِّق إلى الأرض؛ فقد أدرك النتيجة الحتمية لهذا الاجتماع، وأنَّ ما يجري الآن أشبه باستعراض. فهو الأكبر عمرًا بين الموجودين في الغرفة وأكثرهم خبرة، وبدأ أصلًا يدير وحدة صغيرة الحجم. غير أنَّ إياد متواضعٌ في تعامله مع الناس. لم يكترث يومًا لتصيّد الثناء، وغالبًا لا يعرف كيف يتصرف أمامه. بعد ردة فعل إياد، ساد الصمت لحظات. كان قد أطرق رأسه وأصابعه تتعبث بحافة السجادة بسرعة. حين رفع رأسه أخيرًا، وجد كل من في الغرفة يحدّق إليه، وأدرك أنَّ القرار اُتّخِذ نيابةً عنه.

هكذا، بهذه الطريقة، استلم إياد قيادة سرايا القدس في جنين. كانت أعظم مسؤولية يحملها في حياته. ومن هذه اللحظة فصاعدًا، سيصبح هو نقطة الاتصال، والمسؤول عن حمل الرسائل بين جنين وقيادة سرايا القدس في الضفة الغربية.

وفي خضم كل هذا -في خضم انكشاف المجزرة واستمرار المعارك

وتولِّي قيادة عمليات المقاومة في جنين - أطلَّت الحياة العادية برأسها، وداهمت إياد الرغبة في محاولة الزواج من جديد.

34

نيسان - أيار 2002

بعد سنة تقريبًا من سفر مريم، وبوقت قصير بعد مجزرة جنين، التقى إياد ببنِت تانية. كانت بتدرس في الجامعة مع إخواتي، وكمان كانوا إخوانها عناصر في حركة الجهاد الإسلامي وهم اللي عرّفوها على إياد. بالأول رفض إياد يلتقي بأبوها لأنه كان متأكد إنه عميل. وقتها ما عاد إياد قادر يتخلى عن حذره مع أي حدا، حتى لو كان هالحدا زلمة ولاده مقاومين في الجهاد الإسلامي ومرته من كفر راعي.

ضل إياد لأسبوع كامل يتلقى تطمينات من مصادر موثوقة عن نزاهة أبوها للبنت، ولما أخيرًا اقتنع، وقف على باب بيتهم من غير دعوة وطلب إيدها. ما كملت الزيارة ربع ساعة إلا وأبوها موافق.

هسّه إياد صار بده يتزوج، بس كان لازم يطلّق مريم بالأول. اتصل بأبوي اللي كان لساته معي في أميركا، وأبوي رفض يدفع المؤخر لعيلة مريم، مش قبل ما يدفعوا بالأول حق حفلة كتب الكتاب. إياد عصّب وتقاتل مع أبوي ع التلفون، «بدّيش إشي منها! خلاص! خليني أتحرر منها! بديش مصاريها ولا مصاري عيلتها!» لكن أبوي عنّد، وإياد رفض

يخلي البنت الجديدة زوجة ثانية. فطلب مني أنا ويوسف نساعده بدفع المؤخر - ألفين دولار، يعني تقريبًا ألف وخمسمية دينار أردني. بعد ما زاد الخناق بين إياد وأبوي، قررنا أنا ويوسف نتشارك ونبعت له مصاري المؤخر. وإياد حط محامي من قرايبنا حتى يمشي بمعاملة الطلاق ويتزوج بسرعة.

في الوقت الذي بدأ فيه إياد إجراءات الطلاق، ذهبت عائلته إلى عائلة المرأة الجديدة لطلب يدها، وشرحوا لوالدها أنَّ الخطبة ستصبح رسمية ما إن يعود أبو يوسف من أميركا. كما ذهبت سيرين إلى متجر (مايسي) لكي تشتري بدلة لأخيها وفستانًا لخطيبته. كانت سعيدة، كما لو أنَّ حملًا انزاح عن ظهرها، وحياتها هي التي ستشرق من جديد. فأخيرًا سيمضي إياد قدمًا في حياته، ويترك فضيحة مريم خلف ظهره.

في أيار، عاد أبو يوسف مبتهجًا إلى فلسطين لحضور كتب كتاب إياد، لعلَّ الأمور ستسير هذه المرة في صالح ابنه. زار إياد بيت عائلته بعد عودة أبيه بفترة قصيرة، والاثنان تعانقا. إياد قبَّل يد أبيه وجبينه، وأبو يوسف بدا أكبر عمرًا وصحته أوهن بكثير، غير أنه كان فرحًا بهذه اللحظة العابرة من السعادة في حياته الطويلة. وما إن غادر ابنه البيت، استنزفه القلق من احتمال عدم رؤيته ثانيةً.

توقيع معاملة الطلاق لم يكن بالأمر السهل. فإياد على لائحة المطلوبين وتحركاته غير متوقعة، وحرص ألا يحضر في أي موعد مسبق. شرحت أرسلين للقاضي وضع أخيها، والتخوُّف من نصب كمين في

انتظار حضوره. فأخبر القاضي إياد أن يمرّ في أي وقت دون سابق موعد ويوقّع المعاملة، ونقلت أرسلين ما قاله القاضي إلى أخيها. أخبرها إياد بأن تنقل إلى القاضي عزمه المرور عليه في أي وقت خلال الأسبوع. في اليوم التالي اتصلت أرسلين بالقاضي لكي تعلمه، وفوجئت بالقاضي يخبرها أنَّ إياد مرَّ عليه أصلًا ووقَّع. تنفست أرسلين الصعداء، وفي الوقت نفسه احتارت من مبالغة أخيها في الحفاظ على سريّة تحركاته.

في ذاك الحين، في مخيم اللاجئين في جنين، حيث السكان لا يزالون يحاولون لمَّ شتاتهم بعد مجزرة نيسان، ومع التحركات الكثيرة داخل المخيم وخارجه ضمن عمليات التنظيف والإغاثة لمساعدة الناس على استعادة حياتهم، غيَّر إياد محل إقامته وانتقل إلى بيت أحد رفاقه في المخيم. هناك، جهَّز مكانًا لتصنيع المتفجرات برفقة ثلاثة من عناصر الحركة، أحدهم سعيد طوباسي الذي أصبح محل ثقة لدى إياد وأقرب المقربين إليه، وما انفك يدعوه إلى بيت عائلته الذي اعتبره إياد بيته الثاني، حيث يتشارك الغداء والعشاء أحيانًا مع والدي سعيد. اعتقد إياد وسعيد أنَّ من الصعب على قوات الاحتلال العثور عليهما في المخيم بسبب كثافة السكان العالية. معًا، تعاونا على إزالة ركام الأنقاض من الطريق لكي يهيئوا طريقًا سهلة للدخول، وجهزوا مستودعًا للمتفجرات دون علم سكان المخيم.

بصفته قائدًا لسرايا القدس في جنين، وإضافةً إلى مسؤوليته في تدريب خلية على إعداد المتفجرات، نظَّم إياد مجموعة تجنيد للبحث عن مقاتلين جدد والاستحواذ على رشاشات آلية وذخائر. ورغم تعرّض

عناصر سرايا القدس لمطاردة شرسة من الاحتلال، ظلَّ متاحًا تجنيد عناصر جدد. فالشباب يتوقون إلى أي طريقة يقاومون بها الاستعمار الصهيوني، وسمعة الجهاد الإسلامي بصفتها قوة مقاومة فعَّالة جعلتها الخيار الأول لدى أي شاب من شمال الضفة الغربية. كذلك، لم تشترط الحركة على عناصرها الجدد التديُّن لكي يصبح مؤهلًا لحمل السلاح معها.

سمح إياد للشباب اليافعين والمغامرين بالانضمام إلى صفوف المقاتلين لديه لأنه احتاج إلى تجنيد عناصر جديدة، وتفهَّم إحباط الناس من العيش تحت الاحتلال، واحتياجهم إلى استعادة الكرامة من خلال المقاومة. كذلك، هو رأى نفسه في حماسة الشباب اليافع وحسّ المغامرة لديهم. وتذكَّر كيف أنه، قبل زمنٍ ليس بطويل، عاش حياته هائمًا بدون الله.

لقد تقبَّلت حركة الجهاد الإسلامي الشباب ممن لا يزالون يبحثون عن طريقهم دينيًّا، حتى إن كانوا من المراهقين الباحثين عن أنفسهم في هذا العالم. فقد حاولت الحركة إيجاد نقطة التقاء بين الوطنية والدين، ولهذا سمحت لتلك الفئة من الشباب بأن تحمل السلاح في صفوفها. فالهدف الأسمى هو فلسطين -لا فلسطين الإسلامية ولا فلسطين الثورية- بل فلسطين. على الأقل تلك كانت الغاية حينها لدى نشوء الحركة وتأسيس مبادئها الفكرية، وبالتزامها إظهار الجانب الثوري من الإسلام للناس. وأملت قيادة الحركة أنْ تجذب هذه المواقف رغبة المراهقين الساعين إلى اكتشاف هويتهم إلى الانضمام لصفوفها.

في غضون شهرين، درَّبت سرايا القدس وسلَّحت مئات المقاتلين من أعمار مختلفة. في جنين، لا سيما حول السوق، كنت سترى شبابًا في زيهم الكاكي العسكري حاملين أسلحتهم في العلن. هؤلاء الجنود المشاة يسيرون في مجموعات من اثنين أو ثلاثة، يمشون واثقي الخطى في الشوارع طيلة اليوم، وغالبًا يدردشون مع السكان ويمازحونهم. نشأ هؤلاء الرجال والمراهقون في جنين وكانوا مستعدين للدفاع عنها حتى الموت. ورأى أهل جنين في حضورهم أن معركة جنين لم تفتّ عضد المقاومة بل قوَّت عزيمة الجهاد الإسلامي، وها هي سرايا القدس قد تشكَّلت من جديد وأصبحت مستعدة للاشتباك مع العدو في أي لحظة.

بموازاة هذه العودة، طوَّرت خلية إياد آلية متطورة قادرة على تهريب المتفجرات خارج جنين إلى أي مكان في الضفة الغربية وخلف الخط الأخضر.

ولن يمر وقتٌ طويل على وضع هذه الآلية قيد التجربة.

35

كانون الثاني - أيار 2002

في كفر راعي، صعَّد جيش الاحتلال غاراته على القرية، وزادت معاناة عائلة إياد وعذاباتها. ذكَّرت غارات الجيش أم يوسف بالانتفاضة الأولى، غير أنها الآن أشدّ وحشية وعدائية وتصميمًا.

خصوصًا على دار صوالحة، فقد أغاروا عليها ما يزيد على عشرين مرة ما بين كانون الثاني وأيار. يغيرون عادةً في قافلة من عربات الجيب، وفي أوقات مختلفة من اليوم. يقطعون شوارع القرية باندفاع وتهوّر، تاركين خلفهم زوابع من غبار. ذات مرة، فرضوا منع تجول على القرية وفتشوا البيوت، بيتًا بيتًا، بحثًا عن ناشطين مختلفين، واعتقلوا يومها ما يزيد على عشرة رجال وصادروا التراكتورات ونبشوا الحواكير وأفنية البيوت بحثًا عن أسلحة مدفونة. بعدها نصبوا حاجز تفتيش عند مدخل كفر راعي، وحفروا خنادق في الطرق لكي يصعّبوا الهرب على أي شخص فيما يمشطون القرية.

في غارة من الغارات على دار صوالحة، احتلَّ عشرات الجنود الشارع المؤدي إلى بوابة البيت. أغلبهم ظل يتسكّع خارجًا، بينما أربعة جنود

اقتحموا البيت بالقوة، كلٌّ يهز بجسده شجرة الياسمين على المدخل. دخل أولهم البيت رافعًا رأسه، بعينين ثاقبتين، عازمًا على تحديد موقع هدفه، وصاح وهو يزم شفتيه احتقارًا: «زيحوا عن الطريق»، وأمرهم بالتجمع في غرفة واحدة. سألهم جندي آخر، «متى آخر مرة شفتوا إياد؟» العائلة صمتت ولم ترد. أمر الضابط الجنود بتفتيش البيت بأسره وإخراج كل ألبومات الصور. فتحوا الأدراج وألقوا الملابس خارج الخزانات وقلبوا الأثاث، وفي الطريق عثروا على ألبومات صور هنا وهناك وجمعوها في كومة واحدة تكفي لملء أربعة أكياس قمامة سوداء. تلك تقريبًا كانت كل الصور التي امتلكتها العائلة في حياتها. وقال الضابط، «رح ناخدها معنا».

«حسبي الله عليكم!» صاحت أم يوسف، وحاولت انتزاع الأكياس من بين أيديهم لكنهم دفعوها، وقال لها الضابط، «تعيع المركز وخديهم». لكنها تعرف ألّا طائل من الذهاب هناك. إن ذهبت سيماطلونها، وسيشك الناس في كونها عميلة مع تكرار زياراتها. حاولت انتزاع الأكياس مرة أخيرة، ودفعها الضابط مرةً أخرى، هذه المرة حجابها الأبيض انفك وكشف قليلًا من شعرها. زمَّت شفتيها ورمته بنظرةٍ ثاقبة، ووقفت مرفوعة الرأس منتصبة الكتفين؛ فإن نجحوا في اعتقال ماضيها ومحاولة محوه، هيهات أن يكسروها، وصاحت به باحتقار «اطلع بره! الله ينتقم منكم ويهد إسرائيل!»

أغلب جنود الاحتلال في فرق مداهمة البيوت هم فلسطينيون دروز يحملون الجنسية الإسرائيلية، وليسوا يهودًا. قبل عام 1948،

تعاونت القيادة الدرزية مع الحركة الصهيونية لكي تحمي نفسها. وفي العام 1956، وقَّعت هذا القيادة اتفاقًا مع حكومة الاحتلال يقضي بضم المجتمع الدرزي إلى الجيش الإسرائيلي. ورغم موالاة المجتمع الدرزي للدولة الإسرائيلية، يواجه الدروز ظروف التمييز المؤسسي ذاتها التي تعيشها المجتمعات غير اليهودية، وبصفتهم مواطنين درجة ثانية فهم أفقر من نظرائهم اليهود. في تلك الفترة خدم الدروز في وحدات عسكرية درزية فقط. ويستعين جيش الاحتلال بالفرق الدرزية، من كانوا عربًا ويتحدثون العربية، في عمليات مداهمة بيوت الفلسطينيين في الضفة الغربية والتعامل مباشرةً مع المدنيين الفلسطينيين.

الدروز أقسى وأخبث من الجنود اليهود، ممكن لأنهم دايًا محتاجين يثبتوا ولاءهم لإسرائيل، ويبينوا وطنّيتهم قدام اليهود وإنهم مش أقل وطنّية منهم. وممكن كمان لأنهم خايفين يفسّر الجيش أي تعاطف منهم مع الفلسطينيين إنه دلالة على خيانتهم وإنهم طابور خامس.

بوحدة من هالمداهمات، بعد ما رجع أبوي من أميركا في أيار، كسروا الجنود البوابة الأمامية واقتحموا البيت. تصرفوا بكل وقاحة وعدوانية مع عيلتي. تصوَّر، أبوي واقف عاجز يعمل أي شي ومش قادر ينطق بكلمة، مذلول تحت رحمتهم في قرية تربَّى فيها إنه الرّجال يدافع عن عيلته. أبوي، بسترته الرمادية وبنطلونه الرمادي الأزرق، متّكي على عكازه عشان يقدر يوقف ع إجره الاصطناعية، دفشوه ع الأرض وما قدرش يقاوم. أمروا الجنود كل إخوتي يطلعوا من البيت، أرسلين طلعت غصب عنها وهي تصرخ فيهم، وأخوي بهاء ماسكها

من ضهرها بيحاول يهديها، هو كمان ما قدرش ينطق بكلمة. إمي هي الوحيدة اللي وقفت بوجهم.

الكل وقف يتطلّع على إمي ويتبسَّم، جندي منهم طلب بنبرة لطيفة تخبره بمكان إياد وتوفّر على بقية عيلتها المشاكل. الجندي بيعرف منيح إنه سؤاله فش منه فايدة، وإمي ما عطته شرف الرد عليه ولو بكلمة.

وقفت أم يوسف صامتة، رابطة الجأش وفخورة، لكن في دواخلها كانت خائفة. فهي لا تعرف مكان وجود ابنها، وتعرف أيضًا ما الذي بوسع هؤلاء الجنود ارتكابه. فقد رأت بعينيها عائلات تعاني خسارة فادحة وفقدًا أليمًا عقابًا على الصمت. غير أنَّ الصمت هو خيارها الوحيد.

واحد من هالجنود تلفّت حواليه وشاف انه البيت مليان زريعة. إمي كانت تحب تجيب ع البيت كل أنواع الورد والزرع من أرضنا وأوقات من عند الجيران. إذا بتدخل دارنا كنت رح تشوف خنشار وسجادة وأم محمود وبخور مريم ونبتة الشمعة مصفوفين ع البرندة، يا إما بمزهريات أو بقّوارات أو علب تنك[1]. هاد الجندي راح على بخور مريم، أخد نفس عميق من ريحتها الطيبة، بعدها حمل رشاشه، ومع بقية الجنود رشّوا كل الزريعة اللي في البيت.

---

(1) قُوّارات: أو «قَوَاوِير» جمع «قُوّارة»، وهي كلمة تُطلق في اللهجة الفلسطينية على الإصيص الفخاري الذي يُزرَع فيه النبات، سواء لأغراض الزينة أو للاستخدام المنزلي، كزراعة النعناع، الحبق، أو الريحان. وغالبًا ما تُنطق القاف كافًا في كثير من المناطق، فتُلفظ «كُوّارة».

بلشوا يطخوا الزريعة في البرندة، بعدين رشّوا الطاولة القزاز اللي عليها قَواوِير زريعة وورد، والقزاز تفتفت لألف شقفة، وكل اللي ضل من الزريعة بتلات وقعوا عند رجلين إمي. الدنيا تعبَّت طين وتراب، أرضية الغرفة تخزّقت من الرصاص، وحيط من حيطانها تْخَزّق بالرصاص كمان.

ما بعرف شو بيدور في عقل هالجنود لما يقتحموا بيت ويقلبوه فوقاني تحتاني، بشو بيحسوا لما يعملوا هيك؟

حاولوا آخر مرة مع عيلتي وسألوهم عن إياد، بس ما طلع معهم إشي. الحقيقة إنه ما حدا فينا يعرف أي شي أصلًا، إياد كان حريص إنه يحمينا كلنا وما يخبّرنا. وقبل ما يطلعوا الجنود من البيت، فاتوا ع المطبخ وكبّوا كل الطحين والسكر والزيت ع الأرض.

تاني يوم لمّت إمي من البيت شوية أغراض غالية عليها -لوحات، طقم صيني بنقشة بريطانية لروميو وجوليت- وبعتتهم لقرايبنا، عشان لو رجعوا الجنود ما يكسروا أغراضها قدام عيونها.

أما أنا، ما قدرت أتخَيَّل -أو ما قدرت أصدّق- اللي إياد كان ناوي يعمله. أنا مؤمنة إنه المقاومة هي طريقنا الوحيد للتحرير، بس بيضل إياد أخوي، ويمكن كنت أتمنى غيره من الشباب يحملوا السلاح ويقاوموا.

إياد أخوي أنا، إياد بينتمي إلي أنا مش للوطن.

في جنين، قضى إياد أيامه يستعد للرد على مجزرة نيسان في المخيم، برفقته سعيد طوباسي وآخرون. قسَّمت الخلية عملية تصنيع المتفجرات

على عناصرها، فتولى البعض تأمين المواد مثل النترات، والبعض تولى إعداد المتفجرات، وآخرون تولوا مسؤولية إخفائها. في غضون ذلك الوقت، بات سعيد مقرَّبًا للغاية من إياد، وعنصرًا أساسيًّا في تأمين مختلف أشكال الحماية له. عائلة سعيد اهتمت برعاية إياد في جنين، وسعيد ساعده في إيجاد أماكن سرية للاختباء وتصنيع المتفجرات، وحرص على تسهيل تحركاته.

إن لم يكن إياد مشتبكًا في قتال الشوارع، أو جالسًا في الاجتماعات، أو يصنّع المتفجرات، ستجده يفكّر في العملية القادمة، في المواجهة التالية ضد الجنود، في طريق الهرب الجديد. حياة المُطارَدين باتت حياته، وما عاد الأمر يؤثر فيه.

مع حلول أيار، أصبحت خلية إياد في جنين نشيطة، حيث يعمل سعيد وإياد معًا في الورشة بسرعة وتركيز وذهنٍ صافٍ. لكن أحيانًا، متى أخذا استراحة من العمل، أو في وقت متأخر من الليل، سيفكران معًا في المستقبل وإستراتيجيتهما نحوه. ذات مرة، وبصوتٍ عالٍ، تساءل سعيد، «تتصوَّر اللي نعمله هون بيجيب نتيجة؟»

«عندي أمل إنه رح يجيب نتيجة... اللي نعمله هون مهم سعيد، ولهيك خلينا مركزين بشغلنا وما نلتفت للي بيشكّك فينا».

«آه بعرف».

«حتى إذا ما وصلناش لنتيجة عن قريب، يكفي إنه نمهّد الطريق للي رح يجي ورانا».

ذهب سعيد لإعادة وصل بعض الأسلاك، ولدى عودته قال، «بستغرب كيف هالعالم بيرفض عملياتنا الاستشهادية وبيسمّينا جبناء».

«العالم رح يرفض أي وسيلة مقاومة منا طالما إحنا اللي عم نقاوم، كأنه إحنا مش بشر. خلينا نشوف شو كان بدهم يعملوا لو كانوا مكاننا».

استلقى إياد على جنبه، على الفرشة، متوسّدًا كفَّه. بعد دقيقة صمت، رفع رأسه وقال في نبرة عالية، «مش من حق هالعالم يخلينا نحس بالذنب ويجبرنا على الاستسلام، وطالما ما عندناش أسلحة، مش من حقهم يجبرونا نحارب على طريقتهم». ثم عاد واستلقى على فرشته، يتوسَّد كفه ويلعن الصهاينة.

ضحك سعيد، إذ لم يقصد إثارة استياء صديقه، وقال مطمئنًا إياه، «الله رح ينصرنا». فكل صهيوني يعمل جاهدًا كل يوم من أجل محو الفلسطينيين من على أرضهم، من أجل محاولة القضاء عليهم جميعًا من بكرة أبيهم. هذا هو الواقع الذي يعيشه إياد وسعيد، لهذا لا شك لديهما فيما ينبغي عليهما فعله. هما أيضًا يعملان جاهدين كل يوم، بعزمٍ وتصميم، على طرد المحتل؛ لأنَّ المبدأ التاريخي يقول إنَّ لا محتل دُحِر من الأرض التي يحتلها إلا بعدما واجهته مقاومة مسلحة.

في اليوم التالي أرسلا استشهاديًّا إلى بلدة العفولة. كان الرجل قد شدَّ حزامًا ناسفًا وألصقه أسفل سترته الصوفية، وتمكَّن من التسلل إلى محطة باص على بعد عدة كيلومترات داخل الخط الأخضر على نواحي البلدة. هناك، حذَّر عابر طريق السلطات من وقوف رجل يثير الشبهات في المحطة. وصلت المركبة العسكرية قبل ركوبه الباص، وخففت سرعتها لكي يتمكن الضباط من استجوابه. مع اقترابها، فجَّر الاستشهادي

الحزام الناسف. الاستشهادي قُتِل فورًا، والشظايا طارت باتجاه المركبة العسكرية. لم يتعرَّض إسرائيلي واحد للأذى.

اجتمع إياد، ومعه سعيد، برفاقه في المقاومة للتفكُّر بما وقع في العملية وتحليلها. التقوا على عدة أسابيع في شقة قرب محطة الباص الرئيسية في جنين، حيث يوفر الازدحام غطاءً مناسبًا للمجيء والذهاب دون لفت الأنظار. هناك، قضوا ساعات طويلة في مناقشة المستجدات في سرايا القدس، وفي التخطيط لعمليات عسكرية، والاجتماع بالمقاتلين على الأرض وبداعمي المقاومة من أهل المدينة وضواحيها. حضر إياد تلك الاجتماعات تحت اسمٍ مستعار، حيث يعرفه المقاتلون باسم أحمد. وفي اجتماع من تلك الاجتماعات، سيلتقي إياد بحمزة سمودي، فتى خجول سيجنّده إياد لتنفيذ مهمة خاصة.

36

حزيران 2002

وُلِد حمزة سمودي في بلدة اليامون غرب جنين، حيث كسب والده رزقه من أعمال تجارية صغيرة ومتواضعة. لاحقًا انتقل حمزة إلى جنين مع عائلته، وكان الولد الأصغر بين أحد عشر طفلًا. نال حمزة الكثير من التدليل من عائلته المتماسكة ومن أصدقائه، وكان مقربًا بالذات من أخته الكبرى. عانى والده طويلًا في البحث عن عمل، ومع وصول حمزة إلى الثانوية أصبح أبوه رجلًا مسنًّا. لذا ترك حمزة المدرسة ليرعى والديه، وبدأ يعمل بائعًا على عربة في شوارع الناصرة. لاحقًا سيعمل في مَحْجَر في بلدة سالم[1]، على أرضٍ سلبها الصهاينة في عام 1948.

لم يكن معروفًا عن حمزة انتماؤه إلى أي حزب سياسي. لم يخطر أصلًا على بال أمه أنَّ لديه أي اهتمام بالسياسة. صحيح رمى الحجارة على قوات الاحتلال أكثر من مرة -مثله مثل أي مراهق في السابعة والثامنة

---

(1) مَحْجَر: جمعها «محاجِر»، وهي كلمة تُستخدم للإشارة إلى مقلع الحجارة، أي المكان الذي تُستخرج منه الحجارة من الجبال، لا سيما الحجر الكَلسي الشائع استخدامه في البناء.

عشرة- لكن مع تحوُّل الانتفاضة الثانية إلى مواجهة مسلحة، التزم حمزة بعمله ورعاية عائلته. لكن بعد معركة جنين، صعَّب تكرار منع التجول الحياة عليه، فالتنقل بات شاقًّا، وعجز في أغلب الأيام عن الذهاب إلى عمله. حينها بدأ حمزة يجمع ملصقات صور الشهداء ويتأمل تفانيهم وتضحياتهم بإعجاب وإكبار. وبعدما انتهت معركة جنين تواصل مع مقاتلين في سرايا القدس، ومن خلالهم وجد نفسه ذات ليلة جالسًا في شقة، وجهًا لوجه مقابل إياد.

في تلك الاجتماعات، في الأيام الأخيرة من أيار، قرَّر إياد ورفاقه أنهم في حاجة إلى إستراتيجية جديدة لتسديد ضربة موجعة إلى عدوهم. واتفقوا أخيرًا على تجهيز سيارة مفخخة وإرسالها إلى داخل الخط الأخضر. وتطوَّع حمزة لحمل هذه المهمة.

كان حمزة قد التقى بإياد في تلك الشقة والتزم بالمهمة. خطَّط إياد العملية برمتها، وتولى رفاقه مهام تهريب المواد الأولية لصنع المتفجرات، وتفخيخ السيارة، واختيار الهدف.

في الرابع من حزيران عاد حمزة إلى الشقة. كانت المرة الثانية التي يلتقي فيها إياد، لا يزال يعرفه فقط باسمه المستعار. هناك، التقط إياد صورة حمزة التي ستظهر في ملصق الشهيد التي ستعلَّق على الجدران، وصوّر شريط فيديو له وهو يلقي وصيته الأخيرة كما المعتاد مع الشهداء قبل تنفيذ العمليات الاستشهادية. وقف حمزة مع تكشيرة عريضة، يحمل بندقية (إم 16) بين يديه، جبينه معصوب برباط سرايا القدس الأسود، ويرتدي قميصه الأزرق المفضل، المخطط بخطوط قليلة من

الأحمر والأبيض. بدا طفلًا، وجنتاه ريّانتان مع زغبٍ على ذقنه، عيناه البنيتان شبه مغمضتين، يحدق لا مباليًا إلى الكاميرا. ناوله إياد كأس ماء بعد انتهاء التسجيل. كان حمزة متوترًا بعض الشيء لوجوده في مكان غير مألوف، ولمعرفته بما سيقع. طوَّق إياد كتف حمزة بذراعه ليطمئنه، «ربنا يتقبَّل شهادتك ويحفظك. خلّي إيمانك قوي، أنتم السابقون ونحن اللاحقون».

بعدها، مضى حمزة إلى بيته وتناول العشاء مع عائلته. أحد أصدقائه مرَّ عليه، وتحادثا وتمازحا على طبق من شرائح البطيخ. سهر إلى وقتٍ متأخر مع أمه يحادثها في أمور الدين، وحين نعست عيناها، تركها تذهب إلى فراشها، ومضى هو نحو غرفته. لم ينَم، بل انتظر طلوع الفجر، أدَّى الصلاة، وغادر البيت قبل أن يستيقظ أحد.

التقى بإياد في نواحي جنين. تصافحا وتبادلا التحية، ثم بدأ إياد يشارك حمزة تفاصيل العملية، إذ حتى اللحظة كانت التفاصيل محجوبة عنه. سلَّم إياد حمزة مفاتيح سيارة رينو لوحتها صفراء. المطلوب من حمزة قيادة السيارة إلى مفترق مجدو، وطمأنه إياد إلى أنه لن يواجه أي عقبة في دخوله فلسطين 48. صلّيا معًا ركعتين، وقبَّل إياد جبين حمزة قائلًا «توكَّل على الله». قبل العملية بعدة أيام، لم يعرف حمزة أصلًا كيفية قيادة السيارة، واحتاج إلى التعلُّم والتدرُّب. مع ذلك، صُدِم حين أدرك أنه لن يحمل حزامًا ناسفًا، فهو لم يتصوَّر إطلاقًا أنَّ السيارة هي المفخخة؛ تلك كانت المرة الأولى في فلسطين.

هكذا، حمزة التي لم تُخفِ لحيته الخفيفة وجهه الطفولي، ركب

السيارة وجلس على مقعد السائق، وقادها بعيدًا. في خطى متأنية، مشى إياد بعيدًا عن الطريق، وبعد لحظات اختفى.

استيقظت أم حمزة فجرًا وانتبهت إلى أنه ليس نائمًا في فراشه. استغربت غيابه، تلفتت حولها في الغرفة ووجدت مبلغًا من المال على المنضدة الجانبية. لو كان ذاهبًا إلى عمله لأخذ المال معه. تفحصت فراشه ووجدت ورقة مطوية، حملتها وفتحتها. كانت وصية، وفيها طلب منها ومن كل إخوته أن يسامحوه، وأن يعملوا دومًا في حياتهم باجتهاد، ويلتزموا بشرع الله.

ذراعاها ارتعشتا، وحتى بعد ذاك اليوم بأعوام وهي تعيد عليّ سرد الأحداث، ذراعاها ارتعشتا. أصابها الدوار وثقل جسدها، شعرت حتى بثقل لسانها. هرعت تجري نحو ابنها الآخر، أكرم، وأيقظته، وسألته إن كان على علمٍ بمكان أخيه. لكن أكرم، شبه نائم، لم يأخذ قلقها على محمل الجد، وأخبرها أن حمزة على الأغلب في عمله أو يقضي وقته خارجًا.

خَفْقُ قلبها يشتد ويتسارع، برودةٌ قبضت على كفيها وأناملها. تصوَّرت جنودًا يلقون القبض عليه ويعذبونه، ذاك كان أقصى ما تخيلت. عادت إلى أكرم مرتين، وفي الثالثة أخبرته عن الوصية. وفي كل مرة يجيبها بألا تقلق، وأنَّ لربما الورقة مقلب من مقالب حمزة.

لانَ موقف أكرم بعد توسلات أمه، ووعدها بالعثور على أخيه. بدَّل ملابسه وغادر البيت. وبعد فترة وجيزة عاد من السوق دون أي خبر عن حمزة، وأخبر أمه أنه سيواصل البحث.

نحو الساعة 7:14 صباحًا، كانت حافلة إيجد (830) قد امتلأت تقريبًا بالركاب حين تمكن حمزة من اتّباع أثرها على الطريق السريع 66. ثمة سيارة خلف الحافلة مباشرةً يقودها رجلٌ في طريقه إلى عمله بسرعة اعتيادية، تاركًا نوافذه مفتوحة لكي يستمتع بنسائم الصباح. هذا الرجل كان محشورًا بين الحافلة وشاحنة نقل تتحرك على مهلها خلفه. لا الرجل ولا سائق الشاحنة لديهما رغبة في الإسراع وتجاوز الحافلة. اندفع حمزة بالسيارة ورآه الرجل يقترب منه، كذلك رآه سائق الحافلة من مرآته الجانبية. سجن مجدو على بعد مئات الأمتار، ولا أحد تسنَّى له الوقت لكي يشك بما يجري. ربما تصوَّرا حمزة على عجلة من أمره للوصول إلى وجهته.

المسافة إلى سجن مجدو تتناقص.

500 متر

400 متر

300 متر

بدأ حمزة يردد الدعاء، وقاد السيارة قرب خزان وقود الحافلة. أطلق صيحة «الله أكبر»، صيحة لم يسمعها أحدٌ غيره، و...

في مفترق مجدو، الكائن على مدخل وادي عارة، المجاور لسجن مجدو حيث قضى إياد جزءًا من سنوات اعتقاله، وعلى بعد عدة كيلومترات من جنين، ابتلعت النيران الهائجة حافلةً في الشارع وتصاعدت منها أدخنة سوداء كثيفة نحو السماء. سيارة رينو التي كان يقودها حمزة انفجرت قرب خزان وقود حافلة إيجد (830) في رحلتها من تل أبيب

إلى طبريا، لتنقلب الحافلة عدة مرات قبل أن تحط على الحاجز الأمني خارج سياج السجن الشائك. سيارة الرينو تمزقت إربًا وتفحَّمت، سائقها حمزة يستحيل التعرف عليه. ذُعِر الناجون داخل الحافلة من الاصطدام، لكنها عدة ثوانٍ قبل أن يندلع انفجارٌ آخر إثر وصول النار إلى خزان الوقود. من قُذِفوا خارج الحافلة بقوة الاصطدام الأول نجوا من الموت حرقًا. سائق الحافلة وأحد الجنود تمكنا من الهرب قبل اشتعال الحافلة والتهام النار كل ما فيها. ثلاثة عشر جنديًّا إسرائيليًّا وأربعة مدنيين قُتلوا ذاك اليوم، ثلاثة وأربعون جريحًا من الركاب، أغلبهم أيضًا جنود.

داخل سجن مجدو، في المبنى الذي شغلته القوات البريطانية في أعوام الانتداب، سمع نحو 1200 معتقل سياسي فلسطيني صوت الانفجار كما لو أنه وقع داخل زنازينهم. كان بوسعهم رؤية لمحات من الحريق والدخان، وبعد لحظات، ستصلهم أيضًا رائحة اللحم المحترق. في القسم 7 من السجن، القسم الأقرب إلى موقع العملية، تصاعدت صيحات التكبير «الله أكبر الله أكبر الله أكبر».

كثيرٌ من المعتقلين عجزوا عن كبت فرحتهم، وبعضهم حاول تسلق جدران السجن علَّهم يحظون بنظرة إلى موقع الانفجار. وعلى الرغم من الخطر المحدق بهم جراء انتقام حراس السجن، عبّروا عن فرح غامر وتهليل صاخب. إذ كيف لهم ألا يروا في هذا الانفجار استعادةً صادحة للكرامة في وجه الإذلال اليومي في سجون الاحتلال؟ أما حراس السجن فقد جثموا على أبراج المراقبة، عاجزين في وجه المذبحة.

على الأرجح أنَّ تفجير الحافلة بالقرب من المفترق كان هدفًا متعمدًا، فحمزة ظل يلاحق الحافلة عدة دقائق، وكان بوسعه التفجير في وقتٍ أبكر. هذا لا يتناقض مع سردية سرايا القدس التي تقول إنَّ جيش الاحتلال بنفسه أكَّد أنَّ القصد من استهداف هذا الموقع تحديدًا إرسالُ رسالة إلى المعتقلين بأنهم ليسوا منسيين، ونضالهم لا يزال مستمرًّا. ومع معرفتنا أنَّ إياد هو العقل المدبِّر وراء العملية، فثمة بعدٌ عاطفيّ أيضًا: رسالة إلى معتقِليه الصهاينة أنَّ المقاومة يستحيل أسرها في قفص، وهدية إلى رفاقه في المعتقل -إخوته الأبديين- أنَّه لم ينسَهم وسيظل يقاوم لأجلهم. مكتبة سُر مَن قرأ

ارتدادات الانفجار وصلت بعيدًا، إلى أزقة البلدات المحيطة. وقرية اللجون كانت إحدى البلدات التي اختبرت الرجفة الشديدة. فيما مضى، في ساعةٍ كهذه، كنت ستجد أهل القرية الفلسطينيين قد استيقظوا من النوم، يحتسون الشاي أو قهوة الصباح، فيما أطفالهم في طريقهم إلى المدرسة. لكن يوم الانفجار ما كنت لتجد فلسطينيًّا واحدًا من أهل اللجون، فقد أُجبِروا على النزوح في الـ48، أغلبهم نزح إلى قرية أم الفحم. اللجون الآن يستوطنها يهود من كيبوتس مجدو، وما تبقى فيها من أراضٍ زرعوا فيها القمح والشعير وأشجار اللوز. ستجد حظائر للحيوانات ومصنعًا لأعلاف الماشية ومضخة جرى تركيبها في عين الحجَّة. كما ستجد مناطق مهجورة، مسيَّجة ومداخلها موصدة. من سمع يومها، في الخامس من حزيران، دويَّ عمليّة حمزة هم المستوطنون اليهود، هم من اهتزت الأرض تحت أقدامهم. والمباني القليلة المتبقية

في القرية اهتزَّت أيضًا من دوي الانفجار، منها الجامع الحجري المشيَّد في عام 1943 قبل أن يحوّله المستوطنون إلى منجرة، وبعض البيوت الفلسطينية شبه المهدومة، ومركز صحي مهجور وطاحونة، والمقبرة المهمَلة حيث أرواح الأسلاف شاهدة على ما جرى.

شقيق حمزة، أكرم، كان في طريقه إلى البيت حين أوقفه أحد أصدقائه متحمسًا بعد نجاح العملية الاستشهادية ضد المحتل. لكن، على غير المتوقع، لاحظ إحباط أكرم الذي زاد غمُّه على سماع الخبر. أفصح أكرم عن هواجسه لصديقه، لكن الصديق طمأنه أنَّ من المستحيل أن يكون حمزة المنفّذ، «يا زلمة امبارح بالليل كنت قاعد أنا وأخوك بنحكي وبنمزح مع بعض وبناكل بطيخ، حمزة ما إله بهالأمور».

لكن سرعان ما انتشر الخبر، فالناس في مخيم جنين بدأت ترفع صور حمزة. وبدأت أم حمزة تسمع من خارج البيت ضجة متصاعدة حولها. سمعت أحدهم يهتف «الله يسعد البطن اللي حمله!» والناس تهتف من خلفه.

وفي قلبها، عرفت أنها تلك الأم.

***

إياد كان في الشقة قرب محطة الباص الرئيسية في جنين حين تلقَّى الخبر بتنفيذ العملية وإلحاق خسائر فادحة. تلقى إياد الخبر بابتسامة وتكبير في صوتٍ مكتوم، تبعه بركعتي صلاة. بعدها بقليل وصل رفاقه وتعانقوا وابتهجوا بنجاح العملية. قلة من الناس كانت تعرف أنه العقل المدبر الذي خطط للعملية، من تجهيز القنبلة إلى الالتقاء بالفدائي، من اختيار

الهدف إلى تحديد التاريخ بحيث يصادف ذكرى هزيمة الـ67. لاحقًا، سيدرك جيش الاحتلال أنَّ هذا الهجوم تحوُّلٌ نوعيّ. فهذه المرة الأولى التي يفخخ فيها الفلسطينيون سيارة متحركة ويفجرونها إلى جانب حافلة بدل إرسال مفجِّر يحمل حزامًا ناسفًا ويركب بنفسه الحافلة المستهدفة. كذلك، كشفت هذه العملية عن حنكة استخبارات المقاومة الفلسطينية: لكي ينفذ الفلسطينيون عملية تفجيرية خارج حدود الضفة الغربية لا بد أنهم نسقوا مع أناس خلف الخط الأخضر. هذا التوغُّل خلف حدود الـ67 بيَّن أن الهجوم الصهيوني على مخيم جنين في نيسان قد فشل رغم استيلاء جيش الاحتلال على السيطرة الأمنية على كامل الضفة الغربية.

لقد نجح إياد في تغيير ديناميكية المقاومة على الأرض، ما يعني أنَّ اعتقاله أصبحت أولوية قصوى.

بعد العملية بنحو عقدين، تستذكر أم حمزة أنَّ الاحتلال لم يدمر بيتها بالكامل صبيحة اليوم التالي.

«هناك مئات الأمثلة حولنا هَدَم فيها جيش الاحتلال بيت عائلة الشهيد فور تنفيذ عمليته. لكن لم يأتوا لأجلنا ذاك اليوم. لم يطأ أحدهم بيتنا إلا بعد شهرين إلا يومًا. أظنهم كانوا يحاولون جمع كل المعلومات المتعلقة بالعملية، إلى أن تيقنوا أنَّ حمزة كان يقود سيارة مسروقة من تل أبيب، وإياد من التقط صورته الأخيرة، وعلى الأغلب سعيد طوباسي من فخخ السيارة بمتفجرات زنتها مئة كيلوجرام. لم أعرف بهذه التفاصيل إلا بعد سنة من كلام الناس».

لا تلوم أم حمزة ابنها، ولا هي غاضبة عليه، ولا حتى حزينة على ما فعل. أمرٌ واحد فحسب دومًا يبكيها، وسيظل إلى آخر عمرها يبكيها، أنه لم يودعها تلك الليلة. هذا ما تلومه عليه، وتلك الفكرة تكسر قلبها كلما واجهتها.

ولا مكان لها تلجأ إليه للسلوان، لا قبر تزوره لكي تودِّعه، لكي تشعر بقربها منه. فقد أخذت سلطات الاحتلال جثمانه، وما استطاعت أبدًا استرداده منهم.

أحيانًا تسمعه يناديها «يمَّه!» وهي تغسل الصحون، وتشعر به. «بسمع صوته بيرنّ جوّاتي وبلتفت لحتى أدوِّر عليه وما بلاقيه. فش يوم بيمرّ ما بفكِّر فيه بحبيبي حمزة». وفي حزنها ترثيه ببيت عتابا:

ميلي يا شجرة الزيتون

ميلي ع حمزة المزيون

ميلي ومية صْملِّي عليه[1]

رشِّي المخدة يامْ أدهم بالحنة

«وبعدها بدَّك تعيش»، تقول وصوتها يتلاشى، «إيش بدَّك تعمل غير هيك؟ ربنا وحده اللي يصبّرنا».

(1) صملّي عليه: اسم الله عليه.

37

واقفة ع البرندة، بدارنا بفلسطين، ومن بعيد شفت إياد جاي من الأرض، لابس جاكيت جلد أسود ولابس حطّة. كان حامل بين ايديه مولود جديد، ولد ملفوف بلفَّة بيضا. شفت الولد ومن فرحتي عيّطت «يا الله! هاد ابنك؟»

«آه ابني، حلو مو هيك؟»

عطاني صورة، وبالصورة بشوف إياد زي ما هو واقف قدامي، رجّال لابس جاكيت أسود وحامل ولد صغير ملفوف بلفّة بيضا.

قلت له يدخل جوّه.

بس ما قبل، وقال لي:

«اللي قاعد جوّه مع إمي عميل»، واختفى.

38

حزيران - تموز 2002

بالكاد مر شهرٌ على تطليق إياد مريم، وإذ بمريم تعود إلى فلسطين بعد اختفائها بعام. سيرين موقنة أنَّ مريم لا بد عرفت بخبر الطلاق من جدَّيها.

بهاء، الوحيد من أشقاء إياد من لا يزال موجودًا في فلسطين، ساوره الفضول وأراد أن يعرف ما حدث. في أحد لقاءاته بإياد ألحَّ عليه، «بدَّكش تعرف إيش صار؟ كيف هرّبوها من القرية؟»

«إيش بدِّي فيها!» صاح إياد في وجه أخيه، «بدِّيش أي علاقة فيها».

عودة مريم إلى فلسطين جاءت بعد اقتحام قوات الاحتلال دار صوالحة وتفجير البوابة الأمامية. ظلت أم يوسف ترجئ تصليح البوابة، متوقعةً المزيد من عمليات التخريب. غير أنَّ بهاء أخذ المبادرة وحمل على عاتقه إتمام المهمة، والشخص الوحيد القادر على تنفيذها هو زوج عمة مريم الذي كان حدّادًا. مضى بهاء إلى رؤيته، وهناك صادف مريم التي ما إن رأته رجته قائلة:

«بهاء كيفك؟ الله يخليك، الله يخليك، خليني أحكي مع إياد، ولو دقيقة».

تردد بهاء، لكن ما فتئت مريم تلح عليه، ولم يعرف كيف يرفض طلبها. اتصل بإياد من هاتفه المحمول، بالكاد قال مرحبا، وإذ مريم تنتزع الهاتف من يده.

مريم وإياد تحادثا برهة، وحديثها كان موجزًا. وافق إياد على الالتقاء بها، ليس بسبب ما قالته أو بسبب نبرتها؛ بل لأن القلب أحيانًا يؤسَر، يُفتَن، يثمل في غفلة.

بعدها بيومين التقيا في جنين.

التقيا في سوق الحسبة القديمة، كان السوق مزدحمًا ويعج بالنشاط، فقد مضى الآن وقتٌ كافٍ بعد معركة مخيم جنين على بعد عدة كيلومترات. سوق الحسبة لوحة نابضة بالحياة والألوان، الباعة يعرضون مختلف أنواع البضائع من فاكهة وملابس وأثاث وألعاب ومحاصيل. في أزقة السوق يختلط الماء بدم الذبائح من أكشاك الجزارين. كذلك، بالكاد تعترف الحسبة بالشوارع المرصوفة، فالشارع ذو الحارات الأربع تقلَّص إلى حارتين، ويضطر سائقو السيارات إلى طلب الإذن من المتسوقين لكي يعبروا. أجزاء من السوق تستظل تحت التَّنْدَات الكبيرة لحماية الناس من شمس الصيف[1]، وفي أجزاء أخرى يمشي الناس تحت الشمس، ويستقر الباعة تحتها في انتظار انتهاء اليوم.

(1) تَنْدَة: تعني مظلة مُشمّعة كبيرة تُوضع عادةً على الواجهات أو في الأماكن المفتوحة لحماية الأشخاص من الشمس أو المطر. وجمعها «تَنْدَات».

إياد ومريم التقيا في ظلال شمس ما بعد الظهيرة، وتمشيا معًا في سوق الحسبة برفقة نسائم الصيف العليل. لا أحد في المدينة يعرف إياد، لذا لم يبالغ في التنكّر. تحادثا فترةً طويلة وتهامسا، فيما دموع مريم تنساب على خديها، دموعٌ مخفية عن الجميع إلا عن عينيه. ومن حديثها الهامس، الذي لن يكرره أبدًا في حياته، عرف منها المعاناة التي مرَّت بها، كيف قضت أيامها بائسة، وكيف عادت حين عرفت بمضيّه قدمًا في حياته. في تلك اللحظات، كشفت له ضعفها، ورجته أن يسامحها.

بعدها تحوَّل أخوي لإنسان تاني. وبعد ما شاف مريم بيوم خبَّر أبوي وإمي إنه بطّل بدّه يتجوز البنت التانية.

«كيف؟» رد عليه أبوي بعصبية بس من غير ما يصيّح عليه، «ما احنا رحنا طلبنا إيدها، عيب اللي عم تحكيه!» وجاوبه إياد بكل ثقة، «خلاص ما عاد بدّي إياها، بدي اتجوز مريم».

أبوي عصَّب، «أنت انجنّيت؟ رحنا على دارهم وطلبنا منهم إيد البنت، عيب! وإمتى شفت مريم؟ وشو خبرتك؟»

بس إياد رفض يجاوبه، وحكى إنَّه ما حدا إله شغل باللي صار معها.

أبوي أصرّ عليه، مش مصدق اللي عم يسمعه، «إنت شو عم تحكي؟ كلامك ما بيصدقه عقل!»

رد عليه إياد، «وشو همَّك؟ أنا بدّي أرجعها على ذمتي». كان مقتنع بكل كلمة يقولها.

«بس يا حبيبي هاي البنت تركتك بعد كم يوم من كتب كتابكم وغابت سنة كاملة، عيب والله عيب!»

أوّل ما سمعت بالخبر حسيت كأنه حدا ضربني ع بطني، ما قدرتش أنام هديك الليلة ولقيت حالي أمشي حافية بالبيت. كان لازم أحكي معه، ولما حكينا تقاتلنا. ما بعرف شو قالت له مريم هداك النهار في جنين حتى لعبت بعقله هيك، اللي خبّرنا إياه إنه خافت وهربت. وإنه أخوالها وأعمامها خبّروها إنه إياد قاتل، قتل عُمَلا من قبل وارتكب جرايم كتير غيرها، وواضح انها ارتبكت وخافت. خبّرته إنها بتحبه كتير، وإنه مستحيل تعمل فيه هيك مرة تانية، ومستحيل تعيش بدونه.

في اتصال بيننا صيّحت عليه، «بس إياد، نسيت كيف ضلّيت تتصل عليّ وتخبّرني قدّيش بتكرهها وعمرك ما رح تقبل تدخلها بيتك. أنت شيخ يا إياد، كيف بتقدر تدخلها هلا على دارك؟»

«خلاص، هاد قراري وأخدته».

هاي كانت كلمته الأخيرة.

في خضم الصيف الملتهب بآلام عظيمة وعمليات المقاومة، في الوقت الذي قضى فيه إياد أيامه متخفيًا في إدارة العمليات شمال الضفة الغربية وإعداد المتفجرات للآخرين لكي يفجّروها، ظلت علاقته بمريم محل نزاعٍ في عائلته.

المشكلة إنه أخوي كان بيسابق الوقت عشان يرجّع مريم على ذمته في فترة العدة وما يرجع يدفع لها مهر جديد. لو إنه إياد تجوز البنت التانية على مريم من غير ما يطلّق ما كانت عرفت ورجعت ع فلسطين. بس إياد أصر على الطلاق، ورفض تكون البنت التانية زوجة تانية على مريم. فش منطق!

فش منطق أبدًا!

معقول هيك الحب بيعمل بالبني آدم؟

الحب؟ ربما.

شعور أرسلين تجاه الوضع أنَّ إياد قلبه طيب، وربما كان يسعى بسذاجة إلى نيل الحب لأنه حُرِم منه في سنوات شبابه التي قضاها في السجن. آخرون رأوا أنَّ إياد أراد هداية مريم إلى طريق الإسلام، وأنَّ ما جرى بينهما، من منظوره، ابتلاءٌ لاختبار تقواه.

أبوي انجنّ. حلف يتبرَّى من أخوي إياد إذا رجَّع مريم على ذمته. حلف يتبرَّى منه في المحاكم ويعلّق البراءة ع باب المسجد(1)*. وأخوي يوسف اتصل فيني حتى أقنع إياد، وإذا أصر ورجّع مريم، أبلغه إنه العيلة كلها رح تتبرَّى منه.*

اتصلت بإياد، ضلينا نحكي خمس وتلاتين دقيقة عطاني فيها محاضرة، «إحنا مش عيلة متعلمة؟ عن جد إشي بيحزّن وبيقهر إنه هاد كل اللي تعلمتوه من قعدتكم بره البلد ومن هالشهادات اللي جمعتوها! لو يوسف بده يتبرى مني أنا بدّيش يكون لي أي علاقة فيه، وخليه يكبّ شهادته بزبالة!».

سألته «شو بدك تعمل إذا مريم رجعت تركتك مثل المرة الماضية؟» ورد عليّ إنه وقتها ما رح يهتم، بيتجوز تانية وتالتة ورابعة. كان معصب

---

(1) خلال المحادثة الجماعية التي أُجريت بيني (شهد دعباس) وبين المترجمة إيمان أسعد وسيرين صوالحة، عقّبت سيرين على هذا الأمر بقولها: «وحلف يعلّق البراءة عباب المسجد»، مشيرة بذلك إلى الأسلوب التقليدي والشائع في بعض المناطق الفلسطينية لإعلان التبرّؤ من أحد أفراد العائلة.

كتير ومنفعل وقال لي «مريم خبّرتني ليش تركتني، وأنا مقتنع تمامًا باللي قالته».

«طب احكي لنا السبب! احكي لنا حتى نوقف معك!»

«ما خصكم، بيكفي إنه أنا عارف».

«حبيبي إياد الحكي اللي عم تحكيه مش معقول، بيصرش تعمل هيك!»

بتذكّر منيح أني سألته «طيب إذا الموساد كان بيعرف تحركاتك أصلًا؟ وإذا مريم ما تركت البلد وكانت في تل أبيب كل هالوقت؟ وإذا الموساد درّبها حتى تتجسس عليك؟» بس ما قبل يسمع مني كلمة، وشاف إنه كل اللي عم نحكيه هبل.

وربما كان هبل. ربما إياد كان على حق.

حاولت أنصحه بهدوء من غير ما أعصبه، بس عبث. ضل مصر على موقفه وما عاد عندي أي إشي تاني أحكيه.

صرت أترجاه، «الله يخليك إياد، خلينا نفكّر بالعقل»، كنت شويّ وبشد شعري!

«الله يسامحكم، خلاص أختي أنا أخدت قراري ومبسوط».

«الله يحميك حبيبي، دير بالك».

ورد عليّ، «توكلي على الله».

مسكت سماعة التلفون واتطّلعت ع السقف، تنهدت من كل قلبي قبل ما نودّع بعض ونسكر الخط.

ضليتني أفرك بوجهي وأتلفت حوالّي، فش شي غير الصمت محاوطني من كل زاوية. ما فهمت شي من اللي صار واللي بيصير.

حسيت بحياتي كلها عم تفلت من إيدي.

المدن محاصَرة، القرى محرومة من إمدادات المعيشة، القوات الإسرائيلية التي يفترض أنها قواتٌ أمنية تحت نظام الاحتلال تحولت إلى آلة حرب فتاكة تقرِّر مصائر الناس من السماء. وفي خضم كل هذا، عائلة صوالحة تتعامل مع أزمة زواج.

مش قادرة أصدّق اللي صار لأخوي إياد. معقول عناصر الجهاد الإسلامي عندهم وقت للحب؟ هالشاب اللي نجح في إحباط المناورات الصهيونية وتفوَّق على استخباراتهم وأنظمتهم الأمنية - كيف تورَّط بهيك علاقة؟

طيب وأبوها لمريم؟ شو موقفه؟ إياد مطلوب من جيش الاحتلال حي أو ميت، والإشاعات بتقول إنه المسؤول عن عمليات استشهادية كتير، وإشاعات تانية بتقول إنه ماسك قيادة الجهاد الإسلامي في شمال الضفة الغربية. كيف بتسلِّم بنتك لهيك شاب... مرة تانية؟

يُقال إنَّ زوجة المقاوم، بالأخص زوجة قيادي في الجهاد الإسلامي، تجلب الاحترام والوجاهة لأبيها.

بعد ما تقاتلت مع إياد -بآخر تموز- ما عدنا سمعنا منه، وأكيد ما سمعنا شي عن مريم. تمسكنا بالأمل إنه ممكن سمع كلامنا واقتنع. بعدها، في أوّل آب، أعلن جدها خبر رح يهزنا كلنا!

39

آب 2002

تاقت عائلة صوالحة إلى بلوغ نهاية الصيف، إذ خططت لاجتماعٍ عائلي في الأردن. أبو يوسف وأم يوسف وأولادهما من كفر راعي سيسافرون إلى عمّان للالتقاء بسوزان الآتية من دبي، وميسون الآتية من جدة، ويوسف الذي سيقطع كل الطريق من أوهايو. لكن مع حلول آب، كان حماس العائلة قد انطفأ. فقد أعلن جد مريم إبطال إياد ومريم الطلاق وعودتهما زوجين، وأنَّ مريم انتقلت للسكن مع إياد.

تلقَّى أبو يوسف الخبر وهو جالسٌ على كرسيه المتحرك، كتفاه العريضتان انحنيتا وعيناه الواسعتان ضاقتا، واستغرق في الصمت. تلك كانت خسارة فادحة من كمٍّ الخسائر الكثيرة التي شيَّدت حياته منذ صغره. أم يوسف جالسة إلى جواره، تكاد الأريكة تبتلع جسدها الضئيل. تصلَّب جسدها عدا من حركة يد تعدّل بها حجابها، غضبها جليٌّ في تخزير عينيها. ولأيام عدة بالكاد نطق أحدٌ في البيت بكلمة.

لكن الأولاد أقنعوهما بالسفر إلى عمّان على أية حال، مؤكدين أنَّ الاجتماع العائلي سيرفع معنوياتهما.

في برينستون حاولت سيرين التخطيط للالتقاء بعائلتها والعودة إلى فلسطين. لكن الوضع لم يبدُ مبشّرًا؛ فزوجها كان رافضًا تمامًا فكرة سفرها. انشغالها بالتفكير بطرق تقنع بها زوجها بالسفر أرَّقها طيلة الليل. حينذاك بالكاد كانت تأكل، والمغص ما انفك يؤلم معدتها.

جسدها كله كان يتألم.

هديك السنة كنا مفلسين أنا ومحمد. قضينا الصيف كله نشتغل على بيتنا الجديد وصرفنا مصاري كتير عليه. كان ضروري أسافر ع فلسطين بس بالآخر عندنا تلات ولاد لازم نطعميهم.

ترّجيت زوجي، «محمد، الله يخليك تلبي لي هالطلب، من تمان سنين ما شفت أخوي إياد إلا مرتين في السجن، ولا مرة شفته بعد ما تحَرَّر. الكل بيحكي عنه ويمدح فيه وبيشوفوه بطل كبير، وأنا ما عملت إشي غير إني أحكي معه ع التلفون، مش قادرة حتى أتصوّره في بالي، كيف صار شكله بعد ما كبر وصار رجّال، نحيف؟ عنده لحية؟ كيف شكله لما ياكل ويشرب؟ بدي أشوفه وأحس فيه وإحنا نضحك مع بعض، بدي شي منه أتذكره فيه».

قضينا الليل والنهار نتقاتل.

وأخيرًا اقتنع، لكن بشرط ألاقي تذاكر سفر رخيصة. لقيت تذاكر رخيصة وحجزت، اتصلت بإمي وبلغتها أني نازلة عمّان، وتحَمَّستْ كتير، «يلّا تعالي! كلنا بنستنّاكِ وفرحانين بجيتك، خصوصي ولاد إختك».

وعلى طول خبّرتها، «لما آجي على عمّان، بدّي أترك الولاد عندك وأنزل ع الضفة يومين حتى أشوف إياد».

«أنت مجنونة؟!» صرخت إمي علي، «أخوك حكى للكل إنه مستعد للشهادة، كل اللي بيطلبه من ربنا إنه يشوفك بالأول، والصهاينة بيعرفوا هالشي! أوعِك هه! رح تبْلينا! إذا نزلتِ ع الضفة الصهاينة رح يعتقلوكِ ع الحدود حتى يوصلوا لإياد، إنت الوحيدة اللي عشانها إياد مستعد يسلم حاله حتى ترجعي لولادك وزوجك».

حاولت أقنعها إني ما رح ألتقي فيه، بس بدّي أشوفه من بعيد وأخليه يشوفني من بعيد، ونفترق.

«يا مجنونة! إيش يعني بدّك تشوفيه من بعيد! إذا بدّك تيجي لعندنا على عمّان حتى تعملي هالعملة، بلاها، لا تجي!»

بس إذا ما رح أقدر أنزل ع فلسطين لشو أسافر على عمّان؟ حتى أقعد في شقة مع أبوي وإمي؟ ما أنا هسه قعدت شهور مع أبوي في أميركا، وما عندي أي رغبة أقطع كل هالمسافة وأتحمّل كل هالمشاكل بس حتى أشوف بقية العيلة، كلهم بخير ومش خايفة على حدا فيهم.

فقررت ألغي الرحلة، ولغيتها.

في الثالث عشر من آب، نزلت أم يوسف على عمّان مع ابنتها الصغرى إسراء. كانت قد قضت أيامًا ترمِّم جدران الصالون وتعيد صبغها بعدما رشَّها جنود الاحتلال بالرصاص في المداهمة الأخيرة. كانت سعيدة بهذه الفرصة لالتقاط أنفاسها، لكن ما انفكَّ زواج إياد يشغل بالها ويثقل قلبها وهي تحاول إيجاد تفسيرٍ منطقي لقراره. على الجسر، سمحت لها شرطة الاحتلال بالعبور دون أي مشاكل، ربما، كما ظنت سيرين لاحقًا، لأن صوالحة ليس اسم عائلتها. في اليوم التالي،

حين حاول والدها، برفقة أرسلين وسهى وسوسن وبهاء وسلام، قطع الجسر، منعتهم شرطة الاحتلال من العبور. أخبروهم أن بصفتهم عائلة إياد فهم ممنوعون من السفر.

بتذكّر منيح هداك اليوم، قلبي صار يدق يدق يدق، والوجع في بطني رجع. أعصابي كلها شدّت، خايفة، مرعوبة من بكرة.

40

16 آب 2002

الهواء هامد، ميت، والليل أخرس خلا قعقعة مركبات الاحتلال العسكرية وهي تقتحم كفر راعي وتقف عند دار صوالحة في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. ترجَّل الجنود من مركباتهم، أحدهم اندفع كالبرق صوب البوابة الأمامية وصفقها بقوة، مزعجًا أوراق شجرة الياسمين المتكئة عليها.

«بدنا إياد!» صاح أحد الجنود من الخارج، كاسرًا صمت الليل.

«إياد مش هون»، صاح أبو يوسف من غرفة نومه. فقد اعتاد ترهيب جنود الاحتلال ومداهماتهم، وإن كانت هذه المرة الأولى التي يداهمون بيته في وقتٍ متأخر من الليل. العائلة كلها كانت أصلًا مستيقظة قبل طرق الجنود العنيف على الباب. فنباح الكلاب نبَّه العائلة إلى اقتراب القوة العسكرية، وسمعوا صوت قرقعة المركبات العنيف على الشوارع قبل وصول الجنود إلى عتبة باب البيت. أرسلين كانت إلى جانب أبيها حين صاح في الجنود.

«اطلعوا برّه»، صاح الجندي نفسه آمرًا، «كلكم اطلعوا برّه».

نظرت أرسلين إلى والدها، ونظر هو إليها. الاثنان مرتبكان. في العادة يقتحم الجنود البيت، يفعلون ما يشاءون به، يستجوبون أهله، ويغادرون. فكرت للحظة وانتابها الغثيان، ثم صاحت بالجندي، «بدكوا تهدّوا دارنا؟»

«لأ، بدنا نفتش البيت».

«إذا بدكوا تهدّوا دارنا، خبرونا! مشان الله إذا بدكوا تهدوها احكوا! خلوني آخد معي أدوية أبوي وإجره الاصطناعية!»

«بدناش نهدها!» رد عليها جنديٌّ آخر.

تشبثت أرسلين بأمل إيفاء الجنود بكلمتهم. فلا خيار آخر أمامها سوى الأمل.

جرَّ الجنود أبو يوسف وأرسلين وأخواتها الثلاثة خارج البيت. بهاء كان هناك أيضًا، لم يتسنَّ له الوقت للهرب، وكبّل الجنود يديه، إذ يكفي أنه شقيق إياد. وضعوه في جيب عسكري، ولاحقًا أخذوه معهم للتحقيق. كانوا سيطلقون سراحه اليوم التالي.

صفَّت العائلة وقوفًا في الشارع، في بيجاماتهم. لم تكن المرة الأولى التي يتعرض فيها البيت للتفتيش، ولا المرة الأولى التي يعيثون فيه الخراب. لكنها المرة الأولى التي يُجبَر فيها أبو يوسف على الخروج من البيت حافي القدمين يعرج على ساقه الاصطناعية، متكئًا على أرسلين التي تطوِّقه بذراعها.

اضطربت أرسلين على رؤيتهم يعتقلون بهاء، ورجتهم أن يطلقوا سراحه. لكن حين رأت والدها في استياء شديد مما يجري، كفَّت عن

رجائهم وحاولت الحفاظ على رباطة جأشها. هرعت إلى بيت أحد الجيران وأحضرت كرسيًّا إلى أبو يوسف لكي يجلس عليه، وجلست على الأرض جانبه، تمسك يده وتخبره بأن كل شيء سيغدو على ما يرام، وأنَّ عليه أن يظل متماسكًا في غياب بهاء وأم يوسف.

مجموعة أخرى من الجنود دخلت البيت، من وحدة يهلوم المتخصصة في مهام التدمير والتفجير. ضمَّت المجموعة نحو اثني عشر جنديًّا، يحملون معهم متفجرات وأدوات التفجير. بعضهم مدَّ الأسلاك عبر الغرف، بينما انتظر آخرون لكي يراقبوا الوضع. زرعوا المتفجرات في الخزائن، وكدَّسوا الأثاث فوق المتفجرات في مواقع مدروسة في أنحاء البيت لكي يضمنوا أن تحرق المتفجرات الأثاثَ كله والبيتَ بأسره.

الصهاينة بدهم يتأكدوا إنه فش اشي نرجع له، فش اشي نقدر ننتشله من هالدمار، مفكرين إنه إذا حرقوا أغراضنا رح يحرقوا ذاكرتنا معها، وإنه رح نخسر كل شي.

في الوقت الذي دأب فيه الجنود على زرع العبوات المتفجرة، كانت أرسلين قد دخلت البيت ورأتهم. عرفت فورًا ما ينوون فعله وشرعت تصرخ.

«بدكوا تفجروا دارنا!»

«أكيد بدنا نفجرها، شو مفكرة! مش هاد البيت اللي انولد فيه إياد؟ أكيد بدنا نمسحه عن وجه الأرض».

«بس إمي ولدت 12 ولد غير إياد في هالبيت! هاد مش بيت إياد لحاله! مش بيت إياد لحاله! في 12 ولد غيره! مشان الله!»

«مش هاي الدار اللي فتح فيها إياد عيونه أول مرة؟ خلاص، إحنا بدنا ندمرها». رد عليها أحد الجنود شامتًا.

كلنا تعلمنا المشي في هالبيت، كلنا طعمتنا إمي أول لقمة في حياتنا في هالبيت، كلنا، ولادها الـ13، وقعنا على درج البيت وجروح كل وقعة علَّمت أثرها على أجسامنا. لحد اليوم بحمل غضب أرسلين معي، كأني أنا اللي كنت بصرخ في وجه هالجنود. غضبها هو اللي بيعطيني القوة إني أكمّل طريقي.

أرسلين، بطبيعتها، تعرف كيف تستميل الناس إليها بعذوبة كلامها، لكن في تلك الليلة لم تنفعها طبيعتها مع الجنود بشيء. راحت تطلب منهم السماح لها بإخراج أشياء قليلة، ورفضوا. أصرَّت وبكت، واقتربت من وجه جندي وسحبت ذراعه، وفي النهاية سمح لها فقط بإخراج أدوية السكري لأبيها. عكازه وكرسيه المتحرك بقيا في الغرفة، ومعهما طقم أسنانه الذي يبقيه على المنضدة جانب سريره.

العائلة بأسرها وقفت في الشارع. وحدها.

وقفت أرسلين عاجزة، مرتبكة أمام الفقد العظيم الموشِك على الوقوع. حاولت استعطاف أحد الجنود الذين يحرسون محيط الموقع فيما يجهّز زملاؤه البيت للهدم. رجته أن يراها إنسانة مثله، امرأة في حاجة إلى بيتٍ يؤويها. لا أحد آخر بوسعه مساعدتها، لا أحد من أهل القرية سيهبّ لمساعدتها، وإياد مختفٍ تحت الأرض وليس بوسعه أن يسلِّم نفسه الآن.

نحو الرابعة فجرًا، غادر الجنود البيت الأخضر ذا الطابقين. وفي

تلك اللحظات الأخيرة، وقفت الدار وحيدة، خاوية. نوافذها المؤطرة بالأحمر أمعنت النظر مرةً أخيرة في وادي الكرز، في بوابتها الخضراء الحديدية التي دومًا ما بدت أعلى قامةً من البيت، وسمعت صريرها، كما لو أنَّ البوابة تنتحب بعدما أسلمت أمرها لمصيرها، فيما شجرة الياسمين، المستقلة الثائرة، تشبَّثت مرعوبةً بالبوابة. ستائر الطابق الثاني الموشاة بالزهور، حين عصفت بها هبَّة ريحٍ من العراء، صاحت تنادي أبو يوسف من النافذة المفتوحة.

رفع أبو يوسف رأسه. أم يوسف من كان ينبغي أن تقف هنا لا هو. هي من ضحَّت بحياتها لأجل هذا البيت. أم يوسف من عادت في الـ67 لتربي أطفالها على هذه القطعة من الأرض، أم يوسف من تصبَّب عرقها وهي تشيِّد هذا البيت حجرًا حجرًا، غرفةً غرفة، فيما هو مقيمٌ في الخارج. وها البيت الآن، في وقفته الأخيرة، لا يجد أم يوسف واقفة أمامه.

تطلَّعت عينا أبو يوسف إلى المدى، إلى ما وراء البيت، إلى السماء، إلى أعلى السماء، آملًا في إجابة، راجيًا الرحمة.

دمعة، دمعة وحيدة انسلت من عينه وانسابت على خده، في مواجهة أخيرة ضد الاحتلال - دمعة رجاء، دمعة استرحام، دمعة مقاومة. دمعة حملت كامل ذكريات البيت، حيوات كاملة، علَّ الصهاينة يرونها، هذا إن كانوا يبصرون أصلًا.

وفي لحظتها، قبل أن يتسنى له خفض رأسه، قبل أن ينطق كلمة الوداع، قبل أن يتسنى للدمعة أن تترافع عن قضيته مرةً أخيرة، وعلى

وقع دويّ الديناميت، حياته، ذكريات زوجته وأطفاله، ماضيهم، انهارت كلها أمام عينيه، وهوت حطامًا على الأرض.

في الأيام والأعوام المقبلة سترمِّم العائلة حياتها، كلٌّ سيعيد بناء حياته ويحمل ماضيه معه. الماضي بطبيعته مقاوم، عصيٌّ على الامّحاء حتى لو فجروا فيه الديناميت. لكن في تلك اللحظة، فيما سحابة الغبار تنبثق من على الأرض، تحجب سماء الليل في كفر راعي، فيما الجيران وقوفٌ على شبابيكهم ينتحبون على مصيرهم المشترك، شعر الحاضرون من أبناء دار بو شقارة الواقفين على الشارع -أرسلين وسهى وسلام وسوسن وأبيهن- كما لو أنَّ الحاضرَ تمزَّق إربًا وتشظَّى، بتروه من الماضي الذي فني أمام أعينهم وما عاد له وجود، وبدون هذا الماضي تُرِكوا أمام مستقبلٍ مجهول امّحى من أي ملامح. بهاء، مكبَّل اليدين في المقعد الخلفي لعربة جيب عسكرية، أغمض عينيه بشدة كيلا تفلت دموعه من حبسها.

بعد الانفجار بلحظات، إن كان أحدٌ من أهل القرية لا يزال نائمًا فلا بد قد استفاق. بيوتٌ كثيرة أضاءت أنوارها. وحين استشعر الجيش احتمال مقاومة، أعلن منع التجول بمكبرات الصوت. يمنع على أيٍّ كان مغادرة بيته. وهكذا، أي أملٍ لدى العائلة بنيل المواساة من الجيران، انهار.

انتظر الجنود إلى أن تأكدوا من أنَّ البيت تدمَّر بالكامل.

ظلت العائلة في الشارع. أرسلين، بعد صراخها وبكائها، أغمي عليها. على مقربة منهم كانت شقيقة أم يوسف، فصايل، قد سمعت

صراخ أرسلين قبل التفجير، وسمعت الصمت وهو يطبق على الليل بعد الانفجار. ظنَّت أنَّ أبناءً من عائلة أختها قد قُتِلوا كرّةً واحدة، وشرعت تصيح وتصرخ، نواحها يعلو ويعلو، تلطم رأسها، جسدها يتأرجح يمنة ويسرة مثل بندول الساعة. زوجها مصدوم، عاجزٌ عن مواساتها، فلا أحد منهما يعرف ما جرى حقًّا، ولا أحد منهما بيده مغادرة البيت ليعرف. الخبر جاءهما لاحقًا بعدما تنقَّل من بيتٍ إلى بيت.

على مرّ ساعتين، لا أحد من الجيران جرؤ على الخروج وفتح بيته للعائلة. جلس أبو يوسف وأرسلين وسوسن وسهى وسلام على قارعة الطريق، في ليلة حارة من ليالي آب، في انتظار الجنود يغادرون الموقع. جلسوا يرقبون انبلاج الفجر على أقل من مهله، قبل أن يكشف نوره الإذلال الذي يعيشونه.

حين انقشعت سحابة الغبار بات بوسعهم رؤية ما آل إليه البيت. جدارٌ واحد فقط ظلَّ قائمًا، وباب خزانة. على الجدار صورتان معلقتان: صورة لإياد وأخرى لباسل، ابن سيرين. وعلى باب الخزانة، محفورةٌ عبر السنوات تواريخ ميلاد الأطفال الثلاثة عشر.

بعد ساعات، فيما الصباح بدأ يستقر على الضفة الشرقية من نهر الأردن الجاف، وقفت أم يوسف أمام شاشة التلفاز في شقة أحد أقربائها. الشاشة تعرض أخبارًا عن فلسطين والعالم، أسفلها يمرُّ شريط الخبر العاجل: «القوات الإسرائيلية هدمت بيت عائلة إياد صوالحة، العضو في حركة الجهاد الإسلامي».

لم ينتَبْها أي إحساس فور قراءتها الخبر، لم تستوعب الخبر على

أنه خبرٌ يتعلَّق بحياتها. تطلَّب الأمر برهة حتى تستوعب الصدمة، واحتاجت إلى إجراء اتصالات عاجلة للتأكد من صحة ما قرأت.

مشاعر الفقد كانت مؤجلة، ستعيشها حين تعود وترى بعينيها ركام الأنقاض، مِزَق الستائر، الصور القليلة المتبقية محروقة، شجرة الياسمين المشوهة لا تزال جذورها تتشبث بالحياة. أمَّا اللحظة، فهي تشاهد في صمت، غير مصدقة. في عام 1967 حاول الصهاينة سلب أرضها، لكنها مشت تحت ستار الليل وعادت. الآن، كما لو أنهم ينتقمون منها على مواجهتها القوى التي أرادت محوها، ها هم سلبوها بيتها الذي شيَّدته على أربعة عقود وهي جالسة تشاهد في عمَّان.

ما إن استعادت رباطة جأشها، وجدت في هدم البيت شيئًا من السلوان، لأنهم إن هدموا بيتها فهذا يعني أنهم سيتركون ابنها وشأنه. ستتقبَّل هذه التضحية، وهمست في نفسها، كما لو أنها تهمس لابنها، «فداك البيت يمَّه».

رنّ التلفون الساعة 2 الصبح بتوقيتنا، 9 الصبح بتوقيت فلسطين، وقمت مفزوعة. كنت هلكانة لأني قضيت اليومين الماضيين بالمستشفى مع زيد بعد ما صابته نوبة ربو حادة. ارتبكت وخفت، وكنت رح أرد، بس محمد قال لي أرجع أنام، أكيد اللي يتصل بهالوقت واحد من صحاب ضياء. وقتها أخوي ضياء كان ساكن معنا، وبالعادة بيتصلوا فيه صحابه من فلسطين بأوقات غير مناسبة.

رجعت نمت نومة عميقة، بس محمد ما قدر، فنزل ع الطابق التحتاني وقعد يتفرج ع التلفزيون. الساعة 8 الصبح سمعت التلفون

بيرن سبع مرات بس كنت ميتة تعب وحسيت إنه حلم، فكسّلت أقوم. بعدها بنص ساعة صحيت وقمت من التّخِت[1].

نزلت، وقال محمد إنه زيد صار له أيام مش ماكل منيح، وطلب مني أعمل وجبة فطور دسمة. سمعت كلامه، مع إني ما قدرت أفهم قلقه المفاجئ على وجبة الفطور، مش من عادته، وسألت نفسي عن سبب إصراره.

رنّ التلفون كمان مرة، رفع محمد السماعة وحكى بالعربي، كل اللي سمعته، «لا، لسّه ما بتعرف». سألته شو الموضوع وحكى لي ما أشغل بالي. وكمان مرة ما قدرتش أعرف.

بعدها بدقايق رنّ التلفون وهالمرة كان أخوي بهاء، بس وقتها ما كنت بعرف. عطى محمد رقم تلفون، ومحمد كتبه على ورقة. كنت مجهزة البيض، مع صحن زيت وزعتر، وصحن لبنه، وصحن زيتون، وحطيتهم كلهم على كاونتر المطبخ. ولما سمعت محمد يكتب رقم تلفون تحمّست، «يا الله! جابوا لي رقم إياد الجديد، مش هيك؟» كان مرّ وقت طويل على آخر مكالمة بيني وبينه.

قال محمد، «آه، رقمه، بس افطري بالأول وبعدين اتصلي». بس ما قدرت، ما عنديش صبر لأستنى. أخدت منه الرقم واتصلت، الخط مشغول. رجعت اتصلت مرة تانية، والخط ضله مشغول. وأنا عم اتصل كمان مرة، سمعت من وراي قناة الجزيرة، التفت وقريت الشريط: «القوات الإسرائيلية هدمت بيت عائلة إياد صوالحة، عضو

(1) تَخِت: سَرِير، وجمعه «تْخُوت» أو «تْخُوتِة».

حركة الجهاد الإسلامي». الشريط طعنّي بقلبي ألف طعنة، ولقيت حالي بكرّر المكتوب، «القوات الإسرائيلية هدمت بيت إياد صوالحة... القوات الإسرائيلية هدمت بيت إياد صوالحة».

لقيتني أقرأ واقع حياتي بصيغة الغائب.

الرقم اللي عطاني إياه محمد هو رقم البيت اللي قاعدين فيه أبوي واخواتي وبهاء. كان مفروض اتّصل عليهم بعد ما أعرف اللي صار. قضيت بقية اليوم أعيط، صحابي من نيوجيرسي إجوا عندي أول ما عرفوا عشان يواسوني.

هداك النهار حكيت مع إمي في عمّان ومع أخوي إيهاب في موسكو، مشاعري كلها متلخبطة. ضليتني أقول لحالي وأنا بعيط، «فدا إياد... فدا إياد». خلاص، الصهاينة انتقموا منه في البيت وما رح يلاحقوه.

أخيرًا حكيت مع إياد، وردة فعله كانت عادية، «ما صار إشي، ربنا يعوضكم بقصر في الجنة».

بس أبوي انجنّ وعصّب، ما كانش قادر يخبّي غضبه، «شفتي يابا! شفتي إياد أخوك إيش عمل فينا! خلاني شحّاد في آخر عمري! خلاني شحّاد! أنا يابا اللي عمري ما مدّيت إيدي لحدا، أخوك خلاني شحّاد!»

«معلش يابا، فدا إياد... فدا إياد». إيش كان بإيدي أرد عليه غير هيك؟

«إحنا عايشين هالقيت ببيت أبو جاسر، بيته قبال بيتنا. احنا السبعة كلنا عايشين بأوضة صغيرة، ما عندناش إشي يابا! وإياد أخوك لحد هسّه ما اتصل!».

بعدما انقشع الغبار ذاك الصباح، اتضح وجود متفجرتين لم تنفجرا. البيت تهدَّم بالكامل وتدمَّرت معه كل مقتنيات العائلة. لكن لا بد من رفع الركام لكي تستطيع العائلة البدء من جديد. حاول الناس إزالة أحجار البيت والخرسانة المتحطمة، لكن لم يستطيعوا الاقتراب أكثر.

اتصل الجيران بجيش الاحتلال لكي يزيلوا المتفجرتين، والجيش رفض.

أخيرًا، في ذاك النهار، تمكَّن أهل القرية من انتشال إحدى المتفجرتين. وحين أتوا اليوم التالي لم يجدوا أثرًا للمتفجرة الثانية.

رح نعرف بعدين من وحدة من جاراتنا إنه إياد رجع ع البيت، فكَّك المتفجرة وحملها معه. كانت سمعتْ صوت من الأنقاض، ولما اتطَّلعت من الشباك شافت إياد، وابتسموا لبعض.

أخيرًا، بعد تلات أيام، قدر إياد يتصل بالعيلة، واعتذر منهم إنه هو السبب في هدم البيت اللي انولدوا وعاشوا فيه. بس أبوي رفض يكلمه، وعمره ما رح يرجع يكلمه.

إياد، من خلال معارفه في جنين، ساعد والديه على إعادة التأثيث والحصول على قطع أثاث وأجهزة بالمجان - ثلاجة، ملابس، وأجهزة إلكترونية جديدة. وفد الناس من كل مكان إلى العائلة لكي تساعد: من طولكرم وجنين ومن بلدات ومدن أبعد. أحدهم أحضر أحذية، وآخر ملابس، وآخر أحضر فراشي أسنان ومناشف للاستحمام مع مستلزمات الحمام، وغيرها الكثير. المكان الذي وفَّره أبو جاسر غرفةٌ واحدة ملحق

بها حمّام عربي، وأبو يوسف بحالته واعتماده على الكرسي المتحرك كان عاجزًا عن استعماله. جاء سبّاك ورتّب التمديدات وركّب مرحاضًا إفرنجيًّا ودشّ وسخان ماء لكيلا تضطر العائلة إلى غليه. كذلك وهب الناس شراشف وأطباقًا وقدورًا وغيرها من مستلزمات المطبخ. كما ساعد الناس في ترميم المطبخ وتبليطه وتجهيزه بما يكفي لكي يصبح قابلًا للاستعمال. كل هذا حصل في غضون عدة أيام.

ضلّوا الجيران يواسونا، «معلِش، معلِش، على الأقل هدموا البيت ورح يبطلوا يلاحقوا إياد». هالمواساة المتكررة طمنتني، بس ما طمّنت أبوي، لأنه كان فاهم إنه مطاردة إياد ما انتهت.

«فدا إياد» اللي جبرت خاطري وخاطر إمي واخوتي واخواتي، ما جبرت خاطر أبوي.

41

مكتبة
t.me/soramnqraa

بعت لي إياد رسالة إنه بدّه يلتقي فينا بالجامع الكبير في صلاة الجمعة. رحت أنا وميسون وسوزان وأخدنا معنا كل ولادنا، وقعدنا في الجامع نستنّاه.

نسوان تنتين دخلن الجامع، لابسات عبايات سودا ونقاب وقعدوا جنبي.

بعدها بأكم من دقيقة، النسوان رفعوا النقاب عن وجوههم، ولقيت حالي عم أتطَّلع على إياد ومرته مريم. من شدة فرحتي صرت أبكي، مش عارفة كيف أحكي معه، وهو بيحاول يهدّي فيني.

«يا هبلة بسِّك، أنا مشتاقلك وانت عم تضيعي وقت بالعياط بدل ما تكلميني، شوفي سوزان وميسون كيف قاعدين وساكتين!»

قعدنا نحكي مع بعض، وحكى لي أجيب ورقة وقلم حتى أكتب رقم تلفوني وأعطيه لمريم حتى تتصل عليّ إذا صار فيه أي شي، وأدير بالي عليها.

بجيب ورقة وقلم، بس القلم ما بيكتب. بجرب قلم تاني وتالت ورابع، ولا قلم من هالأقلام راضي يكتب. أخيرًا بلاقي قلم أحمر وقدرت أكتب فيه، لكن الرقم اللي عم أكتبه رقمي القديم في نيويورك مش رقمي في نيوجيرسي. بحاول كمان مرة، وكمان مرة، وكمان مرة، مش قادرة! مش راضي يطلع معي! نسيته! وكل ما بكتب ما بيطلع معي إلا رقمي في نيويورك!

صلاة الجمعة خلصت، وفجأة الكل صار يركض، إياد ركض في جهة وأنا وميسون وسوزان في جهة، زعيق وطخ رصاص، وعيني على ولادي، كلنا نركض ونركض ونركض، وفي غفلة الخوف والركض ضيّعت أخوي إياد.

راح منّي من غير ما أودعه.

42

تشرين الأول 2002

منذ هدم الاحتلال بيت إياد، انشغل بتخطيط عدة عمليات تفجير. في التاسع من أيلول، أرسل عبدالفتّاح راشد، البالغ من العمر الثالثة والعشرين، في عملية إلى بيت اللد، وهناك فجَّر حزامه الناسف؛ سقط إثر الانفجار عددٌ من الجرحى، ولم يمت أحد سواه. مهمة أخرى خطط لها إياد في نهاية أيلول لكنها أُحبِطت. مع حلول منتصف تشرين، كان يخطط لعملية تفجير أخرى.

سعيد طوباسي وأعضاء آخرون في خلية إياد عثروا على شابين لكي ينفذا عملية استشهادية مزدوجة. أشرف الأسمر ومحمد الحسنين كانا عضوين في سرايا القدس؛ أشرف بائع كعك جوَّال ومحمد يملك متجرًا صغيرًا بجوار بيت صديقه في جنين. التقى إياد بأشرف ومحمد في جامع جنين قرب سوق البلد. لا أحد منهما يعرف هوية إياد ولا حتى اسمه، كل ما يعرفانه أنه مرسولٌ يحمل إليهما التعليمات. شرح إياد لهما تفاصيل العملية. ستتولى الخلية تهريبهما إلى خلف الخط الأخضر في سيارة مفخخة، وهناك ينفصلان عن بعضهما. أحدهما سيحمل حقيبة مفخخة

ويمضي بها إلى الهدف؛ والآخر سيقود السيارة المفخخة ويصطدم بحافلة. بعد عودة إياد من اللقاء بهما، انكبَّ هو وسعيد ورفاقهما على إعداد المتفجرات.

ليلة العملية، التقى إياد بأشرف ومحمد لكي يلتقط صورهما ويراجع معهما تفاصيل العملية. حين التقيا به في إستوديو التصوير المؤقت، في شقة من شقق وسط البلد في جنين، لا أحد منهما للآن كان يعرف هوية إياد الحقيقية. أشرف ومحمد كانا متوترين بعض الشيء، وحاول إياد تهدئتهما بالعناق والابتسامات. تحدث إليهما عن أهمية ما يفعلانه وشكرهما على تضحيتهما، ومعًا أدّوا صلاة المغرب. بعدها، سجَّل كل منهما قراءة وصيته، داعيًا أمه وأباه ألا يحزنا، بل يبتهجا باستشهاده، وختما بالتوكُّل على الله.

العملية الآن جاهزة. في الصباح الباكر، جرى تهريب السيارة المفخخة إلى خلف الخط الأخضر، حاملةً معها الحقيبة المفخخة، وعلى أشرف ومحمد قطع الحدود إلى خلف الخط الأخضر بنفسيهما ظهيرة اليوم التالي. يلتقيان في السيارة أولًا، ثم يواصل كلٌّ منهما طريقه إلى هدفه.

بعد ظهيرة الحادي والعشرين من تشرين 2002، شابة فلسطينية تبلغ من العمر الثالثة والعشرين، من طيبة (1948)، تحمل الجنسية الإسرائيلية واسمها سعاد جابر، استقلَّت حافلة إيجد رقم (841). الحافلة كانت قادمة من شمال مستوطنة كريات شمونة -المستوطنة التي بنيت في 1949 على أنقاض بلدة الخالصة الفلسطينية- وفي طريقها إلى

تل أبيب في رحلة تمتد على ثلاث ساعات. شعر سعاد كستنائيٌّ فاتح، وابتسامتها معدية. شابة ذكية موهوبة مفعمة بالحياة وتتمتع بروح المبادرة. نالت التو درجتها الجامعية في الإحصاء والرياضيات، وتعمل بدوامٍ جزئي سكرتيرةً لدى مجلس إدارة بانوراما، إحدى أكبر الصحف العربية داخل الخط الأخضر، والتي يملكها عمّها. استقلت الحافلة قرب قرية أم الفحم وتوجهت نحو أول مقعد خالٍ، وفي طريقها تلاقت عيناها بأعين بعض الجنود الجالسين، وزمَّت شفتيها. ثم جلست على مقعد في الصف الرابع وشعرت بشيء من الراحة، إذ يتوجّب عليها تبديل الحافلة في محطة قادمة قريبة.

كانت في طريقها إلى حيفا لكي تستلم شهادتها الجامعية.

بعد مرور وقت قصير، عند النصب التذكاري لحرس الحدود في وادي عارة، استقل شابٌّ فلسطيني درزي يحمل الجنسية الإسرائيلية الحافلة. الشاب يُدعَى أيمن شروف، شرطيّ يبلغ العشرين من العمر وكان يخدم في الخليل على مر العامين السابقين قبل نقله إلى مركز نصب حرس الحدود في ذاك الأسبوع بعد تعرضه لإصابة إثر حادث.

لفتت سعاد نظر أيمن وهو يمشي نحو مقعده، ولمح ابتسامتها. أشاحت وجهها عنه ورنت بنظرها خارج النافذة، نحو السماء الفلسطينية، حيث رأت مستقبلها يلمع على السديم الشرق أوسطي. أيمن جلس على الجانب المقابل من الصف الرابع، وانطلقت الحافلة.

قطعت الحافلة طريقها عبر وادي عارة، وبعدها بخمس دقائق، خففت الحافلة سرعتها وتوقفت قرب مفترق كركور. كانت الحافلة

شبه ممتلئة، ومن خلفها سيارة أمنية تتابع تحركاتها في إجراءٍ معتاد ضمن رفع الجاهزية الأمنية. لكن يومها لن يكون لهذا الإجراء أي نفع.

فيما توقفت الحافلة عند المفترق لكي تستقبل الركاب المنتظرين، اقتربت سيارة.

لاذ أشرف الأسمر ومحمد الحسنين إلى الصمت طيلة طريقهما في السيارة. كانا أعز صديقين، لا يفترقان عن بعضهما إلا ساعة العمل والنوم. حتى في ذروة أيام الانتفاضة واجتياح جيش الاحتلال جنين، وجدا وقتًا يقضيانه معًا إما في شرب الأرجيلة أو اللهو مع بقية أصدقائهما في الحارة. في ذاك الصباح، نجحا في الدخول إلى خلف الخط الأخضر بلا عوائق، وقطعا طريقهما إلى موقع استلام السيارة والحقيبة المفخختين في باقة الغربية. اقتضت مهمة أشرف أن يأخذ الحقيبة ويستقل سيارة أخرى تأخذه إلى هدفه، بينما يقود محمد السيارة المفخخة إلى هدفها. لكن حين فحص أشرف الحقيبة اكتشف مشكلةً في الصاعق. لربما الأقدار اقتضت هذا، إذ وجد الصديقان مشقّةً في تحمُّل قضائهما الساعة الأخيرة من حياتهما مفترقيْن عن بعض. رمى أشرف الحقيبة في الصندوق الخلفي، وقررا الذهاب معًا إلى مفترق كركور حيث كان يفترض بمحمد أن يفجر السيارة.

في طريقهما، تملَّكهما الشعور بأنهما جنديان يقاتلان في ساحة معركة دون أي عتاد. حاولا تزجية الوقت ودفع الخوف بتبادل الكلام، فتحا نوافذ السيارة ليستمتعا بنسائم تشرين، وهوَّنا من مصيرية اللحظة المقبلة

عليهما. إن ساور أحدهما شك فقد أخفاه عن صديقه، لأنَّ فلسطين أعظم منهما، وهما مستعدان لافتدائها.

نحو الساعة الرابعة عصرًا، فيما توقفت الحافلة رقم (841) في مفترق كركور، قاد محمد السيارة إلى جانب خزان الوقود. ربَّت أشرف على كتف صديقه، وكلٌّ نظر في عيني الآخر وابتسم، وفي طمأنينة كرّرا «الله أكبر، لا إله إلا الله» المرة تلو المرة تلو المرة.

وفي غمضة عين، قبل السطوع الوهّاج، كل شيء انتهى.

قتل الانفجار 14 شخصًا، سبعة منهم على الأقل عسكريون، والموت لم يكن فوريًّا لدى الكل. خمسون آخرون أصيبوا بجراح فيما امتزج الحديد والبنزين بمئة كيلوغرام من المتفجرات. عدد من السيارات المجاورة اشتعلت، وعدد من الجثث تفحّمت. المحظوظ فيهم يتشبث بساقٍ شبه مبتورة، أو يمسك ببطنه المبقورة، يكاد يموت من شدة الألم. أما الواقفون على أقدامهم فقد أصابتهم الصعقة. الذخيرة التي حملها الجنود في الحافلة أشعلت سلسلة انفجارات، وجعلت من المستحيل على فرق الإنقاذ الوصول إلى الجرحى.

لم يتم التعرف على جثتي سعاد وأيمن إلا بعد ساعات، حيث جرى إعلام عائلتيهما بمقتلهما. سعاد لم تترك خلفها والدها ووالدتها فقط، بل أخًا وأختًا، وأيمن ترك أربعة أشقاء. كلاهما حُسِب ضمن حصيلة القتلى الإسرائيليين. حين سمع إياد بالخبر، تلا الفاتحة على روح الشابين الشجاعين اللذين ضحيا بحياتهما لأجل القضية. وفي تلك اللحظة أيضًا اجتاحته نشوة النصر والفخر العارم بنجاح هذه العملية التي خطط لها.

سيعرف لاحقًا بموت سعاد وأيمن الفلسطينيين. لم يكترث لأيمن لأنه شرطي، لكن وخزه تأنيب الضمير لموت سعاد وتلا الفاتحة على روحها، من ثم طرد هذا الخبر من ذهنه، لأنَّ الأمر في النهاية أكبر منه ومن سعاد.

بعد تفجير مفترق كركور بأربعة أيام، أطلقت قوات الاحتلال عملية عسكرية ضخمة بهدفٍ واضح وجليّ. ستحاصر القوات وسط البلد القديمة في جنين ومخيمها، وتهدم بيتيْ الرجلين اللذين فجّرا نفسيهما في كركور. كذلك، بناءً على المعلومات المخابراتية، توصلت قيادة الاحتلال إلى أنَّ مخططي العملية الاستشهادية يديرون عملياتهم من جنين، وهم عازمون على اعتقال تلك الخلية أو قتلها.

في الخامس والعشرين من تشرين الأول نشر جيش الاحتلال مئات الجنود، من ضمنهم تسعة عشر قناصًا. «لازم نتفرَّق»، اقترح إياد على رفاقه. «سعيد، خد معك مجموعة من الشباب واطلعوا بره جنين».

«وأنت؟» سأله سعيد طوباسي.

«بضل كم يوم هون، وبعدين بلحقكم».

سعيد طوباسي ومجموعته ذهبوا إلى مخبأ قرب قرية عرقة، بينما قاد إياد عملية هجوم مضادة للاقتحام الصهيوني. في اليوم الأول اقتحم الجيش ما يقارب خمسين مبنًى، ضمن عملية تفتيش مكثفة اعتقلوا على إثرها عدة أشخاص. وواجه الجيش مقاومةً تعرَّض فيها ستة عناصر من فتح لإصابات بالغة.

في اليوم التالي، مع استمرار الهجوم الصهيوني، ألقت قوات الاحتلال

القبض على العشرات وهدمت بيتًا. بعدها بأيام قتلوا شخصين، الأول أطلقوا عليه النار وهو يتفحص خزان الماء على سطح بيته في أثناء منع التجول، والآخر كان فتًى واقفًا خارج باب بيته في المخيم. كذلك داهموا مدرسةً وحفروا خنادق حول المدينة لكيلا يدخلها ولا يخرج منها أحد إلا عبر حواجز التفتيش الثلاثة.

في الأول من تشرين الثاني، أغار الجيش على قرية عرقة واكتشفوا مخبأ سعيد طوباسي واعتقلوه. كانوا يطاردونه هو وإياد لمسؤوليتهما المباشرة عن التخطيط لعمليتي التفجير في مجدو وكركور. تعرَّض سعيد للتعذيب في محاولة جيش الاحتلال معرفة مكان إياد.

أصغى إياد من مخبئه إلى صراخ الناس الذين تحولت بيوتهم إلى مواقع للقنّاصة، إلى بيوت تُهدَم حتى إن كانت واقعة على مسافة بعيدة منه، إلى خبط أقدام الجنود وهم يقتحمون البيوت القريبة ويعتقلون الأولاد، وفي مرات يعتقلونهم مع آبائهم.

فكرة مغادرة المخبأ والهرب خطرت على باله عدة مرات، غير أنَّ الوضع كان بالغ الخطورة. وحين حُفِرت الخنادق حول المدينة ارتأى البقاء والصمود حتى النهاية. مريم كانت برفقته، وقد خزَّنا من الطعام ما يكفيهما عدة أسابيع. كذلك، كان بوسع مريم التحرك بحرية، ومغادرة المخبأ والعودة إليه في ساعات رفع الحظر المحدودة. لم يشكّ أحدٌ من الجيران في شيء، إذ كل ما رأوه امرأة فقيرة تحاول تدبير قوت يومها.

مع استمرار مداهمة البيوت، بيتًا بيتًا، وترويع ساكنيها، تحولت جنين في غضون أسبوع إلى أرضٍ مهجورة. في الليل، حتى إن أراد

أحدهم تحدّي منع التجول، بالكاد سيجد إنارةً في أي شارع. الكلاب الشاردة انحدرت إلى شوارع المدينة، وفي النهار أغلب المتاجر مُقفلٌ عليها بالمصاريع، وأكشاك السوق الملونة ليس لها أثر. الأزقة في القصبة ملوثة ببرك المجاري إثر تحطُّم الأنابيب، ومنتثرة بأحجار البيوت المتكسرة. الطرق المرصوفة بالحصى تهشَّمت على يد حفريات الجيش وإقامة حواجز التفتيش والعوائق. وفي سائر الضفة وقطاع غزة، استمرت عمليات الاغتيال وتدمير البيوت بلا هوادة. في بيت حانون ورفح ونابلس وطولكرم والخليل وقلنديا وخان يونس ومدينة غزة، شنَّ الاحتلال فيها جميعًا حملة مطاردة لاقتناص عناصر المقاومة.

في صباح الثامن من تشرين الثاني، في كفر راعي، على بعد عشرين دقيقة من جنين، ثلاث مركبات عسكرية اقتحمت شارع القرية الرئيسي، تثير عاصفةً من الغبار خلفها. المركبات الثلاث توقفت عند المسكن المؤقت حيث تقطن عائلة صوالحة.

تلك المركبات حملت ما لا يقل عن أربعة وعشرين جنديًّا. أربعة جنود ترجلوا من مركباتهم وتوجهوا إلى البيت، بينما وقف البقية متأهبين، متوترين، نظراتهم جامدة.

أبو يوسف لم يكن في البيت. أم يوسف كانت قد استيقظت للتو، إذ سهرت حتى الفجر لكي تعد وجبة السحور وتتناولها مع عائلتها. فرغم المداهمات المستمرة، تمكنت العائلة من استرداد شيءٍ من الحياة الطبيعية. انشغلت أم يوسف بالطبخ، وفي ساعات رفع منع التجول تذهب إلى الأرض وتعمل عليها. ظلت توكل إلى أبنائها مهام مختلفة للحفاظ على

ترتيب البيت، وظلت تنتظر. تنتظر سماع الأذان، تنتظر غروب الشمس، تنتظر انتهاء الانتفاضة، تنتظر عودة الجنود.

تنتظر إياد.

بعد لحظات طرق الجنود الباب، وأرسلين فتحت. طالب الجنود بمجيئها وأختها معهم، وصرخت أرسلين «سيبونا لحالنا، ما بنعرف وينه ولا بنعرف إيش عمل!»

قبضوا عليها وأصروا على مجيئها معهم، هبَّ أخواتها لنجدتها ووقفن بينها وبين الجنود، وأم يوسف معهن. الجندي الذي يمسك بأرسلين شدَّ قبضته عليها.

كان عندهم سبب قوي ليشكُّوا إنه أرسلين بتعرف مكانه لإياد. بأول يوم رمضان -سواء الصهاينة كان عندهم خبر أو لأ - بعث إياد رسالة لأرسلين يقول فيها، «رمضان كريم. تزعلوش مني، سامحوني، وإن شاء الله نجتمع كلنا مع بعض في رمضان الجاي».

برضه، ولحد فترة قريبة، كانوا إياد وأرسلين يلتقوا كل أسبوع بجنين، بس هاد ما بيعني إنه أرسلين بتعرف وين إياد أو أي إشي عنه. هو اللي كان يطلع لها فجأة بالشارع أو بطريقها ع البيت. وأغلب الوقت ما كانوا حتى يمشوا جنب بعض، كان دايمًا هو اللي بيمشي وراها بكم خطوة. نادر ما كان يحكي، كل حكيه سلامات وسؤال عن العيلة. هي اللي كانت تحكي طول الوقت وتشاركه أخبارنا. وبالأساس كانت تلتقي معه عشان توصل له الأكل، تعطيه من الشوكولاتة والبسكوت اللي بحبهم، وأكل من طبخ إمي عاملته مخصوص إله. بس هي عمرها

ما عرفت متى ممكن تشوف إياد. أوقات كانت تخلي الأكل بمكتبها لأيام ويخرب قبل ما يجي. وعمومًا هاي اللقاءات السريعة انتهت بأول آب لما إياد تجَّوز مريم، وأرسلين وقفت مع العيلة ضد قراره.

«فش سبب حتى توخدوني معكم»، صاحت أرسلين معترضةً في وجه الجنود، «ما بعرف إشي عن إياد! مش هدّيتوا دارنا؟! خلاص! إيش بدكم تعملوا فينا أكتر من هيك!».

شقيقات أرسلين حاولن خلع قبضة الجندي عن أختهن، وهذه المرة نجحن. تحررت من قبضته وحاولت الحديث مع الجندي بعقلانية، «لما الواحد فينا يوصل عمره 16 تعطوه هوية، لأنه وقتها كل واحد بيصير مسؤول عن حاله، مش هيك؟ طب أنا مش مسؤولة عن إياد واللي يعمله، روحوا دوروا عليه بنفسكم، هوّ مش مسؤوليتي». وهذه الحجة العقلانية لم تنفع.

تواصلت المواجهة في البيت إلى ما يقارب الساعة، حاول فيها الجنود القبض على أرسلين وإحدى شقيقاتها دون تصعيد الموقف.

أخيرًا عاد أبو يوسف، وقال من المستحيل أن يأخذوا ابنة من بناته، وإن فعلوا فليأخذوا العائلة بأكملها. وافق الجنود على كلامه، وأمروا أرسلين وأختها بالركوب في عربة جيب، بينما يركب البقية في جيب آخر. اعترضت أم يوسف واقتحمت الجيب حيث تجلس ابنتها. مع وجود أرسلين وأمها، أمر الجنود بإخلاء عربة الجيب الثانية من بقية العائلة، وانطلقوا إلى المركز العسكري في عرابة.

هناك، انتظرت أرسلين وأمها في المكتب إلى أن جاءهما جندي

وسلَّمها الهاتف. على الطرف الآخر من المكالمة كان الضابط أشرف، ضابط معروف لدى أهل القرية. استجوب أرسلين عن أخيها، واستجوبته هي عن مبررات اعتقالها، وصاحت عليه، «شو بدكم فيني؟ ليش اعتقلتوني؟» وردَّ عليها الضابط أشرف بأنها تعرف مكان أخيها إياد، «بنعرف إنك كنتِ تلتقي فيه بجنين!».

«صحيح، بس هو اللي كان بيجي عندي مش أنا اللي بروح عنده. عمركم شفتوني بدوّر عليه؟ عن جد مفكرين إني بعرف أي شي عنه؟ هوّ المطلوب مش أنا، روحوا دوروا عليه إيش دخلني أنا وإمي؟» ولحقت هذا التساؤلات بعبارات هجومية، وأنَّ إسرائيل نالت ما تستحق، وانفعل عليها الضابط «أخوكِ إرهابي!».

«أنتوا الإرهابيين، أنتوا اللي إجيتوا لعندنا، أنتوا اللي احتليتوا أرضنا، مش إحنا اللي رحنالكم!».

«أخوكِ قتل ناس من شعبي!».

«أخوي قتل ناس من شعبك لأنكم عم تقتلوا شعبنا، خبِّرني بالله كم واحد من شعبي قتلت!».

طالت المواجهة عبر الهاتف عدة دقائق إلى أن أنهى الضابط المكالمة. تعاملت أرسلين بشراسة مع كل جندي تتعامل معه، تلعنهم وتهددهم بالملاحقة وقتلهم إن لم يطلقوا سراحها وسراح أمها. بعد هذه المكالمة، ظلت أرسلين وأمها جالستين في المكتب الخاوي إلى ما بعد الخامسة مساءً، بعدها أطلقوا سراحها. طالب الجنود برؤية بهاء، لكن أمه قالت إنه في نابلس ولا علاقة له البتة بأخيه إياد.

على بعد مئات الأميال، كانت سيرين ترتب غرفة المعيشة في بيتها، ترتدي قميصًا زهريًّا فضفاضًا وبنطالًا أبيض قطنيًّا. وكالعادة، عرفت بخبر القبض على أمها وأختها من شريط الخبر العاجل على قناة الجزيرة: «اعتقل الجيش الإسرائيلي والدة وشقيقة عضو حركة الجهاد الإسلامي إياد صوالحة».

بتذكّر أول ما قريت الخبر ع الشريط غمضت عيوني، ولطمت ع راسي وبكيت.

الهدف من هذا الاعتقال استفزاز إياد - خطوة محسوبة في دليل الأمن الإسرائيلي. فإياد سمع صراخ النساء في المعتقلات، ويعرف الإذلال الذي يضطررن إلى احتماله. سمع عن المرأة التي أُجبِر أبوها على اغتصابها، وعن المرأة التي قيدوها واغتصبوها بعنف بأدوات مختلفة. هذه القصص زرعت الشك في عقل إياد، وفي مشروعه الذي يعطي الأولوية لوطنه على حساب عائلته. حين اعتقل الجنود أمه وأخته، ذُعِر وتألَّم ألمًا لا يُطاق.

إياد بعث تلات رسايل لأخوي بهاء حتى يعرف إيش صار، وآخر رسالة استلمها بهاء كانت في 9 تشرين الثاني، الساعة 12:30 بالليل. بهاء، اللي كان وقتها في نابلس، وبآخر رسالة منه لإياد، طمَّنه إنه إمي وأرسلين طلعوا، وما تعرضوا لأي أذى.

43

جنين، في وسط البلد، بعد منتصف الليل
في التاسع من تشرين الثاني 2002

الحصار الذي فُرِض على جنين في نهاية شهر تشرين الأول قد حالَ دون جني محصول الزيتون في ذلك العام. وفي عائلة صوالحة، المنهمكة في التقاط شتات حياتها وماضيها، كان الحصاد أبعد ما يكون عن البال.

أمل الاحتلال أنَّ أيًّا تكن محصّلة هذا الحصار، على الأقل سيحول دون إطلاق المقاومة عملياتها من المدينة. إن اضطرت قيادة الجهاد الإسلامي للاختفاء فلن تستطيع الاجتماع، وتنظيم وإعداد العمليات وتفجير أهداف إسرائيلية. كان لواء غولاني قد تمكن من اعتقال بعض المقاومين، لكن ما كان اللواء ليسمح بإنهاء الحصار إلا باعتقال رأس خلية جنين. وفي تلك الأثناء روَّع جيش الاحتلال المدنيين، وأطالوا الحصار أسبوعين بناءً على معلومة لدى الشاباك بأن قائد الخلية لا يزال في المدينة.

في الساعات الأولى من التاسع من تشرين الثاني، في اليوم الرابع من رمضان، تلقَّت وحدة من لواء غولاني معلومةً استخباراتية، وحصرت عمليات البحث في شوارع قليلة في وسط البلد. وبدل مداهمة البيوت

عشوائيًّا، بيتًا بيتًا، خططت الوحدة هذه المرة إلى مداهمة عدة بيوت في اللحظة نفسها لكيلا تخسر عنصر المفاجأة. فمن أين تلقَّت الوحدة هذه المعلومة؟

في شقة صغيرة محشورة بين البيوت في وسط البلد، كان إياد يتناول طبقه المفضل، فريكة بدجاج. كان يحب طعم القمح الأخضر المدخَّن، ويغرف اللقمة بقطعة خبز يمسكها بحزم بين أصابعه الثلاث، يمضغ لقمته على مهل، ويستنشق رائحة الطبق الشهي بامتنان. يداه نظيفتان، لكن للمرء أن يقرأ قصة المقاومة الطويلة وحياة إياد التي قضاها مُطارَدًا ما إن يلمح رؤوس أنامله المتيبسة وخشونة كفيه.

جلست مريم قبالة إياد، ترتدي ثوبًا أبيض مطرزًا، كانت تحدق إلى طبقها النصف فارغ، وعلامات الإرهاق تسكن ملامح وجهها. كلاهما جالسٌ في صمت، في غرفة من غرفتيِ الشقة المعتمة والضيقة التي يسكنانها، شقة أشبه بمغارة، بالكاد مؤثثة، لا تحوي سوى فرشتين إسفنجيتين والقليل من متاعهما. في الغرفتين عدة أحواض منتشرة، ملابس مطوية، سجادة صلاة، بضعة كتب، دفاتر وأقلام، بطاريات وأسلاك مرمية. كانت الساعة الرابعة فجرًا إلا عدة دقائق، يتناولان السحور تحت ضوءٍ معتم لا يُرى من الخارج لأنَّ لا نوافذ أصلًا في الغرفة.

دقائق وسيبدأ الصوم.

إياد كان على علم بوجود الجنود خارجًا، لكنه استكان إلى إحساسه بالأمان. إذ حتى يصل الجنود إلى مخبئه، عليهم أولًا اكتشاف الممر السري خلف المغسلة على الجدار السيراميك في شقةٍ خاوية. وقد حصل أن مرَّ

الجنود على الشقة والمخبأ عدة مرات هذا الأسبوع دون الإمساك به. لهذا واصل تناول سحوره مطمئنًا.

***

خالد كامل، موظف البلدية الذي يعيش في الحارة نفسها حيث إياد، وكزته زوجته لكي يستيقظ، وأخبرته مرعوبةً بأنَّ جيش الاحتلال قريب من البيت. لم يضطر خالد إلى أن يصخي سمعه لكي يلتقط الهمس العبري في سكون الليل. أصرَّ خالد على زوجته أن تعد الشاي ووجبة السحور، بينما جلس هو في صمت يحاول معرفة المكان الذي تأتي منه الأصوات.

بعدها بدقائق سمع دوي انفجار صغير، وإذ بقذيفة تطير عبر نافذة المطبخ وتوقع إبريق الشاي الذي كاد يغلي ماؤه، وكاد يقع على خالد وزوجته. صرخ خالد «ولادي! ولادي!» ووثب عن كرسيه يبحث عن أطفاله الثلاثة، وفي اللحظة نفسها اقتحم الجنود البيت، خمسة عشر جنديًا، وصرخوا، «فوتوا جوه! فوتوا جوه!». حبس الجنود العائلة في غرفة النوم وفتشوا سائر البيت: الخزائن والمطبخ وغرفة الضيوف والحمام وتحت الأسرّة - في كل مكان وكل زاوية.

حين فرغوا من تفتيش البيت أمروا خالد بالمجيء معهم. سألوه إن كان على علم بسبب مجيئهم، وأجابهم بالنفي. كرروا عليه السؤال، وكرر عليهم إجابته بالنفي. بعدها سأله قائد الوحدة إن كان يعرف الرجل الساكن مقابل بيته. كل ما يعرفه خالد أنَّ الشقة استأجرها رجل وزوجته مؤخرًا - لكن لا معرفة تربطه بهما.

وصاح عليه القائد، «كيف شكلهم؟».

وأجابه خالد، «زيهم زي بقية الناس».

«كذاب! أنت بتعرف مين عايش هناك! بتعرفه منيح! بدَّك إيانا نهد بيتك؟»

تجادل الاثنان، وظلَّ خالد مصرًّا ألا فكرة لديه عن هوية جاره. بعدها قبض القائد على ذراع خالد ورماه على جندي آخر، وذاك الجندي دفع بخالد أمامه نحو بيت جاره. فقد حطَّم الجنود جدارًا وصنعوا كوةً بين البيتين، وصيّروا خالد درعًا بشريًّا يحتمون خلفه، ودفعوا به للدخول أولًا.

بعدما دخلوا، وجَّه قائد الوحدة مرة أخرى أسئلته لخالد، «حكيت إنه في زلمة ومرته ساكنين هون، بس البيت فاضي ومش شايف إشي قدامي غير كمبيوتر، اوصف لي كيف شكل جيرانك؟» لكن خالد لم يستطِع تقديم أي وصف، وقال، «شفت جماعة بيدخلوا وبيطلعوا بالخِمَار، إيش عرَّفني، اتركني بحالي!».

وصاح القائد في وجهه، «كذاب!» وعاود تهديده، «بدَّك إيانا نهد بيتك؟ بدَّك تعيش في خيمة؟»

سحب القائد صورة مقصوصة من صحيفة وسأل، «بتعرف الزلمة اللي في الصورة؟»

خالد لا فكرة لديه على الإطلاق.

ثمانية جنود فتشوا البيت وبحثوا في الأوراق. بعدها وصلوا إلى جدار مبلَّط بالسيراميك، وسألوا خالد، «إيش هاد؟» وأجابهم، «مغسلة!» فهذا كل ما رآه. وهنا أمروه بالتنحي جانبًا.

حتى تلك اللحظة، كان إياد قد سمع خبط البوطات العسكرية الثقيل على الزقاق المرصوف بالحصى، على الطريق القصير المؤدي إلى بيته. احتكاك تروس المركبات العسكرية المتعجلة تشي بخوف الجنود من نفاد ظلمة الليل في ساعته الأخيرة.

كذلك سمع أصوات اقتحام الجنود بيت جاره بعد تفجير بابه، وسمع ضرب المطارق على الحجر، لكن لم يعرف بالضبط من أين آتية. سمع رجلين يتكلمان بالعربية، أحدهما لا ينفك يصرخ، والآخر -خالد، الجار الذي لم يلتقِ به أبدًا- يجيب بخنوع. ميَّز إياد كلمة «كذاب» من حديثهما، لكن على الأغلب بدت الأصوات مكتومة ولم يستطِع معرفة المزيد عمَّا يجري. بعدها، سمع الكلمة التي تمنى ألا يسمعها: «إياد!»

ليت أمّه اختارت اسمًا آخر.

«إياد أبو شقارة، اطلع! ارفع إيديك واطلع!» صاح أحد جنود لواء غولاني، مناديًا عليه بلهجة عربية عبرية، بكنية عائلته.

«أبو شقارة! اطلع! مش رح نؤذيك!» كرَّر الضابط تلك الكلمات الفارغة المرة تلو المرة.

نظر إياد إلى عيني مريم باحثًا فيهما عن ملاذ، لكن ما كانت هذه الساعة ساعة ضعف. ابتسم، وبهدوء طلب منها تبديل ملابسها. خلعت مريم ثياب النوم، وارتدت بنطالًا وقميصًا أخضرين، وارتدت فوقهما جلبابًا لكي يقيها برد الليل. إياد بدَّل ملابسه أيضًا - ارتدى بنطاله الكاكي وارتدى القميص الأبيض الذي دومًا يرتديه وقت الاشتباك مع العدو، القميص المطبوعة عليه صورة معتصم، مع عبارة «وعدًا وعهدًا».

«أبو شقارة! بنعرف أنك جوّه! اطلع! اطلع! فش مفر! محاصرينك من كل مكان! أوعك تعمل شي غبي!»

خارجًا، بدأ الليل يندحر أمام انبلاج الفجر، فيما وقف إياد يواجه أحلك لحظات عمره. هل سيعيش هو ومريم حتى الصباح؟ هل سيشمان عبير قريتهما من جديد؟ هل هذا ما تفكّرا به أصلًا، أو عاشا واقع اللحظة، حيث البقاء على قيد الحياة جل ما يهمهما؟

نظر إياد إلى السقف المقعر أعلاه حيث الأسمنت متصدِّع. رفع كفّي يديه إلى وجهه، سحب نفسًا عميقًا، وفي زفيره مسَّد بيديه لحيته المشذَّبة. رفع قبضتي يديه في الهواء ورفع السبابة، وفي عقله نطق بالشهادة «لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله» وشرع يفكّر كيف يهرِّب مريم من المكان.

شوارع البلدة القديمة وبيوتها، مثل أي قصبة، متداخلة ومتشابكة على عدة مستويات. وبينما تهجَّم الجنود على خالد وعائلته، وداهموا شقة إياد من خلال جدار من الشارع السفلي، وحدة عسكرية أخرى داهمت الشقة من شارعٍ أعلاها. هذه الوحدة اقتحمت بيت عبدالحميد مبيض، عامل تصليحات في الثامنة والأربعين من عمره، ودفعوا به أمامهم على مر الشارع إلى تقاطع الشقق حيث دلَّتهم المعلومة الاستخباراتية عن مكان إياد. عبدالحميد هو الآخر لم يعرف شيئًا عن جيرانه الساكنين قبالة بيته، وحين سأله الجنود إن كان ثمة مغارة أسفل البيت، أجابهم بالنفي. صاحوا عليه السؤال مرة أخرى، وهذه المرة هددوا بهدم بيته، ومن باب الاستمتاع بجبروتهم وقدرتهم على إذلاله، أمروه بالوقوف على رجلٍ

واحدة. بعدها بدأوا التحرُّك. اقتربوا من باب الشقة المطل على الشارع، كان مقفلًا، وفجروه.

دفع أحد الجنود عبدالحميد داخلًا، ولحق به مصوِّبًا رشاشته أعلى كتف عبدالحميد، وما إن رأى الجنود الفرشات الأرضية ذعروا، إذ ظنوها ملغّمة أو أنَّ كمينًا نُصِبَ لهم. رموا قنابل صاعقة، ثم أجبروا عبدالحميد على قلب الفرشات للتأكد من أنَّ الوضع آمن.

في الأسفل، سمع إياد ومريم الضجة الصاخبة والدويّ العالي، اهتزَّت الجدران، وبدأ الغبار يهوي مع ظهور صدوع كبيرة في السقف. حطَّم الجنود جزءًا من الجدار السيراميك من جهة المدخل السفلي بعدما نحُّوا خالد جانبًا، وعصفة غبار اندفعت إلى مخبأ إياد.

اقترب إياد من مريم، كانت تحاول إخفاء خوفها لكن دموعها فضحتها، وأخبرها بأن تأتي معه نحو المدخل الرئيسي.

«حبيبتي، بدِّي اياك تطلعي من هون. أنا رح أخبرهم إني رح أبعتك بره، لازم تطلعي من هون، حالًا».

«لا إياد! لا! بدي ضل معك هون! شو ما تقرر بدي أكون معك لآخر ثانية!».

«لا تخافي حبيبتي، لازم تروحي حتى تخبري أهلي ما يبكوا عليّ، خبريهم عن اللي صار هالقيت. ولا تقلقي، رح ألاقيكِ ونلتقى من جديد».

حاولت مريم مقاومة قراره، لكنه أعند منها، ولم يترك لها مجالًا لمعارضته.

ليس واضحًا كيف خرجت مريم من مخبأ إياد إلى الجنود، لماذا تحفَّظوا عليها ولم يرموها بالرصاص فورًا. ربما إياد صاح عليهم طالبًا تركها وشأنها، فقد كانت مذعورة. ما إن أصبحت مريم بعهدتهم، فتشوها وخلعوا عنها جلبابها وحجابها، وتركوها في بنطالها وقميصها الأخضرين.

طُلِب من خالد أن ينظر عبر كوَّة الجدار، نظر ووجد مكانًا أشبه بمختلى، لكن لم يستطِع تبيّن أي شيء في الظلمة الحالكة، لمح فقط فرشات أرضية، وبلّغ قائد الوحدة بأمرها.

«كذاب!» صاح القائد، وجرَّ خالد إليه وصاح فيه، «ادخل جوّه ونادي على إياد! خبره إنه أحسن له يطلع، والا رح نهد بيته والبيوت اللي حواليه!».

دخل خالد الكوَّة، مذعورًا على حياته. فالظلمة حالكة وقد يخطئ إياد ويظنه جنديًّا إسرائيليًّا. وهنت ركبتاه ودقات قلبه راحت تخفق بقوة على عظمة صدره. صمتٌ رهيبٌ يعم المكان، سكونٌ كما لو أنها نهاية العالم، ولم يكسره سوى همس خالد، «إياد، إياد، بدهم يهدموا بيتك، سلِّم حالك». وجد إياد في تهديد خالد مفارقةً ساخرة.

قوبل خالد بالصمت، بالصمت الآتي من نهاية العالم. حينها، ما إن تكيَّفت عيناه مع الظلمة رأى إياد، والتقت عيناهما في هذا السكون، وللحظة، تواصلا عبر هذه الظلمة، عبر الفضاء المقدَّس الفاصل بينهما، واستشعر الرجلان قوةً تنبعث من بينهما، من مقاومةٍ لن تموت، كما لو أنَّ خالد يحاول أن يقول لإياد إنَّ معركته هذه خاسرة لا محالة، لكن المقاومة لم تُهزَم.

وقفت مريم خلف خالد وصاحت على إياد، «إياد، اطلع بره، اطلع والا رح يؤذوني، مشان الله لا تخليهم يؤذوني ويقتلوك».

صمت.

صاحت عليه المرة تلو المرة.

صمت.

نقل الجنود مريم وخالد إلى بيت قريب، بعدها اقتحمت وحدة جنود مخبأ إياد واشتبكوا معه. سُمِعَ دويّ انفجارات وإطلاق نار وصراخ الصهاينة وشتائمهم «كس امك» و«يا عرص» ممزوجة بالأنين والتأوهات إثر تعرّضهم للإصابة. أدخلوا كلبين من وحدة عوكتس للانقضاض على إياد وإخضاعه، وقتلهما إياد. الكلب الأول وقع صريعًا على الفور، والثاني وقع يئن من جراحه قبل أن تصرعه الطلقة الثانية.

أعلى ساحة المعركة، أُجبِر عبدالحميد على الانتظار واقفًا في غرفة. وبين دويّ الانفجارات وإطلاق النار وقع سقفٌ من الصفيح بالقرب من عبدالحميد، ليدرك فجأة أنَّ إنْ قرَّر إياد تفجير المكان، سيهوي هو الآخر مع البيت.

إطلاق النار اشتد.

يملك إياد ما يكفي من ذخيرة لصدَّ الجنود عنه وقتًا أطول، فقد عَزَمَ على إسقاط أكبر عدد ممكن من الجنود معه. ومع اشتداد تبادل إطلاق النار لم يشعر إياد بإصابته. أطلق دورةً أخرى من الرصاص، ومع كل دورة يتقافز الخوف ما بينه والجنود، كما لو أنَّ الخوف كرة يرميها كل طرف على الآخر. كان قد نوى الهرب عبر الأنفاق، لكن أحدهم زوَّد

الجيش بمعلومات عنها وتمَّ صدُّها بمادة سميّة. وهكذا، تُرِك إياد أمام خيارين: الموت أو الاستسلام.

إطلاق النار ينهمر وابلًا الآن على مغارته. هذه المغارات، هذه المساحات المغلقة الضيقة المعتمة، عاش إياد فيها نصف حياته، ما بين المخابئ في تلال فلسطين وزنازين الحبس الانفرادي في معتقلات المحتل. هذه العزلة التي يعيشها اللحظة مألوفة. عيناه جالتا في المغارة، ثم نظر أسفلَ إلى يديه. قضى عمره يقاتل لأجل العالم، وها الآن سيموت وحيدًا، وكان راضيًا بمصيره.

فالكل يموت وحده.

لكنه حيٌّ بين يدي الله. هذا ما استشعره في أعماق روحه، وهذا الإيمان يحمله الآن كما حمل البراقُ النبيَّ محمد في إسرائه.

وابل الرصاص ينهمر من جديد.

كان مستعدًّا لهذه اللحظة، وغير مستعد. أطلق صيحة «الله أكبر» وأطلق النار. أطلق صيحة تكبيرٍ أعلى «الله أكبر» وأطلق النار.

ما فتئ دويُّ الرصاص يمزِّق الهواء، ثم ما عاد من داعٍ لإطلاق رصاصة أخرى.

إياد زفر صيحة التكبير الأخيرة، مع آخر نفسٍ من أنفاسه.

قتلوا أخوي بخمس تعش رصاصة وقنبلة يدوية، لأنه الجبناء خافوا يدخلوا عليه.

الجزء الرابع

امْسِك فيَّ

44

رن تلفون بالصالون، تلفون عتيق معلَّق ع الحيط، والحيط فيه فتحة وهالفتحة ما لهاش باب. الفتحة خزانة ملابس كبيرة، وكلها رفوف بيضا ممتدة للحمام.

برفع السماعة وبجاوب، مِتْرَكْيِة على واحد من الرفوف[1].

إياد عم يحاكيني ع التلفون، وفي الوقت نفسه عم أشوفه داخل عليّ من باب الحديقة، لابس بدلة رياضة بيضا وحافي، رجليه غارقين بالدم، دم أسود.

وهو داخل عليّ بحكي له إنه رجليه مغمسين بالدم والتراب، وسجادتي جديدة، وهو بيحكي لي أصحّي باسل حتى يساعده يتوضأ للصلاة، بدّه يصلي ببيتي.

بحكي له أنا بساعده لأنه باسل نايم، بس ما رضي، بدّه باسل يحمل له ابريق المي القديمة حتى يتوضّا منها.

---

(1) مِتْرَكّي: اسم فاعل من الفعل «تْرَكّى»، ويُقصَد به مُتّكِئ من الفعل «اتّكأ».

وهسّه إياد واقف قدامي، وقبل ما يطلع حكيت له «إمي عم تسأل إذا مرتك حامل»، التفت عليّ وضحك، «لأ، مرتي مش حامل».

بعدها حكى لي، وهو بيمسك فيّ، «لا تتركي مريم في الحبس مثل ما تركتيني سبع سنين، لازم تدوري لها على محامي وتطلعيها بره». كانت إيده اليمين عم تنزف كتير، وأول ما بشوفها بشهق، «ليه ما عالجوك؟» ولقيتني أركض ع الحمام حتى أجيب له شاش، وهو يضحك عليّ، «بعدك مجنونة سيرين، من وانت صغيرة! هسّه من كل عقلك بدّك إياهم يعالجوا اللي ناويين يعدموه؟»

بحاول أعالج الجرح، بس إيده راحت، وضل مُصِر إني أساعد مريم.

وكمان بدّه إياني أكتب إشي، إشي عن رسالة وطنجرة ضغط وإنه ندوّر تحت الشرشف على فستان مريم الأبيض. ولما سألته ليش قال لي أستعجل.

بعدها أصر إني أصحّي باسل حتى لا تفوته الصلاة. وقبل ما أحكي له كلمة زيادة اختفى. فش صوت غير صوت صفّارة التلفون بعد ما يتسكّر الخط.

45

صباح التاسع من تشرين الثاني 2002

طلع الصباح باردًا ملبدًا بالغيوم على آخر معركة خاضها إياد. وفيما استحال الفجر نهارًا، احتشدت جمهرة من الناس حول عربة إسعاف الصليب الأحمر حيث وضعوا جثته. بدأ الجنود عملية الانسحاب من البلدة لكن ظلوا متواجدين في الجوار. أصحاب المتاجر شرعوا يمسحون الشارع أمام محلاتهم، وقلةٌ من سائقي التاكسي ينتظرون عند محطة وسط البلد. بعض الأطفال خرجوا من بيوتهم، يقودون دراجاتهم في الشوارع والأزقة مع عودة الأمن والهدوء إلى قصبة جنين بعد انتهاء الحصار الذي دام أسبوعين.

في وقتٍ أبكر، كان الجنود قد أرسلوا عبدالحميد لانتشال جثة إياد خوفًا من احتمال تفخيخ المكان. دخل عبدالحميد في الظلمة، ومع كل خطوة يحاول أن يستدلَّ بها طريقه في الركام كان يثير الغبار وتنهال الأتربة عليه. لحق به الجنود، وما إن وصلوا إلى إياد جروه من ساقيه خارجًا. حاول عبدالحميد رفع رأس إياد عن الأرض، لكن لم يكن سهلًا عليه فعل ذلك، فالأرض تحت قدميه غير مستقرة. ما إن خرجوا

جميعًا، شدَّ أحد الجنود مريم خارجًا لكي تتعرف على الجثمان، وعلا صوتها بالنواح.

اقتيدت مريم إلى سجنٍ إسرائيلي حيث بدأت ضدها إجراءات الترحيل بتهمة الإقامة غير الشرعية، هذا بعدما أسقط عنها قاضٍ عسكري تهمة التواطؤ في الجرم. المحامية الإسرائيلية المعروفة بدفاعها عن الفلسطينيين ليئة تسيمل، التي عيّنتها عائلة صوالحة، عجَّلت إجراء المحاكمة التي انتهت لصالح مريم. لم تتلقَّ عائلة صوالحة أي شكر، ومنذ ذاك اليوم لم ترَ مريم.

على بعد مسافة قصيرة، امتدت سحب جنين إلى سماء كفر راعي، حجبت الشمس وبسطت ظلَّها على القرية. أم يوسف وأبو يوسف كانا قد تناولا سحورهما، والآن أم يوسف في المطبخ تغسل الأطباق، مرتدية ثوبها الأزرق الخفيف وسترة صوفية لإبقائها دافئة. بدت غاضبة، لا تزال مهتاجة من تحقيق البارحة، وسئمة من القلق وطول الانتظار والترقُّب. مع ذلك، مع صعوبة الحياة التي عاشتها في الأعوام الثمانية والخمسين الماضية، كانت بشرتها الناعمة توحي بعمرٍ أصغر من عمرها. ما كنتَ لتلمح أي تجاعيد عليها عدا تجاعيد قليلة عند لحظ عينيها الكحيلتين. أبو يوسف كان جالسًا على كرسيه المتحرك، يتأمل القرية خارجًا. إحدى ساقيْ بنطاله متدلية تغطي جدعة ساقه المبتورة، بينما قدم ساقه الطبيعية مستقرة على قاعدة الكرسي. الكوفية التي يعتمرها منسدلة على جانبي وجهه، تحجب عن العين معرفة سنه الحقيقي.

أبو يوسف وأم يوسف كلاهما تابع أخبار حصار جنين، لكن لم يخطر على بالهما وجود إياد فيها، إذ لا بد قد غادرها مع بداية الأحداث.

أدار أبو يوسف الراديو لكي يسمع الأخبار، سمع إعلانات تجارية لحقتها أخبار إقليمية، بعدها سمع آخر تحديثات الأخبار في فلسطين. أعلن المذيع رفع الحصار عن جنين بعدما نجح جيش الاحتلال في قتل قائد سرايا القدس في جنين وعضو حركة الجهاد الإسلامي إياد صوالحة.

بلَّش أبوي يصرخ، «قتلوا إياد! قتلوا إياد!»

تدلَّى رأس أبو يوسف وانهال صفعًا على وجهه. انتفض جسده على كرسيه من طعنة الألم في قلبه، وانزاحت كوفيته عن رأسه وهوت على حجره، دموعه تفيض على وجنتيه.

إمي سمعت صراخ أبوي وفكرته وقع عن الكرسي وركضت لعنده، بس أول ما عرفت بالخبر راحت تصرّخ من قلبها هي كمان.

لوَّحت أم يوسف ذراعيها «لا! شو اللي بتحكيه!» لكنها رأت الفاجعة جليّةً على أبو يوسف، وعرفت أنَّ ما يقوله هي الحقيقة. رفعت رأسها وواجهت السماء، وأطلقت صيحة مجلجلة سمعتها كل أذنٍ في القرية، الطيور على المدى فزعت والكلاب شرعت في النباح، وأعلاها، كما لو أنَّ السحب ارتعدت من صيحتها، انقشعت عن الشمس. أطلقت صيحة أخرى، وأخرى، ومع كل صيحة تلطم وجهها، إلى أن غابت عن الوعي.

إمي ما تحملت الصدمة، وما صحيت إلا لما صارت جثة إياد في الساحة برة البيت. إسعاف الصليب الأحمر جابوه غرقان بالدم، وتركوه.

مش قادرة أمسح هالصورة عن ذاكرتي: أبوي وإمي لحالهم بالدار، أبوي معاق في كرسيه مش قادر يعمل شي قدام إياد اللي جابوه وتركوه عندنا. إسراء بس اللي كانت وقتها بالدار، أرسلين وسوسن وسهى كانوا طالعين من الدار بكير حتى يدوروا على أخوي بهاء في نابلس، تخَيّل إسراء عمرها كان 12 سنة بس!

بعدها بكم دقيقة، التمُّوا أهل القرية على إمي وأبوي، والبيت صار عَجْقَة، فش مكان تْحُطّ اجْرَك فيه[1].

بعدما أفاقت أم يوسف ورأت ابنها، هرعت إليه وجثت على ركبتيها. جسدها يتأرجح للأمام والخلف، تلوح بذراعيها في الهواء وتصفع وجنتيها. وفي حضرة ابنها، أطلقت صيحة مجلجلة أخرى، من أعماق فاجعتها. فإياد مسجّى أمامها، مخضَّب بالدماء ووجهه يشوبه أثرٌ من سواد الأدخنة والتراب. لم يغسلوا جسده، لأنَّ الشهيد يدفن بجراحه المفتوحة وبدمه قبل أن يمتزج جسده بتراب الأرض.

حُمِل إياد من بيته إلى المسجد في موكبٍ ما انفكّ يكبر ببطء مع تناقل الخبر بين الناس، وغاب عنه الكثير ممن رافقوا إياد حين كانوا فتيانًا ضمن جماعة الفهد الأسود في الانتفاضة الأولى؛ فقد منعهم أبو يوسف من الحضور متهمًا إياهم بالخيانة.

---

(1) عَجْقَة: زحمة.
فِشّ مَكان تْحُطّ اِجْرَك فِيه: تعبير مجازي في اللهجة الفلسطينية يُستخدم للدلالة على الازدحام الشديد، بحيث لا يوجد موضع قدم.

في الإسلام، يُدفَن الميت عادةً خلال الأربع والعشرين ساعةً الأولى، لكن شيخ الجامع الذي سيصلي على جسد إياد قال إنَّ من الحرام إبقاء جثمان الشهيد كل هذه المدة، وأصرَّ على دفن إياد خلال ساعة أو ساعتين بالأكثر. هرعت إسراء إلى مدرسة أختها سلام لنقل الخبر، وحاولت العائلة وعدد من الأصدقاء التواصل مع أرسلين لإبلاغها بالخبر لكي تعجّل بالمجيء، لكنها لم تجب اتصالاتهم.

بدأ الشيخ ينزعج من التأخير، غير أنَّ أم يوسف، على عادتها، عاندت وأصرَّت على موقفها، وانتظرت عودة بناتها مع بهاء. في غضون ذلك، راح الناس في الشوارع يهتفون شعارات المقاومة، «يا إياد ارتاح ارتاح، إحنا نواصل الكفاح»، و«يا شارون، يا حقير، دم الشهدا غالي كثير».

في نهاية المطاف أصرَّ الشيخ على الدفن وما كان ليقبل بمرور دقيقة انتظار أخرى، قائلًا «الله يصبّر خواته».

في الصباح الباكر من ذاك اليوم، في الثامنة والنصف، استيقظت أرسلين على اتصال من عبد، صديق أخيها يوسف. اتصل للاطمئنان على خروجها وأمها من الحجز الإسرائيلي. بعدما استيقظت، اتصلت بسيارة تاكسي لكي تذهب إلى أخيها بهاء في نابلس. فقد سأل المحقق عنه خلال اعتقالها، ومن الآمن ذهابها إليه شخصيًّا لتحذيره. واصطحبت معها أختيها سوسن وسهى لكي تشتري لهن ملابس شتوية بعدما خسرن كل ملابسهن مع هدم البيت.

بعد ساعة من مغادرتها البيت، اتصلت بها إسراء وأخبرتها باستشهاد إياد، غير أنَّ أرسلين لم تصدق، «هاي خدعة إسرائيلية حتى نكشف مكان إياد».

لدى وصولها إلى نابلس أكَّد لها بهاء الخبر، ومع ذلك لم تصدق. فإياد يعرف أنه مُطارَد وما كان ليبقى في جنين طيلة وقوعها تحت الحصار.

نسيت أرسلين تحذير بهاء من بحث جيش الاحتلال عنه، واستقلوا جميعًا سيارة الأجرة ذاتها عائدين فورًا إلى كفر راعي. وعلى الطريق شرعت أرسلين في الصراخ «مش معقول! مش معقول يكونوا وصلوا له مستحيل! مستحيل!» وصرخ بهاء في وجهها، «خلاص! اسكتي! اسكتي! شوي ونعرف إيش صار، اسكتي وخلي الزلمة يعرف يسوق». سوسن وسهى شرعتا في البكاء، وحاولتا مع أختهما أرسلين كبت دموعهن.

لدى قدومهن إلى نابلس كان سائق التاكسي قد قاد السيارة عبر شوارع خلفية لتجاوز حواجز التفتيش، لكن الآن، وهم في طريقهم إلى كفر راعي مع بهاء، فوجئوا بحاجز تفتيش طيّار، وحذرهم السائق، «شدّوا حالكم واثبتوا». قاد السيارة نحو الجندي عند الحاجز وسلمه أوراق الجميع الثبوتية، وهذا كان كل ما يحتاج إليه الجندي. فلا جندي صهيوني ذاك اليوم يغيب عنه اسم إياد صوالحة أو إياد أبو شقارة.

صوَّب الجندي سلاحه تجاه السيارة، وأجبر الجميع على الخروج منها والجلوس على جانب الطريق الترابي. وهكذا، جلست الشقيقات الثلاث وبهاء والسائق على الأرض، في تلٍّ مهجور على نواحي نابلس.

البرد قارس، والسماء ملبدة بالغيوم كما لو أنها ستمطر. جلس الخمسة محاطين بالصخور والشجيرات الخضراء. حدقوا إلى الأرض، إلى أكفِّهم، إلى السماء، وأخيرًا حدقوا إلى عيني آسرهم. ما زالوا غير مصدقين خبر استشهاد أخيهم، لكن في تلك اللحظة لم يفِض الدمع، بل فارَ الغضب، باهم مشغول فقط بفكرة الهرب والعودة إلى كفر راعي.

غير أنَّ هذا المشهد لم يطُل. إذ سرعان ما اقترب جنديان من بهاء وكبّلا يديه، لم ينطقا بأي كلمة أمام محاولة أخواته المقاومة، وأخذاه إلى الجيب العسكري ورمياه في مؤخرها وغادروا. قيل لأرسلين وسهى وسوسن، المحاطات الآن بالجنود، بألا يتحركن في انتظار ورود تعليمات أخرى. أما بهاء، فلم يُفرَج عنه إلا بعد أيام.

في غضون ذلك، تمكَّن أقارب من العائلة من التواصل مع أرسلين على هاتفها المحمول وحاولوا استعجالها، وتوسّلت أرسلين إليهم بألا يدعوا الشيخ يدفن أخاها، وأنها في طريقها إليهم. صاحت وبكت، رجت الجنود بتركها تمضي هي وأختيها، «رح نروح مشي! خلوا السيارة عندكم، بترجاكم».

لكن الجنود رفضوا.

واصلت أرسلين البكاء والتوسلات، عالقةً في تلال نابلس المقفرة. وإذ بعد برهة قصيرة تقترب سيارة ويطلق الجنود النار في اتجاهها لإيقافها، ومع اقتراب سيارة أخرى ثارت الفوضى، واستطال خط السيارات المنتظرة عند الحاجز. ومع تشتت انتباه الجنود، هرعت أرسلين مع أختيها والسائق وركبوا السيارة على عجل ومضوا بعيدًا.

أطلق الجنود عدة رصاصات في اتجاه السيارة لكن لم يصيبوها. لعلَّ الجنود لم يروا مطاردتهم أمرًا يستحق العناء، أو ربما ارتأوا أنَّ استهداف أخوات الشهيد يوم دفنه ليس بالخطوة الإستراتيجية، أو ربما اكتفوا ببهاء. أيًّا يكن السبب، نجحت الشقيقات في الفرار من التلال الوعرة ودويّ الرصاص.

قبل الدفن بدقائق، أرسلين وسهى وسوسن وصلن وقطعن الصلاة بصراخهن. احتشدن حول جثمان إياد وأمطرنه بالقبلات، يودِّعنه في رحيله الأخير عن البيت. سهى جثت على ركبتيها، يسندها خطيبها. سوسن سحبت مناديل ورقية ومسحت وجه أخيها وهي تنوح عليه. أرسلين عانقته بشدة وصاحت عليه لكي يعود، وقبّلته نيابةً عن كل أخٍ غائب وأختٍ غائبة، «هاي من سيرين، وهاي من ضياء، وهاي من يوسف، وهاي من إيهاب، وهاي من بهاء»، ومع كل قبلة تجهش بالبكاء. توسلت أن يتركوه دقائق أكثر، إذ تراءى لها أنه فتح عينيه وحدَّق إليها لحظة رفعوا جثمانه على أكتافهم في خطواته الأخيرة قبل بلوغ القبر، ثم عمَّت الظلمة فجأة، وفي اللحظة التالية وجدت أرسلين نفسها في البيت.

القصة مش قصة إنه لازم ندفن الشهيد بسرعة، القصة إنه الشيخ والناس كانوا خايفين يرجعوا الصهاينة ويخطفوا جثة إياد، ما هيك صارت عادتهم هلّا، يحتفظوا بجثث المقاومين عندهم رهينة. الجنازة كانت سريعة كتير لدرجة إنه إمي ما قدرت تصلي عليه، حتى اخواتي ما لحقوا يشوفوه، بسرعة سحبوهم الناس منه وما شافوه إلا كم ثانية.

على الأقل تسنى لهن رؤيته. مع وجود بهاء في المعتقل، لا ابن من أبناء العائلة الرجال تواجد في دفن إياد. يوسف، المستقر في أمريكا، كان محظوظًا كفاية للالتقاء بإياد آخر مرة قبل أعوام بُعيَد إطلاقه من المعتقل. ضياء، المستقر أيضًا في أمريكا بعدما ترك فلسطين قبل عامين، كان غائبًا. إيهاب، المستقر الآن في روسيا، لم يرَ إياد مرةً أخرى منذ ترك فلسطين مغادرًا إلى عمَّان في عام 1989.

إيهاب يعيش في ظل هذا الغياب، الندم يتجلَّى في احمرار عينيه وحشرجة صوته كلما استحضر استشهاد أخيه. ندمٌ على عدم رؤية إياد بعد تحريره من المعتقل، ندمٌ على أنه لم يقترح على أخيه، على صديق طفولته الذي لطالما وقف دفاعًا عنه، المجيء إلى روسيا بدل البقاء في فلسطين.

الندم على التاريخ الذي يستحيل إعادة كتابته.

عزاءُ إيهاب الوحيد أنَّ إياد مات بكرامته. استشهد في سبيل ما يؤمن به.

كفَّنوا إياد بعلمين، علم أسود يحمل شعار حزبه السياسي، وعلم أخضر يرمز للإسلام، وكلا العلمين مزينان بآيات قرآنية كريمة. وجهه مكشوف، شريطٌ أبيض يغطي الجرح تحت شفته السفلى، شعره مغطى بالكفن في محاولةٍ لإخفاء الدم، والمحاولة لم تكن ناجحة. فيما رفعوه على أكتافهم، كما لو أنه عريسٌ يزفونه في موكب عرس، عددٌ من قريباته النساء زغردن في الشوارع وعلى أسطح البيوت، وغنَّين له «سبَّل عيونه ومد إيدو يحنُّولو».

إياد، مغمض العينين وبذقنٍ لم يُحلَق منذ ثلاثة أيام، جسده مرفوعٌ على الأكتاف ومئات الناس يشيعونه، بدا أشبه بالنبي. وفيما الناس يسيرون خلفه عبر القرية أنشدوا، «بالروح بالدم نفديك يا شهيد».

سيرين كانت مقتنعة بوجود رسالة تركها إياد لأنَّ هذا ما يفعله الشهداء، لكن لم يعثروا على أي رسالة منه. مريم أخبرت سيرين أنَّ إياد لم يظن أنه سيُقتَل أساسًا، وما حدث أنه وقع في كمين. سيرين لم تقتنع بتلك الأجوبة.

كيف ما توقَّع ينقتل؟ حياته كانت دايًا في خطر وهو كان من أهم المطلوبين عند جيش الاحتلال، كيف ما كتب رسالة إلنا؟ وشو مكتوب بهالرسالة؟ ناس كتير دخلوا المغارة بعد ما انقتل إياد وشافوه قبل ما إحنا نشوفه، وأخدوا أغراض معهم، وفش حدا فيهم مستعد يحكي لنا إشي. وصية أخي إياد مفقودة، هل في حدا من الناس ما بده ايانا نقرأ المكتوب عليها؟ وشو بيكون كاتب عليها؟ هل كتب عليها اسم العميل اللي سلمه للصهاينة؟ هل العميل خاف وكان من أوائل الناس اللي وصلوا لجثمان إياد؟

بعد يومين، في مكالمة هاتفية يُزعَم أنَّ مصدرها من سوريا، أبَّن قائد الجهاد الإسلامي رمضان شلّح إياد صوالحة في أثناء تجمّع في الجامعة الأمريكية في جنين، وفيها وصف إياد صوالحة بأنه «أمة في رجل».

وواصل تأبينه قائلًا، «إخوتي يا شباب فلسطين.. يا جيل الثورة والفداء.. يا رجال الجهاد والمقاومة والأبطال.. يا شعبنا في جنين القسّام.. جنين محمود طوالبة وإياد صوالحة وإياد حردان.. إننا ونحن

نودِّع القائد العملاق إياد صوالحة لا نسدل الستار على نهاية بطل في تاريخ صراعنا وجهادنا، لأن دمه اليوم يزرع الأرض بدايات جديدة وينبت أبطالًا وقادة ومقاومين ومقاتلين واستشهاديين جدد يحملون الراية من بعده، ويثبتون للعالم كله أننا لن ننكسر ولن ننحني ولن نتراجع».

بعد أقل من عام على معركة إياد الأخيرة، زارت سيرين مخبأه. حينذاك كان لا يزال ممكنًا الوصول إلى الأجزاء الأعمق. الجدران لم تكن قد طليت بعد، وثمة رسومات خرائط أولية، رسمها الجنود على الأغلب، توضِّح موقع إياد، بما فيها المغسلة التي كشفت خلفها ممرًّا سريًّا للمغارة. سجّلت سيرين زيارتها على شريط فيديو، وفيها استنتجت (دون دليل حاسم) أنَّ عميلًا فلسطينيًّا رسم هذه الخريطة ودلَّ الجنود على مخبأ إياد. حين نزلت المغارة، وجدت كل شيء مدفونًا تحت الركام. بحثت مهتاجة عن أي دليل، فتشت المكان بإصرارٍ عنيد عن رسالة وطنجرة ضغط، لكن لم تعثر إلا على فيلمٍ محروق وسجادة صلاة ممزقة ونعلي إياد وقذيفة غير متفجرة وبقايا دفتر محروق مستحيل فكّ الكلام المكتوب عليه. هي موقنة أنَّ أي غرض تركه إياد ذا قيمة لا بد قد وقع في يد الاحتلال، إما من خلال الجنود وإما العملاء الذين دخلوا المكان أولًا.

حين عادت بعدها بثلاث سنوات، كان واضحًا أنَّ حي القصبة القديم جرى ترميمه، ومع ذلك لا تزال دلائل من يوم التاسع من تشرين

الثاني موجودة. نجمة داوود على باب المدخل لا تزال هناك، ثقوب الرصاص في الجدار لا تزال هناك. لكن معظم آثار التخريب الذي لحق يومها بالمكان قد ترمَّم، شوارع القصبة القديمة عادوا رصفوها بالحصى، واجهات البيوت تجددت بالطابوق الرملي، وأبواب البيوت المطلة على الشارع تصلَّحت وطُليَت بالأبيض.

أما خالد كامل وعبدالحميد فلم يكونا حاضرين في كل المرات التي زارت بها سيرين المخبأ، أو زاره أحد من أفراد عائلتها. تمكنت فحسب من لقاء امرأتين تحدثتا عما جرى في آخر يومٍ في حياة إياد، عن خوفهما وجهلهما بما كان يجري خارجًا.

أخذت سيرين عدة خطوات نحو مخبأ إياد، ورأت أعلاها درْفتيّ شباك مفتوح مطليتين باللون الأخضر. بعدها بأحد عشر عامًا، في زيارتها لكي تستعيد خطى أخيها، سترى سيرين الدَّرْفتين ذاتهما، والشباك لا يزال مفتوحًا.

كان اللونُ البنيُّ قد شابَ طلاءَ الدَّرْفتين الأخضر، في ظلِّ زمنٍ جمَّده الاحتلال.

46

رايحة مشي على قبر إياد لأزوره وأرتب الورود وأنضّف المكان. كنت زارعتله توليب وزنبق وحبيت أتطّمن عليهم، لأنه هلّا موسمهم لحتى يتفتحوا.

وأنا عم انضّف إلا برجلي تحتك بإيد إياد، وفزعت. صار يتحرَّك وحكى لي، «جروحي أخدت وقت طويل عشان تشفى، لحتى أقوم وأقدر أرجعلكم».

قام من قبره وصار يشكي لي، «أنا جوعان كتير وتعبان».

وهو قايم من قبره شفت أثر الرصاص على خاصرته، ولقيت حالي بصيّح مبسوطة، «خليني أروح ع دارنا وأخبّرهم إنك حيّ!»

بس رفض، وقال، «إذا خبرتيهم الكل راح يعرف ويصير يحكي عني، الإعلام رح يسميها معجزة، والناس رح تسميني نبي ويخترعوا قصص ما صارت، أنا بديش إشي، وبديش حدا يعرف إنه أنا حي، أنا كل اللي بدي إياه إني آكل، مشان الله أختي تطعميني».

«شو بدك تاكل؟»

«مشتهي باتنجان مقلي زي ما بتعمله الحجة، مع رشة سماق وليمون».

«بس صرنا نص الليل، إذا بدك رح أطبخ لك إياه بكرة الصبح، بس هلّا خليني أقلي لك تلات بيضات مع صحن لبنة وزيت وزعتر». وافق، وقليت له البيض وأكل وأكل وأكل، كأنه عمره ما شاف أكل بحياته.

لما صحيت الصبح لقيت حالي بتطَّلع ع الغرفة حوالّي، كأنه موجود معي. عن جد حسيت فيه إنه معي. حسيت بأنفاسه في الغرفة، والله لو كنت في فلسطين كنت ركضت على قبره لأتأكد إنه قام منه. صدقني حسيت فيه إنه موجود معي.

في الأيام الأولى من الحداد، تكرَّر التقاء سيرين بأخيها ساعة الفجر، ذاكرةُ روحِه تتمثَّل لها في حلم. واستمرَّ الحال هكذا على مدار العام، روح سيرين تهيم في البرزخ، حيث الأرواح الحيَّة تبحث في أحلامها عن الأموات.

47

صيف 2003

مضى نصف عام على استشهاد إياد. لم يكن فصل الربيع كافيًا ليمحو وطأة الفقد عندما غادرت سيرين برينستون متجهة إلى فلسطين، قلقة؛ فالانتفاضة الثانية كانت لا تزال في أوجها والوضع غير آمن.

لم تكن قد عادت إلى فلسطين منذ عام 1999. زوجها ما كان ليسمح لها، وهي خضعت لإرادته. كانت سجينة في بيتها، في زواجها، محاصرة في دور الزوجة الصالحة. لم تسافر إلى فلسطين حين هُدِم بيت عائلتها، حين تزوج أخوها، حين قُتِل. صحيح هي لم تقبل مصيرها بصمت وما فتئت تشتكي في كل فرصة تسنح لها، لكن موج غضبها العارم دومًا يعقبه سكون الاستسلام وعدم التصرف. اختارت البقاء في زواجها رغم كل شيء لأنها رأت في بقائها تضحيةً لأجل عائلتها في الظروف المأساوية التي يواجهونها.

لكن الآن، رغم نصائح زوجها وكل من حولها بألا تعود -فهي في النهاية أخت الشهيد- اتخذت قرارها ولم تسمح لنفسها أن تفاوض عليه. فأبوها مريض بعدما جرح قدمه بمسمار وهو يزور البيت الجديد

الذي بدأوا تشييده، والتهبت. أوصى الأطباء في جنين ببترها لكنه رفض. وسيرين صمّمت على إنقاذ ساق أبيها الأخرى.

وفي مطلع حزيران، سافرت إلى فلسطين برفقة أطفالها الثلاثة.

لما وصلت ع كفر راعي بعد رحلة طويلة من مطار (جى أف كى) لمطار عمّان، ومن عمّان ع الجسر ومن الجسر للضفة، ولادي كانوا نايمين في السيارة، فطلبت من سواق التاكسي ياخدني ع قبر إياد. بالأول تردد، بس بعدين أخدني واستنى. كانت أول مرة بزور فيها قبره. وقفت قدام الشاهد وارتعبت، ما عرفت إيش بدي أعمل! أعيط والا أقرأ له قرآن والا أوقف وما أعمل إشي. ما كنت قادرة أصدق اللي عم بشوفه قدامي.

بعدها ذهبت سيرين إلى الشقة التي تستأجرها عائلتها أعلى تل، مع إطلالة على الوادي والمقبرة. دخلت عليهم كما يدخل الغريب مكانًا غريبًا عليه لكن وجوه كل من فيه مألوفة. لم تشعر لحظتها أنها دخلت بيتها، ولن يساورها هذا الشعور أبدًا.

بيتي القديم ما كانش زي بقية البيوت، كان البيت الوحيد اللي درفات شبابيكه حمرا. وصحيح شكله غريب شوي، بس وقت ما كنت أرجع ع قريتي كنت بقدر ألقطه من بعيد وعلى طول أحس حالي وصلت ع بيتي. حتى لما إمي غيّرت لون الدهان، وحتى لما سكّرت البرندة بالقزاز لحتى تكبّر مساحة البيت... مع هيك ضليتني أعرف بيتي.

لون البيت الجديد حجري، مش روح، ومش قادرة أشوفه لما أغمض عيوني وأنا تحت الشمس في بيتي في برينستون. مش قادرة أحلم فيه بمنامي.

أبو يوسف كان في حاجة ماسة إلى العناية الطبية. في جنين أوصى الأطباء بالبتر، لكنه رفض رغم احتجاج أم يوسف وإصرارها عليه أن يستمع إلى الأطباء.

بعد ما وصلت بيوم نزلت ع جنين حتى أنسِّق مع الصليب الأحمر ينقلوا أبوي على مستشفى في نابلس. صحيح جنين كانت أسهل علينا مع وضعنا الصعب مع حواجز التفتيش، بس رفضنا نقبل برأي الدكاترة فيها.

بدون عون الصليب الأحمر، قد تستغرق رحلة نقل أبو يوسف يومًا بأكمله. وحتى إن اجتازوا حواجز التفتيش كلها، كانوا سيضطرون للمشي على الأقدام عبر حاجز حوارة على مدخل المدينة المطوَّقة بقبضة أمنية محكمة. فقد أحكم الاحتلال قبضته الأمنية على نابلس في أثناء الانتفاضة الثانية، خصوصًا بعد العدوان الصهيوني في نيسان 2002.

جرى تأمين سيارة إسعاف، وأبقت سيرين أطفالها في بيت أمها وبرفقة المتبقي من إخوتها. كانت قد خططت قضاء عدة أيام في نابلس لدى حماتها، من ثم تعود إلى أطفالها ما إن تستقر حالة والدها.

في نابلس، تلقَّت العائلة النصيحة الطبية نفسها، وهذه المرة لم يعاند أبو يوسف، بل أطرق رأسه قليلًا وسلَّم أمره، عيناه تحدقان إلى المدى. وفي اليوم التالي بتروا ساقه الثانية من أسفل الركبة. إحساسه بالهزيمة لم يتجسَّد في تقلقل شعوره بطيف ساقه، بل في حشرجة صوته وألم العقدة في أحشائه.

خبّروني إنه فش حل تاني، وإذا ما عملنا العملية هسّه فالبديل إنه رح يضطر يبتر أطراف أكتر، وفي النهاية نكون وصلنا ع النتيجة نفسها.

سيضطر أبو يوسف للبقاء رقيد الفراش لأسابيع، فترة أطول بكثير مما توقعت سيرين. كان عليها الذهاب إلى كفر راعي واصطحاب أولادها، واصطحاب ميسون وأولادها كذلك. هي وأختها وأولادهما سيقطنون في شقة تملكها عائلة زوجها في نابلس القديمة.

ما كانش في مجال وقتها أطلع من نابلس من شوارعها. مداخل المدينة كلها مسكرة، على كل الناس. وحاجز حوّارة كان مسكّر إلا في الحالات الطارئة زي حالة أبوي، هاد إذا كنت محظوظ يومها. وحتى لما دخلنا مع أبوي، فتشوا سيارة الإسعاف بكاشف معدني وسألونا أسئلة كتير، وبتذكّر إني تضايقت يومها. ما كنت قادرة أستوعب كيف المسعفين قادرين يتحملوا هالوضع كل يوم.

تصوَّر إذا كان بدّك تطلع من نابلس لازم تدفع مصاري للمسعفين وتعمل حالك مريض. عادي تشوف مَرَة حاطة ع وجهها قناع أكسجين بس عشان تقدر تُمرِّق[1]. مع الحصار الأمني تحولت سيارة الإسعاف لبزنس، صارت تكسي لأنه فش سيارات تكسي أو أي سيارة تعبر فيك برة المدينة. بتذكّر ست نقلوها سيارة إسعاف وكانت حاطة قناع الأكسجين بس الأسطوانة ما عم تشتغل، كشفوها الصهاينة ورجعوها. مع هيك في ناس كتير زَرْقَت بهالطريقة[2]. وفي ناس كانت فعلًا عايشة

---

(1) تُمرِّق: تعبر.

(2) زَرَقَ: استطاع المرور أو النفاذ بنجاح، خاصةً في ظروف صعبة أو ضيّقة.

حالة طوارئ وواضح حتى للي بنص عقل إنها حالة طارئة، ومع هيك احتمال ما يخلوها تمرق. زي ما عملوا مع الست الحامل اللي كانت تِطْلَق ومنعوها تمرق واضطرت تِلَد عند الحاجز. مش كل المواليد قدروا ينجوا من هالظروف.

أعلنت منظمة الصحة العالمية عن واحد وستين حالة ولادة عند حواجز التفتيش ما بين الأعوام 2000-2004، ست وثلاثون منهم وُلِدوا أمواتًا. حالة من تلك الحالات تعود إلى امرأة فلسطينية تُدعَى طرب. استيقظت في منتصف الليل مع نزيف حاد إلا أنَّ جنود الحاجز منعوا عبورها وزوجها حيث تنتظرهم سيارة إسعاف على الجانب الآخر. حاول زوجها سلك طريقٍ آخر، ومرةً أخرى مُنِع من العبور. وبينما بدأت بركة الدم تتجمع تحتها، وافق الجنود أخيرًا على عبورها وزوجها، لكن مشيًا على الأقدام. حملها زوجها بين ذراعيه إلى عربة، والعربة فقدت اتزانها وسقطت على الأرض. استغرقت رحلة الذهاب إلى المستشفى ثماني ساعات، ومع دخولهما المستشفى تلقَّيا من الأطباء خبر وفاة الجنين في رحم أمه.

كان مستحيل نطلع من نابلس من حاجز حوّارة، فلقيت سواق يهربنا مع مجموعة من الناس ويروح فينا على طرق جبلية ترابية ع قرية عصيرة الشمالية، قرية بين نابلس وجنين. ومن هناك نبدل السيارة ونطلع ع كفر راعي.

حتى في قلب الليل، عصيرة الشمالية كانت مفعمة بالحياة كما لو أنها ليلة من ليالي رمضان. الشوارع ملأى بالباعة الجوالين من الأطفال

والنساء، يبيعون على العابرين فيها الماء والشاي والقهوة والحمص والذرة والترمس، ومختلف أنواع الطعام المعد منزليًّا. ومثلما طوَّرت المساحات المحيطة بحواجز التفتيش نظامَها الاقتصادي، كذلك فعلت هذه القرية التي ازدهرت بعدما أصبحت نقطة العبور الجديدة لدى الناس الذين يحاولون مغادرة نابلس أو الدخول إليها. وقد تتغير طريق العبور الجديدة هذه ما إن يكتشفها جيش الاحتلال، ومع ذلك ستظل عصيرة الشمالية نقطة عبور حيوية للعابرين.

وجدت سيرين في هذه البلدة النابضة بالحياة مشهدًا مبهجًا.

الدنيا ليل ومع هيك كانت الشوارع مزحومة بالناس اللي بيغنوا وبيعزفوا وبيتمشوا لحتى يمر الوقت قبل ما يطلعوا قبل الفجر ويكملوا طريقهم في العتمة بعيد عن عيون الجيش. ورغم كل هالتعب والتشديد الأمني على المخارج، ضلَّت الناس تخاطر وتحاول تمرق من ع الحواجز. حواجز التفتيش اللي حطها جيش الاحتلال، والقبضة الأمنية على نابلس، مش حتى ليحموا الصهاينة منا، لأ، حطوها حتى يصعبوا علينا حياتنا ويخنقونا.

واحنا بنمرق ع الحاجز شافونا جنود الاحتلال، والسواق طلَّعنا بره ورحنا نركض. حاولنا نتخبى ورا الصخور والشجر، بس الهليكوبتر كشفت مكاننا.

هالرحلة كلها صوَّرتها بكاميرتي الفيديو.

في شريط الفيديو ستسمع صوت الهليكوبتر من الأعلى، وصوت إطلاق نار قريب. سيرين بصحبة مجموعة من العشرات، منهم طلاب

جامعة مذعورون يحملون حقائب ظهر، رجال كهول يرتدون بناطيل وقمصانًا بنصف كم يحاولون الذهاب إلى أعمالهم، أناسٌ يحاولون زيارة عوائلهم، وآخرون يبحثون عن علاج في نابلس، وهذه الفئة الأخيرة حركتها بطيئة. المجموعة تشتتت والكل انطلق يجري حاملًا روحه على كفّه. وقتها أخفضت سيرين كاميرتها لكن تركت الفلم يدور؛ ستشاهد الصخور والشجيرات، وستشاهد قدميها تتعثران في عجلتها للهروب من قبضة الاحتلال.

ستسمع أنفاسها المتقطعة. رجلٌ سيظهر للحظة وهو يجري. رجلٌ آخر يظهر وهو يصيح «يلا! يلا! امشوا!» وآخر يحاول إعطاء التوجيهات ويساعد الأضعف بينهم على الجري. أنت والجميع تسمعون صوت شفرات الهليكوبتر من الأعلى.

ستشاهد أيضًا الحماس والتردد والضحك على عبثية اللحظة. وستشاهد أيضًا الخوف وتسمعه.

ثم ستجد سيرين نفسها وحدها. سترى جنود الاحتلال يطبقون عليها وستعرف ألَّا طاقة بها للهروب منهم، فتقف في مكانها.

رميت كاميرتي الفيديو قبل ما يقبضوا عليّ حتى لا يصادروها. الجنود اللي أخدوني اتنين، أعمارهم 17 أو 18 . سألوني وين رايحة، ومن غبائي جاوبتهم إني رايحة ع جنين. فش حدا حكى لي عن البروتوكول، إنه إذا انمسكت لازم أكذب على الجنود وأحكي لهم رايحة ع نابلس حتى يبعثوني ع الجهة التانية.

لما مسكوني كنت لحالي وافتكرت إنه أنا الوحيدة اللي قبضوا

عليها. طلّعت جوازي الأمريكي وطلّعت كمان جوازات ولادي، قلت يمكن يخلوني أروح إذا عرفوا إنه عندي ولاد في جنين ولازم أرجع عندهم.

الجندي سألني، «مش خطر عليك تكوني هون؟ ما بتتفرجي ع التلفزيون؟ مش شايفة القتل؟» وجاوبته، «آه شايفة، بس كمان شايفة إنه ممكن يكون في سلام».

«أي سلام؟ هداك اليوم وقع انفجار في القدس».

«إذا بطلتوا تقتلوا الناس في غزة والضفة، رح نبطّل نفجّر فيكو».

«أنت جاية تحكي في السياسة والا جاية تعبري الحاجز؟» عصَّب وسكَّتني. طبعًا هالحكي اللي دار بيننا دار بالإنجليزي، وعرفت من لكنته إنه من بروكلين.

أخدني ورا صخرة كبيرة، وهناك لقيت فوق العشرين واحد قبضوا عليهم في غارة كبيرة على كل الطرق. ضحكت وسألتهم إيش اللي جابهم هون. شرحولي إنه الجنود عم يجمعوا كل الناس اللي بيقبضوا عليها وبيجمعوهم ورا هالصخرة لحتى المغرب. في آخر النهار رح يعتقلوا كم واحد منهم وياخدوهم ع السجن، بس الأغلبية رح يتركوهم. ومن هون لتغيب الشمس، بدهم يستنوا تحت رحمة هالجنود وتصرفاتهم اللاأخلاقية. جندي منهم صار يتنمَّر ع زلمة، وجندي يتعدى بألفاظ خادشة على مَرَة، بيمزحوا على حسابنا وبيغنوا وبيهيصوا. سمعت إنهم أوقات بيفلتوا الكلاب على الناس حتى يفزعوهم ويتفرجوا عليهم وهم يركضوا خايفين منها.

كل واحد كان أصلًا في طريقه ع جنين راح ع جنين إلا أنا، جبروني أرجع ع نابلس مع كل الناس اللي أصلًا كانت في طريقها ع نابلس. بالطريق لقيت كاميرتي، والسواق نفسه اللي تركنا أخدني على عصيرة الشمالية. تاني يوم أخدت طريق مختلفة ع كفر راعي، وهالمرة زبطت.

قضت سيرين يومين في كفر راعي مع عائلتها، من ثم عادت مع ميسون وأولادهما إلى نابلس حيث قضوا عدة أسابيع إلى أن شفيت ساق أبو يوسف. بعدها أخذوا الرحلة المرعبة نفسها عبر التلال، بينما عاد أبو يوسف في عربة إسعاف عبر الشوارع الخاوية.

عاد أبو يوسف إلى كفر راعي ظلًّا للرجل الذي كان. يختلي بنفسه معظم يومه، جالسًا على كرسيه المتحرك في الشرفة، يحدّق صامتًا إلى مقبرة القرية. ما عاد ينطق بكلمة إلا في ردود مقتضبة، يجلس هائمًا في ذكرياته عن زمنٍ سابق، زمنٍ يسبق اعتيادية اليأس وانفطار القلب.

48

أخوي ضياء في غرفتي، وصاحبه واقف جنبه.

أنا نايمة ع سريري، وضياء وصاحبه يحوموا حوالّي، ويعيطوا.

حسيت إنه أبوي فيه شي، قمت ودخلت ع غرفة تانية، وهناك لقيته قاعد ع الكرسي المتحرك، مع ختايرة قاعدين زيه على كراسي متحركة.

فش ولا صوت، غير أصوات دموعهم.

49
2004

سافر أبو يوسف مرةً أخرى إلى أميركا في تشرين الثاني حتى يرى أولاده هناك، سيرين ويوسف وضياء، ولكي يجري فحوصات طبية شاملة. كذلك، احتاج إلى السفر لكيلا يخسر بطاقة الإقامة الخضراء. مكبَّلًا بكرسيه المتحرك، احتاج إلى مرافق لكي يساعده على تخليص إجراءات السفر عبر المطارات.

كل خطٍّ محفورٍ على وجهه خطٌّ يرسم بورتريه الفقد.

ومثل زياراته الماضية، قرر أبو يوسف الإقامة لدى ابنته سيرين في نيو جيرسي. كان يستمتع برفقتها، تملأ ساعات صمته بقصصها وتعيد إليه ابتسامته. ورغم كل الفقد الذي عاشه في حياته، أو ربما بسببه، أضحى قلبه رقيقًا.

«آخ سيرين! سيرين!» صاح أبو يوسف مناديًا ابنته بعد ثلاث ليالٍ من وصوله.

سيرين سمعت الصراخ وظنته كابوسًا.

فتحت عيوني وسمعته بيصيّح عليّ، متت رعبة وفَزيت من سريري ورجلي كانت رح تتفركش. شفت أبوي من فوق الدرج واقع ع الأرض وماسك صدره. كان موجوع كتير ومش قادر يتنفس لما حاولت أحمله عن الأرض. «يابا إيش مالك؟» وأبوي صرّخ قبل ما يغيب عن الوعي «آخ سيرين! قلبي!»

«امسك فيّ يابا!»

عملت كل جهدي حتى أحمله عن الأرض، حملت جسمه المبتور بره البيت وجرّيته ع المنحدر اللي عملناه إله، وركّبته سيارة الفورد.

سقت السيارة ع السريع في الشوارع المعتمة ووصلت ع طوارئ مستشفى برينستون. فورًا طلعت بره السيارة وأنا أصرخ (help! help) وفريق الطوارئ إجوا عندنا وأخدوا أبوي. واحد منهم أخدني ع جنب لأني كنت مرعوبة وأبكي ومش قادرة أسيطر ع حالي. كانت ليلة طويلة، بس بالأخير استقرت حالته، ووضعه صار آمن مؤقتًا.

طلّعوه بعد كم يوم، كان يوم جمعة، وخبرونا نرجع يوم الاثنين عشان يعملوله عملية قلب مفتوح في مستشفى كولومبيا نيويورك. بس على يوم الأحد، نوبة قلبية أخطر وأكبر صابت أبوي، وركضنا فيه ع المستشفى، بس هالمرة حالته كانت سيئة كتير واضطروا يعملوا له إنعاش. وأول ما استقرت حالته، نقلوه ع مستشفى كولومبيا.

هون، زوجي محمد بلَّغ أخوي يوسف باللي صار، ويوسف قال إذا وصل عندنا ولقى أبوه ميّت عمره ما رح يسامحني.

ما كانش بدّي يوصل خبر ليوسف لأني عارفة منيح شو بدّو يعمل.

وصل يوسف تاني يوم، وبعد العملية بتلات أيام طلب ياخد أبوي عنده في أوهايو.

في الأول أبوي رفض وبلّش يصيّح على يوسف، بعدها صار يترجّاه لحتى يخليه معي.

وقفت بوجه يوسف، وهددني إذا ما خلّيته ياخد أبوي معه عمره ما رح يكلمني. أبوي ما قدر يتحمل خناقنا أنا ويوسف، وفضّل يروح معه حتى لا نخسر بعض. «يضل يوسف أخوك ورح تحتاجيه طول عمرك. وإذا أي شي صار لك مع محمد، يوسف اللي رح يوقف معك».

بأواخر كانون الأول، خبّرت محمد إنه ما عدت طايقة كوابيسي، وبدي أروح على أوهايو وأشوف أبوي. محمد رفض وصار يصرّخ عليّ «أنت مجنونة؟! مستحيل! كيف بدّك تاخدي الولاد كل هالطريق بالسيارة؟»

ما اهتمّيت لكلامه. تاني يوم الصبح حملت حالي والولاد، وقفنا عند محل (*ShopRite*)، شرينا مي وأكل خفيف، وسقت السيارة تمان ساعات لحد ما وصلت عند بيت يوسف في أوهايو.

أول ما وصلت انصدمت من وضع بابا الصحي، كان نحفان كتير وجسمه ضعيف، كنت ناوية أرجعه معي بس يوسف عصّب عليّ، «بيلادنا، الأب بيضل عند ابنه مش بنته، من كل عقلك بدّك اياني أسمح لمحمد الغريب يدير باله على أبوي؟»

استفزني بكلامه وعصبت، ولولا المشاكل لعملت خطة أهرّب فيها أبوي وأرجعه ع برينستون معي.

بأول ليلة عند يوسف ما قدرتش أنام، رجليّ تْنَفّخُوا من السواقة. أبوي قضى الليلة ينام شوي بعدين يصحى، ولما يصحى يحكي معي - أو ممكن كان يحكي مع الهوا مش معي. ولا شي من اللي حكاه كان منطقي.

تاني يوم الصبح اشتكى أبوي من التعب، وطلب مني آخده ع المستشفى. واحنا طالعين وقّفني يوسف ومنعني، «يوسف، أنا قطعت كل هالطريق حتى أشوف أبوي وأدير بالي عليه، فش داعي نتقاتل قدامه، الله يخليك خليني آخده».

«لأ، بدّك تضلي هون. أنا خبّرت أصحابي إنك جاية عندنا ورح تعملي لنا مسخن وكنافة. روحي ع محلّي وجيبي بقية الأغراض، تركت لك في المطبخ الخبز والدجاج والبصل. أنا رح آخد الحاج ع المستشفى وأخبرك باللي رح يصير. بدّي أرجع بعد الضهر ألاقيك مجهزة كل شي».

تضايقت كتير والتفتّ على أبوي حتى يوقف بصفّي، بس كان تعبان، وكل اللي حكاه، «يابا، خلوني أموت وارتاح منكم».

راحوا ع المستشفى، ولما صارت الساعة أربعة كنت تقريبًا مجهزة كل شي، بس يوسف ما اتصل! اتصلت على أصحاب يوسف وخبَّرتهم ما يجوا لأنه أبوي مريض، وبعدها أخدتني مَرْت يوسف ع المستشفى.

لما وصلت، سألني يوسف، «شو عم تعملي هون؟» وجاوبته، «بدي أشوف شو صار!»

«ما قدرت اتصل من هون، يلّا! يلّا! روحي ع البيت وديري بالك علـى الولاد».

ردّيت عليه وحكيت له ما رح أطلع من هون، وبدي أقعد مع أبوي. استسلم وتركني ساعتين، ولما خلصت ساعات الزيارة رجع ومنعني أبات الليلة.

تاني يوم الصبح طلعت ع المستشفى قبل ما أي حدا يصحى. كنت كاتبة على ورقة عنوان المستشفى وكيف أوصلها. يخلُّوا عن ربّي كلهم، ما كان بدّي جْميلة حدا فيهم.

أول ما شفت أبوي على طول صار يصيّح، «إيش عملتوا فيني! جوعتوني! تاركيني أربعة أيام لحالي!» صراخه عليّ كان هستيري، والدكاترة قالوا انو ما نام طول امبارح، «أنتِ ويوسف تركتوني لحالي!»

حاولت أقاطعه وأطمنه، «والله يابا ما تركتك، كنت معك طول امبارح وطلعت بالليل، وهيني قدامك أول ما سمحوا بالزيارة».

«لأ! انتوا تركتوني لحالي! ضلوا يسحبوا دمي أربعة أيام، وفش أكل!»

سمعت وجع أبوي في كل صرخة كان يصرخها.

سألت الممرضات ليه هيك حالته، وخبّروني إنه صار معه فشل كلوي، وصِحِي في نص الغسيل الكلوي وهو مفزوع.

فَرجيته التقويم حتى يعرف تاريخ اليوم بس ما فهم عليّ، ورح يهز راسه ولا عرفت شو بدّه. ضليتني معه طول الليل، وطعميته. عطوه مخدر حتى يقدر ينام، وبعدها رجعت لعند ولادي بوقت متأخر.

ماقدرتش أنام لأيام، عايشه ع القهوة وشوية أكل. وبليلة، ع الساعة 4 الفجر، صحيت من حلم. شفت حالي بدوِّر بين الأموات، بفتح الجوارير في المشرحة حتى ألاقي أبوي.

قمت ورحت ع المستشفى بنص الليل، المستشفى كان هادي. طلعت ع الطابق اللي قاعد فيه، وعرفت إنهم أخدوه ع جناح الغسيل الكلوي. قالوا لي بدّه ياخد أربع ساعات، وإذا حبيت بقدر أستنى. واستنيت. حملت القرآن وقعدت اقرأ له.

لما خلصوا، رجعوه ع الغرفة وقالوا لي إنه صار أحسن، الكلى صارت نضيفة وممكن يسرحوه من المستشفى بعد يومين. قعدت جنبه وضليتني اقرأ له سور من القرآن.

لما طلع النهار، ضليتني أحطله كمادات تلج ع راسه حتى تبرّد عليه، كان تعبان كتير. ولما رجعت بوقت متأخر من المسا لقيت وجهه أبيض. أخدوه وفحصوه بالأشعة المقطعية، وخبّرونا إنو صار معه جلطة وهو نايم.

قضيت الأسبوع اللي وراه، ويمكن أكتر، وأنا قاعدة معه طول الليل والنهار. ما كانش قادر يتحرك، وما كانش قادر يتنفس وياكل لحاله، صار عايش ع جهاز التنفس الصناعي والمغذي. قضيت كل وقتي معه وأنا أقرأ له سورة يس والرحمن.

بعد كل هالوقت، كنت محتاجة آخد استراحة من المستشفى لليلة. كانت أسناني بتوجعني وكنت محتاجة أرتاح. وقبل ما أطلع، قرأت الفاتحة لأبوي، وهمست بْدَانُه، «يابا، إمي جاية ع الطريق، هيها

قرّبت. طلعت على عمان وبدها تصير حدّك بعد كم ساعة. سبحان الله يابا، كيف قدرت تصمد كل هالوقت حتى تشوف إمي وتودعها. يابا، حبيبي، أنت رايح عند إياد، إياد بيحبك وهو بيدير باله عليك أحسن منّا كلنا. سامحني يابا، مشان الله سامحني».

وأنا عم أحكي معه حسيته صار يتحرك، تلات مرات.

يوسف قال عني مجنونة وبتوهَّم. حلفت له وما صدقني. قال إنه اللي شفته نتيجة قلة النوم، وأصر إنه أسناني ملتهبة وعم أهلوس من المسكّن. وأنا صدقته. رجعت ع البيت ويوسف أخد محلي جنب أبوي.

ما قدرتش أنام، فقررت أعمل مقلوبة حتى أقضي الوقت. الساعة 2 الصبح شافتني مَرْت يوسف قاعدة، وقالت إنه هلّا كانت تحكي مع يوسف، وإنه مش مرتاح إني مش موجودة بالمستشفى. فقررت أرجع، بكل الأحوال مش قادرة أنام أصلًا. اتصلت على يوسف قبل ما أطلع وسألته إذا أجيب له معي صحن مقلوبة، بس ما حب، قال لي رح ياكل شي خفيف من الكافتيريا. حكيت له إني طالعة من البيت بعد شوي، بس مستنية مكالمة من قرايبنا بعمّان يطمنوني ع رحلة ماما.

ما مرّت كم دقيقة بعد ما سكرت التلفون، إلا ويوسف بيتصل عليّ وبيخبّرني إنه نزل ع الكافتيريا، وأول ما رجع لقى كل شي انتهى.

بـ 13 كانون الثاني، على عمر الستة وسبعين، أبوي، الحاج أبو يوسف، مات.

ولا حدا كان معه في الغرفة. ما كنت معه بآخر لحظة من حياته. ما حدا فينا قاعد جنبه، يمسك إيده لحظة ترك فيها هالدنيا وراح عند ربه.

أبوي خلَّف 13 ولد. وطول ما هو عايش كانت الناس تسأله: «مجنون؟! شو بدَّك تعمل فيهم كلهم؟ كيف بدَّك تربيهم؟» ودايمًا أبوي كان يجاوبهم، «بدِّي إياهم يكونوا حواليّ لما أموت». على شو خلَّفتنا كلنا يابا؟ وين كنّا؟ وفوق هاد، اندفن أبوي بأرض غريبة. يوسف قال إكرام الميت دفنه، ولازم ندفن أبوي بسرعة. وهلّا ما حدا فينا قادر حتى يزور قبره. إذا بدنا نزوره لازم نطلع على أوهايو، وأنا بِكْرَه أوهايو؛ بِكْرَه كل شي في أوهايو.

أبوي كان الرجّال الوحيد في القرية من غير رِجْلين. ابنه شهيد، واشتغل كل حياته حتى يبني لنا بيتنا، وشاف بيتنا ينهدّ بلحظة. وبعد كل هاد، يموت هيك؟ ما بتصوّر حدا عاش مظلوم قد أبوي، إنك تعيش حياة الشقا والتعب والحزن، وتعطي كل اللي عندك، وبعدها تموت لحالك.

أبوي طول عمره قلبه حنون. عمره ما صرخ ع حدا فينا؛ ترك كل واحد فينا يعيش حياته وخياراته. ورغم كل المآسي والصعوبات اللي عاشها، عاش حياته والناس كلها تقدره وتحترمه، وإياد هو اللي عطاه هالشي. صحيح إياد هو اللي صعَّب حياة أبوي وجرّ عليه الشقا، بس مع الشقا عطاه الراس المرفوع.

العودة

مكتبة
t.me/soramnqraa

ما عدنا في شباط 2005. سيرين ما عادت ترتدي الأسود حدادًا على أبيها، وأنا ما عدت أسجِّل ذاكرتها في حديقتها الداخلية، أحتسي معها كاسة الشاي بالميرمية. فقد تركتُ المكان، رحلتُ عن نيو جيرسي منذ زمن بعيد. وقصةٌ كهذه، قصةٌ دارت رحاها على مرِّ عقود من الزمن، لا يمكن اختزال سردها في مكانٍ واحد، في زمنٍ واحد.

نحن في العام 2014، الشهور تمضي قدمًا.. قدمًا.. قدمًا.. الشهور استحالت أعوامًا.. 2019.. 2020.. 2021. وفي غضون ذلك، في غضون ذلك، عاشت غزة ثلاثة حروب رسمية وحروبًا أُخَر يرفض التاريخ تسميتها؛ حصار غزة يتواصل؛ آلاف الفلسطينيين اعتقلوا تحت سياسة الاعتقال الإداري؛ مئات قُتلوا في غزة على يد قناصة في مسيرة العودة الكبرى؛ السفارة الأمريكية انتقلت إلى القدس؛ جدار الفصل العنصري حول الضفة الغربية اكتمل؛ آلاف أشجار الزيتون اقتلعت ولا تزال على يد المستوطنين الصهاينة؛ المستوطنات الصهيونية تواصل مصادرة الأرض الفلسطينية؛ محمود عباس لا يزال يقبض على

كرسي الرئاسة، مؤكدًا أن السلطة الفلسطينية ليست أكثر من أداة أمنية في يد الاحتلال. وخلال كل تلك الأعوام، لا يزال الفلسطيني يقاوم بأي طريقةٍ متاحة لديه - بالسكين، بالحجر، بالقذائف البدائية الصنع، بالسلاح المحدود، بالفن والموسيقا، بالقانون، وكذلك بتأسيس حركة مقاطعة قوية، والدعوة إلى إرساء العقوبات.

وعلى مرّ مواسم الموت والحياة هذه، واصلت سيرين حياتها في برينستون. باتت تراه مكانًا كئيبًا رغم الشمس التي تغدق ضياءها على البيت، رغم الأرض المحيطة التي زرعتها سيرين بحيث تحاكي ذاكرتها عن أرضها في فلسطين. سيرين امرأة مطلقة الآن. زوجها هجرها وهجر أولاده ذات يوم في 2007، تاركًا باسل مع أخته في البيت، بينما سيرين خارج البيت ترافق زيد في تمرين كرة القدم. غادر البلدة وغادر البلد بأسره، وسافر إلى أخيه في السويد. لم يعلمها بذلك إلا حين ركوبه الطائرة، وستمر أعوام قبل أن يرى أطفاله من جديد. سيرين كانت سعيدة بالتخلص منه، لكن الحياة اشتدت صعوبةً. فقد تركها مع ديونه، واضطرت إلى محاربته في المحكمة لكي يدفع لها ولأولادها النفقة. ما عادت موظفة في الأمم المتحدة، هي الآن معلمة تاريخ.

في كفر راعي، لا يزال اسم إياد يتردد صداه. أجيالٌ جديدة من المقاومين تسمّي خلاياها تيمنًا به. بعد عقدٍ ونصف من الزمن، سيُكشَف عن أسماء العملاء الذين يُزعَم أنَّ إياد كتب أسماءهم في وصيته الأخيرة - الوصية نفسها التي حلمت بها سيرين.

وحياة عائلة صوالحة ستستمر، يقطع عليها بين الحين والآخر عنف الاحتلال الاستيطاني الكولونيالي. ففي الأعوام التي مضت منذ استشهاد إياد، اعتقل جيش الاحتلال بهاء وحكموا عليه بالسجن ثلاث سنوات، بعدها أطلقوا سراحه. اعتقلوا أرسلين، قضت سبعة شهور في السجن، ثم أطلقوا سراحها. قصصهم وقصص بقية الأشقاء، قصص أم يوسف وأحفادها، ستنزلق عن صفحات هذا الكتاب، لعلَّ يعيد سردها راوٍ آخر.

لقاءاتي بسيرين قلَّت وتيرتها، لكن لا يمر لقاء إلا وتخبرني أنَّ آلاف الشكوك لا تزال تطاردها حول موت إياد، وإلى اليوم تشكِّك في دوافع مريم للزواج به. والد مريم لديه تفسيرٌ مباشر. يقول إنَّ ابنته كانت صبيّة يافعة تبحث عن المغامرة، ووجدتها في إياد؛ فهي تعرف أنه ناشطٌ سياسي لكنها لم تدرك إلى أي مدى. الآن وقد تزوجت به، وهو استشهد، فقد أشبعت حاجتها إلى المغامرات.

شكوك سيرين تعوق محاولتها المضي قدمًا، وترك ما حدث وراءها. إلى اليوم لم تتخلَّ عن استعادة الأسابيع الأخيرة من حياة إياد في ذهنها.

وقتها كنّا كلنا مقاطعينه. أبوي وإمي هدَّدوا يتبروا منّه، وبطّلوا يشوفوه بعد ما تزوّج من مريم. آخر مرة حكيت معه كان في آب، وبهديك المكالمة تقاتلنا أنا وياه عشان زواجه، ومن يومها ما عاد حكينا مع بعض. حتى لما كنت أحكي مع أبوي وإمي بطلت أجيب سيرته عشان لا يزعل أبوي وينحرق دمُّه ويبلش يصيِّح، عنده سكّر وما كانش بدي أزيد الهمّ عليه.

إياد حارب كرمالنا كلنا، ولما مات مات لحاله. قلبي موجوع بالذنب اللي حاملته. كيف هيك ما رجعت اتصلت عليه؟ كان دايمًا حريص يخليني أعرف قدّيش هو مشتاق لي ومشتاق يسمع صوتي وقصصي. كنا نحكي تقريبًا كل أسبوع. بس ساعة ما احتاج إلي، في آخر أيامه تحت الحصار، مش بس كنت غايبة، كنت كمان زعلانة منه.

تطرق سيرين برأسها ثم تنظر إليّ، على عينيها لمعةٌ تذكِّرني بالسكينة على سطح بحيرة هادئة. في صوتها إدراكٌ متأخر أنَّ ما كان ليكلِّفها شيئًا لو أظهرت حبَّها لإياد في تلك اللحظات الصعبة.

كنت حريصة أبعت بطاقة تهنئة لكل حدا من عيلتي بيوم ميلاده، لإمي وأبوي ولكل اخوتي واخواتي وولادهم وبناتهم. كنت أبعت لإمي بطاقة في عيد الأم. بس بعد ما دخل الموت حياتنا بطّلت أبعت لحدا. لما يصيبك الموت ويكسرك ويحطّم روحك، بيحطّم عيلتك، والبطاقات ما بتعود تحمل أي معنى. بتصير تكتم مشاعرك.

ما بعرف إذا صرت هيك فجأة والا شوي شوي.

فبطَّلت أبعت لحدا أي بطاقة، بتذكّر أعيادهم ومناسباتهم، بس ما عاد عندي قلب أشاركهم فرحتها. بس يمكن لازم أرجع أشاركهم، يمكن الموت مفروض ما يكسرنا، بالعكس يقرّبنا من بعض. أخوي إياد مات لحتّى يخلينا كلنا أقوى. صدقني بتمنّى لو كان سهل عليّ ارجع ألمّ حالي من جديد، بس كل ما بفكّر بحياتي اللي بعيشها اليوم، بلاقيها بلَّشت من الموت.

أعود إلى فلسطين مع سيرين. وفي هذه الزيارة الأخيرة التي تجمعنا معًا، أمشي أنا وهي أسفل طريقٍ موحل، ونمر في مسيرنا على بيوت قديمة قريبة من وسط كفر راعي. ما إن نقطع نصف الطريق نقترب من بوابة حديدية، طلاؤها الأخضر باهت، تناضل لكي تتشبث بمفاصلها الصدئة على يد الزمن. وعلى البوابة، تتكئ شجرة ياسمين وحيدة في الشارع الأسمنتي، ومن خلفها حوض مغسلة مكسور، أحجار طابوق متناثرة، وذكريات المكان حيث بدأت حكاية سيرين.

أقف أمام البوابة الحديدية في حر الصيف القائظ. أغمض عينيّ وأرى الحياة تعود، أرى أطفالًا يضحكون، وشابًّا يافعًا يهرع خارج الباب الخلفي نحو الوادي.

بعدها يسرح عقلي، أسمع أصوات دكّ الحجر، رئتاي تمتلئان بالغبار.

سيرين واقفة إلى جانبي، تقف وجهًا لوجه أمام بقايا بيتها. حكايتها لم تنتهِ بعد.

أقول لها، «قَدَرُنا المقاومة». تومئ إليّ ولا تقول شيئًا.

أستحضر ما قاله جيلو بونتيكورفو عن الدرس الذي تعلمه من ثورة التحرير الجزائرية: ما إن تندلع حرب التحرير، رغم كل النكسات والهزائم التي ستلقاها، ستظلُّ قوةً جارفة لا يمكن لأحد الوقوف أمامها. أشبه بنهرٍ ينزاح تحت الأرض فيظنه الناس قد اختفى وتلاشى، لينبثق متفجِّرًا في لحظة ويعود إلى البحر.

واليوم، مثل النهر، تنبثق المقاومة في جنين، على الأرض التي شهدت معركة إياد الأخيرة، المرة تلو المرة، والكل عاجزٌ عن إخضاعها.

مع ذلك، يظل ألم فقدان الأخ، الابن، يستحق وقفة صمت أمام هذا الصمود.

فش أب ولا أم بيتمنوا يشوفوا ابنهم شهيد. ولو رجع الزمن بأبوي وإمي بعد ما عرفوا دور إياد بالمقاومة كانوا كسّروا إيديه وإجريه. لهالدرجة موت أخوي وجعهم.

نعود أنا وسيرين إلى بيت العائلة الجديد، ونجلس برفقة أرسلين. كانت تفسِّر لنا كيف أنَّ المصائب لا تأتي فُرادى، بل تجلس جنبًا إلى جنب في بانوراما بشعة متنافرة. وجَّهت حديثها إليّ، بقلبٍ ملتاع، عن فقد أخيها وفقد بيتها في نَفَسٍ واحد، فخيوط الخسارتين متشابكة. «موت إياد، الله يرحمه، كان صعب علينا كتير، بس خسارة بيتنا كمان كانت صعبة كتير. إحنا كبرنا في هداك البيت، عشنا فيه وعطيناه كل إشي. كل إشي نملكه كان في بيتنا، كل ماضينا وذكرياتنا».

كانت تحاول بكلامها معي أن توصل إليّ فكرة، أنَّ في عالمٍ عازمٍ على سرقة أرضهم ومحو تاريخهم، فالبيت، بأساسه المتواضع، أكثر من مجرد بيت، كان بُنيَةً في آلية صمودهم. «لما بحلم، بحلم انه لسّاتنا عايشين في بيتنا القديم»، أفصحت لي بينما سيرين تصغي وتومئ، «وكتير مرات بحلم إنه رجعنا عليه ولقيناه زي ما هوّ».

في اليوم التالي أزور مع سيرين قبر إياد، حيث أصبح ترابًا باقيًا في أرضه وأبدًا لن ينفكَّ عنه. لدى وصولنا، أدركت أنّي الآن أقرب ما أكون إليه.

نمضي نحو المقبرة، نسير معًا على النزلة من دار العائلة الجديدة في

اتجاه الطريق الرئيسية المؤدية نحو القرية. ومن هناك، نقطع الشارع بين بيتٍ زهريّ وأرضٍ مسوَّرة حديثًا، زرعت فيها مؤخرًا أشجار الكرز والزيتون.

كل البيوت حولنا جديدة. نقف الآن على نواحي القرية، وتتذكر سيرين الأعوام التي عاشها إياد مطلوبًا، كيف كانت هذه الأرض لا تزال بريَّة، لا أراضٍ مسيّجة ولا عُمران. والآن لا نستطيع أنا وإياها عدَّ البيوت الجديدة التي زحفت بالعمران إلى حدود القرية حتى حوَّلتها إلى بلدة.

نقطع طريقًا آخر، طريقًا من عدة طرق مرصوفة في الأعوام القليلة السابقة، وتلك الطرق وسَّعت مداخل البلدة وغيرت معالمها. نصل إلى المقبرة في الحارة الشمالية من كفر راعي، وهناك وجدنا شجرة شبه محروقة، وشجيرات كثة، وأحجار طوب منتثرة بلا أي غاية. أتلفَّت حولي لعلَّني أرى شقائق النعمان، لكن الوقت صيف، وتلك الأزهار امتزجت بتراب الأرض الآن.

ما إن ندخل، أسمع سيرين تقول، «أنتم السابقون ونحن اللاحقون». المقبرة محاطة بسياجٍ لم يكن موجودًا قبل عدة سنوات، حينذاك كانت أرض المقبرة منبسطة على ما حولها بلا حدود تفصل موتاها عن أراضي الأحياء. لكن الآن علينا أن نلتفَّ حول السياج لكي نصل إلى قبر إياد، وقبور الشهداء منفصلة لا تختلط بقبور بقية الأموات. نرى على أحد الشواهد إكليل زهرٍ تركه أحدهم منذ وقتٍ ليس بطويل. الأزهار ذبلت، لكن الإكليل لا يزال على حاله دون أن يَمَسَّه أحد. نقف أمام قبر إياد، وعلى

قبره شاهدان. أحد الشاهدين ينعيه شهيدًا من الجهاد الإسلامي، مهندس السيارات المفخخة، أسطورة في قيادة العمليات الاستشهادية، وقائدًا في سرايا القدس استشهد في التاسع من تشرين الثاني 2002. النقش على الشاهد الآخر مختصر وتقليديّ، ينعيه «الشهيد البطل إياد أحمد يوسف صوالحة، استشهد في الرابع من رمضان 1423هـ».

أقف ثابتًا في مكاني بينما تدنو سيرين من قبر إياد. القبر المستطيل ينتأ عن الأرض، حوافه مكسوَّة بالرخام، والرخام منقوشٌ بالآيات القرآنية. أعلاه بلاطة أسمنتية مسجًّى عليها تقدمة الطبيعة من غبارٍ وغصينات.

تركع سيرين، تضع الهاتف المحمول جانبًا، وبإحدى يديها تمسح الغبار عن قبر أخيها بحنان، تفرك راحتيْها وترفعهما للدعاء، تقرأ الفاتحة على روح أخيها ثم تمسح وجهها بالغبار العالق على كفيها. أتأملها وهي تمارس هذه الطقوس، نظارتها الشمسية السوداء تحجب عَقْدًا من الفقد.

ما إن تختم دعاءها تمسِّد ألواح الرخام، ثم تقبض على حفنةٍ من تراب وتفركها بين يديها، هذه المرة تفركهما بشدّة، كما لو أنها تحاول الامتزاج بالأرض، ويساورني الشعور أنها تحاول التواصل مع أخيها. بعدها تكمش عددًا من الغصينات وتدعكها برقّة، وحين تلحظ وجودها بكثرة، تزيحها كلها عن البلاطة بيدها.

تقف وتمضي بعيدًا عن القبر، وأجدني أستشعر هذه اللحظات على أنها صمت؛ بينما هي تعيشها سمفونية ألم. أسير معها، أنتظر عقلها وقلبها يلمّان شتات الكلمات في وجه الريح.

كان في مصطبة هون نقعد عليها جنب أخوي، التوليب وإكليل الجبل والورد يحاوطوا قبره، بس أخوي يوسف صار متديّن وطلب يقلعوا الزريعة كلها، حكى إنه ما بنقدر نميِّز إياد عن بقية الشهداء. أصلًا مع زيادة عدد الشهداء كانوا رح يقلعوا الزريعة بكل الأحوال حتى يأمنوا مساحة للقبور.

إذا وقفت في المقبرة، سيصعب عليك تمييز نهاية قبرٍ عن بداية قبرٍ آخر، باتت القبور أشبه بالبيوت في قصبة جنين أو القدس أو نابلس. ثمة رفقةٌ حاضرة في هذا القرب، في هذا الغياب للحدود الواضحة؛ أنظر حواليّ ويداهمني الشعور أنَّ الشهداء جسدٌ واحد.

بعد خطوات أرى قبور فؤاد الأشقر وجلال العريس ومحمد كمال يحيى، من أوائل شهداء القرية بعد عام 1967، قُتِلوا على يد الاحتلال في 1988.

نتفيَّأ تحت ظل شجرة زيتون زُرِعت قبل عشرات السنين. أرفع هاتفي المحمول لكي أسجّل هذا الفصل، وأجدني أعيش ما أراه من خلال فلتر الشاشة. فاجعةُ الفقد حولي مهولة، أستشعرها في صمت المقبرة، في حفيف الأوراق، في تكسُّر الغصينات الهشّ تحت أحذيتنا.

تتلفَّت سيرين حولها، ثم تشير إلى شاهد قبر محمد بسام أبو عمشه.

إمّه كانت معي في المدرسة، كنّا بنفس الصف. طخُّوا ابنها وتركوه ينزف تلات أربع ساعات لحد ما مات.

ثمة خمسة عشر شهيدًا من قرية كفر راعي إلى جانب إياد صوالحة ومن ذكرتهم سالفًا. دعني أتلو عليك أسماءهم:

يوسف صبيح

سلامة صبيح

أيمن صبيح

محمد عبدالله يحيى

زياد صبيح

جميلة ملحم

ياسر صوالحة

يسرى صوالحة

أحمد يحيى

عماد الشيخ إبراهيم

شادي ملحم

طارق أبو الشوارب

محمد ذياب

محمد جوابرة

نبيل طافش

سيرين غارقةٌ في الصمت. العديد من ذكريات شبابها تشابكت مع الفقد، واللحظة تستذكرها وهي واقفة في فيء شجرة زيتون في مقبرة كفر راعي الشمالية.

تلقي نظرة أخيرة على أخيها. وأقف أنا في لحظة صمت حدادًا على رجلٍ بتُّ أعرفه ولا أعرفه.

تتأمل الحجة أم يوسف القرية من نافذة بيتها الجديد أعلى التل. أدَّت صلاة الفجر للتّو، وقريبًا ستشغل نفسها بالاعتناء بحديقتها الخلفية. الأرض التي اعتادت أم يوسف زرعها، الواد والحواكير، الأرض التي قضت سيرين طفولتها تحرثها وتفلحها وتركض عليها، القوة الدافعة وراء الحكاية وروح هذا الكتاب، باتت الآن مهملة جافة منسيَّة. الأشجار التي حملت ثمار العائلة لا تزال صامدة تحت شمس الصيف، وأحيانًا قد تلمح فراشة بيضاء أو تسمع نداء نقّار الخشب وطرْقه، لكن الأشجار في حاجة ماسة إلى من يرعاها. غير أنَّ أم يوسف ما عاد لديها ما تمنحه من نفسها لأرضها. حركتها بطيئة، وبالكاد تجد سببًا لرعاية الأرض والاعتناء بها.

إمي صارت تقضي معظم السنة بين جدة ودبي؛ وين ما اخواتي الكبار عايشين. أوقات بتسافر ع روسيا عند أخوي إيهاب، أو على أميركا حتى تزور يوسف وضياء وتزورني. بس بسنويّة إياد لازم تكون بفلسطين حتى تزور قبره وتشرف على حصاد الزيتون.

مع شتات عائلتها، ما عادت حياة الحجة أم يوسف كما كانت. مع ذلك، دومًا ستجدها تتوق إلى موسم الصيف، لأنه موسم العودة.

طيب وأنا؟ أنا شو بإيدي أعمل؟ أوقات بحس حالي عم أعيش حياتي مع غصّة بزوري، مع وجع في قلبي، وهالوجع ينزل ع بطني، مغص أبدًا ما بيحلّ عني.

ما بعرف إذا حكايتي اللي حكيتها إلك عن أخوي وأرضي رح تساعدني؛ ما بعرف إذا كل هالحكي اللي حكيته، وصدقني ما حكيت لك نص اللي صار، رح يساعدني.

اللي بعرفه إني لهلّا مش راضية.

البوابة 2021.

المصدر: ألبوم العائلة

شكر وامتنان

أولًا، وقبل كل شيء، أشكر أم يوسف وعائلة صوالحة. فتحتم لي بيتكم واعتنيتم بي بمنتهى المحبة طيلة وجودي في فلسطين، واحتملتم بصدرٍ رحب طلبي وطلب سيرين الاستماع إلى شهاداتكم. آمل أن أكون قد أوفيتكم حقكم في السرديَّة التي اخترتُ من خلالها مشاركة قصتكم وتمثيلكم. سيرين تود أيضًا شكر أبنائها، باسل وزيد وسلمى، قد كنتم خير معينٍ لأمكم في كل اللحظات الصعبة التي مرَّت بها في حياتها، شجعتموها ودعمتموها، وناقشتم هذا المشروع معها على الدوام، دون كللٍ أو ملل، كما لو كنتم تربّون طفلًا رابعًا معكم.

في برينستون، أود أن أشكر رينا ليديرمان، أسلوبها البحثي غرس البذرة الأولى لهذا المشروع قبل نحو عشرين عامًا. كما أشكر أصلي بالي ونسرين سلطي اللتين عرفتاني إلى المجتمع الفلسطيني في برينستون، وعبدالله حمودي الذي شجعني على متابعة المشروع. كما أشكر ريما قاسم التي عرَّفتني على سيرين؛ وهلال طه، العزيز هلال، من رحَّب بي في بيته، ومن سأظل أتذكَّر وجهه وروحه إذ توفي بعد أعوامٍ قليلة من لقائنا.

إسراء المفتاح، ورنا بركات، وستيف كايتون، وإيبوني كوليتو، وسينثيا فرانكلين، ولاله خليلي، وشيرين صيقلي، وليزا تراكي قرأوا المسوّدات الأولى من هذا الكتاب وأمدّوني بملاحظات قيّمة، كما أمدّوني بالثقة وشجعوني على مواصلة الكتابة. ملاك المانع وزينة عجة، طالبتان سابقتان في جامعة نورثوسترن في قطر، والباحثتان المساعدتان اللتان تولّيتا عملية تفريغ التسجيلات المرهقة؛ لا أعرف إن كنت سأستطيع البدء في عملية الكتابة لولاهما. وِصال تولّت العمل الميداني في فلسطين والبحث عن أمهات الشهداء وأناس آخرين. سحر فرانسيس ساعدتني على تقفي أثر الوثائق وفهم الإجراءات القانونية المرتبطة بالمعتقلين. سارة سعد ترجمت مدونات السجن الموجودة في عهدتي. ندى دلول صمّمت شجرة العائلة. عبدالله العريان، وخالد الحروب، وهالة عليّان، ودبورا بتّاليا، وسابين الشمعة، وعمر ضاحي، وغسان الحاج، وأماني جمال، وأنجالي كامت، وداريل لي، وإسماعيل الناشف، وناديا سبيطي، الكل شجعني ودعمني بمختلف الطرق في خلال هذه الرحلة. وأشكر مجموعة الالتزام بالكتابة: منى دملوجي، وجيا-تشنغ تشين، وألدا بنجامين، وأربيلا بيت شليمون، وهيلاري فالب كاليسمان، وبريجيت غوراشي، وجينيفر تكِر، وشونا يانغ ريان، المجموعة التي أبقتني بإبداع على مسار الكتابة اليومية. وأشكر إيما بورخس-سكوت وجاي بلوتشر من حرَّرا المسوّدات الأولية، وأشكر أدريانا سميث على عملها المذهل في التحرير اللغوي. وأشكر لوري ألين التي أوصلت المخطوطة إلى الاكتمال من خلال عينها الثاقبة في القراءة، وعنايتها الفائقة، والاحترافية المذهلة في التحرير (استعن بها إن كنت تبحث عن محرر مذهل!). وبالطبع

أشكر كيت وال في منشورات جامعة ستانفورد لإيمانها بهذا المشروع ومنحه الكثير من وقتها؛ لولاها لظلَّ هذا الكتاب في حاسوبي المحمول.

وأود هنا بالذات التعبير عن حبّي وامتناني العظيمين لوالديّ، سمير وڤيلما، لدعمهما إياي في كل خطوة اتخذتها خلال كل تلك الأعوام. كما أود الاعتذار منهما على القلق الشديد الذي تسببت به لهما كلما سافرت إلى فلسطين.

ختامًا، لكان من المستحيل أن يصدر هذا الكتاب لولا ديالا حاوي. لقد عشتِ وتنفستِ هذا النصَّ معي - تفكرين معي، تلمّين شتات أفكاري، تحرّرين النص سطرًا سطرًا، تشكّلين الكتاب، وفي النهاية منحتني العنوان. كلمات الشكر كلها لا تفي الوقت والجهد اللذين بذلتيهما، لكني آمل أن يعوّض حبي إياك شيئًا من حقك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

سامي هرمز

مدير برنامج الآداب الحرة وأستاذ مشارك في قسم الأنثروبولوجيا في جامعة نورثوسترن في قطر، ومؤلف كتاب «الحرب قادمة: بين عنف الماضي والمستقبل في لبنان» (2017). يجسد عمله، داخل قاعة الدرس وخارجها، التزامًا عميقًا بقيم الحرية والعدالة والمساواة. تمتد جذور عائلته المهاجرة عبر بلاد الشام، من القوش وحلب إلى بيروت والقدس. ويقيم حاليًا في الدوحة مع أسرته.

سيرين صوالحة

كاتبة وراوية حكايات ومعلمة تربوية فلسطينية-أميركية، وناشطة في حقوق الإنسان. ولدت في قرية كفر راعي بفلسطين وتستقر اليوم في نيوجيرسي. تشكّلت حياتها بين تجارب المنفى والعودة، وعلى إيقاع الأرض المتجذّرة في أعماقها، بدءًا من كروم زيتون عائلتها في فلسطين إلى أشجار التين والزيتون التي ترعاها بحب في حديقة منزلها الأميركي. حازت شهادتي البكالوريوس والماجستير في الدراسات الاجتماعية، وكرّمتها جامعة كورنيل عام 2022 تقديرًا لإسهاماتها المتميزة في التعليم. في كتابها الأول تحكي سيرين قصة الصمود في وجه الشتات، بسردٍ دافئ مفعم بالإيمان، وبهويةٍ راسخة لا تتزعزع.

يتصدَّى كتاب «أخي وأرضي: حكاية من فلسطين» بقوة لجميع المحاولات التي تسعى إلى تهميش الفلسطينيين واختزالهم في دور الضحايا العاجزين. إذ يسلِّط هذا السرد الشخصي لتاريخ فلسطين منذ النكبة الضوء على كيفية مواجهة النفي القسري والاضطهاد المنهجي، ليس فقط بالغضب أو الاستسلام، بل أيضًا بالتضامن واللطف، وقبل كل شيء، بالحب. رغم ما تنطوي عليه هذه القصة من وجع الغربة وقسوة الواقع، فإنها تُبقي شعلة الأمل حية، إذ يظل النضال متواصلًا دون كلل حتى يتحقق الحلم بالتحرير الكامل.

إيلان پاپيه، مؤرخ وأكاديمي

*****

كتاب «أخي وأرضي: حكاية من فلسطين» ثمرة تعاون أدبي وإنساني بين سيرين صوالحة وسامي هرمز، أعادا من خلاله سرد سيرة عائلة صوالحة الفلسطينية، بدءًا من نكبة عام ١٩٤٨ وصولًا إلى الزمن الحالي، في إطار يجسِّد رؤية معمَّقة وشمولية للقضية الفلسطينية.

يتميَّز النص بتقنياته السردية المركَّبة، ما بين سرديَّة الذاكرة الشخصية والتوثيق البحثيّ، حيث تُستكشَف قضايا الهوية، والمنفى، والانتماء، في فعل مقاومة ضد محاولات طمس السردية الفلسطينية من الذاكرة الجماعية.

في عام ١٩٩٩، لدى زيارة سيرين شقيقها إياد الأسير في سجن عسقلان، نادى عليها قبل مغادرتها السجن: "مشان الله سيرين ما تنسيني".

وهذا الكتاب هو الدليل الحيّ أنَّ سيرين لم تنسَ.

المترجمة

سامي هرمز سيرين صوالحة

أخي وأرضي
حكاية من فلسطين

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
9 789921 808797
www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com